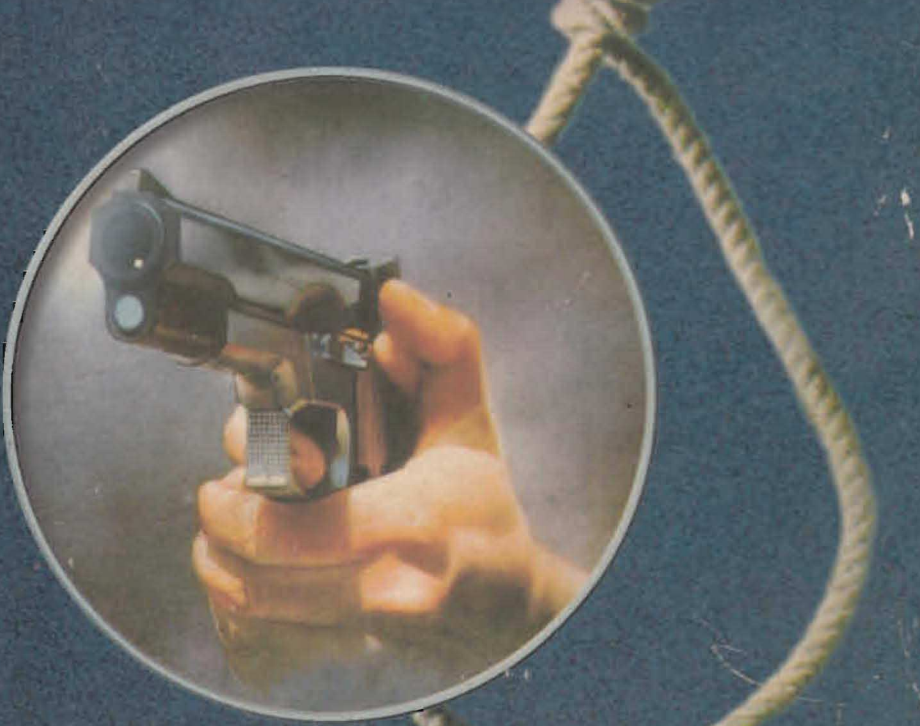
موسوعة تاريخ الإعدام السياسى فى مصر

عبد الحكيم العفيفى



مدبولى الصغير

عبد الحكيم العفيفى

موسوعة الاعدام السياسى

مدبولى الصغير

موسوعة تاريخ الإعدام السياسى فى مصر

الناشر : **مكتبة مدبولى الصغير**
٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز
تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ . ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥
رقم الإيداع : ٩٧/١٥٣٧٤
الترقيم الدولى : 2 - 039 - 286 - 977

الطبعة الأولى

تصميم الغلاف : **كامل جرافيك**
خطوط الغلاف :

مراجعة لغوية : سيد عبد المعطى
الصف والإخراج الفنى : كريم كمبيوتر

موسوعة تاريخ الإعدام السياسى فى مصر

عبدالحكيم العفيفى محمود

الناشر: مدبولى الصغير

المقدمــة

- ١ -

الصراع بين البناء والهدم صراع أبدى معروف.. وهو صراع لا يتوقف على مظاهر العداء والكراهية والبغضاء التى نشاهدها بين الأضداد والخصوم والأعداء من بنى البشر فقط.. ولكنه يشمل كذلك أعضاء من ذات القبيلة الواحدة والعائلة الواحدة والوطن الواحد.

ويبدو أن تلك العدوانية راجعة إلى أن الحاجات والغرائز (وبالتالى الأفكار والسلوك) لدى المتصفين بالتهور والاندفاع أقوى من دوافع المحبة والرحمة والتعاون.. فهناك صراع بين غريزة الحياة والحب Eros، وغريزة الهدم والموت Thenatos، وهو صراع ناتج عن نوعين من العواطف: الأولى بناءة والأخرى هدامة، تعمل كل منهما ضد عمل الأخرى فى ظاهرة من أهم وأعجب ظواهر النفس البشرية وهى ظاهرة التناقض الوجدانى Ambivalence.

ولقد أثرت تلك الظاهرة فى آداب الثقافة العالمية، فأوضحها لنا واحد من أكبر العقول الأدبية فى العالم وهو الأديب الروسى ديستوفسكى فى صراع الأشقاء فى روايته الخالدة «الإخوة كرامازوف»، حيث ظهر لنا من بين الإخوة شخصية خيرة (اليوشع) وشخصية شريرة (سمردياكوف) ذلك الشرير قاتل أبيه الفعلى بالرغم من أن شقيقه إيفان كان هو الذى قد هيأ له الأمر عقلياً لتنفيذ الجريمة.

- ٢ -

إن تلك العداوة التى تصيب بعضاً من بنى البشر كل يوم، لا يجب أن تدفعنا لليأس أو للدهشة (وإن اعترفنا بشعورنا بالحزن والألم) عندما نراها تحدث بداخل البنيان السياسى للدولة وتتجسد فى ظاهرة خطرة هى ظاهرة العنف السياسى.

فالعنف السياسى ليس إلا خللاً فى «فكر» معتنقيه وخاصة إذا كان عنفا فردياً يرفضه التيار العام من الناس.. ولهذا فعلينا دائماً أن نتحلى بالثقة التامة بأن ذلك العنف الفردى مقضى عليه بالفشل.. فلم نقرأ على مدى تاريخ البشر أن مجتمعاً من المجتمعات قد تغير بالعنف الفردى، لأنه طالما بقيت الكتلة الكبرى من المجتمع سليمة فإن العمل الفردى لن ينالها بأذى.

- ٣ -

ولما كان العنف السياسى يعقبه القصاص من المعتدى.. فإن ظاهرة هامة من ظواهر ذلك القصاص، وهى ظاهرة الإعدام السياسى، لم تلق اهتماماً تاريخياً يذكر على مستوى الفكر البشرى إلا منذ القرن الثامن عشر عندما غيرت الثورتان الأمريكية والفرنسية من مفهوم العلاقة السياسية بين الطبقة الحاكمة وخصومها السياسيين.. ومنذ ذلك الوقت أخذت الدراسات والأبحاث الاجتماعية، وخاصة تلك التى ترتبط بعلم الاجتماع السياسى تنظر إلى ظاهرة الإعدام السياسى على أنها ظاهرة طبيعية حدثت فى كافة المجتمعات، وهى مشروعة طالما قضى بها القانون وحكمت بها محاكم مختصة تتصف بالعدالة.

أما من وجهة النظر التاريخية، فتاريخ الممالك والأمم ممتلىء بإعدامات سياسية لا حصر لها، نفذ أغلبها فى عجالة وبدون سند من قانون مكتوب أو محاكم مختصة، كتلك التى حدثت مثلا فى أعقاب ثورة العبيد الكبرى فى روما بقيادة هرقل والتى نتج عنها إعدام خمسين ألف ثائر!

ولا شك أن الأحداث تعطى الباحث فى تاريخ الحضارة البشرية انطباعاً لا خطأ فيه من أن معظم العصور التاريخية الماضية التى عاشها البشر لم يكن يحكمها إلا صراع مرير طويل بين القوى والضعيف دون سند من شريعة أو قانون أو أخلاق باستثناء فترات قليلة سادت فيها العدالة والرحمة والرأفة واحترام الحياة التى يملكها الخالق العظيم وحده.

أما فى العصر الحديث، فنرى أن ظاهرة الإعدام السياسى قد خضعت لسيادة القانون وإنشاء المحاكم التى سمحت فيها للمتهمين بحق الدفاع عن النفس، مما يعطينا الدليل على أن أغلب ما أصدرته المحاكم فى العالم بخصوص تلك الظاهرة كان مشروعاً وصادقاً وصحيحاً ومتفقاً مع القوانين التى تقتص من المجرمين.

- ٤ -

إن دراسة تاريخ ظاهرة الإعدام السياسى فى مصر - كأقدم مجتمع بشرى - يمدنا ليس فقط بعدد هائل من حالات الإعدام وطرق تنفيذها وسرعة تتابعها.. ولكن كذلك يظهر لنا تاريخ العنف السياسى فى مجمل تاريخ مصر، حقبة فى أعقاب حقبة، وعصرا وراء عصر وعلى امتداد ما يزيد على خمسين قرناً من الزمن.

والإعدام السياسى كما سنرى كان ينفذ عادة على أعداء الخارج الذين سعوا مراراً لغزو مصر والسيطرة على ثرواتها وحضارتها وكنوزها.. ونادراً ما نرى فى التاريخ الفرعونى إعدامات سياسية تنفذ على أعداء من الداخل، وذلك لأن نزعات أخلاقية ودينية عميقة كانت تسيطر على سكان مصر القدماء حثت على الحب والسلام واحترام الحياة الإنسانية، فاختفت تقريباً أعمال العنف التى يعقبها صدور الأحكام بالإعدام. وعلى هذا فمن النادر أن نرى استقراراً سياسيا طويلا فى بلد من البلدان كما نرى فى حقب التاريخ الفرعونى المصرى.. ولكن بانتهاء ذلك العصر المزدهر أخذت جحافل الغزاة تهبط على مصر من كافة الأنحاء.. فرأينا الغزو الفارسى الذى قاده بختنصر يدخل مصر ليذبح أهلها دون تمييز، حتى أن أرض وادى النيل الخصبة لم تجد من يزرعها أربعين عاماً، وهذه كانت واحدة من أكثر حوادث التاريخ المصرى وحشية ودموية... ومع ذلك فلم ينته ذلك حتى خضعت أرض الكنانة الطيبة لحكم الإغريق ثم من ورائهم الرومان الذين سجل التاريخ عن عهدهم بعد ظهور المسيحية أنهم لم يقلوا أبداً فى نزعات العدوان عن الفرس، حيث أخذوا ينفذون عمليات اضطهاد واسعة النطاق شملت مجمل مساحة وادى النيل، كانت نتيجتها على مدى عقود طويلة ممتدة من الزمن إعدام ملايين من المسيحيين من سكان مصر.. ولكن تشاء عناية الله تعالى أن تظهر الرسالة المحمدية فى الجزيرة العربية لتنتشر رحمة الإسلام على ربوع البلاد ولتزول ديكتاتورية الروم عنها، ليعيش مسلمو مصر وقبطها معاً تاريخاً حافلاً بالود والمساواة.

ولقد أعقب فتح مصر تتابع للخلافة الإسلامية، فكانت للدولة العربية (الأموية) ثم انتقلت لبنى العباس، ثم للطولونيين والإخشيديين إلى أن تحولت مصر لأول مرة لحكم الفاطميين الشيعة، ذلك الحكم الذى امتد قرنين من الزمن تقريباً أصبحت مصر فيهما زعيمة أقوى دولة إسلامية إلى أن أعقب حكم الفاطميين الحكم الأيوبى فالمملوكى ثم أخيراً حكم الخلافة العثمانية الذى حول مصر لمجرد ولاية تابعة للآستانة تعانى التخلف الذى امتد أربعمائة عام متتالية بينما كانت قبل ذلك حاضرة العالم ومنارته.

وعلى مدى كل تلك العصور، فإن ظاهرة الإعدام السياسى لم تختف أبداً، بل كانت تحدث وفقا لتتابع العنف السياسى أو التهديدات الخارجية لمصر. ولقد أوضح لنا التاريخ مع ذلك أن حكاماً عديدين حكموا مصر وهم ليسوا منها أو من أهلها مثل أحمد بن طولون والحاكم بأمر الله قد أفرطوا فى تنفيذ الإعدام ليس فقط على المجرمين ولكن كذلك على الأبرياء.. أما فى عصر دولتى المماليك الأولى والثانية فإن الإعدام السياسى كان عملاً شائعاً مستمراً.. أما فى حكم الدولة العثمانية لمصر فقد كانت أعمال الإعدام السياسى تحدث عادة بدون سند من قانون أو محاكم، وكان هذا نابعا من قسوة الولاة العثمانيين الذين عينهم الباب العالى لحكم مصر وهم غير مصريين، حتى شاع طغيانهم وشمل مجمل بقاع البلاد مما أدى إلى انتشار السلبية لدى السكان وبعدهم عن الاحتكاك بكل من يحكمونهم، ويمكن أن يكون ذلك سبباً كافياً وراء عدم اهتمام المصريين بالسياسة وقلة خبرة الكثيرين منهم بالتالى بها، حتى أنه يكون منطقياً القول أن العديد من الشخصيات السياسية التى حكمت مصر فى القرنين الماضيين لم يكن لديها خبرة سياسية كافية تتوازى مع حجم عواطفها فى حب مصر أو إخلاصها فى خدمة قضاياها.. وهذه ربما تكون مشكلة لا تزال آثارها باقية بصورة مباشرة أو مستترة.

ـ ٥ ـ

استيقظ المصريون فجأة على أصوات مدافع نابليون بونابرت الذى احتلت قواته مصر فى أيام ـ وهذا لم يحدث مطلقاً من قبل ـ وكالعادة فى تلك العهود المظلمة وجد الأهالى حكامهم من المماليك وقد فروا بفرسانهم أمام البارود الحديث.. واضطر المصريون لفداء بلادهم بدمائهم فى حى الأزهر وحى بولاق، وأعدم منهم الألوف ولكنهم رفضوا كل شيء مع بقاء الاحتلال، واستمروا فى الكفاح حتى رحل الجند الأجنبى ولكن لم يظهر أثناء ذلك الكفاح حاكم مصرى ذو خبرة بالحكم، فاضطروا للالتفاف حول

محمد على، ذلك الجندى الألبانى الذى كانت طموحاته فى حجم قوة الشعب المصرى فسارع بإنشاء دولة فتية عصرية كانت قادرة بحق على أن تخلف الدولة العثمانية التى كانت على وشك أن تلقى حتفها أمام الجيش المصرى، ولكن سارعت قوى الغيرة والشر لهدم أحلام محمد على، فهددته وكبلته باتفاقية لندن ثم دمرت بحريته وأجبرت قواته على العودة إلى مصر تاركاً الشام ـ توأم مصر الأبدى ـ تحت الاحتلال العثمانى المباشر.

ـ ٦ ـ

إن هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء يستعرض كل تلك الأحداث تفصيلاً، مع التركيز على مجمل أعمال العنف السياسى وخاصة تلك التى أعقبها الإعدام.. وعلى هذا فسوف يتضح للقارىء ـ وهكذا الرجاء ـ أن المحصلة النهائية للاطلاع على أعمال العنف السياسى سوف تساعد على التبصر بطبيعة العلاقة بين النخب السياسية والعسكرية التى حكمت مصر على مدى العصور، وبين خصومها سواء من داخل مصر أو خارجها.. كذلك سيتضح للقارىء كيف ومتى نجحت النخبة الحاكمة وكيف ومتى فشلت وتمت الإطاحة بها، ولعلنا لا ننسى أن لكل أمة أجلاً وموعداً لتحل محلها أمة جديدة ودولة جديدة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

وبينما نقرأ، فلعلنا لا ننسى ملاحظتين هامتين.. الأولى هى أن العنف السياسى ونتائجه التى تشمل الإعدام السياسى فى كثير من الأحيان هو ظاهرة اجتماعية دولية لم تختف أبداً من تاريخ أية أمة قديمة أو حديثة.. والثانية هى أن مصر التى عاشت كل تلك المراحل الزمنية قد انتصرت وعاشت، بينما زالت من حولها أشتات الأمم من المشرق والمغرب.. ومن المحال أن نجد أمة حافظت على حدودها الجغرافية وعلى شخصيتها القومية مثلما نجد فى حال مصر.. أفلا يعطينا ذلك ـ إذن ـ المزيد من الإعجاب لقدرة ذلك المجتمع على البقاء.. ألا يدفعنا ذلك إلى الثقة فى أن العنف السياسى فى مصر لن يؤثر على المجتمع المصرى.

ـ ٧ ـ

وأخيراً، فإن على الذين يتعرضون لشرح ظواهر اجتماعية مهمة كظاهرة العنف السياسى يجب أن يتحلوا بالعلم والحكمة.. فكثيرة هى الكتابات التى دونها كتّاب مؤرخون ينقصهم العلم الكافى بعلوم الاجتماع الذى هو أب لكل العلوم الإنسانية بما فيها علوم

التاريخ - فسارعوا على مدى عدة أعوام مضت بوصف العنف السياسى بأنه أصبح (علة) تهدد المجتمع، وهذا ليس صحيحاً، فالعنف فى مصر عنف فردى وبالتالى ينتفى عنه الوصف بأنه علة.. لقد نسى هؤلاء أن هناك شرطين فقط لسقوط الدول، الأول: وهو التعرض لغزو قوى خارجى، والثانى: أمام عدو داخلى تمكن بصورة مباشرة من السيطرة على مؤسسات تلك الدولة.. لم تسقط دولة واحدة فى التاريخ أمام عنف فردى مسلح.

كذلك فإن اللوم يوجه إلى بعض الأكاديميين الذى فشلوا للأسف فى توصيل خبرتهم ومعرفتهم إلى عموم الناس.. فأى قيمة ترتجى من دراسات أكاديمية لا تصل فوائدها إلى الشباب الذى نبغى جميعاً الارتقاء بمستواه الفكرى والسياسى حتى يعلم الغث من الثمين من التيارات المتباينة التى تنتشر على المسرح السياسى فى مصر والعالم، كيف نجعله يبتعد عن التطرف والعنف بينما الكثير من الدراسات تخط بمنهجية علمية أكبر من مستواه الفكرى والعقلى. ألا يشبه موقف أولئك الذين يبخلون بعلمهم على شباب وطنهم موقف الجشع والأنانية والاستعلاء الذى يسلكه جانب واضح من الرأسمالية المصرية الجديدة التى لا تزال تعيش بعقلية آدم سميث الرأسمالية القاسية؟ أليس هو نفس الفكر والمنطق.. أليس هناك اتحاد بين الطائفتين.. الأولى تبخل بعلمها والثانية - حتى فى فترات العنف والتطرف - تبخل بأموالها على اليتامى والفقراء والعاطلين والمرضى. أى خير فى علم لا يفيد عامة الناس، وأى خير فى مال لا يستخدم فى إنماء المجتمع؟

لقد آن الأوان أن ينهج بعض المثقفين المعارضين وكبار الأثرياء الجدد نهجاً آخر فيتحولون عن مهاجمة السياسات العامة للدولة والطعن فى نزاهة المسئولين بدون سند أو دليل أو ضمير إلى النهوض بأحوال الناس، بحل مشاكلهم، بإنفاق الأموال لبناء الملاجىء لليتامى والمحتاجين والمعوقين والأخذ بيد الفقراء والإنفاق على المشروعات الخيرية وتطويرالجامعات والمدارس.. فتلك المهام ليست من مهام الحكومة فقط فى أية دولة من دول العالم، ولكنها مهمة الأثرياء فى المجتمع ومهمة الأحزاب والنقابات التى لا يجب - فى الدول النامية - أن يكون هدفها الأول والأخير اعتلاء المناصب الزائلة، ولكن البحث عن دور أخلاقى يبقى بأطول مما يبقى أى منصب.. فلابد إذن أن يتطور الضمير بالإحساس الجماعى، وبالكينونة الجماعية، وبضرورة الرقى الجماعى.. وليس حث الهمم على الارتقاء لطبقة برجوازية تتصف بالأنانية تنسى دورها الاجتماعى والإنسانى إزاء الفقراء والمرضى.

عبدالحكيم العفيفى محمود

الفصل الأول

الإعدام السياسى

* نشأة فكرة الإعدام السياسى:

نشأت فكرة الإعدام السياسى فى الدول ذات الحضارات البالغة القدم بعد أن ترسخت فكرة الدولة ذات الكيان السياسى. فلكى تكون هناك دولة يجب أن تتوافر لها قطعة من الأرض، وسكان، وحاكم له السيادة وبعض الموارد الطبيعية، وأيديولوجية معنوية تربط تلك العناصر معاً فى كيان يضمن له الاستقرار والاستمرار. ولهذا فلما ظهرت الدول فى العصور الغابرة، وجد القائمون على شئونها أن دولهم مهددة من الداخل أو من الخارج، من الداخل عن طريق قيام أعداء من نفس الشعب يودون السيطرة على مواردها وإزاحة حكامها. ومن الخارج عن طريق الدول المجاورة - وأحيانا البعيدة - التى تطمع فى خيرات وموارد تلك الدولة، أو لتوسيع حدودها وسلطانها. ولهذا فقد ارتبط الإعدام السياسى ارتباطاً وثيقاً بكل شخص يمثل خطراً داخلياً أو خارجياً على الدولة وكيانها ومواردها وحكامها.

ولما كانت الدول تنهار إما داخلياً نتيجة ظهور أعداء أقوياء لهم أتباع من الداخل، أو نتيجة غزو خارجى مسلح، فإن كل تمرد من الداخل حدث له فشل فى أهدافه أو وسائله كان يتم إعدام (قتل) من قام به بصفة مباشرة، وكل عدو خارجى كان يغزو الدولة ويهزم ويؤسر كان يتم إعدام قادته.

ولم يكن الخطر الداخلى أبداً بأقل أثراً من الخطر الخارجى.. بل إن التاريخ القديم - والحديث كذلك - شاهد دولاً عديدة تسقط من داخلها عن طريق قيام شخص ما، له فكر جديد مخالف، تمكن بوسيلة أو بأخرى من أن يقنع الناس به سلمياً وبالتالى إضعاف السلطة الإشرافية للدولة التى تنهار بالتدريج... ويجب التفريق هنا بين الفكر العقلى وبين العنف والتطرف والعدوان، ولا شك أننا رأينا ذلك التبدل يحدث إبان تولى الملك إخناتون

عرش مصر، حيث بدل سلمياً الديانة المصرية القديمة الراسخة من عبادة الإله (آمون رع) إلى عبادة الإله (آتون) بل إنه غيّر مقر العاصمة من طيبة إلى مدينة تل العمارنة.. ثم رأينا ذلك يحدث إبان ظهور عدد من الأنبياء والرسل عليهم السلام وخاصة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فقد تمكنوا من إسقاط الأيديولوجيات السياسية البائدة التى كانت تتحكم فى عقول ومصائر الناس ردحاً طويلاً من الزمن. وفى العصور الوسطى رأينا مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) يقوم بتحطيم الكهنوت البابوى وأنشأ المذهب البروتستانتى فى غرب أوربا وشمالها، ذلك المذهب الذى يعد أكثر تحرراً من الكاثوليكية.

ولا شك أن حياة هؤلاء الرسل والأنبياء والمصلحين قد تعرضت للخطر وتاريخ الأديان حافل بقصص الأنبياء الذين أعدموا - وسيتم شرح ذلك فيما بعد - كما أن تاريخ الأمم القديمة والحديثة يروى لنا قصصاً مروعة عن الحياة التى انتهت نهايات مأساوية لمصلحين ورواد فى شتى دروب الفكر والعقائد.

* تعريف الإعدام السياسى:

الإعدام السياسى هو عملية يتم فيها تنفيذ حكم لا رجعة عنه عادة بالموت صدر من جهات مختصة على شخص واحد أو أكثر، نتيجة قيامه بعمل ضد المجتمع أو الدولة، ويصدر هذا الحكم علناً عادة على مسمع من المتهم أو يبلغ إليه. ويقوم بالتنفيذ عدد من الأشخاص، وعادة ما يجرى فى الصباح الباكر. وفى أغلب الأحوال يصدر هذا الحكم بعد سماع أقوال المتهم ودفاعه وأقوال المدعى العام (أو من يمثل الدولة).

وعلى هذا، فإن خصائص حكم الإعدام السياسى يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

١ - أن هناك جريمة خطيرة (حقيقية أو وهمية) ارتكبها شخص ما هددت كيان أو استقرار الدولة أو المجتمع.

٢ - أن يتم القبض على ذلك الشخص، وتحويله لمحكمة مختصة تُسمع فيها أقوال المتهم ودفاعه، كما تسمع فيها أقوال النائب العام الذى يمثل الدولة.

٣ - أن يصدر الحكم بالإدانة ويصدق عليه من رئيس الدولة وأن يسمع المتهم ذلك الحكم أو يبلغ به فى حالة تعذر نقله للمحكمة لأى سبب من الأسباب.

٤ ـ أن يصدر أمر لجهة مختصة بالتنفيذ.

٥ ـ أن يعلم بالحكم وبالتنفيذ الرأى العام فى ذلك البلد.

* الهدف من الإعدام السياسى:

لم يكن الإعدام السياسى قديماً ينفذ بعد محاكمات فى أغلب الحالات والدول.. فكان يكفى أن يتم اعتقال الخصم السياسى سواء أكان خصماً داخلياً أم خارجياً، حقيقيا أو متصوراً لكى يصدر الملك أو السلطان أو من ينيبه الحكم بإعدام ذلك الخصم. وبالرغم من ذلك فقد كان الإعدام يتم كثيراً بطريقة علنية لا يبغى منها سوى بث الخوف فى نفوس الناس. ومع ذلك فلم تكن كل الإعدامات السياسية باطلة كما أنها لم تكن جميعاً عادلة. فطالما لم تكن هناك محاكمات عادلة فسيظل حكم التاريخ على تلك الإعدامات متأرجحاً. ومهما كان الأمر، فيبدو جلياً أن الهدف من الإعدام السياسى (خاصة فى العصر الحديث) يرتبط بفكرة المحافظة على الكيان السياسى للمجتمع والدولة وعدم السماح لأى شخص أن يشيع جو الاضطراب والفوضى والخلل فى أركان المجتمع أو مؤسسات الدولة. وهو لهذا وسيلة من الوسائل للقضاء على النزعات العدوانية لدى بعض الناس، وإفهام أفراد المجتمع أنهم جميعاً أعضاء فى المجتمع عليهم المحافظة على سلامته وأمنه ورخائه لأن الضرر يمكن أن يعمهم جميعاً، إذا ما انتشرت الأعمال التى تشكل خطراً سياسياً على دولتهم... وهذا هو السبب فى وجود عقوبة الإعدام ذى الصبغة السياسية فى كافة العصور والبلدان، بالرغم من التفاوت فى مستوى معيشة تلك الدول ومدى ثقافة الأفراد وعلمهم ومعارفهم ونضجهم السياسى، وكذلك بالرغم من التفاوت بين الأمم فى أساليب الحكم وشرعيته ومدى احترام الحكومات والأفراد للقوانين والدساتير.

* اختلاف حكم الناس والدول على الإعدام السياسى:

إن ظاهرة التناقض الوجدانى Ambivalenc ظاهرة موجودة لدى عدد كبير من الناس إن لم تكن موجودة لدى كافة الناس بصورة أو بأخرى. فنحن نحب ونكره نفس الشخص أو الحديث أو المنظر أو الطعام.. ولكن وجها من وجهى الحب والكراهية يكون

ظاهراً بينما يكون الآخر مقنعاً حتى ينقلب الحال فيظهر ما كان مخفياً، ويختفى ما كان ظاهراً.

فقد استنكر الألمان - إبان الحرب العالمية الثانية - محاولة اغتيال أدولف هتلر زعيمهم وزعيم الرايخ الثالث، ولكنهم بعد أن انتهت الحرب ووجدوا أنفسهم وقد هزموا، ودولتهم وقد قسمت، تمنوا أن يكون زعيمهم قد مات منذ بداية الحرب حتى لا يعيشوا مرارة الهزيمة والاحتلال. كذلك غضب الإيطاليون غضباً شديداً عندما أُسر زعيمهم موسوليني وسجن من قبل الحلفاء على الأراضى الإيطالية ثم فرحوا به فرحاً شديداً عندما تمكنت قوة ألمانية خاصة من تحريره.. وبعد أن هبط الحلفاء على الأراضى الإيطالية غضب عليه شعبه وقام الناس بإعدامه فرحين.

إن تلك الأمثلة من التناقض الوجدانى موجودة لدى البشر، والزمن وحده هو الذى يُظهر أحد وجهى التناقض ويخفى الآخر. وعلى هذا الأساس السيكولوجى، فإن الناس (والدول أيضاً) قد ينظرون إلى شخص تم إعدامه لسبب سياسى نظرة قاسية ويرتاحون أنه قد اختفى، ولكن بمرور الوقت قد يتحول شعورهم هذا إلى نقيضه، ويبدلون من نظرتهم إلى ذلك الشخص، فيتمنون لو أنه لم يزل حياً أو أنه لم يعدم.. أو على العكس من ذلك قد يحزنون على إعدامه لبعض الوقت ولكن بمرور الزمن يفرحون بالفعل لاختفائه.

ويمكن إرجاع أسباب ذلك إلى نسيان الجريمة التى ارتكبها المجرم، وبالتالى نسيان الانفعال (الحزن - الألم) الذى صاحب حدوثها، وإذا ضاع الشعور المؤلم أو اختفى فإن منطقية الألم (والمطالبة بالتالى بإيقاع العقاب) تتغير. كذلك يمكن تفسير ذلك بأن جيلاً جديداً لم يعش ألم الجريمة أو لم يتأثر بها قد ظهر، بعد عدد من السنين - وبالتالى نظر إلى القضية نظرة مختلفة، عن نظرة الجيل السابق، فلم ير منطقية فى تنفيذ الإعدام على مرتكب الخطأ أو الجريمة. ويمكن أيضاً إضافة تفسير ثالث على أساس ظهور حقائق جديدة فى القضية لم تكن موجودة أو ظاهرة أصلاً، وبالتالى يشعر الناس بألم عقاب الضمير الذى يعاقبهم - معنوياً - على ما كانوا قد أبدوه من حماس من أجل إعدام المتهم.

ولهذا، ومهما كان الأمر، فإن الإعدام السياسى له - وقت صدور حكمه وتنفيذه - مؤيدوه وله كذلك معارضوه. والمؤيدون والمعارضون على اختلاف مستوياتهم ومواقعهم قد يقبلون عن قناعة عقلية ضرورة وجود نص قانونى يبيح حكم الإعدام.. ولكنهم

يختلفون أحياناً لأن المتهم أدين بقسوة بأكثر من اللازم، أو بأنه كان يمكن تخفيف الحكم أو تأجيله أو العمل على مد فترة المداولات القانونية بشأنه حتى تظهر أدلة جديدة تنقذ المتهم من الموت.

وعلى هذا، فإن منصب القاضى الذى يصدر حكماً بالإعدام فى أية دولة من الدول هو منصب رجل يجب أن يكون ضميره حياً يقظاً قوياً لا تشوبه شائبة من الشوائب ولا تؤثر عليه نزعة من النزعات أو رغبة من رغائب النفس. وعليه أن يتذكر دائما أنه إذا كانت المقادير قد ساقته ليحكم بتلك الأحكام فإنه سيقف يوماً لا شك لدينا أبداً فى مجيئه بين يدى الحاكم العادل العظيم جلت صفاته، ليحاسبه على ما كان قد استصدره من أحكام.

* الإعدام السياسى الفردى والجماعى:

كثيراً ما يرتكب فرد واحد جريمة أو عملا من الأعمال ترى السلطات المختصة فى الدولة التى تحاكمه أن تلك الجريمة أو ذلك العمل يستحق إصدار حكم بالإعدام على نفس ذلك الشخص دون غيره من الأشخاص، لأن التحقيقات لم تثبت مطلقاً أن هناك ثمة من أشترك مع المتهم فى جريمته أو عمله الذى قام به واستحق عليه عقوبة الإعدام. وهنا يصبح الإعدام السياسى فردياً. وربما تكون سلطات التحقيق قد رأت فعلاً أن المتهم نفذ ما نفذ وحده بدون أية مشاركة أو مساعدة من شخص أو أشخاص آخرين.. ولكن فى بعض الأحوال - وبخاصة فى الكثير من الدول المنتمية للعالم الثالث - قد ترى السلطات أن هناك أشخاصاً آخرين قد اشتركوا فى الجريمة أو العمل المحظور، ولكن خشية منها من ازدياد أعمال العنف أو تصعدها من قبل خصومها، أو خشية منها أن توصف فى العالم بأنها دولة تستخدم القسوة المبالغ فيها فإن حكماً فرديا واحداً بالإعدام يصدر على شخص واحد بينما يحكم على من اشتركوا معه أو عاونوه بأحكام مخففة.

ومهما كان الأمر، فإنه من الصواب أن نوضح أن الإعدام السياسى الفردى ظاهرة تخص المجتمعات الحديثة دون المجتمعات القديمة، أو التى عاشت فى العصور الوسطى، وربما يكون ذلك راجعاً إلى تطور النزعات الأخلاقية لدى البشر، وتقدم وسائل التحقيق الجنائى أو السياسى أو اختفاء عقوبة الإعدام من قوانين بعض الدول. أما المجتمعات

القديمة فقد رأينا عمليات إعدام سياسية جماعية عديدة لطخت التاريخ البشرى بالخزى والانحطاط والدموية. ولم تكن تلك العمليات تتم بشكل قانونى أو أخلاقى أو دينى مشروع، ولكنها كانت تحدث بمجرد أن يصدر الأمر من الشخص المختص بأن يتم إعدام ضحاياه. ففى ثورة العبيد الكبرى التى جرت فى إيطاليا ضد الدولة الرومانية القديمة، وهى الثورة التى قادها هرقل وكادت أن تطيح بعرش الإمبراطورية، لولا أن خرجت لها الجيوش الكثيفة العدد والتسليح وحاربت العبيد وقتلت منهم عشرات الآلاف واعتقلت ستة آلاف تم صلبهم على جانبى طريق أبيا أنتيكا[1] المشهور فى إيطاليا وذلك عام ٧١ ق. م، وكان كل أسير يحمل صليبه الخشبى بنفسه ثم يؤمر بأن يقف به حتى يصلب عليه ويشعل الجنود النار فيه.

كذلك جرت عمليات إعدام سياسية جماعية إبان عصر محاكم التفتيش فى أسبانيا ونفذت خاصة فى كل من هولندا بشمال أوربا ضد من اعتنق المذهب البروتستانتى، وفى أسبانيا ذاتها ضد المسلمين بعد هزيمة العرب المحزنة والمخزية عام ١٤٩٢. ولقد استخدم فيليب الثانى ملك أسبانيا أشد رجاله المعروفين بالقسوة وهو دوق ألفا، لكى يشيع عمليات الرعب الواسعة النطاق بين الهولنديين وأعطى لجنوده سلطات واسعة للبطش، فكان منظراً مألوفاً أن يرى الناس الضحايا وهم مقيدون ويسحبون بعيداً فوق سطح الأرض حيث يتم اعتقالهم وتعذيبهم حتى الموت، ولقد تم إعدام ما لا يقل عن مائة ألف إنسان فى هولندا فى عصر محاكم التفتيش ذلك. أما فى أسبانيا فبعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ وتوقيع معاهدة احترام المسلمين بين الأسبان وبين الزعماء الأندلسيين سارعت الملكة ايزابيلا ملكة أسبانيا بنقض بنود تلك المعاهدة وأخذت هى وزوجها فرديناند فى تخيير المسلمين بين الهجرة خارج أسبانيا أو بين التنصير، ثم خيرتهم بعد ذلك بين التنصير وبين الإعدام حرقاً. وفى عام ١٥٢٦ تأسست محكمة التفتيش الرهيبة فى غرناطة، حيث بدأ إحراق المسلمين جماعات على أعواد الحطب المشتعل علناً لإجبارهم وأسرهم وذويهم على ترك دين الإسلام والدخول فى المذهب الكاثوليكى، ولقد بلغ إجمالى من تعرض للموت

---

(١) يمكن للزائر لمدينة روما الإيطالية مشاهدة بداية ذلك الطريق التاريخى بالقرب من مبنى الكلوسيوم ثم يمتد بعد ذلك خارجاً من حدود مدينة روما وبطول حوالى ٣٦٠ ميلاً لينتهى عند مدينة بروندزيم المطلة على البحر الأدرياتيكى. والطريق بذلك يعتبر من أطول الطرق الممهدة فى العالم إذ بنى فى عهد الإمبراطور أبياس كلاوديس عام ٣١٢ ق.م. ولاتزال الحكومة الإيطالية تعتز بالإبقاء على ذلك الطريق بحالته القديمة التى بنى عليها منذ ذلك الوقت البعيد.

والإعدام من المسلمين فى أسبانيا والبرتغال حوالى ثلاثة ملايين رجل وامرأة وطفل حيث استمر ذلك الاضطهاد على مدى سنوات طويلة ممتدة حتى دخلت جيوش فرنسا أسبانيا فألغيت محاكم التفتيش نهائياً بها عام ١٨٣٤م.

* طرق تنفيذ الإعدام السياسى:

يصدر حكم الإعدام السياسى وبه فقرة تحدد كيفية تنفيذه سواء بالشنق أو رمياً بالرصاص أو بالسيف أو بالكرسى الكهربائى أو بالغاز وهى الطرق الرئيسية الباقية الآن من وسائل شتى عرفت تاريخياً فى مختلف بلدان العالم.

وفى الحقيقة فإن دراسة تاريخ طرق تنفيذ الإعدام السياسى فى العالم تعطينا فكرة وثائقية ثاقبة عن كيفية تطور الفكر الاجتماعى السياسى فى العالم. فالرومان - وهم الشعب الذى بنى أقوى وأطول الإمبراطوريات عمراً قبل ظهور المسيحية - كانوا يجدون متعة عارمة فى تقديم المذنبين والمتمردين والثوار للوحوش الضارية لتنهش لحومهم قطعة قطعة - أياً ما كان أمر القطعة التى تقضم أولاً - وكانوا يبنون لذلك مسارح ومدرجات قوية عالية، ويتم تخصيص حراس مدججين بالسلاح لحراسة السباع والفهود والنمور الجائعة ويطلقونها من سراديب حجزت فيها أياماً ثلاثة بدون طعام على هؤلاء الضحايا.. وفى يوم واحد من أيام حكم الإمبراطور الدموى تيتوس نهشت الحيوانات الضارية لحوم خمسة آلاف شخص، ولم تكن - مع ذلك - تلك الوسيلة هى الوسيلة الوحيدة لتنفيذ الإعدام السياسى بل كان الجلد والصلب والحرق حتى الموت وسائل بالغة الشيوع فى سنوات حكم الدولة الرومانية الممتدة، ولقد تعرض المسيحيون الأوائل لإعدامات سياسية عديدة نظراً لأن الإمبراطورية كانت تخشى من أن يتحول الناس عن عبادة الآلهة الرومانية إلى عبادة الله الواحد الأحد.

وكان الفرس يستخدمون طرقاً عديدة خاصة بهم لتنفيذ عمليات الإعدام السياسى منها الخوزقة أو دفن المذنبين أو الضحايا فى رماد ساخن أو تقييدهم عرايا وصب عسل النحل عليهم وتركهم لتأكل الحشرات أجسادهم وكان ملوك الفرس القدماء يظهرون تمتعهم المرضى بتعذيب المذنبين والضحايا حتى الموت، وذلك عن طريق سلخ جلودهم أو تقطيع أعضائهم عضواً بعد الآخر.

وفى العصور التاريخية الوسيطة، وإبان الغزو التترى للبلدان الإسلامية تزعم هولاكو جيوشاً جرارة دمر بها بغداد عاصمة الخلافة العباسية عام ١٢٥٨م، وأمر جنوده بإعدام كل سكان المدينة، فراح ضحية ذلك ما لا يقل عن مليون وثمانمائة ألف إنسان. ثم جاء حفيده الشرس تيمورلنك بجيوش تترية ضخمة واقتحم مدينة دمشق وأصدر تعليماته بإعدام كل من فيها من بشر.. فجرت عمليات الضرب والإحراق وسكب المعادن المنصهرة على الأجساد والدفن فى مقابر جماعية واسعة، واعتقل العديد من زعماء المدينة حيث تم تقييدهم وصب الفضة المنصهرة فى عيونهم وآذانهم.

وفى الهند كان الإعدام السياسى يتم بتقييد المذنب أو الضحية فوق الأرض لتسير فوقه الأفيال الضخمة، وفى الولايات المتحدة كان الزنوج الذين يحاولون التمرد على نظام الرق يجلدون عرايا منكسين حتى الموت، أما الهنود الحمر الأسرى فكان البيض يسلخون جلود رؤوسهم ويتركونهم لتأكل الطير منهم.

وفى العصور الأحدث، ظهرت فى فرنسا أداة مرعبة للإعدام تسمى المقصلة وهى التى اخترعها الدكتور جوزيف جولوتين (١٨٣٨ ـ ١٨١٤) وكان طبيباً وعضواً فى البرلمان الفرنسى. ولقد طالب هذا الطبيب بأن يتم إعدام كل المجرمين الخطرين بواسطة المقصلة، ولم يوافق البرلمان على تلك الفكرة حتى عام ١٧٩٢ . وقبل أن تستخدم أول مقصلة على الإنسان فى فرنسا تم تجريبها على الخراف إلى أن نجحت المحاولة وبدأ استخدامها فى مارس ١٧٩٢ على قطاع الطرق فى شهر أبريل. ولقد كان اسم المقصلة الأولى لويزت Louisette ثم تحول الاسم إلى جولتين Guillotine(١) .

ولقد كانت فكرة الاستخدام تعتمد على أن القتلى لن يشعروا بألم يذكر، حيث تقطع الرأس فى لحظة سريعة خاطفة.

أما المقصلة ذاتها، فتتكون من سكين قوى عريض حاد من الصلب يثبت فى مقبض ثقيل من الحديد، ويرفع المقبض على زلاجتين أملستين على الجانبين لتسقط بسرعة عند تنفيذ الإعدام فوق رقبة المذنب وهو فى وضع الركوع بينما قيدت يداه خلف ظهره، وثبتت رأسه فوق منضدة خاصة أعدت لذلك تقع مباشرة تحت مسقط المقصلة.

---

(١) The Encyclopedia Americana - International Edition - Grolier Incorporated - 1981 - Volume 12 - Printed In The U.S.A.

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد كان الإعدام شنقاً شائعاً هناك، مثلها مثل أغلب دول العالم، حتى مجيء عام ١٨٨٦ (أى بعد الحرب الأهلية الأمريكية) حينما صرح حاكم ولاية نيويورك ديفيد هيل David Hill بأنه سيتم تشكيل لجنة للبحث عن طريقة أكثر إنسانية للإعدام من الشنق والمقصلة. وفى ذلك الوقت توصلت اللجنة إلى أن الكهرباء (والتى كان عالم الطبيعة إديسون قد اخترعها عام ١٨٧٩) يمكن أن تؤدى المهمة، وبدأت بالفعل تجربتها على الحيوانات، وفى ٤ يونيو عام ١٨٨٨، وقع حاكم نيويورك قانوناً يقضى باستخدام التيار الكهربائى للإعدام ابتداء من أول يناير عام ١٨٨٩(١).

وقد نفذ أول حكم بالإعدام بالكرسى الكهربى Electric Chair فى صباح ٦ أغسطس ١٨٩٠ على شخص يدعى وليام كملر فى سجن أوبيرن بولاية نيويورك وذلك بعد إدانته بارتكاب جريمة قتل.

أما طريقة الإعدام بالكرسى الكهربى، فهى كما يلى:

يتم تقييد المحكوم عليه بالإعدام فى ذلك الكرسى ويوصل سلك كهربائى إلى قطعة معدن بأسفل الكرسى توضع عليها مقيدة قدما المذنب، وسلك آخر إلى رأسه.. ثم يقوم منفذ الإعدام بتمرير تيار كهربائى قوته ٢٠٠٠ فولت، ثم يتم خفض ذلك التيار إلى ٥٠٠ فولت، ثم رفعه مرة أخرى إلى ٢٠٠٠ فولت وفى أقل من ثلاث دقائق يتم الإعلان عن وفاة المذنب(٢).

وفى حالات الإعدام بالكرسى الكهربى فإن ملاحظتين هامتين يجب تذكرهما تخصان كلاً من الجهاز العصبى الشعورى Conscious والجهاز العصبى المستقل Autonomic. إن تياراً كهربائياً قوته ١٥٠٠ فولت يعتبر كافياً لتدمير الجهاز العصبى الشعورى وهو الجهاز المسيطر على الألم والفهم، وبصفة عامة فإن فقدان الشعور يحدث فى زمن يساوى ١/٢٤٠ من الثانية، وهو زمن أسرع من قدرة الجهاز العصبى الشعورى للإنسان على أن يسجل الألم. أما الجهاز العصبى المستقل فهو أكثر صعوبة من ذلك، فهو يتطلب تياراً كهربائياً يتعدى ٢٠٠٠ فولت ـ بصفة عامة ـ لإيقاف القلب(٣).

(١) The Execution Protocol - Stephen Trombley Arrow Edition 1993 - Printed in Great Britain.
(٢) The Encyclopedia Americana-International Edition - Grolier Incorporated -1982- Volume 10.
(٣) مرجع سابق The Execution Protocol - Stephen Trombley Arrow Edition 1993.

أمـا الإعـدام عن طـريق الشنق Hanging، فـربما يكون أقـدم طرق تنفـيـذ الإعـدام وأكثـرها شيـوعاً فـى العالم. وهو لا يتـسبب فى تقطيع أى جزء من أجزاء المذنـب (مثل المقصلة التى تقطع الرأس) ولا يؤدى إلى أخطاء قد تؤدى إلى حرق بعض أجزاء الجسد (مثل الكرسى الكهـربى الذى تنتج عنه حـروق من الدرجـة الثالثـة وتهتك فـى جلد ولحم المذنب أحيانا). وفوق ذلك فإن الإعدام بالشنق يعتبر طريقة سهلة نسبياً ومضمونة إلى أقصى مدى لإنهاء حياة المذنب.

ويتم تنفـيـذ حكم الإعدام شنقـاً عن طريق تقييـد يدى المذنب خلف ظهـره، وإلباسه قناعاً فوق رأسه، ثم إصعاده بعض الدرجات التى يتدلى فوقها حبل سميك قوى بنهـايته أنشوطة يدخل منها رأس المذنب، ويتم تضييق الأنشوطة لتلف بإحكام حول أسفل الرقبة. ثم يصدر أمر التنفيذ فتهوى من تحت المذنب بلاطة خشبية أسفلها فضاء يتدلى به الجسد المعلق بالحبل. ويكون ثقل جسد المذنب كافياً مع قوة الحبل والأنشوطة حول رقبته لكى تنفصل عظمة الحنجرة، فيمتنع دخول الهواء للرئتين وبالتالى يحدث الاختناق فى فترة زمنية لا تتجاوز أربع أو خمس دقائق، بعد ذلك يذهب طبيب للتأكد من عدم وجود نبض ينبعث من قلب المذنب ويعلن وفاته، ويسلم جسده لذويه، وتطوى صفحته.

* بعض أهم الإعدامات التاريخية فى العالم:

١ ـ أعدم سقراط زعيم فلاسفة الإغريق عام ٣٩٩ ق. م وكانت سنه سبعين عاماً بعد أن اتهمته الدولة بالخروج عن عبادة آلهة الإغريق، وإشاعة الاضطراب فى الدولة. وقد كانت وسيلة إعدامه شرب السم. ولكن قبل ذلك جرت محاكمته محاكمة تدعو للتعجب من وجود قدر غير مسبوق من الديمقراطية، فقد أدانه ٢٨١ عضواً بالمحكمة بينما لم يدنه ٢٢٠ عضواً.

٢ ـ تم إعدام القديسة العذراء سانت كاترين فى مدينة الإسكندرية وذلك لاعترافها علناً بأنها مسيحية ـ أيام الاحتلال الرومانى لمصر ـ وقد عذبت عذاباً شديداً فوق عجلة ذات أسنان حتى الموت، وكان ذلك عام ٣٠٧م. ويحتفل بيوم استشهادها أتباعها فى الخامس والعشرين من نوفمبر من كل عام.

٣ ـ إعدام السير وليام ولاس القائد الاسكتلندى الكبير الذى قاد جيوش بلاده ضد جيوش ملك انجلترا إدوارد الأول، وتمكن من كبح جماح بريطانيا لبعض الوقت.. ولكن بعد مرور عدة سنوات هزمه الملك إدوارد وأسره وبعث به إلى لندن حيث حوكم بتهمة الخيانة فتم إعدامه فى قلعة سميث فيلد عام ١٣٠٥م.

٤ ـ تم إعدام المصلح الدينى البروتستانتى فى مقاطعة بوهيميا بألمانيا جون هيس، بسبب دعواته الحماسية لنشر المذهب البروتستانتى وذلك عام ١٤١٥.

٥ ـ تم إعدام الفتاة الفرنسية الراهبة جان دارك حرقاً بعد أن أظهرت بطولات فذة فى مقاومة الاحتلال البريطانى لفرنسا وذلك عام ١٤٣١م. وفى عام ١٩١٩ تم جمع الرماد المتخلف عن جثمانها وحفظه. وفى عام ١٩٢٠ صدر قرار من البرلمان الفرنسى بتخصيص ثانى يوم أحد من شهر مايو من كل عام للاحتفال بذكراها.

٦ ـ تم إعدام قسيس ومصلح دينى من طائفة الدومينيكان ويدعى (جيرولامو سافونارولا)، وذلك لتصادم آرائه مع آراء الكنيسة الكاثوليكية. فغضب عليه البابا الكسندر السادس وخلعه من منصبه واعتقله وأمر بتعذيبه حتى الموت وكان ذلك عام ١٤٩٨. ولقد ترجمت كافة أعمال سافونارولا إلى معظم اللغات الأوروبية بعد إعدامه.

٧ ـ إعدام السير توماس مور (مؤلف اليوتوبيا)(*) والمستشار الملكى البريطانى بسبب رفضه إلغاء يمين السيادة بعد إصلاحات الملك هنرى الثامن الخاصة بالطلاق، وبعد سجنه لمدة عام حوكم وصدر عليه حكم بالإعدام حيث قطع رأسه عام ١٥٣٥. وفى عام ١٩٣٥ جمع رفاته فى زجاجة وحفظ بواسطة الكنيسة الكاثوليكية البريطانية.

٨ ـ تم إعدام الملكة آن بولين زوجة ملك انجلترا هنرى الثامن وأم الملكة اليزابيث وذلك بعد اتهامها بخيانة زوجها والتآمر ضد العرش. وقد أدينت بعد محاكمتها فصدر حكم بقطع رأسها فى عام ١٥٣٦.

٩ ـ تم إعدام رجل الدين البريطانى روبرت أسك المسئول عن بعثات الحج لمقاطعة يورك شاير فى عهد الملك هنرى السابع وذلك بسبب الإصلاحات الكنسية التى قام بها ملك بريطانيا، وكان هذا عام ١٥٣٧.

(*) كلمة يوتوبيا Utopia كلمة يونانية تعنى اللامكان. وهى تستخدم اليوم للدلالة على الشىء المثالى غير المنظور والذى لايمكن تحقيقه عملياً.

١٠ ـ أعدم الدوق الأول لسومرست والذى كان حامياً لبريطانيا فى فترة الحكم الأولى للملك إدوارد السادس وذلك لمهاجمته الحياة الملكية فخلعه الملك من منصبه وحاكمه فصدر حكم بإعدامه عام ١٥٥٢.

١١ ـ أعدم حرقاً كبير أساقفة كانتربيرى توماس كرانمر إبان حكم الملك إدوارد السادس بسبب مطالبته بالإصلاح الدينى. ولقد وقف يدافع عن مبادئه علناً، فحكم عليه بالحرق فوق الحطب المشتعل عام ١٥٥٦.

١٢ ـ تم إعدام ملكة سكوتلندا مارى ابنة جيمس الخامس وزوجة اللورد دارنلى الذى شعر بالغيرة من سكرتير زوجته الإيطالى زيتزيو، فدبر قتله أمام الملكة. وبعد ذلك بعام واحد قتل اللورد دارنلى نفسه بمساعدة رجل من الأسرة المالكة يدعى بوتول الذى تزوج من الملكة مارى. ولما أحس رجال الأسرة بشدة تلك الأعمال الوحشية تمردوا ضد الملكة واعتقلوها حيث أجبرت على أن تطلق بوتول وتتنازل عن العرش لابنها، ولما تمكنت من الفرار إلى بريطانيا اعتقلتها الملكة إليزابيث لمدة تسعة عشر عاماً إلى أن صدر عليها حكم بالإعدام لاتهامها بالتآمر مع الكاثوليك (لتحل محل إليزابيث فى حكم بريطانيا) فقطع رأسها عام ١٥٨٧.

١٣ ـ إعدام السير والتر رالى السياسى والجغرافى البريطانى المعروف الذى يرجع له فضل تأسيس ولاية فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية وكان من خواص الملكة إليزابيث، ولما حكم بريطانيا الملك جيمس الأول غضب منه واتهمه بالتآمر عليه وسجنه لمدة اثنى عشر عاماً فى برج لندن، وهناك تمكن رالى من تأليف كتابه تاريخ العالم ثم أفرج عنه الملك جيمس الأول، وكلفه بقيادة حملة فى جويانا على أمل استكشاف مناجم الذهب، ولكن رالى فشل فسجنه الملك ثم أمر بإعدامه فقطع رأسه فى ساحة القصر العتيق وذلك عام ١٦١٨م.

١٤ ـ إعدام رئيس أساقفة كانتربيرى وليام لود بعد إدانته بتشجيع سياسات الملك شارل الأول ملك بريطانيا والتى تسببت فى اندلاع الأزمات وأعمال العنف، وقد أدانه البرلمان وحاكمه وأصدر قراراً بقطع رأسه عام ١٦٤٥م.

١٥ ـ أعدم شنقاً الكابتن وليام كيد لاتهامه بارتكاب أعمال القرصنة بواسطة سفن تحمل العلم البريطانى، وبعد محاكمته فى محكمة مختصة بالعاصمة لندن عام ١٧٠١م.

١٦ ـ أعدمت بالمقصلة السيدة مانون حبين لابلاتيير، وكانت واحدة من الشخصيات الهامة فى الثورة الفرنسية وزوجة الوزير الفرنسى جان مارى لابلاتيير الذى فر خارج فرنسا بعد حل حزبه، ولكنها لم ترغب فى الفرار فاعتقلت لبعض الوقت ثم حكم عليها بالإعدام وذلك عام ١٧٩٣، وعندما علم زوجها بإعدامها قام بالانتحار.

١٧ ـ قام الثوار بعد نجاح الثورة الفرنسية باعتقال الملك لويس السادس عشر وزوجته الملكة مارى أنتوانيت، وتم إصدار حكم الإعدام على كليهما بالمقصلة، فأعدم لويس فى الحادى والعشرين من يناير عام ١٧٩٣ وزوجته مارى من بعده بتسعة أشهر لنفس العام.. وقد شهد من حضر إعدامها بصلابتها وشجاعتها لتقبل مصيرها المؤلم.

١٨ ـ أعدم بالمقصلة عضو البرلمان الفرنسى المشكل بعد الثورة الفرنسية جاك جورج دانتون بعد أن هاجمه وأدانه وعزله روبسبير (رئيس لجنة الأمن العام بالبرلمان)، وذلك عام ١٧٩٤م.

١٩ ـ أعدم بالمقصلة ماكسيميلان فرانسوا روبسبير أحد قادة الثورة الفرنسية، والذى عندما ترأس لجنة أمن الدولة بالبرلمان الفرنسى سرعان ما تحول إلى شخص دموى ألقى بالعديدين من الناس ليموتوا تحت المقصلة. وعندما حدثت الحركة الثورية الإصلاحية فى فرنسا اعتقل روبسبير وعزل عن منصبه فى البرلمان، ولما حاول الفرار أطلقت عليه النار فأصيب، وحكم عليه بالإعدام بالمقصلة بينما كان لا يزال متأثراً بجراحه، وذلك فى عام ١٧٩٤م.

٢٠ ـ تم إعدام إمبراطور روسيا بول الأول شنقاً بعد أن ضاق بديكتاتوريته وطغيانه نبلاء روسيا، فاعتقلوه إلى أن صدر ضده قرار بإعدامه عام ١٨٠١م.

٢١ـ تم إعدام جوزيف سميث مؤسس المذهب المورمونى الدينى المتطرف بعد أن ادعى أنه يتلقى الوحى السماوى لنشر ذلك المذهب الذى يدعو إلى الإباحية الجنسية وتعدد الزوجات بدون روابط أو عقود. وبالرغم من أنه لم يصدر عليه حكم بالإعدام فى الولايات المتحدة بعد أن تمكن من نشر مؤلفه (كتاب المورمون) إلا أن جماعة من أعدائه خطفوه وأعدموه بدون محاكمة وذلك عام ١٨٤٤، وخلفه فى قيادة المذهب بريجهام يونج.

٢٢ ـ تم إعدام قيصر روسيا نيقولاس الثانى وزوجته زارنيا وأولادهما رمياً بالرصاص فى ١٦ يوليو ١٩١٨م، بعد اندلاع الثورة الروسية وسيطرة البلاشفة على روسيا عام ١٩١٧م.

٢٣ ـ أعدمت السلطات البلشفية فى روسيا جريجورى رينوفيف أحد أهم قادة الحركة البلشفية الروسية بعد الثورة وأحد أهم المدافعين عن الماركسية اللينينية بعد وفاة قائد الثورة لينين. وكان رينوفيف قبل عزله عن منصبه رئيس حركة الشيوعيين الدولية. ويبدو أن جوزيف ستالين طرده من الحزب الشيوعى بتهمة الانحراف عن مسار الحكومة السوفيتية، وصدر قرار بإعدامه فى ٢٥ أغسطس عام ١٩٣٦م.

٢٤ ـ أعدم بنيتو موسولينى رئيس النظام الفاشستى الإيطالى بواسطة الوطنيين الإيطاليين الذين عانوا من ويلات الحرب العالمية الثانية والديكتاتورية الفاشستية التى حولت إيطاليا إلى مجتمع يعيش تحت حصار الخوف والطغيان، وذلك فى ٢٨ أبريل عام ١٩٤٥م.

* الإعدام السياسى فى الأديان السماوية:

ربما تكون أول محاولة إعدام سياسى مسجلة بالتفصيل فى التاريخ الدينى للبشرية، هى محاولة إعدام الرسول إبراهيم عليه السلام الذى حاول هداية شعبه إلى دين الله، فأبى القوم ذلك، واستكبروا وحكموا عليه بالإعدام حرقاً بعد أن حطم أصنامهم التى كانوا عاكفين على عبادتها من دون الله.

قال الله تعالى: ﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم. أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ صدق الله العظيم ـ سورة الأنبياء ٦٦ ـ ٧٠.

وسرعان ما أصبح قتل الأنبياء عليهم السلام أسلوباً نظامياً لبنى إسرائيل. فقد حبكوا المؤامرات لإدانة أنبياء الله لهم وليحكموا عليهم بالقتل.. ونذكر هنا على سبيل المثال ما ورد فى سورة يس عن القرية: ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾ وهذه القرية فى أغلب التفسيرات هى أنطاكية. يقول الله تعالى: ﴿واضرب لهم مثلاً

أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون. قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين. قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم. قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون. وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون. وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون. أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون. إنى إذاً لفى ضلال مبين. إنى آمنت بربكم فاسمعون. قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون. بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين﴾ صدق الله العظيم - يس - ١٣ - ٢٧.

ويذكر أن الرجل كان يدعى حبيب بن مرى، وكان نجاراً، وجاء فى ابن كثير[١] عن ابن عباس: كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة فقتله أهله، ولهذا قال تعالى: ﴿قيل ادخل الجنة﴾ يعنى لما قتله قومه أدخله الله الجنة، فلما رأى فيها من النضرة والسرور: ﴿قال يا ليت قومى يعلمون. بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين﴾ يعنى ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لى.

كذلك ورد فى سورة الأعراف أن اليهود كادوا يقتلون هارون شقيق موسى عليه السلام. فعندما غضب موسى من قومه من بنى إسرائيل غادرهم فاتخذوا من العجل صنماً، وكان بينهم هارون أخو موسى عليه السلام. فلما عاد موسى إليهم ورأى ضلالهم عنَّفهم حتى ندموا على ما صنعوا.. أما هارون فقد اشتكى لموسى من أنه لم يتمكن من إرشادهم فى غيابه لأنهم غلاظ القلوب حتى أنهم كادوا يقتلونه.. قال تعالى: ﴿إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين﴾ صدق الله العظيم - الأعراف - ١٥٠.

وفى سورة هود التى جاءت فيها قصة نبى الله شعيب.. قال تعالى: ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾ صدق الله العظيم - سورة هود - ٩١.

ومن الأنبياء الذين تعرضوا للقتل من قبل بنى إسرائيل، النبى شعيا بن أمصيا.. قال

---

(١) قصص الأنبياء - للحافظ ابن كثير - تحقيق محمد أحمد عبدالعزيز - دار الحديث للنشر - القاهرة.

ابن إسحق: «ثم لما مات حزقيا ملك بنى إسرائيل، مرج أمرهم، واختلطت أحداثهم، وكثر شرهم، فأوصى الله تعالى إلى شعيا (وهو نبى جاء قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام) فقام فيهم فوعظهم وذكّرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه. فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها. فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها»(١).

كذلك قتل اليهود نبى الله يحيى عليه السلام، فقد ذكر ابن كثير أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له زواجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقى فى نفسها منه. فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه فى طست إلى عندها، فيقال أنها هلكت من فورها وساعتها. وقيل (فى رواية أخرى) بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت فى أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه فى طست(٢).

قال الثورى عن الأعمش عن شملة بن عطية قال: قتل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبياً، منهم يحيى بن زكريا عليه السلام»(٣).

ولقد أورد القرآن الكريم العديد من الآيات التى تدل على قيام بنى إسرائيل بقتل الأنبياء منها ما ورد فى سورة البقرة ـ الآية ٨٧: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾.

وما جاء بسورة البقرة كذلك ـ الآية ٩١:

﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾.

---

(١) قصص الأنبياء ـ للحافظ ابن كثير ـ مرجع سابق.
(٢) المرجع السابق نفسه.. ويمكن للزائر لمتحف الفاتيكان بالعاصمة الإيطالية روما أن يشهد لوحة الفنان المبدع مايكل أنجلو التى رسمها ـ كما تصور ـ لرأس يوحنا المعمدان وهو مقطوع وموضوع فى طست تحمله امرأة بدت وكأنها خادمة، بينما تهم بوضعه ـ أى الرأس ـ تتدلى منه لحية طويلة بيضاء مخضبة بالدم ـ فى جوال تفتحه لها خادمة أخرى.
(٣) قصص الأنبياء ـ للحافظ ابن كثير ـ مرجع سابق.

وما جاء فى سورة النساء - الآية ١٥٥:

﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾.

وما جاء فى سورة المائدة - الآية ٧٠:

﴿لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رُسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ صدق الله العظيم.

كذلك أوضح كتاب العهد القديم، أن بنى إسرائيل قتلة لأنبياء الله، فقد ورد فى سفر الملوك الأول - الإصحاح التاسع عشر ما يلي على لسان النبى إيليا: «وكان كلام الرب إليه يقول له مالك هاهنا يا إيليا. فقال قد غرت غيرةً للرب إله الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذبحك وقتلوا أنبياءك بالسيف، فبقيت أنا وحدى وهم يطلبون نفسى ليأخذوها».

أما كتاب العهد الجديد، فقد جاء فى إنجيل متى، بالفصل الثالث والعشرين:

«هكذا أنتم تبدون للناس فى ظاهركم أبراراً، فى حين أنكم فى باطنكم ممتلئون رياءً وإثماً - الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون[1] المراءون لأنكم تبنون قبور الأنبياء، وتزينون مدافن الصديقين، وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا لما كنا شركاء لهم فى دم الأنبياء. فاملأوا أنتم إلى الحافة إذن مكيال آبائكم - أيها الثعابين بنى الأفاعى كيف تفلتون من دينونة جهنم - لذلك ها أنذا أرسل إليكم أنبياء وحكماء ومعلمين، فبعضهم تقتلون وتصلبون، وبعضهم تجلدون فى مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة - كى يقع عليكم وزر كل دم زكى سفك على الأرض من دم هابيل البار إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح - الحق أقول لكم إن هذا كله سيقع على هذا الجيل.

يا أورشليم، يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم من مرة أردت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا - هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً...».

---

(١) يقصد بالكتبة علماء وكتاب الشريعة اليهودية وخاصة مايرتبط منها بتعاليم التلمود. أما الفريسيون، فهم فئة متطرفة من اليهود القدامى كانت ثقافتهم تتركز على حفظ التعاليم القديمة ونقلها إلى الأجيال الأحدث، وكلاهما لم يؤمن أبداً بتعاليم المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

الفصـــل الثـــانى

الإعـــدام الســياســى فى العصور القديمة

يكاد يكون من العسير على الباحث فى تاريخ مصر الفرعونية أن يجد عوناً كبيراً من المصادر التاريخية عن ظاهرة الإعدام السياسى فى ذلك الوقت البعيد.. فلقد ألغى إمبراطور الدولة الرومانية تيودور الأول استخدام اللغة المصرية القديمة عام* ٣٩١ ميلادية، مما أدى إلى زوالها من الوجود واختفاء كتبها ومتحدثيها ومؤرخيها معها، فنتج عن ذلك انغلاق كتاب الحضارة الفرعونية لمدة تقرب من ألف وخمسمائة عام إلى أن جاء العالم الفرنسى الكبير جان فرانسوا شامبليون، وكشف للعالم عام ١٨٢٢ سر اللغة الهيروغليفية القديمة.

ومع أن ذلك الحدث كان هاماً للغاية، إلا أنه لم يكن كافياً لمعرفة تفاصيل كل ما كان يحدث فى مصر الفرعونية على مدى ما لا يقل عن ثلاثة آلاف عام. فالتاريخ الفرعونى تاريخ حافل بالأسرار والخفايا والطلاسم فى معظم حقبه.. ولا يعود ذلك إلى طبيعة النظام السياسى فى ذلك الوقت بقدر ما يعود إلى ضياع السجلات أو سرقتها أو حرقها أو تمويهها على مدى القرون الطويلة الممتدة.. كذلك تعود قلة المصادر الموثوق بها عن ظواهر الحياة السياسية إلى خضوع مصر بعد ضعف المؤسسة السياسية والعسكرية الفرعونية إلى الاحتلال الأجنبى (مثل الفرس والإغريق والرومان) الذى حاول كثيراً طمس الحقائق وتشويه الحضارة التى كانت راسخة على مدى تاريخ الفراعنة الممتد.

ومهما كان الأمر، فقد بقى الكثير من تاريخ مصر حياً واضحاً، وأخذ العلماء الأفذاذ على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين فى تحليل كل المستندات والوثائق والكتابات التى عثروا عليها فى كل أنحاء مصر، ليظهروا للعالم كله أن مصر كانت الدولة الأم للحضارة البشرية وأن القانون كان يطبق فيها لحماية المجتمع ومؤسساته، والأفراد وما يملكون.

ظاهرة الإعدام السياسى فى التاريخ الفرعونى:

«يعتبر شامبليون أن الإعدام كان عقاب كل جناية، ثم بدأ فى وقت لاحق التخفيف فى استعمال عقوبة الإعدام لا سيما مع بداية عهد (مينا) موحد القطرين الذى أصدر ـ وفقاً لما يقرره شامبليون ـ أول التشريعات المكتوبة، ويعتبره شامبليون أول من أوجد فكرة تدرج العقوبات، وإن كانت العقوبات بوجه عام قد اتسمت بالقسوة والشراسة، بل إنه رغم جهود (مينا) ظلت عقوبة الإعدام منتشرة وباقية فى التشريع الجنائى[١].

ولا يمكن فى الحقيقة إنكار وجود الإعدام السياسى فى أى حقبة من حقب التاريخ المصرى القديم ومنذ بدايته.. فالمشاهد للوحة الملك مينا (مؤسس الأسرة الفرعونية الأولى حوالى عام ٣٢٠٠ ق. م) يلاحظ الملك واقفاً ممسكاً بيده اليسرى لشعر أسير راكع أمامه، وفى يده اليمنى آلة قوية يضرب بها رأس ذلك الأسير أو رقبته، ولا شك أن تلك الآلة (السلاح) كانت كافية لقتل الأسير.

أما فى الوجه الثانى لنفس اللوحة، فنرى الملك واقفاً على اليسار وهو متوج وأمامه بعض حرسه يرفعون أعلام النصر، وإلى اليمين من ذلك، هناك عشرة جنود من جنود الأعداء قطعت رؤوسهم ووضعت بين أرجلهم.

واللوحة بوجهيها تظهر الأسرى فى زى وطنى مصرى محلى وآخرين فى زى فارس (آسيوى) أجنبى.. وهذا يدل على أن الإعدام السياسى كان يطبق على الأعداء السياسيين من الداخل والخارج معاً.. ويدل على أن الملك مينا كان يواجه أخطاراً خارجية وداخلية على حد سواء. وربما تعطينا تلك اللوحة موجزاً فريداً من نوعه عن كيف وحد الملك مينا الوجه البحرى والوجه القبلى فى مصر، وجعل البلاد موحدة لتقف كوحدة سياسية قوية أمام أعداء الخارج.

وباستقرار الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر اتضح أن المصريين قد صنفوا الجرائم والعقوبات بحيث يسهل للهيئة القضائية التعامل مع المجرمين. فكانت هناك الجنايات الخطيرة مثل القتل وممارسة الشعوذة ومهاجمة المقدسات أو الدين والخيانة

---

(١) القانون الجنائى عند الفراعنة ـ الدكتور عبدالرحيم صدقى محمد حسنى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٦.

العظمى والتآمر. وكانت عقوبة تلك الجرائم الإعدام. كذلك كانت هناك جرائم الجنح كالسرقة والتزوير والرشوة والزنا ولم يكن الإعدام عقابا لها بل السجن (الأشغال الشاقة أحيانا) أو تشويه الجسد أو قطع أحد أطرافه.

طرق تنفيذ الإعدام فى العصور الفرعونية:

لم يكن الإعدام فى مصر الفرعونية ينفذ بآلية واحدة لا تتغير بل كانت هناك طرق عديدة لتنفيذه يمكن إجمالها فى طريقتين: الأولى وهى الإعدام السريع باستخدام الشنق وذلك بتعليق المجرم (أو الضحية) من رقبته بحبل قوى حتى يموت.. أو باستخدام السيف الحاد لقطع عنقه. وقد طبقت هاتان الوسيلتان فى حالات عديدة منها انتهاك حرمات المعابد أو رجال الدين أو ممارسة السحر بطريقة غير مشروعة أو القتل مع سبق الإصرار أو التقاعس عن حماية الفرعون أو عدم طاعته.

أما الطريقة الثانية، فكان الإعدام يستخدم مصحوباً بإيقاع الألم الشديد بالمجرم الذى أدين بخيانة وطنه أو دينه أو النظام السياسى الذى يسنه الفرعون.. وكذلك ضد من يقوم بالتمرد على الدولة أو الهرب من القتال أو التجسس لصالح الأعداء، وكان المجرم يتعرض لتعذيب شديد ينصب أساساً على استخدام النار على جسده!

وكقاعدة عامة، يمكن القول أن الإعدام السياسى كان وسيلة حاسمة فى مصر الفرعونية للقضاء على الأعداء أو التخلص منهم أو ردعهم وردع من يسير نهجهم سواء من الداخل أو من الخارج. ففى الداخل كان الإعدام وسيلة تتخذ لمعاقبة الخارجين عن الفرعون سواء فى مؤامرات فردية أو ثورات جماعية. أما فى الخارج فكان كل من تسول له نفسه الاعتداء على مصر كان مصيره القتل... ومع ذلك فالتاريخ المصرى لم يقصص علينا بالتفاصيل الدقيقة عدد المؤامرات أو النهاية التى انتهى معها الخارجون على الفرعون إلا فى حالات معدودة. كذلك لا يقص علينا ذلك التاريخ البالغ القدم تفاصيل عمليات الإعدام السياسى التى حدثت إبان الثورات الكبرى فى تاريخ مصر الفرعونية.

ومهما كان الأمر فإن العدد المحدود من المؤامرات والثورات الاجتماعية يمكن أن

يعطينا قدراً لا بأس به من المعرفةعن ظاهرة الإعدام السياسى فى مصر الفرعونية، وعلى هذا فإن السرد التالى يمكن أن يظهر أهم تلك الحالات.

***

ينقسم التاريخ المصرى الفرعونى إلى ثلاث إمبراطوريات كبيرة قوية هى إمبراطورية الدولة القديمة التى ظهرت عام ٣٢٠٠ ق. م والتى حوت ست أسر، تلاها عهد اضمحلال وثورات اجتماعية غيرت الكثير من القيم السياسية والاجتماعية فى مصر، ثم ظهرت إمبراطورية الدولة الوسطى التى بدأت حوالى عام ٢٢٠٠ ق. م، وشملت أسرتين قويتين هما الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة، وتلى ذلك عهد الاضمحلال الثانى وثورات اجتماعية وانهيار للحكومة المركزية ودخول الهكسوس مصر إلى أن بدأت إمبراطورية الدولة الحديثة، البالغة القوة والازدهار حوالى عام ١٣٠٠ ق. م وشملت الأسر من الثامنة عشرة حتى الأسرة العشرين.. وتلتها أسر ضعيفة وهددت مصر من قبل أعداء الخارج عدة مرات كما سنرى.

١ ـ الإعدام السياسى فى الدولة القديمة:

لم تنبثق الحضارة المصرية فجأة فى بداية القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد، ولكن لا شك أن هناك حياة متحضرة سبقت ذلك التاريخ على ضفاف وادى النيل قد ظهرت وتطورت على مدى ألفى عام قبل ذلك.

وإنما يعود تسجيل بداية الأسرة الأولى بعام ٣٢٠٠ ق. م، إلى تقسيم مانيتون الشهير للأسر الفرعونية الثلاثين.

ونحن نعلم أن النظرية العامة لعلم الاجتماع السياسى فى نشأة الإمبراطوريات عبر التاريخ، إنما تعتمد على أن القوة هى الوسيلة المباشرة للنشوء والوسيلة المباشرة كذلك للارتقاء، وعلى هذا فإن الدولة القديمة فى مصر الفرعونية قد تأسست على مبدأ القوة.

وبالرغم من أن هناك دليلين فقط على صحة ذلك إلا أنهما يؤكدان هذه النظرية تأكيداً واضحاً. فهناك أولاً مصادر التاريخ المصرى القديمة التى أوضحت لنا أن الملك مينا قد وحد قطرى مصر البحرى والقبلى بعد عناء طويل وحروب دموية مروعة (حتى أن لوحته المشهورة تفيد بأنه أعدم ستة آلاف أسير من الأعداء).

لقد خرج الملك مينا بقواته من صعيد مصر (من العاصمة نخن أو هيراتو نبولس) وحارب مملكة الدلتا وهزمها ثم تزوج من أميرتها (نيت حتب)، وأسس بذلك الدولة القديمة. ولقد أكد هيرودوت على أن الملك مينا هو مؤسس الأسرة الأولى، وأكدت على ذلك أيضاً بردية تورين[1] التى دونت اسم الملك مينا على أنه أول ملك يوحد مصر.

أما الدليل المادى الثانى، الذى يدعم وجود عنف سياسى وإعدام سياسى بالضرورة - فى ذلك الوقت - أثناء تأسيس الدولة القديمة، فهى تلك اللوحة الأثرية البالغة القيمة والدلالة للملك مينا والتى وجدت فى العاصمة القديمة للصعيد وهى نخن (تابعة لمدينة إدفو بأسوان اليوم) ويمكن للزائر للمتحف المصرى بمدينة القاهرة أن يراها فى الطابق الأرضى من المتحف.. وقد سبق شرح تفاصيل تلك اللوحة من قبل.

وبانتهاء عصر الأسرة الأولى وظهور الأسرة الثانية تفككت وحدة البلاد ودارت حروب مهلكة ماتت فيها أعداد كبيرة من سكان مصر، ولقد استمر ذلك الحال إلى أن حدثت فتنة دينية قام بها الملك (سخم ايب) الذى تمرد على عبادة الإله حورس وتحول إلى عبادة الإله (ست)، ولما كان حورس إلها للخير وست إلها للشر فإن ذلك قد أحدث رد فعل شديدا فى مصر.. وربما يزداد الأمر سوءاً لو علمنا أن ذلك الملك قد حول عاصمة مصر من الشمال إلى الجنوب مما يعنى العودة إلى مرحلة ما قبل الاتحاد. ويبدو أن ذلك الملك قد اعتقل وأعدم، ويؤيد ذلك أن الإعدام كان عقوبة لكل من لا يحترم الآلهة، ويؤيده كذلك أن اسم ذلك الملك قد حذف من بعض السجلات الملكية. ويبدو أن الذى قام بذلك هوالملك الجديد (خع سخم) الذى رد الاعتبار للإله حورس.

---

(١) بردية تورين: تعتبر هذه البردية من أكثر الآثار أهمية، وتنفرد عن غيرها بخصائص تميزها ولم تعرف لغيرها. فمادتها من نسيج البردى وليست من الحجر، ولم يكتف كاتبها بذكر الملوك والحوادث التى حدثت فى عهودهم، بل حاول أن يبوب عصورهم تبويباً تاريخياً منسوباً إلى عواصم الحكم. ويرجح أن هذه البردية كتبت فى عهد رمسيس الثانى فى الأسرة التاسعة عشرة فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد عثر عليها العالم الإيطالى دروفتى عام ١٨٢٠م. على أنه مما يؤسف له أنها لم تصل إلينا سالمة، ولو أنها وصلت كذلك لكانت تعد أهم وثيقة فى تاريخ مصر القديم. ولقد مزقت بردية تورين إلى قطع عدة ونقلت إلى متحف تورين بإيطاليا ونسبت إليه، ولم يتمكن العلماء حتى الآن من ضم ماوجد من أجزائها المبعثرة، ووضعها فى مكانها الأصلى. انظر سليم حسن: مصر القديمة، وكما جاء فى كتاب: دروس فى تاريخ القانون المصرى. الدكتور محمد عبدالهادى الشقنقيرى - الجزء الأول ١٩٩٣.

وإزاء ذلك الضعف الذى عاشته البلاد إبان الأسرة الثانية قام الغزاة الليبيون بغزو مصر.. ولكن الملك (خع سخم) تصدى لهم.. وقد سجل انتصاره على الليبيين فوق تمثالين وجدا له بالقرب من إدفو، حيث أسر من الغزاة خمسين ألفاً أخذ يعدمهم بطرق شتى... وإذا كان هذا ما حدث فإنه يدل على كبر حجم قوات الغزو، ويشير كذلك إلى ضخامة وقوة الجيش المصرى الذى تمكن من أسر هذا العدد الكبير من الأسرى وذبحهم، ولابد أن معارك هذه نتيجتها إنما توضح مبلغ الأطماع الخارجية فى خيرات مصر فى ذلك العهد البالغ القدم.

ومهما كان الأمر فقد انتهت الأسرة الثانية بعد حكم دام حوالى مائتين وخمسين عاماً (أما الأولى فقد دامت حوالى المائة) لتبدأ الأسرة الثالثة التى شهدت ازدهاراً لم يسبق له مثيل فى مصر. إذ ظهر فى بداية تلك الأسرة الملك زوسر الذى حكم من العاصمة منف (إلى الجنوب الغربى من القاهرة) وكانت مصر على عهده موحدة قوية، فتفرغ لبعض الوقت لبناء أول هرم حجرى فى التاريخ وهو المعروف بهرم زوسر المدرج الموجود حتى اليوم بصحراء سقارة وذلك حوالى عام ٢٨١٥ ق. م. والذى يبلغ ارتفاعه حوالى ستين متراً، والذى وضع تصميمه ذلك المهندس المبدع (إمحتب) ليكون مقبرة ملكية تخلد جسد زوسر من الفناء على حسب المعتقدات الدينية التى سادت فى ذلك العصر.

ولقد كان زوسر ملكاً قوياً حمى حدود مصر شرقاً وغرباً وجنوباً فلا زالت له آثار، بها بعض من سيرته فى شبه جزيرة سيناء وهو يعدم عدواً من أعدائه الشرقيين هناك. كذلك قام ذلك الملك بشن حملة كبيرة لإعادة إخضاع بلاد النوبة التى كانت كثيرة التمرد على الحكم المصرى القديم.

ولقد توالى على مصر عدة ملوك لم يسرد التاريخ لنا كثيراً من أعمالهم حتى انتهت أسرتهم لتبدأ الأسرة الرابعة حوالى عام ٢٧٢٣ ق. م بعهد الملك سنفرو.. وليس هناك شواهد تاريخية تذكر على أنه اعتلى حكم مصر نتيجة انقلاب أو ثورة، فما تزال (منف) هى العاصمة، وما تزال الآلهة التى عرفت من قبل كما هى على عهده.. ويبدو أن الازدهار الاقتصادى وتراكم الخبرة قد ارتقيا بالأخلاق المصرية ارتقاءً كبيراً حتى أن الملك سنفرو اشتهر بالعدالة، فأضاف إلى اسمه اسم (ماعت) وهو إله العدل والحق.. ولقد

حافظ الملك سنفرو (الذى شيد هرمين باسمه جنوب سقارة) على السيادة المصرية على شبه جزيرة سيناء حيث عاقب المتمردين هناك، وأرسل حملة حربية كبيرة إلى بلاد النوبة لإخماد تمرد واسع النطاق بها ضد الإدارة المصرية عادت بحوالى سبعة آلاف أسير نوبى، وليست هناك شواهد على المصير الذى انتهى إليه هؤلاء بعد أسرهم. كذلك تمكن سنفرو من التصدى لغزو ليبى وإن كان محدوداً وأسر حوالى ألفى أسير فى حملة حربية أنقذت بعض أجزاء من الدلتا.

وقد خلف الملك سنفرو ابنه الملك خوفو الذى شيد الهرم الأكبر الشامخ وجاء بعده الملك خفرع ثم ابنه منقرع.. وفى عهود هؤلاء الملوك الثلاثة تمتعت مصر بالازدهار والاستقرار والأمن والسلامة إلى أن انقضى عصرهم فقوى نفوذ كهنة رع بمدينة عين شمس (هليوبوليس) فاستولوا على السلطة السياسية وأسسوا الأسرة الخامسة حوالى عام ٢٥٦٣ ق. م. ولقد كان حكمهم دينياً فلم يتمكنوا على المدى الطويل من تسييس البلاد وإدارتها فطمع حكام الأقاليم فى السلطة وأنهوا دولة الكهنة وأسسوا الأسرة السادسة الضعيفة بعد أن مات الملك أوناس الطيب[١].

ولقد بدأت الأسرة السادسة حكمها حوالى عام ٢٤٢٣ ق. م وكان أول ملوكها الملك (تتى) الذى وصل إلى الحكم عن طريق زواجه من ابنة الملك أوناس. ومع ذلك فيبدو أن صراعاً قد دار بين (تتى) وبين أعدائه من الأسرة الخامسة انتهى بمصرعه وتولى (أوسر كارع) وهو من بقايا العهد الملكى للأسرة الخامسة للحكم، ولكنه هو أيضا اختفى بعد سنوات قليلة ليأتى الملك القوى (بيبى الأول) الذى حكم مصر على مدى ربع قرن تقريباً تمكن فيها من المحافظة على مصر، وضم بلاد النوبة الجنوبية إلى البلاد المصرية. كذلك شهد عصره خروج حملة عسكرية مصرية كبيرة إلى فلسطين والشام حيث قتل فيها عشرات الآلاف من أعداء مصر، وقد عادت الحملة بعدد كبير من الأسرى وصلوا إلى مصر مكبلين ولا يعرف مصيرهم بعد ذلك.

(١) يذكر المؤرخ المصرى (مورى) تعليقاً على حب الملك أوناس للعدالة أن نصوص هرم أوناس قد أوضحت أنه بعد وفاته وذهابه للمحاكمة أمام الآلهة المصريين القدماء، وقف أوناس أمام الوحش الرابض فى المحكمة (والذى كان يلتهم الطغاة) وقد اعتراه الخوف، ولكنه خرج بعد ذلك ومعه آلهة الحق والعدل، ولم يلق فى النار، فمعنى ذلك أنه لو كانت المحكمة قد حكمت ضده لكان العذاب الذى ينتظره أن يترك للوحش يفترسه أو يلقى فى النار.. ومعنى ذلك أن الملك صار يستحق أن تفتح له أبواب السماء وأن يأخذ مكاناً له فى سفينة رع.. انظر: على هامش التاريخ المصرى القديم ـ عبدالقادر حمزة ـ كتاب الشعب ـ القاهرة ١٩٥٧.

ولقد تبع الملك (بيبى الأول) بعد وفاته ابنه (مرنرع) ثم أخوه بيبى الثانى الذى دام حكمه حوالى مائة سنة فى نهايتها ضعفت سلطته على البلاد حتى طمع فيها حكام الأقاليم، فجاء إلى حكم مصر ملوك ضعاف تغيروا تباعاً فاستقل كل حاكم بإقليمه وتفككت أواصر الدولة ليطوى التاريخ صفحة الدولة القديمة.

عصر الاضمحلال الأول:

صاحب التدهور السريع فى مصر فى ذلك العصر تدهور مماثل فى القيم التى سادت إبان عصر الدولة القديمة... حيث اكتشف المصريون الوهم الكبير الذى عاشوا مؤمنين به وهو أن البعث - بعد الموت - مرتبط بتشييد المقابر الضخمة كالأهرامات فهاهم يرون أجدادهم وقد بليت أجسادهم وسرقت مقابرهم دون أن يبعثوا - ببركة تلك الأهرامات - مرة أخرى، ولهذا نراهم فيما بعد يكفون عن بناء الأهرام ويكتفون بتشييد مقابر ملوكهم داخل الجبال.

وإزاء ذلك الضعف غدت مصر عرضة لكل أنواع الفوضى، حتى وصف أحد الحكماء حال البلاد قائلا: «عمت الفوضى ووقف دولاب العمل الحكومى... ورمى الناس ملفات القوانين والمحاكم على الأرض وداسوا عليها فى الأماكن العامة، وأخذ عامة الناس يفتحونها فى وسط الطريق».

ويعلق عالم المصريات الكبير جيمس هنرى برستيد على تلك الثورة الاجتماعية قائلاً: وقف التعامل الاقتصادى وتغيرت الأوضاع الاجتماعية تغيراً تاماً، وعفت الأيام على القيم الأخلاقية التى اعتبرها الناس مثلهم العليا، تلك القيم التى وصلت إليها الإنسانية بعد ألفى سنة تقريباً، وجاءت نتيجة للحياة المنظمة، وظن القوم أنها خالدة»[1].

ويذكر أن أسباب تلك الثورة تشمل أسباباً اقتصادية وهى كثرة النفقات التى خصصت لبناء الأهرامات والمعابد والأموال التى خصصت لحمايتها، مما زاد من الضرائب المفروضة على الشعب. وهناك أسباب سياسية وهى قيام أمراء الأقاليم بالاستقلال عن الدولة... أما الأسباب الاجتماعية فهى تفشى الفساد والظلم وعدم العدالة الاجتماعية.

---

(١) انتصار الحضارة (تاريخ الشرق القديم) - جميس هنرى برستيد - ترجمة الدكتور أحمد فخرى - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة.

ولقد بدأت كل تلك الأسباب تتكاتف فى عهد الملك (مرى آن رع) الذى فشل فى حل المتناقضات، وتماديه فى القتل والإسراف فى الطغيان فثارت الرعية عليه وقتلوه.

ولقد استمرت الفوضى بطول البلاد وعرضها ليس فقط على الملوك ولكن على كل الطبقة المالكة، فكأن الظلم الاجتماعى كان السبب المحرك للثورة.

يقول الحكيم إيبور تعليقاً على مجريات تلك الثورة: «انظر، لقد هوجمت الإدارات العامة ونهبت قوائمها، وأذيعت أسرار التعاويذ السحرية.. وفى الحق لقد ذبح الموظفون وسلبت دفاترهم ولم تعد لكبار الموظفين كلمة مسموعة». «انظر لقد تجاسر الثائرون مخربو البلاد الملكية، وأصبح الناس يظهرون العداء للملك وما خبأته الأهرام أصبح خلوا». «لقد امتلأت البلاد بالعصابات حتى ليذهب الرجل إلى حقله حاملاً درعه». «إن الرجل ليذبح بجوار أخيه فيتركه وحيداً لينجو بنفسه» «الحكام أصبحوا جياعاً وفى بؤس شديد، وقضاة البلاد قد طردوا من طول الأرض ورؤساء البلد يهرولون دون أن يكون لهم عمل، وشمل انتقام الشعب أبناء الأمراء ومومياواتهم»(١).

ولا يعرف بالتحديد وسط تلك الفوضى الواسعة النطاق والتى لم تكن العاصمة منف بؤرتها الوحيدة، عدد الذين قتلوا أو ذبحوا أو أعدموا.. فهى حرب أهلية بكل المعانى الدموية لتلك الحرب.

وإذا علمنا أن عقيدة المصريين القدماء كانت تؤله الملوك، فهم لايخطئون ولا يظلمون ولا يسرقون، لعلمنا حجم المرارة التى مر بها المصريون لكى يثوروا على حكامهم ويحطموا كل رموزهم ونظمهم ولوائحهم، وأخذوا يطالبون بالعدالة الاجتماعية.

٢ ـ الإعدام السياسى فى الدولة الوسطى:

بدأت الدولة الوسطى بظهور مؤسس الأسرة الحادية عشرة، وهو الملك (منتحوتب الأول) الذى نجح فى هزيمة أمراء الأقاليم وفرض نفوذ حكومته المركزية القوية على مجمل أرجاء مصر. ويبدو أن بعض هؤلاء الأمراء قد مكن الليبيين من تهديد حدود مصر

(١) للمزيد من التفاصيل راجع: حكماء وادى النيل ـ تأليف محمد العزب موسى ـ كتاب اليوم ـ يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم ـ نوفمبر ١٩٩٠.

الغربية، فنرى الملك منتحوتب يقود حملات حربية طاردت الغزاة وأسرت قائدهم حيث تم إعدامه. ولم يكن الليبيون فقط هم الذين هددوا الكيان المصرى بل النوبيون كذلك فقام الملك بإرسال العديد من الفرق العسكرية لإخضاع النوبيين.

وفى عهد الملك (نبتاوى رع منتحوتب) جاء النيل منخفضاً فى بعض السنين واشتدت المجاعة وأدت إلى ثورة فقد فيها الملك عرشه وخلفه عليه وزيره امنمحات وبذلك انتهت الأسرة الحادية عشرة (التى كانت قد بدأت حوالى عام ٢٠٦٥ ق. م).

وابتدأت الأسرة الثانية عشرة[١] وهى من أقوى الأسر الفرعونية التى حكمت مصر لأكثر من مائتى عام. ولقد بدأ امنمحات الأول عهده بإقرار السلام والأمن فى محافظات مصر التى كان قد سيطر عليها أمراء الأقاليم، ثم إنه اختار عاصمة جديدة لمصر تقع على بعد ثلاثين كيلو متراً إلى الجنوب من منف سماها (أتت تاوى) بمعنى المشرفة على الوجهين (القبلى والبحرى) وتمكن بها من الدفاع عن الدلتا ضد بعض غارات الآسيويين، وإتمام السيطرة على بلاد النوبة.. وتختلف بعض كتب التاريخ على النهاية التى انتهى إليها امنمحات الأول، فالبعض يقول أنه اغتيل والبعض يقول أنه نجا من الاغتيال.. ومهما كان الأمر فإنه من المؤكد أن محاولة واحدة لاغتياله قد وقعت فقام بتدوين رسالة لابنه يتحدث فيها بألم عن الذين خانوه (بردية تنبؤات نفرتى) ويقول: «... ولكن الذى أكل طعامى هو الذى حرض الجنود علىّ، والذى أطعمته يدى هو نفسه الذى استطاع بواسطتها أن يحدث الفزع! ويستمر امنمحات فى ذكر جحود الذين أغدق عليهم نعمه ثم يقول: كان ذلك بعد تناول الطعام عندما حل المساء، خلدت لساعة من الراحة مستلقيا على سريرى لأنى كنت متعباً وعند ذلك سمع صليل الأسلحة ورأى اشتباك حراسه مع المهاجمين، ولكن سرعان ما حدثت النكبة قبل أن يتمكن الملك من النهوض من فراشه، لو أننى أسرعت وبيدى أسلحتى لجعلت الجبناء يتقهقرون، ولكن لا شجاع فى الليل ولا قتال لمن كان وحده ولن يتم النجاح دون حام»[٢].

ولقد خلف امنمحات الأول ابنه سنو سرت الأول ثم خلف هذا امنمحات الثانى ثم

---

(١) انظر أحداثاً مماثلة عن النيل وقلة فيضانه فى: على هامش التاريخ المصرى القديم ـ عبدالقادر حمزة ـ مطابع الشعب ـ كتاب الشعب ـ القاهرة ١٩٥٧.

(٢) مصر الفرعونية ـ تأليف الدكتور أحمد فخرى ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٠.

امنمحات الثالث، وفى عهدهم نعمت مصر بالأمن والاستقرار والرخاء فلم نسمع عن تمردات أو انقسامات، ولقد وصفت كتب التاريخ كافة عصورهم بأنها من أزهى العصور التى عاشها المصريون فى الدولة الوسطى.

وبانتهاء عهد الأسرة الثانية عشرة بموت الملكة (سبك نفرو) «احتفظت مصر بوحدتها بضع سنين.. ثم صارت فريسة للمنازعات الداخلية، فبدأ بذلك عصر من أظلم عصور التاريخ المصرى القديم ودام مدة قرنين، وحكم البلاد فيه ملوك ضعاف كونوا الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، واتخذوا عاصمتهم فى مدينتى طيبة بالصعيد، وسخا فى الشمال الغربى بالدلتا، على التوالى، ونكاد لا نعرف شيئاً عن معظمهم. وقد ساعد ضعف ملوك هاتين الأسرتين على انقسام مصر واضمحلال قوتها وسيادة الفوضى فى أرجائها مدة أخرى، فانتهز جيرانها الغزاة الآسيويون هذه الفرصة وأغاروا عليها، وهكذا تولى حكم البلاد ملوك من الأجانب القساة»[1].

لقد شهدت مصر هجوماً كاسحاً من الشرق بواسطة الهكسوس وتعرضت مدن كثيرة فى الدلتا للتدمير والخراب ولم تسلم كثير من المعابد من الانتهاك، وبحلول عام ١٦٧٤ ق. م تمكن الهكسوس من احتلال مدينة منف بعد معارك ضارية استمرت أربعة عقود أو أكثر وأخذوا فى الاعتداء المنظم على الملكيات العامة والخاصة بطول البلاد وعرضها فقاسى المصريون ويلات الاغتصاب والتشريد والطغيان بعد طول ازدهار ورقى.. وبالرغم من ذلك فقد قام أمراء مصريون أفذاذ بمحاولات متكررة لطرد الهكسوس استمرت على مدى بقائهم فى مصر (حوالى القرنين) وكان من هؤلاء الأمراء (سقنن رع) و (كاموزا) ثم جاء (أحمس) ليكون الرجل العظيم الذى تمكن من طردهم النهائى عن البلاد ومطاردتهم حتى جنوب الشام وحدود مصر الشرقية خشية التسلل إليها مرة أخرى.

٣ ـ الإعدام السياسى فى الدولة الحديثة:

يعتبر الملك أحمس هو المؤسس للأسرة الثامنة عشرة التى تعتبر أزهى عصور مصر الفرعونية كلها والتى استمرت من عام ١٥٨٠ وحتى عام ١٣٢٠ قبل الميلاد. فقد تحولت

---

(١) مصر فى العصور القديمة ـ تأليف إبراهيم نمر سيف الدين ـ زكى على ـ أحمد نجيب هاشم ـ طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة.

مصر لتصبح دولة بالغة القوة والحيوية ولم يكتف ملوكها بمصر وحدها بل توسعوا شرقاً وغرباً وجنوباً فشكلوا بذلك إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف.

أما عن ظاهرة الإعدام السياسى فى الأسرة الثامنة عشرة فإن المرء لا يجد أنها حدثت لأسباب داخلية، فقد استتب الأمن فى مصر ونعم الناس بالرخاء والاستقرار، فلم تكن هناك تمردات أو طمع فى الحكم كما كان الحال فى عهود الاضمحلال. ومع ذلك فإن الإعدام السياسى كان يحدث للمتمردين فى الولايات التى سيطرت مصر عليها. وكثيرة هى الصور التى نقشت على معابد الأقصر وخاصة معبد الكرنك الضخم والتى توضح الفرعون وهو يعدم أسرى أو أعداء بالجملة، ممن ينتمون إلى قوميات مختلفة هددت مصر، وبالرغم من ذلك فإن هناك من يذكر أن هذه الظاهرة وإن كانت تحدث فى الحروب إلا أنها كانت قليلة الحدوث بعد انتهاء الحرب واعتقال الأسرى.

لقد أفصح جول بابيه فى كتابه (النظام الفرعونى فى علاقاته بتطور التهذيب النفسى فى مصر) عن هذا الاتجاه وقال: إن العرف كان جارياً عند الشعوب كلها بأن للمنتصر أن يذبح الأسرى وينهب أموالهم بل كان جارياً بأن له أن يتصرف كما يشاء فى أرواح أهالى البلاد المغزوة وأموالهم. ولم يخرج على هذا العرف إلا المصريون، لأنهم امتازوا وحدهم - ولا سيما بعد تقدم مدنيتهم - بمعاملة الأسرى وأهالى المدن المغزوة معاملة إذا قيست بالعرف الذى كان جارياً كان فيها الكثير من الرأفة والرفق. فهم لم يحرقوا المدن المغزوة، ولم يسلموا رجالها ونساءها وأطفالها للسيف، كما كان غيرهم يفعلون. كلا، ولم يذبحوا الأسرى، ولم يمثلوا بهم، بل كان كل الذى فعلوه أن ساقوا هؤلاء الأسرى إلى مصر واستخدموهم، كما كانوا يستخدمون العمال المصريين فى أعمال البناء والصناعة والمناجم وأشباهها»(١).

ومع ذلك فقد دون التاريخ المصرى عمليات إعدام من أبرزها «أن الملك أمينوفيس الثانى (امنحتب الثانى) أسر كثيراً من أمراء سوريا (٥٠٠ أمير و٢٤٠ امرأة من نسائهم على ما يقول برستيد) الذين كانوا قد ثاروا عليه بعد موت أبيه تحوتمس الثالث، فعاد بهم إلى مصر، وعلق سبعة منهم فى مقدم سفينته حين وصوله إلى طيبة، ثم قتل ستة من

(١) على هامش التاريخ المصرى القديم - عبدالقادر حمزة - مرجع سابق.

هؤلاء السبعة أمام المعبود أمون فى معبد الكرنك، وعلق رؤوسهم وأيديهم على جدران المعبد، ثم أرسل بالسابع إلى مدينة ناباتا (عاصمة النوبة) فجرى عليه فيها مثل ما جرى على زملائه. وقد علق باييه على هذا الحدث فقال يجب أن يلاحظ أن هؤلاء الأمراء السبعة كانوا آسيويين، وأن العادة كانت جارية فى آسيا بقتل الأسرى، بل بما هو أشنع من قتلهم. ثم قال باييه: على أن العلماء ليسوا متفقين جميعاً على قراءة النص الخاص بهذا الموضوع، لأن منهم من يقرأه بما يفهم منه أن أمينوفيس الثانى لم يعلق الأمراء فى سفينته أحياء، بل علق جثثهم التى كان رجاله قد التقطوها من ميدان القتال، فهو إذن لم يذبحهم، وإنما قطع رؤوس جثثهم وعلقها على جدران الكرنك»[1].

وفى الحقيقة فإن هذا الرأى هو الأقرب للصواب وخاصة فى الدولة الحديثة، بالرغم من عدم إنكار حدوث الإعدام السياسى فى تلك الدولة. ولا يجب أن ننسى أن التاريخ مملوء بحوادث قتل جماعى وحشى قامت بها شعوب عديدة فى البقاع التى ظهرت فيها الحضارات التى صاحبت أو أعقبت الدولة الحديثة فى مصر الفرعونية. وخاصة الآشوريين، ثم الفرس والإغريق والرومان[2]. (كما سنرى فيما بعد).

أما الإعدام السياسى الداخلى، أى من داخل مصر، فهو لم يكن أمراً نادراً كذلك، فقد حدث نزاع مرير بين الملكة حتشبسوت والملك تحتمس الثالث (الذى خلفها) كان من آثاره اختفاؤها فجأة وتدمير معظم آثارها وأعمالها بل وسرقة مقبرتها وجثتها بعد دفنها كذلك، ولا يمكن أن يتم مثل ذلك العمل وأن يطاح بملكة مشهورة مثلها وأن يتخلص من مساعديها بالتالى دون أن يكون هناك قتل أو اغتيال أو إعدام سياسى.

وربما يكون السبب وراء ذلك أن تحتمس الثالث (وكانت حتشبسوت عمته) أنه رأى أن عمته تعطى الكثير من وقتها للفتوحات الجنوبية على حساب استقرار وأمن ولايات الشام وفلسطين، فثار سكان تلك الولايات على الحكم المصرى بعد ضعفه أمامهم، فما كان من تحتمس إلا أن أزاح عمته عن الحكم، وسارع بعد ذلك بإخضاع المتمردين فى ثمانى عشرة حملة ناجحة.

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) انظر فى هذا الصدد على سبيل المثال: مجتمعات تحت حصار الطغيان - عبدالحكيم العفيفى - الزهراء للإعلام العربى - ١٩٩٢.

وفى الأسرة الثامنة عشرة كذلك قتل واحد من أشهر ملوكها وهو امنحتب الرابع (إخناتون) صاحب ديانة التوحيد الخاصة بقرص الشمس والذى أحدث بها انقلاباً هائلاً على العقيدة الخاصة بأمون رع، وكان السبب فى قتله ـ فيما يبدو ـ عزوفه عن دعم النفوذ المصرى بالشام فقام سكانه بالاستقلال عن مصر. ولا يعرف من الذى قتله، إذ خلفه فجأة فرعون صغير هو توت عنخ آمون حوالى عام ١٣٤٠ق.م ثم قتل هو الآخر بعد تسعة أعوام من حكمه، فخلفه الكاهن (آى) لمدة ثلاثة أعوام ثم خلف ذلك (حور محب) وهو قائد عسكرى معروف كان من أهم أعماله القضاء على ديانة قرص الشمس التوحيدية بتل العمارنة التى جاء بها إخناتون.

وبموت حور محب انتهى عصر الأسرة الثامنة عشرة وأسس رمسيس الأول الأسرة التاسعة عشرة التى أنجبت ملوكا عظاماً، كان منهم سيتى الأول ورمسيس الثانى الذى كان أحد أعظم من حكم مصر فى تاريخها الفرعونى وصاحب أقوى جيش مصرى وأكثر الملوك ولعاً ببناء المعابد والمسلات والتماثيل.

فلما مات رمسيس الثانى عن عمر يناهز الثمانين عاماً خلفه ابنه (منبتاح)، «وكان قد ترك له حملاً ثقيلاً: ذلك أن سكان ليبيا أخذوا يتسربون إلى مصر ويسكنون على حافة وادى النيل، عندما هاجر إلى أراضيهم (أى إلى أراضى الليبيين) بعض شعوب البحر المتوسط كالسرادنة، الذين سميت سردينيا باسمهم، وضاقت بهم سبل العيش لقلة مواردهم، واضطروا أن يجدوا لهم مخرجاً، كذلك بحث الغزاة أنفسهم عن موطن خصب يهرعون إليه، ولم يكن أمام الجميع بلاد أغنى وأخصب من مصر»(١).

ولكن عندما هاجم الليبيون دلتا مصر تصدى لهم الملك منبتاح وأوقع بهم هزيمة كاملة، نتج عنها طردهم من مصر ووقوع أعداد كبيرة منهم فى الأسر. ثم قامت ثورة مضادة فى فلسطين، وكانت تحت السيادة المصرية ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة فتصدى لها الملك منبتاح (ويسمى أحياناً مرنبتاح) وأخمدها فعادت مرة أخرى للنفوذ المصرى.

---

(١) مصر فى العصور القديمة (مرجع سابق).

ولقد توفى منبتاح بعد ذلك عام ١١٩٥ ق. م ودفن بوادى الملوك (غربى الأقصر) مثل أجداده، وبذلك دخلت مصر عهد الأسرة العشرين وقد انقسمت فيها إلى ولايات متنازعة حتى جاء الملك رمسيس الثالث (١١٩٢ ـ ١١٦٠ ق. م) الذى تميزت سنوات حكمه الأولى بالانتصار الكبير على الليبيين ثم انتصاره الحاسم على الشعوب الهندو ـ أوربية فى الشام (والتى سجلها على جدران معبد مدينة هابو غرب الأقصر، وكذلك على جدران ساحة معبده بالكرنك شرق الأقصر) . أما فى النصف الثانى من حكمه فقد بدأت الأحوال فى الداخل تتدهور بسبب لهو الملك وإسرافه وإغداقه الأموال والإقطاعات على الكهنة وسماحه للأجانب بأن يتولوا مناصب هامة، وإزاء ذلك كثر الفقراء وبدأت الإضرابات، وتمادى الكهنة فى ظلم الشعب، فشعر أمراء القصر بالخطر، فدبرت إحدى زوجاته عملية لاغتياله بحجة أن رمسيس الثالث رفض تولية ابنها (نبتاؤور) العهد من بعده، وسواء نجحت تلك المؤامرة أم لم تنجح (حيث إن ذلك ليس واضحاً وخاصة فى بردية هاريس الخاصة بتسجيل أعمال وحياة ذلك الملك) فإن محاكمة كاملة قد أجريت للجناة، انتهت إلى إدانة ٣٢ شخصاً تم إعدام أغلبهم سواء من قبل السلطات المختصة أم أجبر المجرم على إنهاء حياته بنفسه.

وبانتهاء عهد رمسيس الثالث، زاد نفوذ كهنة طيبة، فضعفت مصر داخلياً وخارجياً حتى أن مقابر عظماء الملوك فى العاصمة طيبة ذاتها كانت تنهب بكل ما فيها من كنوز وخزائن بالرغم من إعدام من أدين بسرقة تلك المقابر. وسرعان ما انقسمت مصر ذاتها إلى أقسام إدارية وسياسية فى الشمال والجنوب حتى انتهت الأسرة العشرون والأسرة الواحدة والعشرون، وكان سهلاً على الليبيين أن يستولوا على مصر إذن، فحكمها الملك الليبى (شيشنق) عام ٩٥٠ ق. م تقريباً مؤسساً بذلك الأسرة الثانية والعشرين، واستمر حكم الليبيين للبلاد حوالى القرنين حتى ضعفوا، فاستولى على مصر النوبيون بقيادة (بغنخى) عام ٧٣٠ ق. م، واستمروا يحكمونها حتى زوال الأسرة الخامسة والعشرين فظهرت أطماع الآشوريين فى احتلال مصر. وبعد عدة محاولات فاشلة تمكن ملكهم آشور بانيبال من هزيمة الجيش الفرعونى فى الدلتا فزحف بجيشه الضخم نحو العاصمة طيبة فدخلوها «وقتلوا وأسروا كثيراً من أبنائها، ثم نهبوا وأتوا على ما فى معابدها من تماثيل بديعة وأثاث

جميل وأدوات غالية، ونقلوا جزءاً كبيراً من هذه الكنوز إلى عاصمتهم نينوى»[١] وكان ذلك حوالى عام ٦٦٧ ق.م. وباتساع التمرد فى الشام ضد الأشوريين[٢] ضعفت قبضتهم على مصر فاستغل بسماتيك الأول (وهو مصرى) الفرصة وقاد جيشاً فرعونياً تمكن من طرد الأشوريين من البلاد وطارد قواتهم حتى فلسطين، وتفرغ بعد ذلك لتوحيد الإمارات المصرية التى كانت موالية للآشوريين وبالرغم من ذلك فلم يعد لمصر أى مستعمرات خارج حدودها، ثم جاء بعد بسماتيك الأول عدة ملوك أخذت مصر تضعف فى عهودهم تدريجياً إلى أن حان الغزو الفارسى الهمجى لمصر عام ٥٢٥ ق.م، وقد حدث ذلك على عهد الملك بسماتيك الثالث الذى هزمت قواته الحربية (وكانت مكونة من جنود مرتزقة من اليونانيين والليبيين والسوريين)، وتم أسر بسماتيك الثالث وقتل وانتهى عهده، فدخل الفرس الدلتا وخربوا مدنها ثم منف حيث دمروها، «أما الصعيد فلم يقبل أبناؤه الذين لم يكتب عليهم حتى هذه المرحلة هوان المذلة، فظلوا بعيدين عن قبضة الفرس العاتية، وبالتالى لم يعترفوا بسلطانهم عليهم وقضى قمبيز فى أرض الكنانة سنوات ثلاثاً صحبها فى بدايتها كل ما يمكن أن ينتظر من طاغية مستبد، من تخريب ونهب وتدمير»[٣].

ولقد قاوم المصريون الفرس بضراوة فى عدة انتفاضات شعبية منظمة لعل أشهرها - وإن انتهت لصالح الفرس - تلك الثورة التى قادها الزعيم ايناروس عام ٤٥٤ ق.م، ولكن الفرس تمكنوا منه ومن زعماء الثورة الآخرين حيث أعدموهم صلباً، ولكن المصريين تمكنوا فى النهاية من طرد الفرس، وأسسوا الأسرة الثامنة والعشرين التى شكلها ملوك مصريون، والأسرة التاسعة والعشرين ثم الأسرة الثلاثين والتى انتهت فى حوالى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، حيث أخذت أطماع الفرس فى الظهور لاحتلال مصر مرة أخرى حتى نجحوا فى ذلك على عهد الملك (نختنبو الثانى) الذى فر من أمام جيش

---

(١) مصر فى العصور القديمة (مرجع سابق).

(٢) الآشوريون: اسم هؤلاء مشتق من الصيغة (آشور) التى تطلق أيضاً على بلدهم وعلى إلههم القومى. وآشور كان أيضاً اسم لمدينتهم الرئيسية والتى تشرف أطلالها على نهر دجلة فى بلاد الرافدين بين نقطتى التقائه مع الرافدين الزاب الأعلى، والزاب الأسفل.. ولكن فى سنى سيادتهم العظمى كانت زاوية الإقليم بين دجلة والزاب الأعلى هى التى تحتوى على مراكز قواهم: نينوى، وكالح، وأربيل، وكانت هذه المراكز تؤلف قلب موطنهم. انظر لمزيد من التفاصيل : الموسوعة الأثرية العالمية - إشراف ليونارد كوتريل - تأليف ٤٨ عالماً أثرياً - ترجمة الدكتور عبدالقادر محمد، والدكتور زكى اسكندر - مراجعة الدكتور عبدالمنعم أبو بكر - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧.

(٣) تاريخ مصر الفرعونية والشرق الأدنى القديم - د. محمد بيومى مهران - ١٩٨٥.

الفرس واختفى بالنوبة ليدخل الجيش الفارسى مصر محتلاً عام ٣٤٢ ق.م، ليوقع بالمصريين أكثر وأوسع المذابح التى عاشوها فى تاريخهم المعروف من قبل.. ويصف المؤرخ المصرى الكبير إبن إياس تلك الإعدامات والمذابح فيقول: «... ثم دخل مصر وخربها عن آخرها ـ أى زعيم الفرس بختنصر ـ وقتل من أهلها مائة ألف ألف إنسان، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب، ليس بها ديار ولا نافخ نار. فكان النيل يعلو ويهبط فلا يجد من يزرع عليه الأراضى ولا ينتفع به[١] ...».

ثانيا: الإعدام السياسى فى العصر البطلمى:

انبثقت الدولة الإغريقية فى أثينا لتصبح أقوى قوة فى العالم القديم، وذلك فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد.. فقد زالت دولة الفراعنة التى عاشت ثلاثين قرناً من الزمن بعدما أضاءت بصيرة العالم، وضعفت دولة الفرس فى غرب آسيا، ولهذا فلم يكن صعباً على الإغريق أن يسدوا ذلك الفراغ الحضارى والسياسى فى العالم القديم.

دخل الإسكندر الأكبر مصر عام ٣٣٢ ق.م ليقضى على نفوذ الفرس وأخذ يتقرب من المصريين، فذهب إلى معبد آمون رع بطيبة وقدم إلى كهنة مصر الذين اكتنزوا أسرار الحضارة الفرعونية فقدم لهم كل فروض الطاعة والولاء والاحترام، فاعتبروه واحداً من رعايا مصر المخلصين.

وفى الحقيقة فإن الإسكندر الأكبر لم يعامل المصريين على أساس أنهم شعب تحت الاحتلال، بل عاملهم على أساس أنهم شعب عريق له حضارة عريقة وفكر قويم ساعد مساعدة مباشرة على انبثاق الحضارة الإغريقية فى جنوب أوروبا.

وبعد عامين، أى فى عام ٣٣١ ق.م، سارع الإسكندر بتدمير بقية معاقل إمبراطورية الفرس المتهاوية، فهزم زعيمهم (بدارا) فى معركة (جوجميلا)، وانطلق ليبسط نفوذه على مجمل الدول الآسيوية حتى مشارف الصين.

وبوفاة الإسكندر عام ٣٢٣ ق.م، قامت دولة البطالمة فى مصر والتى استمرت حتى دخول الرومان البلاد عام٣٠ ق.م.

---

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ ابن إياس ـ كتاب الشعب ـ الجزء العاشر ـ ١٩٦١.

القانون الجنائى البطلمى:

ضم القانون الجنائى البطلمى عقوبات رادعة لجرائم الخيانة العظمى، والجرائم الدينية وجرائم تغيير الجنسية.

وتعنى جرائم الخيانة العظمى تلك الجرائم التى كان يمكن أن يرتكبها شخص ما وتمس أمن الدولة أو الملك (لأن الملك كان له الحق الإلهى فى الحكم).. ولهذا فإن أى عمل يمس الملك أو نزاهة حكمه أو تصرفاته أو قراراته كان القانون البطلمى ينظر له على أساس أنه جريمة خيانة عظمى.. بل إن بعض المفسرين للقانون البطلمى كانوا يعتبرونها جريمة خطيرة مزدوجة تخص الملك والمقدسات الدينية معاً.

أما الجرائم الدينية الصرفة، فهى الجرائم التى قد يرتكبها البعض وتفسر من قبل المحكمة على أنها اعتداء على المقدسات أو امتهانها أو الاعتداء عليها أو التقليل من قيمتها أو الدعوة إلى ترك عبادة الآلهة أو تدنيس المعابد.. وهى كلها أعمال كانت عقوبتها الإعدام.

كذلك كانت عقوبة الإعدام تنفذ فى كل من يثبت عليه أنه غير الجنسية بطريقة غير قانونية أو كل من ساعد عليها. ويبدو أن ذلك كان مرتبطاً بصورة أو بأخرى بالنظام البطلمى الذى قسم الناس إلى فئات محددة فى المجتمع المصرى الواقع تحت النفوذ البطلمى.

ويبدو أن المحاكمات فى مثل هذه الجرائم الكبرى كانت تتم فى مدينة الإسكندرية لأنها كانت مقر الحكم، ولأن الملك البطلمى - وخاصة فى العصر الأول للحكم البطلمى - كان هو الذى ينظر بنفسه فى أمور العدالة والقضاء.

البطالمة يعدمون قادة الثورات المصرية:

بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م خلفه بطلميوس الأول حيث سار على نهج سلفه فى احترام المصريين وعقائدهم إلى أن جاء عام ٣١١ ق.م، فأخذ فى إبداء التعسف مع المصريين والتنكيل بهم، وحول عاصمة حكمه إلى الإسكندرية (التى أخذت تتسع بعد أن بناها الإسكندر) بدلاً من مدينة منف الفرعونية. ولقد قضى ذلك الملك على الصفوة السياسية فى مصر، تلك الصفوة التى انحدرت من أصل ملكى فرعونى واستبدلها

بشخصيات بطلمية.. ولا يدلنا التاريخ إذا ما كان القضاء على الصفوة السياسية المصرية قد تم بطريقة التصفيات الجسدية والإعدام السياسى أم أن البطالمة استولوا على ممتلكات ومناصب المصريين بطريق الإبعاد فحسب. ولكن تعسف البطالمة فى مصر وسيطرتهم على كل أموالها واقتصادها وأرضها، وزيادة الضرائب على عامة المصريين والتنكيل بأى رافض لذلك، لا يدلنا على أن الإعدام السياسى كان ظاهرة نادرة.

وبمرور الوقت أصبحت ثروة مصر كلها تقريباً تذهب إلى ملك البطالمة وأمرائه وضباط جيشه وأسطوله، وأصبحت حرمة أى بيت مصرى معرضة للانتهاك من جند البطالمة وجباة الضرائب حتى تحول المصريون إلى عبيد فى وطنهم الغالى.

وعندما تصل الأحوال بمجتمع من المجتمعات إلى ذلك المستوى من التدنى، فإن الثورات الشعبية تندلع لا محالة... وهذا ما حدث فعلاً، حيث اندلعت ما لا يقل عن ست ثورات شعبية كبرى إبان العصر البطلمى فى مصر.. فشلت جميعها فيما يبدو، وتم إعدام أغلب من قام بها أو قادها أو شارك فيها، وهذه الثورات هى:

الثورة الأولى: وهى الثورة التى حدثت إبان عهد بطلميوس الثالث وذلك بعد أن زادت الضرائب بشكل كبير على المصريين لكى يتم تمويل حملة بطلميوس الثالث على سوريا لإخضاعها.

الثورة الثانية: وهى التى حدثت فى عهد الملك بطلميوس الرابع، وأعقبت معركة رفح التى تقاتل فيها جيش البطالمة ضد قوات (أنطيوخوس) الثالث. وقد ارتبطت ثورة المصريين - برغم ضعف البيانات التاريخية عنها - بزيادة الضرائب وارتفاع أسعار الأرض وتدهور مرافق البلاد. ولقد سبق تلك الثورة تمرد سكان مدينة الإسكندرية ضد البطالمة لكن القوات البطلمية قضت على ذلك التمرد وقائده الذى كان إغريقيا يحكم اسبرطة وتم نفيه إلى الإسكندرية. ويبدو أن انتصار البطالمة فى معركة رفح بمشاركة الجند المصريين لأول مرة جعل المصريين يشعرون بالقوة ويرفضون الفساد والظلم فى داخل مصر. ويبدو أن الثورة بدأت فى مصر الوسطى (منطقة إهناسيا الاستراتيجية المعروفة)، ثم امتدت بعد ذلك إلى صعيد مصر. ولكن الوجه البحرى ظل موالياً للبطالمة، ربما بحكم كثرة انتشار البطالمة وجندهم هناك ولقرب الوجه البحرى من الإسكندرية وساحل البحر الممتلىء بسفن القتال، أو ربما للعداوة التى أخذت فى الظهور بين كهنة الوجه البحرى وكهنة الوجه القبلى (حيث مدينة طيبة العريقة).. وتدلنا بعض المصادر

التاريخية على أن طيبة استقلت لمدة عشرين عاماً عن الحكم البطلمى (٢٠٥ إلى ١٨٦ ق.م) إلى أن تم قمع الثورة ومعاقبة الثوار وعلى رأسهم زعيمهم (انخماخيس) عام ١٨٦ ق.م.

الثورة الثالثة: وهى التى استمرت مندلعة حتى بعد تتويج الملك ايبنانس (بطلميوس الخامس) بعد وفاة سلفه بطلميوس الرابع. ويبدو أن بطلميوس الخامس - وكان صغيراً فى السن - قد واجه مؤامرة من الأمراء البطالمة، ولكن أتباعه والمخلصين للعرش البطلمى تمكنوا من اعتقال الأمراء المتمردين وأعدموهم، ومن ثم تمكن الملك من حصار مدينة لوقوبوليس (أبو صير) وشدد ذلك الحصار إلى أن سقطت واعتقل كل الثوار الأحياء بها حيث تم إعدامهم وكان ذلك عام ١٩٧ ق.م. ولكن لم تكن أبو صير هى المدينة الوحيدة التى ثار المصريون بها، فقد حدثت ثورة قوية فى بلاد النوبة استمرت من عام ١٩٧ ق.م إلى عام ١٨٦ عندما تمكن البطالمة من إخمادها وإعدام زعيم الثورة المصرى النوبى الأصل.

ولقد استمرت أعمال البطالمة فى مواجهة بقايا الانتفاضة المصرية فى الوجه البحرى لمدة ثلاثة أعوام إلى أن تمكن الملك إيبنانس من اعتقال زعمائها المصريين والتخلص منهم.

ولقد اتضح أن الثوار تعرضوا للتعذيب الشديد بعد اعتقالهم، حيث ربط البطالمة الأسرى فى عجلات المركبة الحربية للملك وسحلوهم وهم عرايا ثم أمر الملك بإعدامهم. وأسماء هؤلاء الزعماء المصريين المنحدرين من أصل فرعونى هى: باوسيراس، وخسونوس، وتروبا ستوس.. وهى الأسماء البطلمية - بطبيعة الحال - لهم وليست أسماءهم الفرعونية المصرية.

الثورة الرابعة: وهى الثورة التى اندلعت فى عهد الملك بطلميوس السادس وحدثت عام ١٦٥ ق.م، وعام ١٦٤ ق.م. وكان أهم أسبابها استمرار ديكتاتورية الطبقة البطلمية الحاكمة ونهبها لأموال وخيرات المصريين. وبدأت الثورة فى منطقة الإسكندرية عندما تمرد رجل يدعى (بتوسرابيس) على القصر الملكى وجمع أربعة آلاف رجل حوله ونشروا الثورة هناك. وقد تطلب الأمر حشد أعداد هائلة من الجيش البطلمى لقمع الثوار الذين ظهروا فى أنحاء كثيرة من البلاد وخاصة منطقة طيبة وأخميم. وتم حصار الثوار هناك

حصاراً شديداً حيث سقطت معاقلهم، وتم إعدام زعمائهم ومعاقبة واسترقاق من اشترك في الثورة.

الثورة الخامسة: اندلعت في عهد الملك بطلميوس الثامن، وتعود أسبابها إلى الورطة السياسية والاقتصادية التي انحدر إليها البطالمة، فكلما أرادوا جباية الأموال لتمويل جيوشهم وأساطيلهم والإنفاق على ترفهم وبذخهم ضغطوا على المصريين ونهبوا أموالهم وصادروا أراضيهم وممتلكاتهم ومتاعهم قسراً. وكان الرومان في روما من ناحية أخرى قد زاد خطرهم، واستولوا على الكثير من الأملاك الإغريقية (في شمال الشام وجنوب شرق أوربا) والبطلمية (في مصر وجنوب الشام وشمال أفريقيا). وفي عام ١٣١ ق.م خرجت الثورة أيضاً من الإسكندرية - كما هو الحال في الثورة الرابعة - بعد النزاع المرير الذي حدث في البيت الملكي البطلمي.. فكان هناك فريق بطلمي يتكون من الملك بطلميوس الثامن وفريق يتكون من كليوباترا الثانية. فلقد عاملت كليوباترا الثانية مصر والمصريين وكهنة المعابد المصرية بعداوة وحقد مرير، ولهذا شجع المصريون بطلميوس الثامن ضدها. ولذا فقد اندلعت الثورة في كل إقليم بمصر حتى أن الوجه القبلي - بقيادة الكهنة في طيبة - تمردوا، وشايعوا علناً بطلميوس الثامن... ولكن بقيت مدينة أرمنت تحت قيادة كليوباترا الثانية. ولم يؤد الصلح بين بطلميوس الثامن وكليوباترا الثانية عام ١٢٤ ق.م (والذي بمقتضاه تم حكم مصر الثنائي بواسطتهما معاً) إلى إخماد الثورة وإعادة الهدوء إلى الوجه القبلي.. وهنا لجأ الملك إلى إصدار قرار بالعفو العام عن المصريين عام ١١٨ ق.م واسترضاهم، وعاقب الموظفين البطالمة الذين بقسوتهم وبطشهم أغضبوا الفقراء من أهل مصر الذين لشدة بؤسهم كانوا يقتلون أبناءهم لعدم تمكنهم من إعالتهم والإنفاق عليهم.

وجدير بالذكر أن ذلك العفو قد جاء بعد إعدام قادة الثورة ومنهم ديونوسيوس وبتوسرابيس أثناء الحكم الثنائي لمصر، ولكن استمرار المصريين في الثورة هو الذي جعل بطلميوس الثامن يتمكن من التوصل إلى ضرورة إصدار العفو العام على المصريين وإرجاع حقوقهم المعنوية إليهم مرة أخرى.

الثورة السادسة: أخذت الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية تسوء في مصر مرة أخرى بسبب الضعف المستمر المتواصل للأسرة البطلمية في البلاد، وازدياد

نفوذ الرومان والذين أخذوا يتوسعون شرقاً وغرباً، ولهذا فقد أخذت الاضطرابات تحدث فى بقاع عديدة فى مدن وقرى مصر، ولكن أخطر التمردات الثورية فى ذلك الوقت هى التى حدثت فى طيبة عام ٩٠ ق.م. والتى استمرت ثلاثة أعوام تمكن الملك بطلميوس الثامن من إخمادها بعنف واقتحام المدينة وتدمير أجزاء كثيرة منها والقضاء على زعمائها الذين شاركوا فيها.

وبالرغم من نجاح البطالمة فى إنهاء تلك الثورة ـ كما نجحوا فى سواها ـ فقد كان نجمهم يوشك على الأفول، فما هى إلا سنوات قليلة حتى حكمت كليوباترا مصر، ثم ضعفت قوة البطالمة إلى حد أن جاءت معركة أكتيوم البحرية ليطوى التاريخ صفحات تلك الإمبراطورية التى حكمت أرض الكنانة على مدى ثلاثة قرون متتالية، وليبدأ حكم الرومان الديكتاتورى.

ثالثا: الإعدام السياسى على عهد الرومان:

بقيام الرومان بقيادة أنطونيو بالتخلص من قيصر (الإمبراطور الرومانى) فى ساحة البرلمان الإمبراطورى نتيجة واحدة من أكثر أحداث الاغتيال السياسى شهرة عام ٤٤ ق.م، وبانتحار كل من كليوباترا ملكة مصر وأنطونيو زعيم الرومان بعد قصة العلاقة الرومانسية التاريخية بينهما[(١)]، وبعد انتصار الرومان على البطالمة فى مصر فى موقعة أكتيوم البحرية[(٢)]، انفتحت مصر للغزو الإمبراطورى الرومانى البغيض والذى استمر فى

---

(١) قال أمير الشعراء أحمد شوقى يصف مشهد انتحار كليوباترا المأساوى، حتى لاتقع أسيرة فى يد الرومان:

سطت روما على مُلكى ولصّت ... جواهر أسرتى وحلىّ آلى
فـرمت الموت لم أجبن ولكن ... لعل جلاله يحمى جلالى
فـلا تمشى على تاجى ولكن ... على جسد ببطن الأرض بال
وقـد علم البـرية أن تاجى ... نمتـه الشمس والأسر العوالى
يطالبنى به وطن عـزيز ... وآباء ودائعـهم غـوالى
أأدخل فى ثيـاب الذل رومـا ... وأعرض كالسبىّ على الرجال؟
وأحـدج بالشماتة عن يمينى ... ويعرض لى التهكم عن شمالى؟
وألقى فى الندىّ شيوخ رومـا ... مكان التاج من فرقى خالى

(٢) معركة أكتيوم البحرية وقعت فى سبتمبر عام ٣١ ق.م. بين الأسطول البطلمى المصرى بقيادة أنطونيو (الذى ترك روما ليعيش فى الإسكندرية مع كليوباترا) والأسطول الرومانى بقيادة أوكتافيوس، وقد انتهت المعركة بانتصار الرومان وسيطرتهم على مصر، ثم بقيت بلدان شمال أفريقيا والشام مشكلين بذلك أكبر وأقوى إمبراطورية عسكرية شهدها العالم حتى ذلك الوقت.

صورة احتلال عسكرى قمعى - كأى حكم فى التاريخ - قرابة سبعة قرون متتالية إلى أن دخل العرب مصر فاتحين لنشر الإسلام عام ٦٤٠م (٢٠ هجرية).

ومنذ البدايات الأولى للحكم الرومانى لمصر، سارع الإمبراطور الرومانى أغسطس المنتصر فى موقعة اكتيوم البحرية بالانتقام من أبناء كليوباترا من زوجها الأول قيصر (ولد واحد) ومن زوجها الثانى أنطونيو (ولدان اثنان)، فتخلص منهم بالقتل سواء أكان اغتيالاً أو إعداماً، وذلك فيما يبدو كوسيلة لإنهاء مخاوفه من أن يقوم واحد أو أكثر من أبناء كليوباترا بالثأر لهزيمة أمه وإعادة عرش مصر للمصريين.

والواقع أن مصر حلت مشاكل عديدة لروما التى مزقتها الحرب الأهلية بعد اغتيال قيصر.. فمصر كانت بلاداً غنية بشعبها وثرواتها، كما أن موقعها الجغرافى الفريد يعطى لروما قدراً كبيراً من الأمان للدفاع عنها وعن روما ذاتها. وهذا ما جعل الرومان يرسلون إلى مصر حامية عسكرية بالغة القوة للسيطرة عليها سيطرة كاملة، فقد أقاموا قاعدة عسكرية قوية فى الإسكندرية (قاعدة نيقوبوليس)، وحصنوا حصن بابليون الضخم (مكانه فى مواجهة جزيرة الروضة بجنوب شرق القاهرة اليوم) وهو حصن قديم، استخدمه الرومان ليحموا وجودهم فى الدلتا وشرقها، وكذلك أقام الرومان حامية عسكرية كبيرة بجنوب مصر عند مدينة طيبة (الأقصر اليوم) لكى يسيطروا على جنوب مصر الهام استراتيجياً والذى كان على عهد الفراعنة الأقربين والبطالمة ذا أهمية سياسية كبرى.

وأقام الرومان كذلك قواعد عسكرية فى أسوان وبعض مناطق البحر الأحمر وعلى طول سواحل مصر الشمالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

ومع ذلك فقد كانت الإسكندرية أهم مدينة فى مصر، وكان يقطنها أغلب الأثرياء والمثقفين من المصريين وبقايا البطالمة، ولذلك فقد احتفظ الرومان بها كعاصمة لمصر.

وبالرغم من ذلك فلم يمض عام واحد على الاحتلال الرومانى لمصر حتى اندلعت ثورة فى طيبة بسبب زيادة الضرائب على المصريين، ولقد كانت تلك الثورة خطيرة على الوجود الرومانى الجديد فى البلاد، ولذلك فقد استخدم الرومان القسوة ليتمكنوا من إخمادها وإعدام قادتها.. وقد قام الرومان بعدها بتدمير وتخريب المدينة المتحضرة.. والزائر اليوم لمعبد الكرنك (حوالى ٢ كيلومتر شمال شرق الأقصر) سيلاحظ آثار حرائق بعض أجزاء من ذلك المعبد وخاصة فى أسقفه التى لا زالت سوداء من جراء تلك الأفعال البربرية.

ولقد أعقبت تلك الثورة ثورة أخرى ولكن أقل أثراً فى شرق الدلتا. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على رفض المصريين لوجود قوات الاحتلال الرومانى ، وخاصة عندما أخذت تلك القوات فى استخدام أسلوب القسوة والطغيان.

وعندما أتى للحكم الرومانى الإمبراطور كلاوديوس عام ٤١ ميلادية قام بتشجيع اليهود على الإغريق وخاصة فى العاصمة الإسكندرية. فقد منح اليهود الكثير من الامتيازات بالرغم من أنه أبعد عنهم التمتع بالحقوق المدنية (كرعايا روما مثلاً) مما يعنى أنه كان ينظر لهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية. ولقد أدت تلك السياسة إلى تصارع الإغريق (الذين عاشت بقاياهم فى مصر بعد زوال دولتهم) مع اليهود، فما كان من الإغريق سوى أنهم قاموا بالتنديد بالحكم الرومانى، والتفاخر بالحضارة الإغريقية الأكثر سمواً وثقافة، ولهذا قام كلاوديوس بالقبض على اثنين من زعماء الإغريق وأمر بإعدامهما. فخمدت روح المقاومة بين الإغريق واستتب الأمن لبعض الوقت فى الإسكندرية.

وبالرغم من سياسة اللين التى اتبعها الرومان مع اليهود إلا أن هؤلاء لم يكفهم قيام الرومان بالضغط على الإغريق، فثاروا - أى اليهود - ثورة عارمة فى الإسكندرية وفلسطين ضد الإغريق، فاستخدمت الإمبراطورية أعدادا كبيرة من جنودها للتخلص من اليهود هناك، ويذكر أحد مؤرخى اليهود (ويدعى يوسف) أن حوالى خمسين ألف يهودى قد قتلوا وأعدموا فى تلك الثورة التى استمرت عدة أعوام.. ولا توجد مصادر محايدة لإثبات صحة ذلك التقدير، ولكن لا يمكن منطقياً الموافقة على ذلك العدد الكبير لأن عدد اليهود فى ذلك الوقت لم يكن كبيراً، فإذا كان عدد القتلى خمسين ألفاً فكم هو عدد اليهود الذين شاركوا فى الثورة، وما هو عدد الذين لم يشاركوا فيها!؟

ولقد حدثت تلك الثورة فى عهد الإمبراطور نيرون (وهو خامس حكام الإمبراطورية) والذى حكم بين أعوام ٥٤ و ٦٨ ميلادية.

ومع ذلك، فيبدو أن ثورة اليهود فى مصر وفلسطين كانت قد استفزت الحكم الرومانى فقام الجند الرومان بتدمير معبد اليهود فى مدينة القدس. أما فى مصر فقد حظر الرومان على اليهود التردد على معبدهم الكبير المسمى ليونتوبوليس، وكان ذلك عام ٧٣ ميلادية.

وبحلول عام ١١٥ ميلادية، اندلعت ثورة كبرى جديدة بين اليهود والإغريق بعد أن كانت الأحوال قد هدأت فى مصر فترة من الزمن، ولقد استغل اليهود فرصة قيام حملة رومانية كبيرة توجهت إلى الشرق وقاموا بثورتهم ضد الإغريق، فقتلوا منهم أعداداً كبيرة. ولقد استمرت الحرب الأهلية بين الطرفين وانتشرت فى معظم أنحاء مصر على مدى ثلاثة أعوام تقريباً إلى أن تمكنت الإمبراطورية من تعزيز وجودها العسكرى فى مصر بعدد وافر من الجنود فتمكنوا من إخماد نار تلك الحرب وإعدام زعمائها اليهود، ولقد حدثت تلك الاضطرابات على عهد الإمبراطور الرومانى ترجان ويبدو أنها ـ بالإضافة إلى نكسات حملته على المشرق ـ شديدة الوطأة على ذلك الإمبراطور حتى أنه عزل من منصبه.

وفى الواقع فإن عهد ترجان هذا قد بدأ بداية سيئة عام ٩٨ ميلادية عندما عين حاكماً لمدينة الإسكندرية يدعى جايوس ماكسيموس عام ١٠٣ ميلادية، ويبدو أن ماكسيموس استغل حالة البلاد المرفهة وأخذ يجمع الأموال لحسابه الخاص، ثم أخذ فى توسيع نفوذه وسلطاته هو وأعوانه، فانتشرت أعمال الربا (التى برع فيها اليهود) والفساد والرشوة مما أغضب الإمبراطور ترجان من ماكسيموس، فاعتقله وحاكمه بتهمة الفساد والإضرار بمصلحة الإمبراطورية وهى تهم كان ينظرلها (وخاصة من قبل البرلمان الرومانى القوى) على أنها نوع من الخيانة العظمى فأمرت المحكمة الرومانية بإعدامه والتخلص منه عام ١٠٧ ميلادية.

وبحلول عام ١٧٢ ميلادية وقعت فى مصر ثورة كبرى نتج عنها ما سمى (بحرب الرعاة)، وذلك لأن الذين شاركوا فيها وبأعداد كبيرة كانوا من الفلاحين والمزارعين وقادهم كاهن من المصريين اسمه أسيدوروس. وقد تمكن الثائرون من قتل أفراد الحامية الرومانية فى منطقة شرق الإسكندرية وأخذوا يقتربون من الإسكندرية (وهى عاصمة مصر الرومانية فى ذلك الوقت) مما بث الرعب فى قلب الإمبراطور الرومانى ماركوس أورليوس (وهو الثالث عشر من حكام الإمبراطورية) فأمر أن يزحف جنود الإمبراطورية من الشام بسرعة نحو مصر للقضاء على الثورة.

وبالفعل تحرك جيش من الشام بقيادة أفيديوس كاسيوس فتمكن من إخماد الثورة وإعدام قادتها عام ١٧٥ ميلادية... ثم إنه ـ أى كاسيوس ـ أخذ فى معاملة سكان مدينة

الإسكندرية معاملة حسنة حتى أنهم ـ مع سكان الشام ـ عرضوا عليه أن يكون إمبراطوراً للدولة الرومانية بدلاً من ماركوس، ولكن ماركوس تمكن من اغتيال كاسيوس .

وفى عام ١٨٠ ميلادية استبدل بماركوس الإمبراطور الجديد كومودوس فأعاد فتح ملف تلك الثورة وأخذ يعتقل كل من شارك فى تشجيع تولية كاسيوس للعرش الإمبراطورى، وحدثت عمليات إعدام سياسية واسعة فى أسرة كاسيوس وكل من أيدهم من الشخصيات المصرية الكبيرة بالإسكندرية. ويبدو أن تلك الإعدامات كانت تستهدف إزالة أى مخاطر محتملة قد تظهر من المصريين أو من أسرة الأمير كاسيوس.

وفى عام ٢١٥ ميلادية وقعت مذبحة مروعة فى مدينة الإسكندرية عندما زارها الإمبراطور الرومانى (كركلا ـ ٢١١ ـ ٢١٧ ميلادية)، فقد أساء للمصريين عندما ارتدى من الثياب ما يرتقى به إلى مصاف القادة العظماء القلائل فى التاريخ مثل الإسكندر الأكبر، فقابله سكان الإسكندرية بالاستهزاء، فما كان منه إلا أن أمر بالقبض على أغلب زعماء المدينة، وأصدر بلا محاكمات أوامره بإعدامهم، وهيأ لجنده الأمر فى أن يسعوا فى المدينة ويخربوها فدمروا بعض أحيائها وقتلوا العديد من الأبرياء، فانتشر الرعب فى المدينة وبدت خاوية من سكانها.

وفى عام ٢٧٠ ميلادية قامت زنوبيا ملكة تدمر[1] (بالميرا) بتجهيز جيوشها والزحف على مصر فى حملة عسكرية مفاجئة وسريعة تمكنت خلالها من تدمير الجيش الرومانى والاستيلاء على مصر عام ٢٧٠ ميلادية.

ولقد جاءت تلك الحملة بعد أن أخذت المسيحية تنتشر فى مصر فى منتصف القرن

---

(١) تدمر (بالميرا): وتعرف فى اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية باسم بالميرا، وهى مدينة خربة تقع فى وسط الصحراء السورية، حوالى منتصف الطريق الشمالى الشرقى بين دمشق ونهر الفرات.. وتدمر اسم قديم جداً، فقد ذكر سكانها فى النقوش المسمارية من القرن التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد... وتحت حكم هدريان (١١٧ ـ ١٣٨م) كانت المدينة قد وصلت إلى ذروة ازدهارها التجارى كما استكملت معظم مبانيها الرئيسية. ولكن أعظم أيامها فى التاريخ ادخرتها للقرن الثالث الميلادى عندما أدى ضعف الرومان بسبب غزوات البرابرة فى الغرب والصراع ضد محاولة مغتصبى الحكم إلى ترك هذا المركز البعيد حراً طليقاً ليصبح فى الواقع قوة مستقلة. وعندما اغتيل أوداينات (حاكم سوريا) عام ٢٦٧ تقلدت زنوبيا (زوجته) مقاليد الحكم بالاشتراك مع ابنها وهب الله، وتحدت روما باتخاذها الألقاب الإمبراطورية وكتابتها على نقودها الخاصة بها وبإرسالها حملة لفتح مصر.

انظر لمزيد من التفاصيل: الموسوعة الأثرية العالمية ـ إشراف ليونارد كوتريل ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ (مرجع سابق).

الثالث الميلادى، وانشغال الرومان بوضع حد لذلك الانتشار. وبالرغم من أن الملكة زنوبيا كانت تعلم أن احتلالها لمصر وإعلان ضمها لمملكتها سوف يكلفها الكثير، فإنها قامت بإعلان ولائها للدولة الرومانية على أن تكون مصر والشام لها، ولم يكن هذا يرضى الرومان، فمصر كانت أهم مستعمراتهم وأغناها وأقواها، ولهذا فبحلول عام ٢٧٢ قامت قوات رومانية كبيرة بإعادة الاستيلاء على مصر والزحف تجاه تدمر (بالميرا) واحتلالها هى الأخرى فى حملة ناجحة، قصد بها إنهاء التهديد الشرقى لمصر فى المستقبل.. وقد أخذ الرومان بعد ذلك مباشرة وفى عهد الإمبراطور الرومانى الواحد والعشرين أورليانوس فى إعدام كبار الشخصيات المصرية التى ساعدت الملكة زنوبيا فى احتلال مصر.

الإعدامات السياسية المصاحبة لانتشار المسيحية فى مصر:

عندما دخل الرومان مصر واستقروا بها لم يهاجموا العقائد الدينية التى وجدوا عليها المصريين عاكفين، فتركوا كل إنسان على أرض مصر يعبد ما يعتقد أنه يمثل الإله (أو الآلهة) بالنسبة له. ولكنهم مع ذلك لم يسمحوا أبداً بأن يستخدم الدين المصرى القديم (الفرعونى أو البطلمى) لأغراض سياسية. فأخذوا بتقليص نفوذ وسلطان الكهنة ورجال الدين وراقبوا المعابد، وجعلوا من طيبة حامية عسكرية رومانية قوية لرصد التحركات الدينية السياسية التى يمكن أن تظهر لو أن رجال الدين المصريين حضوا على الثورة، ولعل ذلك كان استهلالاً بظهور النظرية السياسية العلمانية التى تفصل بين الدين والدولة.

ولكن بظهور المسيحية (وهى إحدى الديانات السماوية التوحيدية الثلاث) فى أرض فلسطين المجاورة لأرض الكنانة، وقيام المسيح عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام بزيارة مصر فى بداية العهد المسيحى، وقيام الرومان فى فلسطين والشام ومصر بتقليص النفوذ الدينى المسيحى بعد أن أنهى الله تعالى رسالة المسيح ونجاه من إعدام الرومان واليهود له، فإن مصر بالذات أصبحت قبلة لكل مؤمن بالمسيحية ليلوذ بها من الاضطهاد وليحتمى بها كما احتمى بها من قبل المسيح وأمه مريم.

وليس هناك من مصادر تاريخية مؤكدة كيف انتشرت المسيحية فى مصر أو من الذى أدخلها فى تلك البلاد. ولكن هناك من يقول - وبصورة غير مؤكدة - أن القديس مرقص هو ذلك الرجل الذى أدخل الديانة الجديدة إلى مصر، وهو الذى أقام أول كنيسة

بمدينة الإسكندرية (عاصمة مصر السياسية فى ذلك الوقت). ولكن المؤكد من الدراسات التاريخية أن المسيحية أخذت تظهر فى مصر فى القرن الأول الميلادى. ويعزز تلك الحقيقة قرب مصر من أرض فلسطين، وازدياد حدة الاضطهاد الرومانى واليهودى لسكان فلسطين، مما حدا بهم - منطقياً - إلى الهجرة إلى البلدان المجاورة لفلسطين فمنهم من اختار الشام، ومنهم من اختار مصر.

ومع ظهور أية دعوة دينية تلقى الاضطهاد والتنكيل كان لابد أن تكون تلك الدعوة سرية، ولذلك فلم تكن هناك اصطدامات بين المسيحيين فى مصر وبين قوات الاحتلال الرومانى فيها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن سكان مصر الذين عاشوا فى القرن الأول الميلادى كانوا لا يزالون على عبادة الآلهة الفرعونية أو الإغريقية القديمة. فالمعابد الفرعونية كانت لا تزال مفتوحة لمن يشاء حتى فى ظل وجود الرقابة الرسمية الرومانية. والقرى المصرية التى تغص بالفلاحين كانت أبعد ما تكون عن معرفة أن هناك ديانة جديدة قد ظهرت، ولهذا فقد ظل غالبية سكان مصر متمسكين بعقائدهم الفرعونية.

ومهما كان الأمر.. فإن الرومان واليهود الذين مارسوا الاضطهاد ضد المسيحيين فى فلسطين(١) كانوا كذلك مستعدين لممارسته بصورة أشد فى مصر. ففى عام ٦٨ ميلادية شن الرومان هجوماً مدمراً على مركز المسيحيين بالإسكندرية الذى وضع أساسه القديس مرقص (وهو واحد من الذين عاصروا المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام) واعتقل الرومان ذلك القديس ووضعوه فى السجن. وبطريقتهم البربرية المتوحشة نفذوا حكم الإعدام، فقاموا بربط القديس مرقص بحبل سميك وجروه به فوق أرض شوارع مدينة الإسكندرية ليكون عبرة لغيره من معاصريه أو لاحقيه، واستمروا يسحبونه حتى تسلخ جلده ثم لحمه وسال دمه أمام أعين الناظرين ليسجل التاريخ البشرى قصة شهيد كبير فقدته المسيحية أمام قوى الظلم والطغيان(٢).

---

(١) حذر المسيح عيسى بن مريم أتباعه من ذلك الاضطهاد، فجاء على لسانه فى إنجيل متى: «عندئذ سيسلمونكم لمن يعذبونكم ويقتلونكم، وتكونون مكروهين من جميع الأمم لأجل اسمى...». انظر إنجيل متى الفصل الرابع والعشرون.

(٢) لم يكن القديس مرقص (وهو أحد الحواريين الذين التفوا من حول المسيح عيسى ابن مريم) هو حالة الإعدام السياسى الوحيدة التى قام بها الرومان ضد الحواريين.. فقد أعدموا القديس بطرس فى أنطاكيا، والقديس يعقوب فى أبديتية والقديس فيليبس فى قيسارية، والقديس برثلماوس فى أرمينيا والقديس توما بالقرب من الهند، والقديس متى بقرطاجنة، والقديس يعقوب بن حلفى بالقدس، والقديس سمعان فى بيزنطة، والقديس ماتيوس فى بلاد الشرق، والقديس بولس فى روميه (جنوب شرق أوروبا).

ولقد جاءت تلك الحادثة لتخبر المسيحيين فى مصر بأن يبتعدوا عن مناطق العمران، وقد شجعهم على ذلك أمران. الأول: وهو أن المسيحية دين يحث على التنسك. والثانى: اتساع أرجاء مصر ووجود الصحراء مما مكن المسيحيين من إنشاء وبناء الأديرة والكنائس بالصحراء التى بالرغم من أن الرومان كانوا يمرون بها بين الحين والآخر إلا أنهم رأوها بلا تأثير سياسى على دولتهم فتركوها وشأنها. ولقد كانت تلك الأديرة الصحراوية (والكثير منها باق حتى اليوم) مرفأ نجاة للديانة الجديدة والمؤمنين بها لدرجة أن الكثيرين ممن قاموا بنقل الديانة المسيحية إلى شرق وغرب أوربا اعتمدوا على فكرة بناء الأديرة فى المناطق المعزولة مما ساعد تدريجيا على نشر المسيحية فى أنحاء واسعة هناك.

وبالتدريج أخذت الديانة الجديدة تنتشر فى مصر دون أن يكون للمؤمنين بها أى نشاط سياسى يتصادم مع السياسات الرومانية الاستبدادية.. ولعل خير دليل على ذلك أنه ليس هناك سجلات من ورق البردى تخص النشاط المسيحى الكنسى فى القرن الأول الميلادى بطوله. ولكن أخذت الأوضاع تتغير فى القرن الثانى الميلادى عندما ظهرت صحوة مسيحية علنية فى البلاد بظهور مدرسة بنتانيوس التى أخذت فى نشر التعاليم المسيحية فى البلاد، ومن ثم أخذ المصريون المسيحيون في الابتعاد عن مظاهر الاحترام للعقائد الدينية الرومانية الوثنية. وقد أخذ الصراع ينتشر بعد أن قام علماء الدين المسيحيون بمهاجمة الأسس الفلسفية للعقائد الرومانية مما أفصح عن أن جيلاً جديداً من الفلاسفة قد ظهر لشد أزر العقيدة الجديدة. وبانتشار تلك المعارك العقائدية بين علماء الدين المسيحيين وفلاسفة الرومان، شعرت الدولة الرومانية بالخطر الماحق الذى يقترب منها، فهاهم قادة المسيحية فى مصر يتعلمون نقاط الضعف فى الفكر الوثنى الرومانى، وهاهم يزدادون قوة يوماً بعد يوم وعددهم يزداد حجماً واتساعاً.. حتى أصبحت المدرسة اللاهوتية فى الإسكندرية أهم مدرسة فى العالم المسيحى كله، تخرج العلماء وتعلم الطلبة من شتى بقاع العالم الذى يعيش فيه مسيحيون.

وسرعان ما أخذت الدولة الرومانية فى ممارسة الاضطهاد الواسع النطاق ضد المسيحيين فى مصر عندما أخذت الديانة الجديدة تبدو كما لو أنها دين الشعب الجديد، فظهر الانقسام السياسى فى مصر بصورة كبيرة، حيث كانت السلطات السياسية والعسكرية والقانونية الرومانية تؤمن بعقائد وثنية، وجانب كبير من المصريين يؤمنون

بالعقيدة المسيحية الأولى. ولما كان الرومان يملكون السلاح والجيوش، والمسيحيون لا يملكون إلا الإيمان، فقد أخذت عمليات الإعدام السياسية تنفذ فى مصر على أوسع نطاق عرفه تاريخ الدولة الرومانية. فقد كان كل رجل وامرأة وطفل مسيحى معرّضاً للاعتقال والتعذيب ثم الإعدام فى أى مكان يتواجد فيه. ولقد تعددت صور الاضطهاد والتعذيب من الضرب والحرق وتقطيع الأوصال وقطع الألسن والجلد والصلب والردم إلى التعريض للوحوش الضارية. وكانت معظم تلك الإعدامات تنفذ علناً حتى يروع الرومان المسيحيين، ومع ذلك فلم يفت الطغيان فى عضد مسيحيى مصر بل ازدادوا تمسكاً بدينهم. ولقد ضرب العديد من زعماء المسيحية المصريين القدوة لبقية الناس لكى يختاروا الشهادة تطوعاً بدلاً من التنازل عن دينهم وإرضاء الرومان الكفرة ومن أمثال هؤلاء الأنبا أنطونيوس الذى أعدم علناً وهو كهل فى السبعين من عمره.

ولقد ساعد هؤلاء المسيحيين على الصمود أمام الاستبداد الرومانى العديد من وصايا المسيح عيسى ابن مريم كما جاء على لسانه فى انجيل متى إذ يقول: «لا تقاوموا الإنسان الشرير» ويقول «أحبوا أعداءكم» ويقول: «وتكونون مكروهين من الجميع من أجل اسمى. ولكن الذى يصمد إلى النهاية يخلص». ويقول: «ولا تخافوا ممن يقتل الجسد ولكنه لا يقدر أن يقتل النفس» وهكذا.

ويبدو أن سياسة الإعدامات تلك لم تتوقف أبداً من عصر إمبراطورى إلى عصر آخر حتى أحرقت الكنائس والأديرة والبرديات والكتب وملأت جثث الضحايا الشوارع والطرقات والميادين، ومن النادر أن نجد اتجاهاً عاماً لدى المسيحيين يحث على حب الاستشهاد وذم الدنيا بقدر ما نجد فى ذلك العصر المظلم القديم.. فقد فاقت سبل الطغيان أى عصر اتسم بالديكتاتورية فى أى مكان آخر من العالم، فحتى محاكم التفتيش التى جرت فى أوربا فى العصور الوسطى ضد البروتستانت لم يقم القائمون بها بتدمير وحرق قرى بأكملها مثلما فعل الرومان بقرى المسيحيين فى مصر.. وكأن لسان حال الرومان فى ذلك الوقت كان يقول: «لنبيدن كل أثر للمسيحيين حتى لا يبقى فى البلاد منهم أحد»!.

كانت السيدة دميانة الابنة الوحيدة لمرقص والى البرلس، وكانت قد طلبت إليه أن يبنى لها قصراً تقيم فيه بمنأى عن العالم لتخلو فيه إلى ربها، وتقضى عمرها فى الزهد والتقشف وفى الصوم والصلاة وفى التأمل والعبادة، فأجابها أبوها إلى رغبتها وبنى لها

قصراً فى المنطقة المعروفة الآن بالبرارى بالقرب من بلقاس، حيث عاشت فيه فى أمن وسلام مع أربعين عذراء نذرن العفة والطاعة مثلها.

وعشن جميعاً فى هدوء وطمأنينة. إلا أن ديوقلديانوس الإمبراطور الرومانى الغشوم أثارها حرباً شعواء على المسيحيين فجرعهم صنوف العذاب والتنكيل. وحين أعلن هذا الإمبراطور الطاغية اضطهاده طلب من الولاة والحكام أن يذهبوا معه إلى الهيكل ويرفعوا القرابين للآلهة. فجبن مرقص أبو دميانة وخشى على مركزه وجاهه، وذهب مع الإمبراطور كما طلب. فلما سمعت دميانة بما كان من خوف أبيها ذهبت لملاقاته وأعربت له عن حزنها العميق لما أبداه من خوف وتراجع. فلم يسع مرقص إزاء كلمات ابنته إلا أن يعود إلى الإمبراطور ويعلن له ندمه عما فرط منه من تمجيد للآلهة ويقرر له أنه مسيحى. فأمر الإمبراطور بقطع رأسه بالسيف. ثم أرسل جنده إلى حيث تعيش دميانة ومعها الأربعون عذراء، فنكلوا بهن تنكيلا. وتحملت دميانة وصديقاتها كل صنوف العذاب بصبر عجيب. وكان أهل القرية قد خرجوا جميعاً ليشاهدوا ما سيفعله الجند بالعذارى. فلما رأوا ثباتهن وشجاعتهن أعلنوا مسيحيتهم، فأمر الضابط الرومانى بقتلهم جميعاً كما أمر بقتل السيدة دميانة والعذارى الأربعين»[1].

ولقد استمرت كل تلك الاضطهادات حتى بلغت تقديرات من تم إعدامه من المسيحيين على مدى التاريخ الرومانى بما لا يقل عن مليون مسيحى مصرى.

ومهما كان الأمر، فلقد انتهت حياة الطغاة، وتنفس المسيحيون فى مصر الصعداء بدخول العرب المسلمين أرض مصر، حيث أمر عمرو بن العاص أتباعه بإعطاء الأمان لكل مسيحى يعيش على أرض مصر، والتصريح لهم جميعاً بارتياد كنائسهم ودور عبادتهم بعد أن كانت قد أغلقت أو دمرت أو أحرقت على مدى القرون الستة السابقة.

وكان مفهوماً لماذا قاوم الرومان الوثنيون دخول العرب مصر، لأنهم - أى الرومان - كانوا قوات احتلال قمعية لا تحترم عقيدة أو دينا أو حياة البشر.. أما وقد دخل مصر الإسلام فقد انتهت عصور الظلام بالفعل، وبات كل مسيحى مصرى آمنا على حياته وماله وعقيدته ومكان عبادته.

(١) تاريخ الحضارة المصرية (العصر اليونانى والرومانى والعصر الإسلامى) - المجلد الثانى - تأليف نخبة من العلماء - مكتبة مصر - القاهرة.

الفصل الثالث

الإعدام السياسى منذ دخول الإسلام وحتى قيام الدولة الفاطمية

كانت مصر إذن دولة تحت الاحتلال الرومانى قبيل أن يدخلها العرب فاتحين وناشرين للدين الإسلامى الحنيف.

وقبل أن يدخل العرب مصر، كانت الإمبراطورية الرومانية قد انقسمت إلى قسمين: شرقى وغربى، وكلاهما اعتنق مذهبا مسيحيا مختلفا كثيراً عن المذهب الآخر. فبعد أن أعلن الإمبراطور قسطنطين دخوله فى المسيحية عام ٣١١ ميلادية، انقسمت الدولة إلى قسمين الأول شرقى وعاصمته القسطنطينية، والثانى غربى فى روما.

ولقد حدثت نزاعات مريرة على كل الأصعدة العقائدية والفلسفية والاجتماعية بين القسمين عانى منها النصارى فى مصر أشد معاناة.. بل إن المذابح التى تعرض لها مسيحيو مصر على يد الدولة البيزنطية كانت أشد فتكاً بهم من المذابح التى تعرضوا لها إبان خضوعهم للأباطرة الرومان الوثنيين فى القرون الثلاثة الأولى لانتشار المسيحية.

ولهذا كان الموقف فى مصر قبيل الفتح العربى كما يأتى:

١ ـ المسيحيون المصريون بقيادة المقوقس نفسه يودون الاستعانة بأى قوى تتصف بالرحمة لوقف الاضطهاد البيزنطى.

٢ ـ البيزنطيون بقيادة هرقل ملك الروم الذى يحكم من مدينة القسطنطينية لا يود التنازل عن سلطات دولته السياسية والعسكرية والتى بمقتضاها يحتل ويسوم شعبها أشد عذاب.

ولسنا هنا حقيقة فى معرض إثبات أن الحروب التى خاضها العرب المسلمون فى مصر لم تكن ضد الأقباط.. فهذا لم يحدث على الإطلاق.. بل إنها كانت ضد قوات الاحتلال البيزنطية.

٣ ـ بقية واضحة من المصريين الوثنيين الذين لا دين واضحا لهم[١].

سير أحداث فتح مصر:

بعد سقوط الشام فى يد العرب، وزوال حكم الدولة البيزنطية هناك، اتجه القائد العربى الكبير عمرو بن العاص على رأس حملة مكونة من ثلاثة آلاف رجل لفتح مصر. ولقد فهم الرومان أن مصر فى خطر، وسارعوا بمحاولة حث المصريين على التحالف معهم ولكن الأنبا بنيامين رفض ذلك، «وكتب إلى القبط يقول لهم: أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم انقطع، ويأمر القبط بتلقى عمرو، فيقال أن القبط الذين كانوا بالفرما ـ شرق دلتا نهر النيل والتى دخلها عمرو بعد هزيمته للروم ـ صاروا يومئذ لعمرو أعواناً»[٢].

ويعتبر عدم وقوف قبط مصر مع الروم دليلا أكيدا منهم على كراهيتهم للاحتلال البيزنطى وقسوته، ودليلا أكيدا على علمهم بمدى السماحة الموجودة فى الدين الإسلامى والتى ستجعلهم يعيشون فى سلام.

وبحلول شعبان من عام ١٩ هـ (أغسطس عام ٦٤٠ م) نجح العرب فى هزيمة الروم البيزنطيين عند حصن بابليون الضخم، ووقعوا معاهدة بابليون مع المقوقس زعيم القبط فى مصر.. تلك المعاهدة التى نصت افتتاحيتها على إظهار سماحة الإسلام والمسلمين حيث ذكرت: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم..»[٣].

وفى شهر ذى القعدة عام ٢٠ هجرية (نوفمبر ٦٤١ ميلادية) تم فتح الإسكندرية وتوقيع معاهدة مع الروم البيزنطيين تسمح لهم ـ أى الروم ـ بالجلاء عن المدينة فى خلال أحد عشر شهراً اشتملت على عدة بنود تعهد فيها المسلمون بالمحافظة على حياة سكانها، وعدم التعرض للكنائس أو الأديرة أو المعابد المسيحية أو اليهودية بالمدينة، وباحترام حياة وعقائد وأموال وأملاك أهلها.

---

(١) لم يتمكن زعماء المسيحية فى مصر من تعميق المبادىء المسيحية فى نفوس جانب واضح من المصريين بسبب تصارعهم مع الروم، ولهذا فيمكن القول أن مصر كان بها جانب وثنى لا دين له عند دخول العرب مصر.

(٢) تاريخ الحضارة المصرية (العصر اليونانى والرومانى والعصر الإسلامى) المجلد الثانى ـ مكتبة مصر ـ ألفه نخبة من العلماء منهم أمين الخولى وآخرون ـ مرجع سابق.

(٣) تاريخ الحضارة المصرية (المرجع السابق نفسه).

وهكذا اطمأن المسيحيون على حياتهم فى مصر، فشعروا بالحرية والأمان والسلامة فى كل بقاعها.. وبمرور السنين عليهم أصبحوا مع المسلمين سكان بلد واحد يشاركون فى اقتصاده ووضع سياساته وبناء عمائره وحدائقه بل وقيادة الفرق والجيوش والدفاع مع المسلمين ضد الاعتداءات البيزنطية التى تكررت كثيراً على مصر طوال العصرين الأموى والعباسى(١).

وبلا شك فقد جاء حسن معاملة العرب لقبط مصر معبرا بصدق عن السياسة العامة التى جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية، والتى تخص معاملة اليهود والنصارى.. تلك السياسة التى تتضح من الآيات القرآنية التالية: ما جاء فى سورة آل عمران الآية ٦٤: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا تعبدوا إلا الله ولا نشرك به شيئا﴾. وما جاء فى سورة المائدة الآية الرابعة: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم﴾. وما جاء فى سورة الحج الآية ١٧: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾. أما أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن مصر، فقوله عليه الصلاة والسلام: (إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم - أى سكان مصر الذين يتصفون بتجعد الشعر - فاستوصوا بهم خيراً، فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (إذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا منها جنداً كثيفاً.. فذلك الجند خير أجناد الأرض، لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة) وقوله صلى الله عليه وسلم: (ستفتحون بعدى أرضاً يذكر فيها القيراط. فإذا افتتحتموها فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم نسباً وصهراً).

وكما هو واضح فى الحديث الأخير، فإن الكناية فى (النسب) السيدة هاجر زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام وهى أم النبى إسماعيل عليه السلام. كذلك فإن الكناية فى (الصهر) السيدة ماريا القبطية زوجة النبى محمد صلى الله عليه وسلم. وكلتاهما (هاجر وماريا) كانتا من مصر.

---

(١) هاجم الروم الإسكندرية بعد أربعة أعوام من قيام عمرو بن العاص بدخولها. فقد قام الأسطول البيزنطى عام ٢٥ هـ (٦٤٥م) بقيادة «مانويل الخص» بالهجوم على المدينة التى كان بها حوالى ألف رجل عربى يحمونها، وسرعان ما تغلب الروم عليهم حيث قتلوا وأعدموا أغلب هؤلاء الرجال، ولكن الخليفة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - سارع بإرسال عمرو بن العاص على رأس جيش عربى قوامه خمسة عشر ألفاً من المقاتلين تمكن بهم من هزيمة الروم وقتل منهم أعداداً غفيرة ليسيطر على الإسكندرية مرة أخرى.

دور مصر فى الفتنة الكبرى:

بعد اغتيال الخليفة العظيم عمر بن الخطاب بيد أبى لؤلؤة الأنصارى فى المدينة المنورة، تفككت أواصر المسلمين، ليس فقط فى الحجاز ولكن كذلك فى الولايات الإسلامية التى تم فتحها، فقد خلف عثمان بن عفان رضى الله عنه عمر بن الخطاب، وأخذ تدريجياً ينحاز إلى صف بنى أمية[١] التى هو منها على حساب أسس الدولة غير العصبية التى أسسها أبو بكر وعمر رضى الله عنهما. فقد أخذ عثمان يولى أقاربه حكم الإمارات الإسلامية، فأخذ هؤلاء - باسم الخليفة وبدون علمه - يمارسون القسوة مع رعيتهم. فظهرت بوادر الانقسام بين المسلمين إلى أن ظهر رجل يهودى يمنى (يدعى عبدالله بن سبأ) من الذين دخلوا الإسلام حديثاً وأخذ يهاجم سياسات الخليفة. ويبدو أنه حقق نجاحاً كبيراً فى مصر حيث التف حول دعوته - بأحقية على بن أبى طالب فى الخلافة بدلاً من عثمان - الكثيرون من أبناء الصحابة وأتباعهم، كان من بينهم محمد بن أبى حذيفة، ومحمد بن أبى بكر الصديق. وعندما وصلت أخبار تلك الحركة لأسماع الخليفة بادر بعقد مؤتمر عام بالمدينة المنورة، حضره كل حكام الولايات الإسلامية بما فيهم والى مصر عبدالله بن سعد. وفى ذلك المؤتمر حث معاوية بن أبى سفيان (وهو حاكم الشام الذين ينتسب إلى بنى أمية والذى كان قد دخل الإسلام فقط بعد فتح مكة) الخليفة على ترك المدينة المنورة والرحيل إلى دمشق خشية أن يهاجمه الثوار من مصر والعراق، ولكن الخليفة رفض العرض، فخرج ستمائة رجل بسلاحهم من مصر (وقبلهم خرج من مناطق أخرى من الجزيرة العربية والعراق رجال آخرون) واقتحموا المدينة المنورة، وحاصروا منزل عثمان بن عفان وطالبوه إما بالتنازل عن الخلافة أو بتغيير الولاة، ولكن عثمان رفض مطالبهم قائلاً قولته الشهيرة: (لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله). فهاجم الثوار منزل الخليفة، وقتلوه غيلة بينما كان يقرأ القرآن الكريم.

وعندما بايع المسلمون على بن أبى طالب للخلافة استمر الانقسام بين المسلمين،

---

(١) قبيلة بنى أمية، كانت قبل الإسلام من أكبر قبائل قريش والحجاز، وقد دخلت الإسلام لسماحته وقدرة النبى - صلى الله عليه وسلم - (وهو من قبيلة بنى هاشم) على القضاء على العصبيات القبلية. ولما مات النبى - عليه الصلاة والسلام - تمكن أبو بكر وعمر من السيطرة على الخلافات بين القبيلتين، والتى كانت موجودة قبل ظهور الإسلام.
أما وقد اغتيل عمر بن الخطاب، وتولى عثمان بن عفان الخلافة فقد شعر الأمويون أنهم أحق بالحكم والسيطرة على الدولة الإسلامية.

طائفة تؤيد على، وطائفة أخرى تؤيد معاوية بن أبى سفيان الذى كان مطلبه الأول للموافقة على خلافة على هو الانتقام من قتلة عثمان.

ولما انشغل على بن أبى طالب بحربه مع الحلف الثلاثى (الزبير وطلحة والسيدة عائشة الذى كان هدفه القصاص من قتلة عثمان) فى موقعة الجمل الدموية، سارع معاوية بن أبى سفيان بجيشه للاستيلاء على مصر حيث أخذ يقتل المؤيدين للخليفة على ابن أبى طالب فيها، ولكن الأمويين لم يتمكنوا من السيطرة على مصر.

ثم دارت موقعة صفين بين على ومعاوية وما تلاها فى مؤتمر التحكيم، فأرسل معاوية عمرو بن العاص (وكان قد عزله عثمان عند توليه الخلافة)، فدخلت الجيوش الأموية مصر التى كان بها وال من قبل الخليفة الشرعى للمسلمين على بن أبى طالب، وكان الوالى هو محمد بن أبى بكر الصديق الذى كان قد اشترك فى الثورة على عثمان وقتله.

ولقد انتصر عمرو بن العاص، واعتقلت قواته والى مصر محمد بن أبى بكر حيث قتلوه، وأرسلوا قميصه المضرج بدمائه إلى نائلة زوجة عثمان كدليل على أن دماء زوجها الكهل لم تذهب بلا قصاص.. ولقد حدث ذلك فى شهر صفر من عام ٣٨ للهجرة.

الإعدامات السياسية فى الدولة الأموية بمصر:

زادت قوة معاوية بن أبى سفيان بعد تمكن قواته بقيادة عمرو بن العاص من الاستيلاء على مصر، وضعفت قوة الخليفة على بن أبى طالب رضى الله عنه فى ذات الوقت، حيث انعكس ذلك الضعف على قيام طائفة من جند على بالخروج عليه (الخوارج) لقبوله مؤتمر التحكيم وحاربوه حروباً دموية مروعة راح ضحيتها الألوف من المسلمين، ثم تمكن بعض الخوارج من مباغتة على واغتياله عام ٤٠ للهجرة، فلم يجد المسلمون شخصاً آخر يخلفه سوى معاوية بن أبى سفيان الذى أصبح خليفة للمسلمين يحكم من دمشق، وهو الذى أسس الدولة الأموية العربية التى كانت واحدة من أقوى الدول التى حكمت العالم الإسلامى.

والحكم الأموى بمصر، يبدأ بواليها عمرو بن العاص الذى كان (فى ولايته الأولى إبان خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه) قد أدخل الإسلام إلى مصر، والذى استمر -

فى ظل حكم معاوية - حتى وفاة عمرو عام ٤٣هـ (٦٦٣ م). ولقد توالى من بعده حوالى ٢٧ والياً أموياً آخر حكموا مصر حتى زوال الدولة الأموية عام ١٣٢هـ.

وبصفة عامة، فقد عاشت مصر مرحلة ازدهار واستقرار فى ظل خلفاء بنى أمية، ولعل خير دليل على ذلك ازدهار صناعات السفن والسلاح التى استخدمت بنجاح لهزيمة المحاولات المتكررة التى قام بها البيزنطيون لغزو مصر عن طريق الإسكندرية ودمياط، كما أن الجيوش الإسلامية التى خرجت لنشر الإسلام فى شمال أفريقيا خرجت جميعها من مصر، وأحرزت نجاحاً كبيراً توج بفتح الأندلس عام ٩٣ للهجرة.

وفيما يلى عرض سريع لأهم أعمال العنف السياسى التى حدثت فى مصر إبان حكم الدولة الأموية:

فقد بدأت الصراعات السياسية تتوالى ضد الأمويين من قبل العلويين. وبدأت برفض الإمام الحسين بن على مبايعة يزيد بن معاوية للخلافة عام ستين للهجرة، وجرت بسبب ذلك مذبحة كربلاء التى استشهد فيها الحسين فى العاشر من المحرم عام ٦١ للهجرة. وما إن قتل الحسين حتى قام عبد الله بن الزبير بالدعوة لنفسه خليفة للمسلمين فى الحجاز عام ٦١ للهجرة، ولقد كانت دعوة ابن الزبير أقوى وأخطر على الدولة الأموية من دعوة الحسين، ذلك لأن أعداداً كبيرة من الناس فى الحجاز والعراق ومصر واليمن وقفوا يؤيدونه، مما أفشل مهمة الجيش الذى بعثه يزيد بن معاوية لهزيمته عام ٦٣ للهجرة.

ولما زادت شعبية ابن الزبير فى مصر، سارع المصريون بطرد الوالى الأموى واستقبال والٍ آخر من قبل ابن الزبير وهو عبد الرحمن بن عتبة الفهرى وكان ذلك عام ٦٤ للهجرة، فخشى الخليفة الأموى فى ذلك الوقت وهو مروان بن الحكم ضياع مصر منه فسارع بنفسه لاستخلاصها من أتباع عبد الله بن الزبير ودارت معارك ضارية بين الجانبين انتهت بالصلح فتمكن مروان من دخول الفسطاط[1] والسيطرة على البلاد،

---

(١) يقول ابن دقماق عن سبب تسمية الفسطاط بذلك الاسم: إن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - لما أراد المسير إلى الإسكندرية (بعد فتح حصن بابليون) أمر بفسطاطه (خيمته) أن يقوض (أن يفك)، فإذا بيمامة قد باضت فى أعلاه، فقال لقد تحرمت بجوارنا، أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها (أى اتركوا الخيمة حتى يتمكن الطير الصغير من الطيران)، فأقر الفسطاط فى موضعه، فبذلك سميت الفسطاط.. ولما قفل (رجع) عمرو بن العاص من الإسكندرية بعد افتتاحها فى ذى القعدة سنة عشرين ذهب إلى مكان الفسطاط فاتخذها داراً. انظر للمزيد من التفاصيل: الانتصار بواسطة عقد الأمصار فى تاريخ مصر وجغرافيتها لابن دقماق. منشورات المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت.

فضعفت قوة ابن الزبير، وكان ذلك عام ٦٥ للهجرة. ولكن لم تمض أيام على ذلك حتى ثار بعض المصريين الذين أحزنهم دخول مصر تحت الحكم الأموى فقام مروان باعتقالهم وإعدامهم جميعاً وكانوا حوالى ثمانين رجلاً، «قدمهم رجلاً رجلاً فضرب أعناقهم وهم يقولون إنا قد بايعنا ابن الزبير طائعين فلم نكن لننكث بيعته»[١].

وفى عام تسعين للهجرة، قام حوالى مائة من الخوارج بتمرد على الوالى الأموى فى ذلك الوقت وهو قرة بن شريك (فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك) فوصلت أخبار التمرد إلى الوالى فسارع باعتقالهم فى منارة الإسكندرية حيث جرت عملية إعدامهم جميعاً بأمر الوالى.

وفى نفس العام، هاجم البيزنطيون مدينة دمياط، وكانت أهم مدينة لتصنيع السلاح والسفن فى مصر، وفاجأوا حاميتها بالقتل حتى سارعوا باختطاف قائد الأسطول العربى هناك خالد بن كيسان وأرسلوه إلى الإمبراطور البيزنطى الذى رأى حفاظاً على الهدنة القائمة بينه وبين الأمويين بدمشق إرساله للخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك.

وفى عام ١٠١ هـ (٧٢٠ ميلادية) هاجم البيزنطيون مدينة تنيس التاريخية المجاورة لدمياط حيث تمكنوا من قتل عدد من القادة العرب بمصر كان منهم مزاحم بن مسلمة.

وفى عام ١٢١ هـ، هاجم البيزنطيون دمياط مرة أخرى ولكن بأسطول ضخم تلك المرة، حيث رست ثلاثمائة وستون سفينة بشواطىء المدينة وهاجموا شوارعها ومتاجرها وأسواقها، فقتلوا العديد من أبنائها وأسروا آخرين ورحلوا بهم، وكان ذلك إبان خلافة هشام ابن عبد الملك.

ولقد أدت تلك الهجمات، والانتفاضات فى مصر وغيرها من الولايات الأموية إلى إضعاف الدولة، فأخذت الانقسامات فيها تتوالى إلى أن ظهرت الدعوة العباسية فى خراسان بقيادة أبى مسلم الخراسانى وعدم تمكن آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد وقف التدهور فهاجمه العباسيون بجيوش جرارة تمكنت من هزيمته فى الشام عام ١٣٢ هـ فى معركة نهر الزاب الأعلى، ففر الخليفة إلى مصر التى اعتقد أن بها قوة أموية تمكنه من التصدى للعباسيين، ولكنه كان متعلقاً بالأوهام إذ سرعان ما دخل الجيش العباسى مصر وأخذ الخليفة الأموى يهرب من مكان إلى آخر حتى اعتقله العباسيون فى قرية

(١) انظر خطط المقريزى ـ الجزء الثانى (طبعة دار الثقافة الدينية).

بوصير[١] (بمحافظة بنى سويف اليوم) حيث قتلوه وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى العراق حيث تأسست دولة إسلامية جديدة تسمى الدولة العباسية وطويت صفحة الدولة الأموية فى المشرق العربى[٢].

الإعدام السياسى فى عهد العباسيين بمصر:

ولقد استهل العباسيون حكمهم بمصر بمطاردة الأمويين فى كل مكان وجدوهم فيه حيث تم إعدام المئات منهم سواء فى مصر أو فى خارجها. ولقد باشر ذلك الوالى العباسى الأول فى مصر صالح بن على الذى عينه الخليفة العباسى الأول عبد الله بن محمد المعروف بالسفاح.

ولقد استمر نجاح العباسيين فى السيطرة على مصر حتى اندلعت ثورة أموية فى مصر عام ١٦٥ هـ بقيادة رجل يدعى دحية بن مصعب الذى يعتبر أحد أحفاد الخليفة الأموى عبد العزيز بن مروان، وقد ظهرت تلك الانتفاضة فى صعيد مصر وشجعتها القبائل العربية التى استفادت بالحكم الأموى، وبدا أن مصر سوف تخرج من نفوذ الدولة العباسية حيث فشل ثلاثة ولاة عباسيين فى القضاء على الثورة وزاد عدد أتباع مصعب حتى أنهم طالبوه بالزحف بجيشه لدخول الفسطاط والقضاء على الحامية العباسية فى مدينة (العسكر) التى بناها العباسيون بجوار الفسطاط لتكون مقراً لحكمهم بمصر[٣] ولهذا

(١) يقول المؤرخ المصرى ابن دقماق إن أبو صير هى المدينة التى «سجن بها السيد يوسف الصديق - عليه السلام. قال القضاعى: أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان، وفيه أثران لنبيين أحدهما يوسف الصديق - عليه السلام - سجن به المدة التى ذكرها الله تعالى، ذكر أن مبلغها سبع سنين، وكان الوحى ينزل عليه فى هذا السجن... وبها مسجد موسى - عليه السلام - فى السهل دون الكثيب الرمل». انظر للمزيد من التفاصيل: الانتصار لواسطة عقد الأمصار فى تاريخ مصر وجغرافيتها لابن دقماق - منشورات المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت.

(٢) تمكن عبدالرحمن الداخل وهو أمير أموى من الفرار من الشام والسفر إلى الأندلس، حيث أسس هناك الدولة الأموية القوية المعروفة.

(٣) مدينة العسكر، هى ثانى أكبر مدينة إسلامية بنيت فى مصر، أما الأولى فكانت الفسطاط التى بناها عمرو بن العاص. ويقول المؤرخ المصرى المعروف ابن دقماق: إنما سمى هذا الموضع بالعسكر لأن عسكر صالح بن على الهاشمى وابن عون عبدالملك بن يزيد نزل هناك وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فسمى المكان بالعسكر. انظر: الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق.
وبالرغم من أن العسكر كانت مدينة عباسية إلا أن المسلمين كانوا قد استوطنوا بالفسطاط وارتبطوا بها وبمسجدها الجامع ارتباطاً راسخاً.. ولكن جرت العادة لدى أغلب من أسسوا دولاً إسلامية فى مصر أن يؤسسوا لهم مدينة تذكر باسمهم ويفتحهم.

سارع الخليفة العباسى بتعيين وال جديد لمصر هو الفضل بن صالح فدخل فى حروب ضارية ضد دحية بن مصعب حتى هزمه واعتقله ودخلوا به الفسطاط حيث أعدم، فضرب رأسه وصلب فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٦٩ للهجرة.

وفى عام ١٨٦ هـ ثار أهل الحوف فى مصر ثورة عارمة ضد رفع العباسيين للضرائب على الأراضى الزراعية ومحاصيلها، ثم إنهم تجمعوا وقصدوا الاستيلاء على الفسطاط، فخرج لهم الليث بن فضل والى مصر (زمن الخليفة العباسى هارون الرشيد) فى جيش قوامه أربعة آلاف رجل، وتقابل معهم فى شهر رمضان فهزموه وقتلوا العديد من رجاله وفر بقية الجند سوى مائتين منهم، فهاجم بهم الثوار هجوماً شديداً وهزمهم وقتل وأعدم منهم العديدين وأرسل إلى الفسطاط ثمانين رأساً منهم. مقطوعة لتعلق هناك.

ولقد تكررت ثورات أهل الحوف بمصر ضد العباسيين بتشجيع عرب القيسية بها، وكانت المعارك بينهم وبين العباسيين متأرجحة النتائج.

ويقرب انتهاء القرن الثانى للهجرة، وفيما بين أعوام ١٩٥ ـ ١٩٨ للهجرة، حدث نزاع مرير هز أركان الدولة العباسية، بسبب صراع الأمين والمأمون على كرسى الخلافة. فقد مات هارون الرشيد تاركاً ولديه على الخلافة، وكان يمكن أن يتفادى ذلك الصراع لو أنه ولى أحدهما فقط، ولكن الصراع احتدم واندلعت المعارك الطويلة ليس فى العراق ولكن مصر كذلك، حيث شجع البعض الأمين، وشجع الآخر المأمون، فوقعت أحداث دموية عديدة، راح ضحيتها العديد من المسلمين، واستمر ذلك التصدع السياسى فى مصر إلى أن قتل الأمين فى العراق فى شهر المحرم من عام ١٩٨هـ فسارع المأمون بتأمين خلافته فى العراق وفارس تاركاً مصر فى حالة فوضى وانقسام وحروب أهلية مروعة حتى عزم على إنهاء ذلك كله، فسافر تحت قيادة جيش كبير إلى مصر عام ٢١٧ هـ وأخذ فى دحر الفرق المتصارعة وقتل العديد من أفرادهم وقادتهم وعاد إلى الفسطاط بعد أن اطمأن إلى رجوع مصر لدولته العباسية.

وفى عام ٢٣٨هـ (٨٥٣ م) هاجم الروم البيزنطيون مدينة دمياط وليس بها حامية تحميها لموافقة ذلك عيد الأضحى، وقد جاءوا فى ثلاثمائة سفينة.. ويصف لنا إبن إياس ذلك فيقول:

«وهجموا على أهلها ـ أى سكان دمياط ـ وقتلوا جماعة من المسلمين وأسروا منهم جماعة، فجاء الخبر إلى مصر بذلك فى يوم عيد النحر، فنودى بالنفير عاماً، فخرج أهل الفسطاط جميعاً وتوجهوا إلى ثغر دمياط، وتحاربوا مع بنى الأصفر ـ أى الروم ـ فانتصر عليهم عنبسة ـ والى مصر العباسى عنبسة بن إسحق بن شمر ـ وأسر منهم جماعة، وهرب الباقون جميعاً...»[١].

ولقد أدت كثرة الفتن والهجمات البيزنطية ضد الدولة العباسية إلى ضعف مركزها فى بغداد، وخاصة بعد الانقسام الخطير الذى حدث بين الأخوين الأمين والمأمون، فاستقلت اليمن عن الدولة العباسية استقلالاً ذاتيا عام ٢٠٤هـ، وفى العام التالى استقلت ولاية خراسان وتأسست بها دولة قوية هى الدولة الطاهرية (نسبة إلى طاهر بن الحسين)، وفى عام ٢١٢هـ تأسست بجزيرة كريت الدولة الكلابية، وفى نفس العام سقطت جزيرة صقلية تحت حكم دولة الأغالبة فى المغرب، ثم سيطر الأتراك على الخلافة العباسية وأخذوا يتحكمون فى الخلفاء تحكماً مهيناً، بل إنهم كثيراً ما قتلوهم (مثل اغتيالهم للخليفة المتوكل عام ٢٤٧هـ، والمنتصر عام ٢٤٨هـ والمستعين عام ٢٥٢هـ)، وكان من أثر ذلك أن مصر خضعت هى الأخرى لعدم الاستقرار مما مكن أحمد بن طولون من تأسيس الدولة الطولونية بها عام ٢٥٤هـ.

ولأن دولة أحمد بن طولون بمصر، كانت دولة مستقلة كاملة الاستقلال السياسى والإدارى والعسكرى عن الخلافة العباسية (وهى المرة الأولى منذ الفتح العربى) فسوف نتعرض بإسهاب لعمليات الإعدام السياسى التى وقعت بمصر فى ذلك الوقت.

الإعدام السياسى فى الدولة الطولونية:

نجح العباسيون نتيجة توحدهم خلف فكرة (الشعوبية) التى تعنى أن كل المسلمين سواسية فى المشاركة فى الحكم دون الاضطرار إلى قصر الخلافة على عائلة واحدة كما فعل الأمويون فى الإطاحة بالدولة الأموية.

---

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ ابن إياس ـ كتاب الشعب ـ الجزء الأول ـ مطابع الشعب عام ١٩٦٠.

ولقد أدى اتساع الدولة العباسية وتمدد أطرافها إلى عدم قدرة المركز (بغداد) فى التحكم والسيطرة على الولايات.. مما أدى إلى اتساع النزعات الاستقلالية وخاصة فى الأطراف(١).

وبالإضافة إلى ذلك، فإن البيت العباسى نفسه أخذ يقع فريسة للانقسام بين المؤيدين للعرب والمؤيدين للفرس والمؤيدين للترك مما انعكس على طريقة اختيار أولياء العهد، فأخذت التكتلات المتنافسة تتصارع إلى أن سيطر العنصر التركى على الدولة.. ولهذا فليس غريباً أن يسيطر نفس ذلك العنصر على حكم الولايات.

ويعود استقلال أحمد بن طولون بولاية مصر عن الدولة العباسية(٢) إلى وفاة أبيه طولون الذى كان مقرباً من البيت العباسى على مدى سنين عدة، فخلفه ابنه أحمد فى منصب رئيس حرس الخلافة، ثم تعيينه كنائب لوالى مصر الأمير (باكباك) الذى كان يحكمها بأمر من بغداد، فسافر أحمد بن طولون إلى مصر عام ٨٦٨م، وتمكن من تهيئة الأمر لنفسه، واستقل بمصر لتكون له ولبنيه على أن يدفع جزية للدولة العباسية، ثم سرعان ما أوقفها، فأصبحت مصر على عهده قوة ضارية بالغة الثراء.

ولما تملك أحمد بن طولون مصر، استكثر من الجند والسلاح وجمع الأموال، فأخذت الوشايات تنقل ضده إلى الدولة العباسية. فعلم أحمد بن طولون بها وقام بإرسال الهدايا إلى كبار رجال الدولة العباسية حتى يرضيهم، فيتحدثوا خيراً عنه أمام الخليفة العباسى المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ) فنجح فى ذلك نجاحاً كبيراً، ثم التفت إلى أكبر شخصيتين تعاديانه فى مصر، وهما ابن المدبر صاحب الخراج (أى ما يعادل وزير المالية اليوم)

---

(١) يذكر ابن خلدون فى مقدمته تفسيراً لذلك فيقول تحت عنوان: «فى أن الأوطان الكثيرة القبائل، قل أن تستحكم فيها الدولة.. والسبب فى ذلك اختلاف الآراء والأهواء، وأن وراء كل رأى منها هوى وعصبية تمانع دونها فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها فى كل وقت، وإن كانت ذات عصبية لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن فى نفسها منعة وقوة».
انظر لمزيد من التفاصيل الهامة: مقدمة ابن خلدون ـ كتاب الشعب ـ دار الشعب ـ القاهرة.

(٢) «كان أحمد بن طولون قد مات أبوه فى سنة أربعين ومائتين للهجرة (٨١٦م)، ولأحمد عشرون سنة منذ ولد من جارية كانت تدعى قاسم، وكان مولده فى سنة عشرين ومائتين. وكان طولون من الضغرغر (سلالة تركية) مما حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون (الخليفة العباسى) فيما كان موظفاً عليه من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك من كل سنة وذلك فى سنة ٢٠٠ هـ، فنشأ أحمد بن طولون نشأً جميلاً غير نشء العجم، فوصف بعلو الهمة وحسن الأدب والذهاب بنفسه عما كان يترامى إليه أهل طبقته، وطلب الحديث وأحب الغزو وخرج إلى طرسوس مرات، ولقى المحدثين وسمع منهم وكتب العلم وصحب الزهاد وأهل الورع، فتأدب بأدبهم وظهر فضله». انظر خطط المقريزى ـ الجزء الأول ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة.

فاعتقله وتخلص من مخاطره، أما شقير الخادم صاحب البريد (أى ما يعادل وزير النقل اليوم) فقد اعتقله وضربه بالسياط حتى مات بسبب ذلك. وكان الأخير قد أرسل وشاية إلى بغداد ضد أحمد بن طولون يشرح لهم خطورة أحمد بن طولون وأنه فى سبيل الاستقلال بمصر، إذ قال: «إن أحمد بن طولون بسبيل التغلب على مصر والعصيان بها»(١).

ويبدو أن سيطرة أحمد بن طولون على مصر قد بدت لدى العلويين النشيطين كدليل ضعف سواء من الدولة العباسية أو من ابن طولون نفسه، فأخذ الكثير من العلويين يظهرون فى أماكن شتى بمصر يدعون إلى المذهب الشيعى، ولكن أحمد بن طولون كان ينتصر عليهم. ففى عام ٢٥٥هـ ظهر رجل علوى يدعى (بغا الكبير) فى غرب مصر ثم سرعان ما سار إلى الإسكندرية يدعو للمذهب الشيعى ثم تركها إلى الصعيد ربما لاعتقاده بحصانة بلاد الصعيد عن جنود مصر، ولكن أحمد بن طولون لم يمهله حيث أرسل إليه فرقة من جنده تحت قيادة (بهم بن الحسين) فهزم بغا الكبير وقتل وقطع رأسه وأرسل إلى ابن طولون.

وفى العام التالى لذلك (أى عام ٢٥٦هـ) ظهر علوى آخر يدعى (ابن الصوفى) أخذ يهاجم مدينة إسنا بأقصى صعيد مصر، فأرسل إليه أحمد بن طولون فرقة من جنده تحت قيادة (ابن يزداد)، ولكن ابن الصوفى هزم تلك الفرقة واعتقل ابن يزداد وأعدمه بعد تقطيع يديه ورجليه ثم صلبه بعد ذلك، وعندما علم ابن طولون بهزيمة جنده ومصرعهم، أرسل فرقة أخرى تحت قيادة (بهم بن الحسين) الذى كان قد هزم (بغا الكبير) العلوى فى صعيد مصر، فتقابل معهم وهزمهم وقتل منهم الكثيرين، وبالرغم من ذلك فقد تمكن ابن الصوفى من الفرار إلى أقاصى الصعيد (على مقربة من مدينة قوص) حيث اختفى هناك بعض الوقت ثم ظهر مرة أخرى بعد أن وحد صفوفه وزاد أتباعه وسيطر على تلك المنطقة، ولم يتمكن ابن طولون من هزيمته لوعورة الأرض، إلى أن تمكن قائده (بهم ابن الحسين) من استرداد الصعيد، فخرج منه ابن الصوفى وتوجه إلى منطقة بالبحر الأحمر تسمى عيذاب، وهناك تفرق عنه أتباعه فتركهم وعبر البحر إلى الحجاز حيث دخل مكة المكرمة فاعتقله أمير مكة وأرسله إلى أحمد بن طولون بمصر، ولكن أحمد بن

(١) سيرة أحمد بن طولون ـ أبى محمد البلوى ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة.

طولون لم يعدمه حيث تاب بين يديه وطلب السفر إلى المدينة المنورة حيث استقر بها لبعض الوقت. ويبدو أن أحمد بن طولون خشى من أن يعود ابن الصوفى مرة أخرى لمهاجمة دولته بمصر، فأرسل إليه جيشاً بقيادة شعبة بن ضرغام البابكى، فانتصر ابن الصوفى على شعبة وبعد عدة أشهر على ذلك حضر إلى مصر أشخاص من الحجاز، ومعهم رأس ادعوا أنه رأس ابن الصوفى، فلما قابلهم ابن طولون وأظهروا له الرأس استدعى بعض أهل الصعيد العارفين لابن الصوفى، فأثبتوا أنه رأسه. فأحضر ابن طولون الأشخاص الذين جلبوا الرأس وسألهم إذا كان ابن الصوفى قاسياً عليهم، فأجابوا بالنفى، فسألهم إن كان لم يعطهم أجورهم وهم فى خدمته، فأجابوا بالنفى، فسألهم إن كان ابن الصوفى قد افتعل إثماً يستحق عليه القتل فأجابوا بالنفى. فسألهم ابن طولون وماذا إذن كان سبب قتلهم له فأجابوه أنهم قتلوه لكى يتقربوا منه (أى من أحمد بن طولون) وينالوا الحظوة عنده! فأجابهم ابن طولون إن هذا لن يحدث منه لأنهم غدروا برجل طيب، وأمر حراسه بإعدام القتلة فضربت أعناقهم وصلبت جثثهم، أما رأس ابن الصوفى فقد أمر ابن طولون بغسله ولفه فى كفن مناسب ودفنه.

وتدلنا تلك القصة على مدى الالتزام الأخلاقى لواحد من أشهر من حكموا مصر فى العصور الوسطى، وكيف أنه غضب على قتل عدو خطير له لإحساسه بأن المقربين منه غدروا به لغرض دنيوى وهوالتقرب من ابن طولون.. كما يدلنا على ذكاء خارق لأحمد ابن طولون، فهو قد عرف أن من لا أمان له لا يثق به أحد، فكيف يثق أحمد بن طولون بقتلة ابن الصوفى وكانوا مقربين منه، لو أنه كافأهم على جريمتهم وقربهم منه ألا يمكن أن يكرروا جريمتهم معه هو مرة أخرى ويقفزوا لحكم مصر؟

ولعل هذا الالتزام الأخلاقى هو ما دعا المؤرخ المصرى الكبير ابن إياس إلى وصف أحمد بن طولون بأنه كان: «ملكاً عادلاً، يحب العلماء والصلحاء. وكان يصلى على من يموت فى البلد - من فقير أو غنى - بنفسه، ويحضر دفنهم، ويحب فعل الخير، كثير البر والصدقات وكان له اشتغال بالعلم، وطلب الحديث، وكان نافذ الكلمة وافر الحرمة...»(١).

وبعد أن انتهت فتنة ابن الصوفى، وصلت الأنباء إلى أحمد بن طولون أن رجلاً

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس.

يدعى (أبا روح) من أتباع الصوفى قد ظهر فى الصعيد، فأرسل ابن طولون إليه جيشاً بقيادة (يلبق الطرسوسى) فانهزم الجيش، وتمكن أبو روح من الصعيد، وسافر بقواته حتى بلغ الفيوم، فأرسل أحمد بن طولون جيشاً آخر تحت قيادة (ابن جيغويه) فسافر إلى الفيوم من جهة الصحراء الغربية (فيما يبدو أنه حركة التفاف)، وجيشاً آخر بقيادة (شعبة بن ضرغام) عن طريق وادى النيل، فلما التقى الجيش الثانى بقوات أبى روح هزم أبو روح وولى الأدبار متجهاً إلى طريق الواحات الغربية، فتقابل هناك مع جيش ابن جيغويه، وهنا تمكن أبو روح من مخادعة ابن جيغويه إذ أرسل إليه يطلب السلام والأمان، فاعتقد ابن جيغويه أن أبا روح لم يهزم من جيش شعبة بن ضرغام، فأعطاه الأمان وتركه وعاد إلى مصر فغضب أحمد بن طولون من ابن جيغويه وعزله من منصبه لفشله فى الإجهاز على أبى روح وهو فى حالة ضعفه.

أما شعبة بن ضرغام فقد وصل مصر ومعه بعض أسرى أبى روح فأمر ابن طولون بإعدامهم.

وبعد عدة أشهر أخرى حدثت انتفاضة من أهل برقة (وكانت تابعة للدولة الطولونية) حيث تمكنوا من التحصن بقلعة حصينة هناك، فأرسل إليهم أحمد بن طولون عدة فرق تمكنت بعد خسائر كبيرة من اقتحام الحصن وأسر عدد من الثوار حيث تم إعدام وصلب عدد منهم، أما الباقون فقد أرسلوا إلى مصر.

وكان أحمد بن طولون يراقب(١) مستشاريه المقربين بحيل وأساليب عديدة حتى أن بعضهم كان يسأل ابن طولون إذا ما كان يأتيه الوحى فينهرهم ابن طولون، ويخبرهم أن

---

(١) «حدث نسيم الخادم قال: كان أصحاب الأخبار يرفعون إلى مولاى - أى أحمد بن طولون - رقاعاً فى أقوام تكون سبباً لاصطفائهم أو قتلهم، وكنت حرباً لأصحاب الأخبار باغضاً لهم، وكنت إذا لقيت الرجل منهم لعنته فى وجهه جهراً. وكان مولاى إذا رفعت إليه رقعة حفظ معناها، وأمر بقتل صاحبها، ودفعها إلى وأمرنى بتحريقها ولم يثق بغيرى فى ذلك».

«وكان رأى أحمد بن طولون فى الجاسوسية أنها: صناعة رديئة ليس يصلح لها غير الشرار ومن ليس فيه خير». انظر سيرة أحمد بن طولون لأبى محمد البلوى. ويمكن القول أن أحمد بن طولون لم يكن سفاكاً للدماء مثل الحاكم بأمر الله ولكنه كما يقول ابن طلحة الوزير فى العقد الفريد: كان ابن طولون هذا مبسوط القدرة على البلاد المصرية، نافذ الحكم فيها، مهيباً، مخوفاً يقوم بسياسة الملك ويعلى كلمة الحق، ويأخذ نفسه بالإنصاف مع ماهو عليه من الجبروت المفرط والقتل السرف».

انظر هامش صفحة ٢١٦ من كتاب سيرة أحمد بن طولون لأبى محمد البلوى حققها محمد كرد على - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.

العقل إذا ما صح فنادراً ما يخطىء.. وقد وردت قصة فى سيرة أحمد بن طولون (للبلوى) تفيد بأن مستشاره ابن الفضل قد اكتسب مالاً كثيراً مستغلاً منصبه، فاستدعاه أحمد بن طولون ثم قال له: «أحلف بالله ثم برأسى أنك ما تملك ذلك، فحلف، فدعا سواراً الخادم وكان خادماً جريئا، صفيق الوجه، قاسى القلب فقال له: امض الساعة واقبض على كل ماله، واحمل إلىّ الساعة ما تجده من العين واختم على ما سواه. فمضى سوار وقبض على كل ما وجده له فى داره، فوجد له من العين ثمانين ألف دينار، فحملها إليه، وختم على ما بقى، وعاد إليه فعرفه بجميعه فأمر ببيعه كله فبيع بعشرين ألف دينار سوى ما استهلك وتمزق وتفرق، وسلم ابن الفضل إلى سوار فكان آخر العهد به»[1].

ولقد حدثت الكثير من حالات الإعدام السياسى سواء الفردية أو الجماعية عن طريق استخدام أحمد بن طولون لمعلوماته الاستخبارية، ولعل أشهر ما ذكر فى ذلك القصة التى رواها واحد من أكبر مستشاريه ويدعى أحمد بن محمد الكاتب الذى ذكر أن أحمد بن طولون أرسل له بعض رجاله بعد مضى جانب كبير من الليل، وأخبروه بأن الأمير (أى أحمد بن طولون) يريده، فخشى الكاتب على نفسه وعلم أن نهايته قد قربت حتى أنه قام واستحمم وتطيب تطيب الرجل الذى ينتظر حتفه وودع أهله وخرج مع الرسل إلى أحمد ابن طولون، فلما دخل عليه سلم عليه فرد ابن طولون السلام وأمره أن يجهز نفسه فى الغد لحضور اجتماع مع بعض الشخصيات الهامة فى مصر وأن يوافيه بكل ما سيقال فى ذلك الاجتماع، وكان الكاتب على معرفة بهؤلاء جميعاً، وفهم أن أحمد بن طولون يريد استخدامه جاسوساً عليهم وينقل له ما يقولون عنه، ومع هذا فلم يستطع أن يرفض الطلب، فلبى الأمر وعاد إلى منزله وهو حزين متخوف من المصير.

وفى اليوم التالى ذهب إلى الاجتماع وادعى أمام الحاضرين أنه يعانى من عسر البول، وأخذ يجلس معهم ويحادثهم، فاتضح له من كلامهم أنهم يكرهون جميعاً أحمد بن طولون ويدعون عليه ويتمنون زوال عهده وعودة مصر لحكم الخليفة العباسى (الموفق بالله فى ذلك الوقت) وكان كلما مضى الوقت يستأذن منهم، ويذهب إلى المرحاض بحجة مرضه بعسر البول، ويكتب بداخله كل ما كان يقوله كل فرد منهم ثم يعود إليهم ليستمع لهم ويذهب ليكتب مرة أخرى وهكذا.. فلما انفض الاجتماع انصرف وذهب إلى

---

(١) سيرة أحمد بن طولون ـ تأليف أبى محمد البلوى ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة.

قصر أحمد بن طولون فى مدينة القطائع[١]، وأظهر له ما كتبه، فقرأه أحمد بن طولون كله وشكره ودعا له وأمره بأن يمد يده ليأخذ ما هو تحت المصلّى، فظن الكاتب أن هناك ثعباناً سيعضه ويقتله، ولكنه مضطراً مدّ يده فوجد هناك ورقة أمره أحمد بن طولون أن يقرأها، فقرأها فوجد أن كل المعلومات التفصيلية التى بها هى ذاتها التى كان هو نفسه قد نسخها عن الاجتماع. وهنا فطن الكاتب إلى أن أحمد بن طولون قد أرسله إلى هذا الاجتماع وأرسل شخصا آخر - أو ربما أكثر - إلى نفس الاجتماع ليعلم أياً منهما الأصدق وأياً منهما المخلص له. وقد كافأه أحمد بن طولون وأعطاه ألفى دينار وصرفه. وفى اليوم التالى أراد الكاتب أن يذهب إلى بيت صديقه الذى كان الاجتماع قد تم فيه ولكنه عندما وصل إلى هناك لم ير أثراً للبيت، بل وجد فراغاً مرشوشاً بالماء! فلما سأل بعض سكان الحى أخبره أحدهم بأن خمسمائة شخص قد أتوا ليلا واعتقلوا كل من فى البيت ثم هدموه وحملوا الردم وقذفوا به كله فى النيل.. أما صاحب البيت وأصدقاؤه فقد أعدموا جميعاً بأن ألقوا فى النيل واحداً بعد الآخر أو كما قال: «أن رسل أحمد بن طولون كانوا يخرجون واحداً من منزله فيغرّق، وتؤخذ نعمته بأسرها»[٢].

فى عام ٢٦٤ للهجرة، سافر أحمد بن طولون - بعد أن شعر أن مصر كلها باتت على عهده راضية - إلى الشام ليتم إخضاع مدنه وربوعه.. وترك ابنه العباس - وهو أكبر أبنائه - نائباً عنه على مصر، وترك معه الوزير بن محمد الواسطى وصياً على العرش ونصح ابنه باتباع رأى الوزير وطاعته.

لقد ظن أحمد بن طولون أن أعداءه قد دحروا جميعاً فى مصر، ولم يظن أبداً أن أخطر الانتفاضات والثورات ستحدث من أقرب المقربين إليه.. من ابنه العباس هذا..!

«فخانه أمله فيه، وأتاه المقدور بما ليس فى خلده، وهذا لصغر الدنيا عند الله عز

---

(١) لما استقر الحال لأحمد بن طولون بمصر وأصبح واحداً من أصحاب الدول الكبرى القوية أخذ فى تأسيس عاصمة لدولته وسماها القطائع وذلك لأن مدينة العسكر التى بناها العباسيون لم تعد صالحة له ولجيشه. وقد اختار ابن طولون مكاناً هاماً على جبل يشكر بالمقطم شرق مدينة الفسطاط ليبنى فوقه مدينته. ولقد اتضح فيما بعد أن ذلك المكان هو نفس المكان الذى أقيمت فوقه قلعة صلاح الدين. ولقد قسمت المدينة قطعاً من الأرض (ولذلك سميت القطائع) وزعت على كبار الأمراء، وبنى قصر لابن طولون وكذلك مسجده الضخم القائم حتى يومنا هذا، والبيمارستان الطبى الذى خصصه للفقراء. وكانت مساحة المدينة كيلومترين مربعين يتوسطها قصر الحكم الذى اندثر فيما بعد فلم يعد له وجود.

(٢) سيرة أحمد بن طولون - لأبى محمد البلوى.

وجل، ولنزارة محلها، ولينتبه أولو الألباب على مقدارها، وأنها لا تدوم لأحد ولا تصفو له، وإن حسن تدبيره، وصح تمييزه، وقيل هو واحد زمانه»(١).

يبدو أن العباس كان ناقما على سياسات أبيه وثرائه وقوته حيث التف حوله (أى العباس) العديد ممن كرهوا أحمد بن طولون وحسدوه وتمنوا زوال ملكه، فلما غاب أحمد ابن طولون ببلاد الشام(٢) اعتقدوا أنه مات أو قتل فحسنوا الأمر لابنه العباس لأن يخرج عن طوع أبيه.

وبدأ التصارع بين العباس وبين الوزير الواسطى، فكتب الواسطى لأحمد بن طولون فى الشام بتغير أحوال العباس، فطلب ابن طولون من الواسطى مداراة العباس، ولكن العباس سارع واعتقل الواسطى واصطحبه معه مع بعض قوات الجيش الموجودة بمصر وسافر إلى الإسكندرية ثم ارتحل إلى ولاية برقة بالصحراء الغربية، فلما علم بذلك أحمد ابن طولون عاد مسرعاً إلى مصر حيث وجد أن ابنه قد سرق مليونى دينار (وهو مبلغ يعادل الإنتاج القومى لمصر لمدة عام كامل فى ذلك الوقت) فأرسل أحمد بن طولون حكماء وعلماء كباراً لوعظ ابنه وملاطفته فى محل إقامته فى برقة فانجذب لهم، ولكن رفاقه حذروه من لين أبيه وغدره وسرعة انتقامه إذا ما هو عاد بهم مرة أخرى إلى مصر. وحدث أن العباس انعطف على رأى رفاقه فرحل بهم قاصداً تونس وكان بها دولة الأغالبة القوية(٣)، فلما وصلوا إلى مشارفها اقتحم رجاله أحد حصونها وقتلوا من به واعتدوا على النساء، فعلمت بذلك قبيلة الأباضية وغضب رجالها مما فعله العباس فخرجوا له بجيوشهم القوية التى دعمها الأغالبة وألحقوا بالعباس هزيمة ثقيلة، وقتلوا العديد من رجاله ونهبوا كل أمواله وسلاحه ففر عائداً إلى الإسكندرية حيث خرج له الوزير الواسطى مع فرقة من الجند، فتقابل مع العباس حيث هزمه وأسره ومن تبقى معه من جنوده وكان

(١) سيرة أحمد بن طولون - لأبى محمد البلوى.

(٢) دانت لأحمد بن طولون أمهات مدن بلاد الشام ودُعى له على منابرها (٢٦٤ - ٢٦٥ هـ) وجعل الرقة مقراً لولايته الجديدة. انظر تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى - الجزء الثالث - الدكتور حسن إبراهيم حسن.

(٣) كان العرب فى شمال أفريقيا كثيرى التمرد على الخلفاء الأمويين ثم العباسيين إلى أن استطاع هارون الرشيد أن يجد حلاً لذلك التمرد وهو إعطاء الحكم الذاتى لتلك الولاية التى كان واليها إبراهيم بن الأغلب اليمنى الذى أصبح المؤسس لدولة الأغالبة على أن يقوم بدفع جزية لبيت المال العباسى قدرها أربعون ألف درهم وعلى أن يصبح حكم الولاية وراثياً فى أسرة إبراهيم بن الأغلب وكان ذلك عام ١٨٤ هـ/ ٨٠٠م.

ذلك عام ٢٦٧هـ. فلما دخل العباس وجنوده وهم مكبلون مصر أمر أحمد بن طولون باعتقالهم جميعاً، ثم أمر ببناء منصة عالية وأحضر الأسرى كافة لإعدامهم واحداً بعد الآخر واختار ابنه العباس لتنفيذ مهمة قطع الرؤوس والأيدى والأرجل وأن يقذف بها من أعلى المنصة. وبعد أن فرغ العباس من إعدام كبار رفاقه السابقين قام أحمد بن طولون بإعدام بقية الأسرى بقطع رقابهم، ولم يبق إلا على اثنين فقط منهم، كان لهما حرمة عنده، فقد كان الأول زوج ابنة أحمد بن طولون جعفر بن يارجوخ حيث عفا عنه ونفاه بعد أن أمره بأن يطلق ابنته، والثانى رجل يدعى ابن عبيد كان مدافعاً عن العباس عندما حاول الأباضية والأغالبة أسره وقتله فعفا عنه وأطلق سراحه... أما عقوبة العباس الابن المتمرد فقد جلده أبوه مائة مقرعة، وكان يبكى وهو يعاقب ابنه، ثم بعد ذلك اعتقله فى داره.

لم يعمر أحمد بن طولون كثيراً بعد ذلك، فمات فى شهر ذى الحجة من عام ٢٧٠ للهجرة (شهر مايو ٨٨٤ ميلادية) ويختلف المؤرخون فى سبب موته، فمنهم من ذهب إلى أن المرض هاجمه (الإسهال الشديد) وهو فى طريقه من الشام إلى مصر، ومنهم من قال أنه مات من الإجهاد، أما جامع السيرة الطولونية فيقول عن سبب وفاته ما يلى: «كان بمدينة عين شمس - وهى التى تسمى الآن المطرية - صنم من الكذان الأبيض على قدر خلقة الإنسان المعتدل، وكان محكم الصناعة يكاد أن ينطق، فقصد الأمير أحمد أن ينظر إليه، فنهاه عن ذلك بعض الكهان وقال له: أيها الأمير، لا تنظر إلى هذا الصنم فما نظر إليه أحد من ولاة مصر إلا عزل عنها فى سنته. فلم ينته الأمير أحمد عن ذلك وركب وتوجه إلى مدينة عين شمس، ولم يزل حتى رأى ذلك الصنم، فأمر بإحضار القطاعين فكسروه قطعاً ولم يبق له أثر. فلما رجع الأمير أحمد إلى داره لم يقم بعد ذلك سوى عشرة أشهر، ثم مرض وتسلسل فى المرض، فاضطربت مصر بسبب مرضه وخرج الناس قاطبة إلى الصحارى، وفعلوا مثل ما يفعلون فى الاستسقاء، فخرج الناس حفاة وعلى رؤوسهم المصاحف، وخرج اليهود وعلى رؤوسهم التوراة، وخرج النصارى وعلى رؤوسهم الأناجيل، وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رؤوسهم الألواح، وخرج سائر العلماء والصلحاء وهم يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء»[1].

---

(١) انظر للمزيد من التفاصيل: المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور - لابن إياس - كتاب الشعب ١٩٩٠ - القاهرة.

وعندما مات أحمد بن طولون كان قد ترك ثروة ضخمة تقدر بعشرة ملايين دينار، فلما خلفه ابنه خمارويه أخذ يبدد فى تلك الثروة الضخمة ويسرف فى إنفاقها.. وتحدثنا كتب التاريخ عن سرد طويل لذلك التبديد والبذخ الذى عاش فيه خمارويه.

أما عن العنف السياسى فى عهده، فقد بدأه خمارويه بأن قتل شقيقه العباس المسجون منذ التمرد على أحمد بن طولون، وذلك بسبب عدم قيام العباس بالموافقة على مبايعة خمارويه للحكم. ثم سارع بمواجهة جيوش العباسيين الذين حاولوا السيطرة على الشام بعد وفاة أحمد بن طولون وهزمهم بعد معارك طاحنة مستمرة وتصالح مع الخليفة العباسى المعتضد، وزوجه خمارويه ابنته قطر الندى فى زواج أسطورى باذخ وكان ذلك عام ٢٨١هـ. وفى العام التالى لذلك اغتيل خمارويه فى قصره بدمشق بواسطة جواريه وخدامه وحمل فى صندوق إلى مصر وكان لدخول تابوته يوم عظيم واستقبله جواريه وجوارى غلمانه ونساء قواده ونساء القطائع (عاصمة مصر الطولونية) بالصياح وما يصنع فى المآتم، وخرج الغلمان وقد حلوا أقبيتهم وفيهم من سود ثيابه وشققها وكانت فى البلد ضجة عظيمة وصرخة تتعتع القلوب حتى دفن وكانت مدته اثنتى عشرة سنة وثمانية عشر يوماً»[١].

وخلف خمارويه «ابنه أبو العساكر جيش، وكان شاباً صغيراً لا يحسن من الأمر شيئاً، التف حوله طائفة من أمثاله الغلمان والملهيين فأفسدوا أمره وزينوا له قتل عمه أبى العشائر بن طولون فقتله، فنفر الجند منه وعولوا على خلعه» وكان ذلك عام ٢٨٣هـ فخلفه الأمير أبو موسى هارون بن خمارويه الذى فى عهده انقسم الجيش الطولونى فى مصر إلى قسمين قسم يؤيد أبا موسى هارون، وقسم ضده وقف خلف أمير آخر من أسرة ابن طولون يسمى ربيعة بن أحمد بن طولون الذى زحف بجيش كبير من الإسكندرية مكوناً من الطولونيين والبربر والأعراب، ولكن هؤلاء عندما علموا أن حرباً دموية ستحدث بينهم وبين الطولونيين بالفسطاط والقطائع سارعوا وتخلوا عن تأييدهم لربيعة فأسره الطولونيون حيث أخذوا يجلدونه حتى مات، وكان ذلك فى شعبان من عام ٢٨٤هـ.

وفى عام ٢٩٠هـ ثار القرامطة ببعض أجزاء الشام التى كانت تابعة للطولونيين بمصر فخرج جيش طولونى لاسترداد الشام ولكن القرامطة هزموه، فشعر الخليفة العباسى

---

(١) الخطط المقريزية - الجزء الأول - مطبعة الثقافة الدينية - القاهرة.

فى ذلك الوقت (المكتفى) أن عليه إنهاء حكم الطولونيين الضعيف بمصر، فأرسل أحد القادة العباسيين وهو محمد بن سليمان لدخول مصر، فتمكن من هزيمة أبى موسى هارون فى موقعة بحرية بالقرب من دمياط ونزل جيشه حيث سيطر على مدينتى دمياط وتنيس، فأحس أبو موسى هارون بخطر بقائه فى مصر فهرب وأهله إلى مدينة بشرق مصر تسمى العباسة (وقد سميت كذلك نسبة إلى العباسة ابنة أحمد بن طولون) وهناك اغتيل أبو موسى بواسطة عميه عدى وشيبان. وتولى شيبان أمر استرداد مصر والفسطاط، فرفض الجنود ذلك وراسلوا القائد العباسى محمد بن سليمان بدمياط أن يأتى ليحكم مصر وينهى الدولة الطولونية، فسافر منتهزا الفرصة هو وجيشه نحو الفسطاط حيث دخلها مع جنود طغج بن جف أمير دمشق، واتجهوا نحو مدينة القطائع فأشعلوا فيها النيران.. ويحكى المقريزى ما حدث فيقول: «فلما وصل ألقى النار فى القطائع ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهاجموا الدور واستباحوا الحريم وهتكوا الرعية وافتضوا الأبكار وساقوا النساء وفعلوا كل قبيح من إخراج الناس من دورهم وغير ذلك، وأخرج ولد أحمد بن طولون وهم عشرون إنساناً وأخرج قوادهم فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم الذل بعد العز، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام»(١).

فلما استقر محمد بن سليمان بمصر طلب من رجاله إحضار أنصار شيبان بن أحمد ابن طولون فساقوهم وهم مكبلون فأمر بإعدامهم فذبحوا أمامه كما تذبح الشاه. ثم أمر بالجند السودانيين الذين جلبهم أحمد بن طولون لتقوية دولته وأسكنهم القطائع فتم إعدامهم كافة. وبهذا طوى التاريخ صفحة الدولة الطولونية بعد أن دامت ما يقرب من ثمانية وثلاثين عاماً تقريباً فعادت مصر تحت الحكم العباسى مرة أخرى كمجرد ولاية من ضمن الولايات العباسية.

الإعدام السياسى فى الدولة الإخشيدية:

لم يتمكن العباسيون من إحكام سيطرتهم على مصر بعد زوال الدولة الطولونية، وهذا لضعف الخلافة العباسية ذاتها وسيطرة العنصر التركى عليها وإفسادهم للحياة

---

(١) خطط المقريزى ـ الجزء الأول ـ مكتبة الثقافة الدينية.

السياسية هناك مما انعكس بدوره على عدم الاستقرار فى الولايات التابعة للخلافة العباسية... وهناك بالإضافة إلى ذلك التهديد الفاطمى الذى ظهر من الغرب (حيث تأسست الدولة الفاطمية بالمغرب عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م) ومحاولاتهم المتكررة غزو مصر.

كذلك فقد تركت تجربة أحمد بن طولون الاستقلالية عن الدولة العباسية والاستئثار بمصر الأمل لغيره من الأمراء لتكرارها.

«اشتهر أمر محمد بن طغج فى الدولة العباسية منذ عام ٣٠٦هـ، حين ولى إقليم طبرية وجبل الشراة نيابة عن تكين (والى مصر العباسى) وذلك على إثر بلائه وإيقاعه بجماعة من لخم وجذام كانوا قد دهموا حاج الشام وجماعة من أهل العراق، منهم جارية أم الخليفة المقتدر. وقد سار الإخشيد بالأسرى إلى دمشق، فحمد له تكين هذا العمل، وكتب أهل العراق بما كان من خلاصهم على يد الإخشيد، فاشتهر أمره، وكتب إليه الناس يشكرون له فعله ويحمدون مروءته. ولا غرو فقد كان من أثر انتصار محمد بن طغج على جند الفاطميين الذين غزوا مصر (٣٢١ هـ - ٣٢٤ هـ)، أن أمر الخليفة العباسى بزيادة (الإخشيد) على اسمه، وهو اللقب الذى كان يطلق على ملوك فرغانة، ودعى له بهذا اللقب على منابر مصر والشام فى شهر رمضان سنة ٣٢٧هـ. وقد أعاد الإخشيد النظام والسكينة، ووطد مركزه فى مصر والشام، وصد غزوات الفاطميين الذين أرسلوا إلى مصر حملة استمرت ثلاث سنوات (٣٢١ - ٣٢٤هـ) حدثت فيها مناوشات بين جند الفاطميين والمصريين، وانتهت بمعاهدة صلح»[(١)].

ولقد تمكن محمد بن طغج الإخشيدى أن يسيطر على الشام والحجاز بالرغم من قوة الدولة الحمدانية بحلب إلى أن توفى بدمشق فى شهر ذى القعدة عام ٣٣٩هـ (شهر يوليو عام ٩٤٦م) تولى بعده ابنه أبو القاسم أنوجور فى وصاية خادمه أبو المسك كافور، وذلك لأن أبا القاسم كان يبلغ أربعة عشر عاما. وبالرغم من ذلك كان الوصى كافور يسير على نهج أستاذه الإخشيد فدافع بقوة وإخلاص عن الدولة. ولعل أهم ما حدث فى عهده تصديه لملك النوبة الذى هاجم أسوان عام ٣٤٤هـ وقتل من أهلها المسلمين العديدين، فتم

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ـ الجزء الثالث ـ تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن ـ الطبعة الثانية عشرة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٨٧.

إرسال جيش قوى تحت قيادة محمد بن عبد الله الخازن فى العام التالى، وسار الجيش براً وفى نهر النيل كذلك فهاجموا النوبيين وأسروهم وتم إعدام هؤلاء الأسرى بقطع أعناقهم، وعاد عبد الله الخازن إلى مصر ومعه مائة وخمسون أسيراً وعدة رؤوس كما يقول المقريزى فى الخطط.

وفى عام ٣٤٧هـ مات أنوجور بمصر فحمل إلى مدينة القدس حيث دفن بجوار أبيه، فخلفه شقيقه على بن الإخشيد وكان عهده مضطرباً ففى «سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ترفع السعر، واضطربت الإسكندرية والبحيرة بسبب المغاربة (الفاطميين) الواردين إليها وتزايد الغلاء وعز وجود القمح وقدم القرمطى (القرامطة) إلى الشام (وكان الشام تابعاً لمصر) وفى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة قل ماء النيل ونهبت ضياع مصر وتزايد الغلاء وسار ملك النوبة إلى أسوان ووصل إلى أخميم فقتل ونهب وأحرق واشتد اضطراب الأعمال، وفسد ما بين كافور وبين على بن الإخشيد، فمنع كافور من الاجتماع به واعتل علىّ بعد ذلك علة أخيه ومات لإحدى عشرة خلت من المحرم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة فحمل إلى القدس»[1] وكان الأحق بولاية مصر بعد ذلك طفلا صغيرا يدعى أحمد بن أبى الحسن على، فسعى كافور لدى الخليفة العباسى بتعيينه والياً على مصر بدلاً من ذلك الطفل، فأصبح كافور بذلك حاكماً للبلاد إلى أن توفى عام ٣٥٧هـ. «ولما توفى كافور اختار رجال البلاط أبا الفوارس أحمد حفيد الإخشيد والياً على هذه البلاد، وكان طفلاً لم يبلغ الحادية عشرة من عمره، فعينوا الحسن بن عبيد الله بن ضغج، والى الشام، وصيا عليه، غير أنه لم يلبث أن استبد بالأمر وأساء معاملة الأهلين، فسخط عليه المصريون، واضطر أخيراً إلى العودة إلى بلاد الشام.

وقد انتهز المعز لدين الله الفاطمى فرصة هذا الاضطراب الذى فشا فى مصر، وضعف بغداد عن الدفاع عنها، لاشتغالها بصد غارات البيزنطيين الذين توغلوا فى بلاد الدولة العباسية، فبعث جيشاً لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨هـ»[2].

---

(١) خطط المقريزى ـ الجزء الأول ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة.

(٢) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ـ الجزء الثالث ـ تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن ـ (مرجع سابق).

ويصف المقريزى ما حدث فى السنة التالية لموت كافور فى مصر فيقول: «كثر الاضطراب وتعددت الفتن، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير، وانتهبت أسواق البلد، وأحرقت مواضع عديدة، فاشتد خوف الناس، وضاعت أموالهم، وتغيرت نياتهم، وارتفع السعر، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار، واختلف العسكر؛ فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج - وهو يومئذ بالرملة - وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى، وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر وتواترت الأخبار بمجىء عساكر المعز من المغرب، إلى أن دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ودخل القائد جوهر بعساكر الإمام المعز لدين الله..»[1].

---

(١) المقريزى - إغاثة الأمة بكشف الغمة، وكما ورد بكتاب تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الثانى - مكتبة مصر بالفجالة - (مرجع سابق).

الفصــــل الــرابــع

الإعــدام الســياســى فى العصر الفاطمى بمصر

كيف قامت الدولة الفاطمية بمصر؟

لم يكن قيام الدولة الفاطمية بلا جذور سياسية وفلسفية قديمة، بل إن المتتبع للتطور السياسى للمسلمين يرى بوضوح أن الشيعة (الذين يرون أن علياً بن أبى طالب وذريته هم أحق بالخلافة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام) قد ظهروا أول ما ظهروا منذ ذلك اليوم الذى وجد فيه المسلمون أنفسهم فى حيرة من أمرهم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم. وكان السؤال الكبير هو من يقودهم ويوجههم. وبالرغم من أن معظم المسلمين قد اختاروا أبا بكر الصديق للخلافة إلا أنه كان هناك البعض الذى طالب بصورة مباشرة أو غير مباشرة باستخلاف على بن أبى طالب[1]. ولعلو قدر أبى بكر الصديق رضى المسلمون بخلافته عن طيب خاطر بما فيهم على نفسه، وارتضوا كذلك بعمر بن الخطاب من بعده، ولكن لما جاء عثمان بن عفان للخلافة أخذ التيار العلوى يزداد إلى أن حدثت الفتنة التى أودت بحياة عثمان، فانقسم المسلمون قسمين: قسم يؤيد الخليفة الشرعى الجديد على بن أبى طالب، وقسم يؤيد معاوية بن أبى سفيان (وكان والياً للشام فقط). ولقد دارت حروب ووقعت أهوال وسفك دم غزير بيد كلا الطرفين، وانتهى ذلك كله إلى ظهور دولة بنى أمية (وكانوا على عداء دائم قبل الإسلام مع بنى هاشم الذين خرج منهم النبى عليه الصلاة والسلام).

وبالرغم من ذلك أخذ العلويون المشايعون لعلى بن أبى طالب وأبنائه وأحفاده من بعده فى مقاومة الدولة الأموية التى ذبحتهم ذبحاً مستمراً بلا هوادة ولا رحمة ابتداء من مذبحة كربلاء إلى مذبحة مكة المكرمة وتدمير الكعبة الشريفة وذبح عبد الله بن الزبير. فأخذ فكر الشيعة يتطور وهاجر المؤمنون به إلى مناطق بعيدة عن البطش الأموى فى بلاد فارس واليمن وشمال أفريقيا بل وفى بعض مناطق مصر.

(١) يمكن مراجعة ذلك الأمر بالتفصيل فى كتاب أنساب الأشراف للإمام البلاذرى ـ الجزء الأول.

ثم أخذ فكر الشيعة نفسه فى الانقسام بعد وفاة زعيمهم جعفر الصادق، فظهر من ذلك الانقسام فرعان كبيران، الأول وهو فرع الشيعة الإمامية الذين آمنوا بالاثنى عشر إماماً ابتداء من الإمام موسى الكاظم (وهو ابن لجعفر الصادق) واستمراراً حتى الإمام الثانى عشر وهو الإمام حسن العسكرى (الذى اختفى فجأة وهو طفل صغير فى الخامسة من عمره فى كهف بإحدى قرى جنوب العراق.. ولا زال الشيعة المؤمنون به ينتظرون عودته!

أما القسم الثانى من الشيعة وهم المؤمنون بإسماعيل بن جعفر الصادق (وهو الابن الثانى للإمام جعفر الصادق) فهم يؤمنون بتسلسل الأئمة من ذريته بدون توقف إلى أن ظهر الإمام عبيد الله المهدى الذى أسس الدولة الفاطمية فى المغرب عام ٩٠٩ ميلادية، واعتبر نفسه أول خليفة فاطمى، ويعرف هؤلاء باسم الشيعة الإسماعيلية (وفى بعض المراجع يسمون الشيعة الباطنية).

ولقد نجحت محاولة الداعية الشيعى أبو عبد الله فى إحراز النجاح فى اليمن ثم فى مصر ثم سافر إلى شمال أفريقيا لينشر الدعوة الشيعية فى قبائل البربر هناك، ونجح فى ترسيخ تلك الدعوة لدى أكبر وأقوى قبيلتين هناك وهما قبيلة كتامة وقبيلة صنهاجة، وفى خلال ستة أعوام (من ٩٠٣ إلى ٩٠٩م) تمكن عبد الله الشيعى من التغلب على معظم القوى السياسية فى شمال أفريقيا، حتى أنه قضى على دولة الأغالبة السنية هناك ثم إنه أرسل إلى الإمام عبيد الله المهدى الذى كان متخفياً فى مدينة تسمى سلمية وهى من المدن الصغرى بالشام، فسافر من هناك إلى المغرب ليكون بذلك إعلاناً منه على قيام الدولة الفاطمية.

ولم يكن قيام الدولة الفاطمية بهذه الصورة ممكناً لولا مساعدة البربر (وهم ليسوا عرباً) الذين كانوا قد شعروا بظلم الأمويين والعباسيين وسوء معاملتهم لهم، ولهذا فقد جاءت مساعدتهم لعبد الله الشيعى من باب الرغبة فى الانتقام من العباسيين فى ذلك الوقت.

ولقد استمرت مساعدة البربر للفاطميين حتى خضع كل شمال أفريقيا (تونس والجزائر والمغرب) لهم.. ولما شعر الفاطميون أن البربر لا يمكن الاعتماد عليهم إلى الأبد نظروا شرقاً تجاه مصر، فرأوا فيها دولة الإخشيد المتهاوية، فحاولوا غزو مصر عدة مرات

ولكن كان طغج الإخشيدى يهزمهم إلى أن توفى وأخذ أبناؤه يتصارعون فسهل الأمر لجوهر الصقلى[1] لدخول مصر بدون قتال تقريبا[2] فسارع إلى نشر قواته بالمناطق الهامة، ثم سافر إلى الشام فدخله هو الآخر (وكان به بقايا الإخشيد الضعفاء)، ثم عاد إلى مصر ليبنى مدينة القاهرة والجامع الأزهر وقصراً فخماً للخليفة الفاطمى فى ذلك الوقت وهو المعز لدين الله، ومن ثم دخل القاهرة ذلك الخليفة المعز لدين الله (وهو الرابع من خلفاء الدولة الفاطمية) فى رمضان من عام ٣٦٢ للهجرة (٩٧٢ م) وكان فى صحبته كل أمواله وكنوزه وعلمائه ورفات أجداده. ومنذ ذلك الوقت أصبحت القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية التى سرعان ما غدت إمبراطورية قوية مزدهرة بالغة الثراء تمتد من الخليج العربى شرقاً وحتى مياه المحيط الأطلسى غرباً، ومن الشام شمالاً حتى السودان واليمن جنوباً.

ولكن لما كان الفاطميون شيعة، والشيعة مذهب أقلية أمام المذهب السنى، فإنهم قد تعرضوا لهجوم وعداوة أهل السنة على مدى سنوات حكمهم البالغة ٢٥١ عاماً (من عام ٩٠٩ إلى عام ١١٦٠ م).

الإعدام السياسى فى عهد الخلفاء الفاطميين:

قال القاضى أبو بكر الباقلانى (وهو سُنى عباسى): كان المهدى عبيد الله (الخليفة الفاطمى الأول) باطنياً خبيثاً، حريصاً على إزالة ملة الإسلام، أعدم العلماء والفقهاء ليتمكن من إغواء الخلق، وجاء أولاده على أسلوبه: أباحوا الخمر، والفروج، وأشاعوا الرفض[3].

---

(١) جوهر الصقلى: هو مملوك رومى رباه المعز لدين الله، وكناه بأبى الحسن، وعظم محله عنده وصار فى رتبة الوزارة فصيره قائد جيوشه، وهو الذى فتح شمال أفريقيا ومصر والشام وتوفى عام ٣٨١هـ.. وللمزيد من التفاصيل انظر: المواعظ والاعتبار فى الخطط والآثار للمقريزى ـ الجزء الأول ـ مكتبة الثقافة الدينية.

(٢) وصف المؤرخ الكبير الإمام الحافظ السيوطى دخول الفاطميين مصر بما يلى: «أرسل (المعز لدين الله الفاطمى) مولاه جوهراً القائد فى مائة ألف فارس فملكها (أى مصر) ونزل موضع القاهرة اليوم واختطها (خطط بناءها)، وبنى دار الإمارة للمعز، وهى المعروفة الآن بالقصرين، وقطع خطبة بنى العباس ولبس السواد، وألبس الخطباء البياض، وأمر أن يقال فى الخطبة (بالمساجد): اللهم صلى على محمد المصطفى، وعلى علىٍّ (ابن أبى طالب) المرتضى، وعلى فاطمة (ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام وزوجة علىّ) البتول، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول، وصلى على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز بالله»... انظر: تاريخ الخلفاء ـ للإمام الحافظ السيوطى ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٦٩.

(٣) تاريخ الخلفاء ـ للإمام الحافظ السيوطى.

وقال الذهبى (وهو مؤرخ كبير): كان القائم بن المهدى (الخليفة الفاطمى الثانى) شراً من أبيه زنديقاً ملعوناً أظهر سب الأنبياء، وقال: وكان العبيديون (أى الفاطميين) على ملة الإسلام شراً من التتار.

وقال أبو الحسن القابسى (مؤرخ عباسى): إن الذين قتلهم عبيد الله وبنوه من العلماء والعُباد أربعة آلاف رجل ليردوهم عن التّرضى عن الصحابة، فاختاروا الموت، فياحبذا لو كان رافضياً فقط ولكنه زنديق.

هذه كانت بعض أوجه الهجوم على الفاطميين من مؤرخين سنة كبار، ومهما كان الأمر فقد حكم الفاطميون مصر والشام والحجاز واليمن والسودان وشمال أفريقيا فترة ممتدة من الزمن.. وربما لا يعود غضب المؤرخين الشرقيين (العباسيين) فى بغداد من الفاطميين بسبب كونهم شيعة فقط، ولكنهم عادوهم لأن الفاطميين أسسوا دولة قوية هددت الخلافة العباسية فى الصميم، وجعلوا من مصر دولة مستقلة قوية بعد أن كانت مجرد ولاية تابعة لبغداد.

ولقد بدأ الخليفة الفاطمى المعز لدين الله حكمه فى وسط عداوة العباسيين، وفى وسط المصريين السنة الذين كانوا فى مجملهم يحترمون الخلفاء الراشدين الأربعة وصحابة النبى صلى الله عليه وسلم ولهذا نراه وقد أكثر من استجلاب الجنود من صقلية والمغرب ومن جنوب أوربا حتى قيل: «لم يطأ الأرض بعد جيوش الإسكندر أكثر من جيوش المعز الفاطمى»(١).

وفى عهد المعز لدين الله زحف القرامطة على مصر فأرسل المعز قائده جوهر الصقلى لصدهم فهزمهم عند مدينة تنيس (مدينة رومانية قديمة بجوار دمياط) وتمكن من أسر الكثيرين منهم حيث تم إعدامهم. ولكنهم عادوا لغزو مصر حتى وصلوا على مشارف القاهرة فتصدى لهم جوهر الصقلى وهزمهم هزيمة كبرى وأجرى عليهم مقتلة كبيرة وصفها المقريزى بقوله: «ولم يتفق على القرامطة منذ ابتداء أمرهم كسرة أقبح من هذه الكسرة»(٢).

ولقد توفى المعز لدين الله الفاطمى عام ٣٦٥هـ بعد أن حكم مصر زهاء ثلاثة أعوام

---

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور - لابن إياس - الجزء الأول.
(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - للمقريزى - الجزء الثانى - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة ١٩٨٧.

فخلفه ابنه العزيز بالله الذى كان قد ولد بالقيروان وأتى مع أبيه إلى مصر فعاونه شخص من النصارى يدعى نسطورس فأخذ هذا الوزير يعامل المصريين بالظلم والقهر والأذى. ولعل أشهر ما روى عنه موقفه بعد اندلاع حريق فى دار صناعة السفن غرب القاهرة فسارع الجند الفاطميون بقتل كل من كان بالموقع، واعتقل نسطورس بعضاً من الأفراد فأعدم منهم عشرين رجلاً وجلد ثلاثة وعشرين رجلاً آخرين، وكان يعلق فى رقبة كل معتقل «يافطة» فيها نوع العقوبة التى ستنزل به سواء الإعدام أو الضرب بالسوط، ثم تم صلب من أعدم وشهر بمن تم صلبه فى شوارع القاهرة.

ولقد اختلف كبار المؤرخين فى ذكر ماذا حدث من المصريين بعد تلك الحادثة المروعة التى وقعت عام ٣٨٦هـ، فبينما يقول إبن إياس أن الناس فى مصر أظهروا غضبهم للعزيز بالله حتى أمر بإعدام نسطورس حيث أوضح: «اتفق أن العزيز بالله ركب يوماً وشق من القاهرة فزينت له، فعمد بعض الناس إلى مبخرة من حديد وألبسها ثياب النساء وزينها بإزار وشعرية، وجعل فى يدها قصة على جريدة وكتب فيها: بالذى أعز جميع النصارى بنسطورس وأعز جميع اليهود بمنشا، وأذل جميع المسلمين بك.. ألا ما رحمتهم وأزحت عنهم هذه المظالم؟». فلما مر العزيز على تلك الصورة ظن أنها امرأة ولها حاجة، فطلب قصتها فلما قرأها اشتد به الغضب، وأمر بشنق ذلك النصرانى نسطورس فشنق على باب القصر، وأرسل بشنق منشا اليهودى فشنق على أحد أبواب دمشق واحتاط على جميع أموالهما من صامت وناطق[١].

أما المقريزى فيقول: «فلما قام من بعده (أى بعد وفاة العزيز بالله) ابنه الحاكم بأمر الله فى الخلافة أمر فى خامس شوال بحط الذين صلبهم ابن نسطورس فتسلمهم أهلهم وأعطى لأهل كل مصلوب عشرة دنانير برسم كفنه وخلع على عيسى بن نسطورس وأقره فى ديوانه الخاص ثم قبض عليه فى ليلة الأربعاء سابع المحرم سنة سبع وثمانين وثلثمائة (للهجرة) واعتقله ليلة الاثنين سابع عشريه، فأخرجه الأستاذ برجوان وهو يومئذ يتولى تدبير الدولة إلى المقس (مكان صناعة السفن بالنيل غرب القاهرة وقتئذ) وضرب عنقه، فقال (نسطورس) وهو ماض إلى المقس: كل شيء قد كنت أحسبه إلا موت العزيز بالله، ولكن الله لا يظلم أحداً، والله إنى لأذكر وقد ألقيت السهام للقوم المأخوذين فى نهب

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس - الجزء الأول - مرجع سابق.

دارماتك (المعتقلون بتهمة حرق السفن ونهبها والذين علقت عليهم «يافطة» كتب عليها نوع العقوبة التى ستنزل بهم) وفى بعضها مكتوب: يقتل، وفى أخرى يضرب. فأخذ شاب ممن قبض عليه رقعة منها فجاء فيها يقتل، فأمرت به إلى القتل (الإعدام) فصاحت أمه ولطمت وجهها وحلفت أنها وهو ما كانا ليلة النهب فى شىء من أعمال مصر (أى كانت خارج القاهرة) وإنما وردا مصر بعد النهب بثلاثة أيام، وناشدتنى الله تعالى أن أجعله من جملة من يضرب بالسوط وأن يعفى من القتل، فلم ألتفت إليها وأمرت بضرب عنقه، فقالت أمه إن كنت لابد قاتله فاجعله آخر من يقتل لأتمتع به ساعة. فأمرت به فجعل أول من ضرب عنقه، فلطخت بدمه وجهها، وسبقتنى وهى منبوشة الشعر ذاهلة العقل إلى القصر (مقر حكم الوزير نسطورس) فلما وافيت، قالت لى: قتلته كذلك يقتلك الله... فأمرت بها فضربت حتى سقطت على الأرض. ثم كان من الأمر ما ترون مما أنا صائر إليه. وكان خبره عبرة لمن اعتبر»[١].

ولقد تميز عهد العزيز بالله بالاستقرار والرخاء، فقد حكم مصر قرابة إحدى وعشرين سنة تمكن خلالها من بناء جيش فاطمى قوى وأسطول بحرى منيع، هدد به الدولة البيزنطية إلى أن «أرسل إمبراطور الروم باسل الثانى رسله إلى الخليفة العزيز لطلب الصلح وحمّلهم بالهدايا، فوافق الخليفة على الصلح[٢]، ولكنه اشترط عليهم شروطاً شديدة التزموا بها كلها منها: «أنهم يحلفون أنه لا يبقى فى مملكتهم أسير إلا أطلقوه، وأن يخطب للعزيز فى جامع القسطنطينية كل جمعة، وأن يحمل إليه من أمتعة الروم كل ما افترضه عليهم، ثم ردهم بعقد الهدنة سبع سنين»[٣].

ولقد توفى الخليفة العزيز بالله نزار عام ٩٩٦م فخلفه ابنه الحاكم بأمر الله، وهو أول خليفة فاطمى يولد بمصر، فأبوه وجده كانا من مواليد القيروان بتونس. وكان عمر الحاكم عندما تولى الخلافة إحدى عشرة سنة وكان وزير دولته الوصى عليه الطواش برجوان الصقلى.

---

(١) انظر تفاصيل تلك القصة المروعة بكاملها فى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - للمقريزى - الجزء الثانى - مكتبة الثقافة الدينية - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٨٧.

(٢) غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى - د. علية عبدالسميع الجنزورى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧.

(٣) عن ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (وكما ورد فى كتاب تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الثانى - مرجع سابق).

وتظهر الرواية الإسلامية الحاكم «فى صورة مروعة مثيرة، فهو سيىء الاعتقاد، كثير التنقل من حال إلى حال، وكان مؤاخذاً بيسير الذنب حاداً، لا يملك نفسه عند الغضب، فأفنى أمماً وأجيالاً وأقام هيبة عظيمة وناموساً.. وكان ردىء السيرة، فاسد العقيدة مضطرباً فى جميع أموره، يأمر بالشىء ويبالغ فيه ثم يرجع عنه ويبالغ فى نقضه»... «ولم يكن ثمة ريب من أن القتل كان فى نظر الحاكم خطة مقررة ولم يكن فورة أهواء فقط. وقد لزم الحاكم هذه الخطة الدموية طول حياته...»[(١)].

ولقد مضت السنوات الأولى من حكم الحاكم بأمر الله طبيعية إلى حد كبير لكونه كان طفلاً، ولكنه ما إن بلغ أشده إلا وأخذت حماقاته وبطشه وجنونه تظهر تدريجياً.

ففى عام ٣٩٠هـ، تغير احترام الحاكم لوصيه برجوان فدبر اغتياله[(٢)]، قال الشيخ شمس الدين الذهبى (وهو مؤرخ مصرى كبير): لما قتل برجوان صار الحاكم ما على يده يد، فعند ذلك طغى وتجبر وصار يفعل أشياء متضادة لا تقع إلا من المجانين الذين فى عقلهم خلل.. فمن ذلك أنه مر يوماً بحمام الذهب - أحد حمامات مدينة القاهرة - بمصر فسمع بها ضجيج النساء وهن فى الحمام، فأمر بأن يسد عليهن باب الحمام، فسدوه عليهن من وقته وساعته بالحجر الفصى، فاستمررن فى الحمام حتى مات الجميع، ولم يجدن لهن من حميم ولا شفيع»[(٣)].

وفى عام ٣٩٠ للهجرة قتل الحاكم ابن عمار (هو أبو محمد الحسن بن عمار الكندى أمين الدولة ومساعد الحاكم فى النظر فى أهم القضايا) بعد أقل من عام واحد على توليه منصبه هذا. وبعد ثلاثة أعوام على ذلك قتل فهد بن إبراهيم ناظر الرياسة الفاطمية ومساعد الحاكم، وعين بدلاً منه على بن عمر العداس ثم قتله ومعه زيدان الصقلى وهو كذلك من كبار رجال الدولة العاملين فى قصر الخلافة، وأتبع ذلك بإعدام العديد من الناس لمجرد شكه فى ولائهم له.

---

(١) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية - تأليف محمد عبدالله عنان - الطبعة الثالثة ١٩٨٣ - الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة - دار الرفاعى بالرياض.

(٢) جاء فى الخطط المقريزية عن تفاصيل الاغتيال: «أنه لما دخل برجوان إلى القصر - وكان الحاكم قد استدعاه للخروج معه إلى مقياس النيل - كان الحاكم فى بستان يعرف بدويرة التين والعناب ومعه زيدان - مساعده - فوافاه برجوان وهو قائم فسلم ووقف، فسار الحاكم إلى أن خرج من باب الدويرة، فوثب زيدان على برجوان وضربه بسكين كانت معه فى عنقه، وابتدره قوم كانوا قد أعدوا للفتك به فأثخنوه جراحاً بالخناجر، واحتزوا رأسه، ودفنوه هناك».

(٣) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس - الجزء الأول.

وفى عام ٣٩٥هـ «قتل الحاكم بمصر جماعة من الأعيان صبراً، وأمر بكتب سب الصحابة - رضى الله عنهم - على أبواب المساجد والشوارع وأمر العمال بالسب»(١) وفى نفس العام أمر النصارى واليهود بشد الزنار ولبس الغيار، ومنع الناس من أكل الملوخية(٢) والجرجير والمتوكلية والدلينس وذبح الأبقار السليمة من العاهة إلا فى أيام الأضحية، ومنع من بيع النقاع وعمله البتة»(٣). «ونهى عن السمك الذى لا قشر له، وقتل جماعة ممن باع ذلك بعد نهيه»(٤).

ولما ضج الناس وطلبوا العفو من الخليفة الحاكم كتب عدة أمانات لجميع الطوائف من أهل الدولة وغيرهم من الباعة والرعية(٥).

وأمر بقتل الكلاب فقتل منها ما لا يحصى حتى فقدت(٦). وفتحت دار الحكمة بالقاهرة وحمل إليها الكتب ودخل إليها الناس فاشتد الطلب على الركابية المستخدمين فى الركاب وقتل منهم كثيرا ثم عفا عنهم وكتب لهم أمانا، ومنع الناس كافة من الدخول من باب القاهرة ومنع الناس من المشى ملاصق القصر (أى بجوار القصر)، وقتل قاضى القضاة حسين بن النعمان وأحرق بالنار وقتل عدداً كثيراً من الناس ضربت أعناقهم»(٧).

---

(١) تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ السيوطى - المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة - الطبعة الرابعة ١٩٦٩.

(٢) «قيل إنه طلع يوماً على جماعة يأكلون الملوخية فضربهم بالسياط وطاف بهم فى القاهرة، ثم أمر بأن تضرب أعناقهم عند باب زويلة. انظر: المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس - الجزء الأول.

(٣) الخطط المقريزية - الجزء الثانى - (مرجع سابق).

(٤) تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ السيوطى (مرجع سابق).

(٥) أورد المقريزى واحداً من تلك الأمانات، وهو كما يلى: «هذا كتاب من عبدالله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبدالله، أنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين (هكذا بالنص) وأبينا علىّ خير الوصيين (يقصد علىّ بن أبى طالب) وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين. وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال. لاخوف عليكم ولا تمتد يد سوء إليكم إلا فى حد يقام بواجبه وحق يؤخذ بمستوجبه، فليوثق بذلك وليعول عليه إن شاء الله تعالى. كتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة والحمد لله وصلى الله على محمد سيد المرسلين، وعلىّ خير الوصيين، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم تسليماً كثيراً. انظر: المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى - الجزء الثانى - مكتبة الثقافة الدينية - الطبعة الثانية ١٩٨٧ - القاهرة.

(٦) قال الشيخ شمس الدين الذهبى أنه قتل منها نحو ثلاثين ألف كلب (انظر: المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس - الجزء الأول).

(٧) الخطط للمقريزى - الجزء الثانى - (مرجع سابق).

وفى عام ٣٩٦هـ «أمر الناس بمصر والحرمين إذا ذكر الحاكم أن يقوموا ويسجدوا فى السوق، وفى مواضع الاجتماع»[١] وهذا مبتدأ اتجاه الحاكم بأمر الله فى التأله الذى أضعف إلى حد كبير من الدولة الفاطمية وأدى إلى ازدياد الهجوم عليها من قبل أهل السنة الذين لم يروا فى المذهب الإسماعيلى الشيعى إلا مذهب المتطرفين والزنادقة[٢].

وإزاء ذلك الاضطراب والفوضى السياسية ظهر داعية سنى من قبيلة بنى قرة الذين يسكنون البحيرة (شمال غرب دلتا النيل) فالتف من حوله أهله وعشيرته الذين رغبوا فى عودة النفوذ للدولة الأموية التى كانت ـ كما رأينا ـ أشد أعداء الشيعة.

وانتشرت حركة هذا الداعية (يدعى أبى ركوة) فسيطر على مناطق واسعة حتى امتد نفوذه إلى ولاية برقة (وهى فى ليبيا) ولما أرسل الخليفة الحاكم بأمر الله جنده إلى ذلك المتمرد على الدولة الفاطمية هزمها أبو ركوة أكثر من مرة حتى تمكنت قواته من الزحف على مصر ووصلت حتى مشارف الجيزة، فخرج سكان القاهرة من منازلهم خشية أن يقتحمها أبو ركوة وجنوده، واستمرت المعارك دائرة بين الفاطميين وبين قوات أبى ركوة حتى وقعت معركة كبرى بالقرب من الفيوم قتل فيها ستة آلاف رجل من أنصار أبى ركوة، وكان الفاطميون تحت قيادة رجل يدعى فضل بن صالح فقطع رؤوس الستة آلاف رجل ومعهم مائة أسير آخرين وأرسلها إلى القاهرة حيث تم إعدام الأسرى المائة.

ولقد استمر فضل بن صالح فى تتبع أبى ركوة حتى اعتقله واصطحبه أسيراً إلى القاهرة حيث أمر الحاكم بأمر الله بإعدامه وكان ذلك عام ٣٩٦ للهجرة.

وأحياناً كان القتل يبدو فى نظر الحاكم ضرباً من ضروب اللهو أو الرياضة وفى أحيان أخرى كان الحاكم يطرب لمناظر المغامرات المميتة، فمثلاً يروى لنا المقريزى فى حوادث سنة ٣٩٧ هجرية أن الحاكم فى شهر صفر من هذه السنة رسم لجماعة من الأحداث أن يتباروا فى القفز من موضع عال بالقصر، ورسم لكل منهم بصلة فحضر

---

(١) تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ السيوطى.

(٢) قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخ الإسلام: لازال الحاكم بأمر الله يتزايد فى الظلم والجور، واستخف بأهل مصر حتى أنه ادعى الربوبية من دون الله كما فعل فرعون، فكان إذا مر فى الطرقات والأسواق يقول له جماعة من العوام: ياواحد يا أحد! يا محيى يامميت! وكانت جماعة من جهال العوام يسجدون له كلما رأوه ومن لم يفعل ذلك ضرب عنقه. انظر: المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ـ الجزء الأول.

منهم جماعة وتباروا فى القفز فمات منهم ثلاثون إنساناً، لسقوطهم خارجاً على صخر قريب، ودفع لمن نجا منهم مالاً،(١).

وكذلك كان الحاكم يجد فيما يبدو سعادة بأن يقتل هو بيده فكان «يركب على حماره الأشهب المدعو بالقمر فينزل عنه عند باب جامعه الذى عند باب النصر ويأخذ بيده من يختار من غلمانه فيرقده ويشق بطنه بيده ثم يخرج مصارينه بيده فيرميها إلى الكلاب ويترك المقتول مكانه حتى يدفنه أهله»(٢).

وفى عام ٣٩٨هـ، تكاثرت الأمراض وكثر الموت وعزت الأدوية وأعيدت المكوس (الضرائب) التى رفعت، وهدمت كنائس كانت بطريق المقس، وهدمت كنيسة كانت لبحارة الروم من القاهرة ونهب ما فيها وقتل كثير من الخدام ومن الكتاب ومن الصقالبة بعد ما قطعت أيدى بعضهم من الكتاب بالشطور على الخشبة من وسط الذراع وقتل القائد فضل بن صالح»(٣) الذى كان - كما يذكر القارىء - قد هزم تمرد أبى ركوة الأعرابى عام ٣٩٦هـ.

وفى عام ٤٠١هـ دبر الحاكم أمر اغتيال خادمه الأسود المسمى عطوف، وذلك بواسطة جماعة من عبيده الترك فهاجموه وهو بقصر الخلافة وقطعوا رأسه. وفى نفس العام قبض الحاكم على ثلاثة من كبار رجال الدولة وهم الحسين بن جوهر الصقلى (قائد القواد) وعبدالعزيز بن النعمان (قاضى القضاة) وأبى على أخى الفضل (الكاتب السابق للوزير برجوان) ثم أصدر أمره بإعدامهم جميعاً، وصادر كافة أموالهم وممتلكاتهم. وكان الثلاثة قد ظهرت عليهم بوادر الخوف على حياتهم منذ أن قتل الحاكم وزيره برجوان، وبالرغم من أنه - أى الحاكم - كان قد أعطاهم الأمان والثقة إلا أنه أمر بقتلهم.

واستمر الحاكم بأمر الله فى أسلوب سفك الدماء بدون مبررات تذكر غير عدم سواء عقله، حتى أحس أهل السنة فى بغداد أن الحكم الشيعى قد أظهر عدم شرعيته علناً.. «فجمع العباس القادر (بالله) عدداً من علماء بغداد وقضاتها وكتبوا محضراً طعنوا فيه فى

---

(١) مجتمعات تحت حصار الطغيان - عبدالحكيم العفيفى - الزهراء للإعلام العربى - الطبعة الأولى ١٩٩٢ - القاهرة. (نقلاً عن كتاب: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية - تأليف محمد عبدالله عنان - مرجع سابق).

(٢) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس - الجزء الأول.

(٣) الخطط المقريزية - الجزء الثانى - (مرجع سابق).

النسب الفاطمى وأعلنوا فيه أن الحاكم وسلفه أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد علىّ بن أبى طالب، وإنما هم كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون»[1] ولقد نشر ذلك المحضر العباسى فى عام ٤٠٢هـ، ووصلت أخباره إلى مصر، فانتهز بعض المصريين الفرصة ذات مرة، بينما الحاكم يخطب فيهم فى صلاة الجمعة ويكرر نسبه إلى الخليفة على بن أبى طالب ورفعوا إليه قطعة قماش مكتوبا عليها عدة أبيات من الشعر منها:

إنا سمعنا نسباً منكراً يتلى … علــى المنـبر فــى الجــامع
إن كنت فيما قلته صادقاً … فانسب لنا نفسك كالطــائع
وإن تـرم تحقيـق ما قلتــه … فاذكـر لنا بعـد الأب السـابع
أولا دع الأنساب مسـتورة … وادخل بنا فى النسب الواسع
فـإن أنسـاب بنـى هاشـم … يقصـر عنهـا طـمع الطـامع

«فلما قرأ تلك الرقعة رجع عما كان يدعيه من أمر النسب»[2].

ومع ذلك لم يكف الحاكم يده عن سفك الدماء وقتل الأبرياء إلى أن حان موعده هو نفسه مع الموت. وتقول كثير من المراجع التاريخية أن أخت الحاكم ست الملك هى التى دبرت مقتله، ولكن المقريزى وهو كبير مؤرخى مصر فى العصور الوسطى ينفى ذلك، ويشرح كيف اختفى الحاكم ثم كيف قتل كما يلى: «فلما كان لليلتين بقيتا من شوال سنة عشر وأربعمائة (للهجرة) فقد الحاكم وقيل أن أخته قتلته وليس بصحيح، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة وسبعة أشهر، وكانت مدة خلافته خمساً وعشرين سنة وشهراً، وكان جواداً سفاكاً للدماء قتل عددا لا يحصى، وكانت سيرته من أعجب السير، وخطب له على منابر مصر والشام وأفريقيا والحجاز وكان يشتغل بعلوم الأوائل وينظر فى النجوم وعمل مرصداً واتخذا بيتاً فى المقطم ينقطع فيه عن الناس لذلك. ويقال أنه كان يعتريه جفاف فى دماغه فلذلك كثر تناقضه، وما أحسن ما قال فيه بعضهم كانت أفعاله لا تعلل، وأحلام وساوسه لا تؤول. وقال المسبحى، وفى محرم سنة خمس عشرة وأربعمائة قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله فى جملة أربعة

(١) تاريخ الحضارة المصرية - الجزء الثانى - مرجع سابق.
(٢) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس - الجزء الأول.

أنفس تفرقوا فى البلاد، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التى كانت عليه فقيل له: لم قتلته؟ فقال: غيرة لله وللإسلام، فقيل له: كيف قتلته؟ فأخرج سكينا ضرب بها فؤاده فقتل نفسه، وقال: هكذا قتلته. فقطع رأسه وأنفذ به إلى الحضرة - أى قصر الخلافة الفاطمية - مع ما وجد معه، وهذا هو الصحيح فى خبر مقتل الحاكم لا ما تحكيه المشارقة - أى مؤرخى المشرق العربى - فى كتبهم من أن أخته قتلته»[1].

وعلى هذا، ومهما كان الأمر فكافة المراجع التاريخية تشير إلى أن الحاكم قد قتل، فماذا حدث بعد مقتله؟ قال الشيخ شمس الدين الذهبى المؤرخ المصرى المعروف: ولما قتل الحاكم صار جماعة من الجهال المغفلين من وادى التيم من نواحى الشام يعتقدون حياة الحاكم إلى الآن، ويقولون لابد أن يظهر فى آخر الزمان ويعود إلى الخلافة، وأنه هو المهدى لا محالة، ويحلفون إلى الآن بغيبة الحاكم»[2].

وبقى أن نذكر للقارىء الكريم أن صفحة الحاكم بأمر الله قد طويت إلى الأبد، ولكن لا زال هناك بالفعل من يؤمنون بعودته وهم يشكلون اليوم الطائفة الشيعية الدرزية فى بعض مناطق سوريا ولبنان، كما يؤمن بعودة الحاكم كذلك طائفة الشيعة البهرة التى تعيش فى الهند.

وقد خلف الحاكم بأمر الله بعد مصرعه ابنه الظاهر لدين الله، وهو رابع الخلفاء الفاطميين بمصر، وكان عمره ست عشرة سنة، فوجد بجواره عمته ست الملك (أو ست النصر) تقوم بأعباء الإدارة والسياسة فى الدولة. وربما كان صغر سنه واختلاط أمور الدولة فى عهد أبيه الحاكم سبباً قوياً ليقوم الأعراب بالاستيلاء على الشام بقيادة شيخهم الأمير حسان بعد أربعة أعوام من تولى الظاهر للخلافة الفاطمية عام ٤١٥هـ، وهو نفس العام الذى توفيت فيه ست الملك وكانت امرأة بالغة الثراء.

وكان الظاهر قد وجد بجواره كذلك رجلا سياسيا من رجال أبيه ويدعى أبى الحسن عمار بن محمد، ولكنه قتل بعد سبعة أشهر من توليه الوزارة فى عهد الظاهر، فعين بدلاً منه بدر الدولة أبا الفتح موسى بن الحسين، فمكث فى الوزارة عامين إلى أن تمرد على الظاهر واستأثر بأمر الدولة، فلما ضاق الظاهر بذلك فر أبو الفتح ولكن جنود الظاهر اعتقلوه فأمر الظاهر بإعدامه.

---

(١) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى - الجزء الثانى (مرجع سابق).
(٢) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس - الجزء الأول.

ويبدو أن ذلك الوزير كان يسرق من ميزانية الدولة لأن الظاهر وجد لديه ثروة تقدر بستمائة ألف دينار (في حين كان الإنتاج القومي المصرى في ذلك الوقت لا يتعدى ثلاثة أو أربعة ملايين دينار).

وولى الظاهر في الوزارة الأمير شمس الملوك المكين مسعود بن طاهر فسيطر على الدولة سيطرة كاملة لأن الظاهر تفرغ لملذاته وشرب الخمر.

وفي عام ٤١٥هـ اشتد الغلاء بمصر وحدث نزاع بين كبار رجال الدولة فقام الخليفة الظاهر باعتقال الشيخ العميد محسن بن بدوس وكان من مساعدي الخليفة الكبار وأمر بإعدامه فضرب عنقه.

ولما اشتد الغلاء: «فشت الأمراض، وكثر الموت بين الناس وفقد الحيوان فلم يقدر على دجاجة ولا فروج»[١] حتى أن حجاج مصر تعرضوا للاعتداء والسرقة والقتل.. وكان سبب ذلك قيام رجل أعجمي بمغافلة الناس في موسم الحج هو وعصابته وكانوا من العجم «ودخلوا الحرم وقلعوا الحجر الأسود من مكانه وكسروه ثلاث قطع، فأدركهم الناس وأمسكوهم فقطعوا أيديهم وصلبوهم على أبواب الحرم، ثم إن الناس أعادوا الحجر الأسود إلى مكانه ولصقوا ما كسر منه»[٢] وفي نفس العام (٤١٥هـ) ثار العبيد الجائعون ونهبوا كل ما كان يظهر لهم واعتقل جنود الظاهر بعضاً منهم حيث تم إعدامهم. وقام الظاهر عام ٤١٨هـ بتوقيع اتفاق للهدنة مع البيزنطيين فأعادوا فتح مسجد القسطنطينية وأعاد هو فتح كنيسة القيامة بالقدس، ويعتبر ذلك كما نرى تصحيحاً للسياسة الحمقاء التي كان الحاكم قد انتهجها في أواخر عهده ضد النصارى.

وفي عام ٤٢٦هـ، انتشر الوباء بمصر واستمر قائماً إلى أن توفي الخليفة الظاهر لدين الله عام ٤٢٧ للهجرة فخلفه ابنه الصغير أبو تميم سعد (المستنصر بالله) وكان عمره سبعة أعوام، فاختار الحسن بن على البازوري ليكون وزيره، ثم عندما مات الحسن أتى بأبي النصر العلاجي في منصب الوزارة، وكان وزيرا قوياً جاءته المعلومات (أو الوشايات) بأن وزير الحاكم بأمر الله السابق على بن الأنبارى كان قد أثرى على حساب أموال الدولة فاعتقله واستصفى أمواله ثم أمر بإعدامه فقطع رأسه. ويبدو أن ذلك أغضب الخليفة

(١) الخطط المقريزية ـ الجزء الأول.
(٢) المختار من بدائع الزهور ـ الجزء الأول.

المستنصر فاعتقل وزيره العلاجى ثم أمر بإعدامه وقطع رأسه هو الآخر ودفنها بجوار رأس الوزير الأنبارى.

وفى عام ٤٤٢هـ هاجم بنو قرة (أعراب البحيرة) الدلتا فأخرج لهم الخليفة المستنصر جنوده الذين حاربوا الأعراب فقتلوا وأعدموا منهم الكثيرين وأخرجوهم من البحيرة وأسكنوا بنى سنبس ديارهم.

ويبدو أن دولة الفاطميين كانت قد بلغت أعلى سلم القوة والازدهار فخشى العباسيون فى بغداد من ذلك وأصدروا بياناً (ثانيا غير الأول الذى أصدروه أيام الحاكم بأمر الله) يذمون فيه نسب الفاطميين، ويظهرون كذبهم، ولقد وقع على ذلك البيان كبار رجال الدين السنيين فى بغداد، ولكن الخليفة الفاطمى المستنصر كان من القوة بحيث تمكن من احتواء أخطار ذلك البيان.. بل إنه ساعد ومول رجلا خارجيا على الخلافة العباسية يدعى البساسيرى، فدعمه إلى أن تمكن البساسيرى ورجاله من دخول العاصمة العباسية بغداد، ففر منها الخليفة العباسى القائم بأمر الله وأعوانه، وقام البساسيرى بدخول قصر الخلافة العباسية حتى استولى على رداء الخليفة العباسى وأمواله وأرسلها إلى المستنصر بالله فى القاهرة، وأعلن البساسيرى الدعوة للفاطميين الشيعة فى بغداد (وهذه كانت المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك) واستمرت الدعوة الشيعية هناك - أى فى بغداد أربعين أسبوعاً وكان ذلك عام ٤٥٠هـ، فلما انقضى العام تمكن العباسيون من استعادة بغداد (وإن بقيت الدعوة الشيعية فى البصرة) بعد مقاتلة البساسيرى واعتقاله وإعدامه، فعاد الخليفة العباسى إلى بغداد لتستمر الخلافة العباسية.

ولقد أخذت الدولة الفاطمية بعد ذلك فى الضعف حيث نزل النورمانديون جزيرة قبرص، واستقل المغرب عن الدولة الفاطمية، وخرجت حلب عن الخلافة تحت قيادة الحمدانيين، أما فى القاهرة (مركز الدولة) فقد حدثت الصراعات بين كبار رجال الدولة مما حدا بالمستنصر أن يغير من وزرائه بصفة مستمرة فضعف الأداء العام للدولة إلى أن جاء عام ٤٤٦، وهو العام الذى حدثت فيه المجاعة العظمى والوباء فى مصر والذى استمر سبعة أعوام وسمى بالشدة المستنصرية، ويلاحظ هنا أن كبار المؤرخين قد اختلفوا على زمن ابتداء تلك الشدة، فقد أكد المقريزى أنها بدأت عام ستة وأربعين وأربعمائة، أما ابن إياس فيقول أنها بدأت عام واحد وخمسين وأربعمائة.

وقد وصف ابن إياس ذلك قائلا: «وقع الغلاء العظيم بمصر فكان يعادل الغلاء الذى

وقع فى زمن يوسف عليه الصلاة والسلام. وقد أقام هذا الغلاء بمصر سبع سنين متوالية، ثم اشتد الأمر حتى بيع كل رغيف فى زقاق القناديل (أحد أزقة القاهرة القديمة) بخمسة عشر ديناراً، وأكلت الناس الميتة والكلاب والقطط حتى قيل بيع كل كلب بخمسة دنانير، وبيع كل قط بثلاثة دنانير. ثم اشتد الأمر حتى صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر ذلك عليه أحد من الناس. وصار الناس فى الطرقات إذا قوى القوى على الضعيف يذبحه ويأكله. وصارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف (أسقف المنازل) وبأيديهم حبال فيها كلاليب، فإذا مر بهم أحد من الناس ألقوا تلك الحبال ونشلوه بتلك الكلاليب فى أسرع وقت، فإذا صار عندهم ذبحوه فى الحال وأكلوه بعظامه. وقيل إن الوزير ركب يوماً على بغلة ودخل إلى دار الخلافة فلما نزل عنها أخذت من غلمانه وأكلت فى الحال، فأمسكوا الذين فعلوا ذلك وشنقوهم وعلقوهم على الخشب، فلما باتوا أصبحوا لم يجدوا أحداً من المشانيق، وقد أكلوا من فوق الخشب، ولم يبق منهم غير العظام على الأرض»[1].

ولقد عاشت مصر إبان وبعيد تلك الصعاب فترات بالغة الصعوبة فى كافة مناحى الحياة حتى أن الدولة الفاطمية ذاتها كانت مهددة بالسقوط وذلك لأن فتنة كبرى قد وقعت بين الأتراك وبين العبيد السود الذين اشترتهم بكثرة أم الخليفة المستنصر. ومبدأ هذه الفتنة هو اعتداء أحد الأتراك وهو فى حالة سكر على أحد الجنود العبيد، فتجمع العبيد وقتلوا التركى، فاندلعت عدة معارك دموية بين الجانبين انهزم فيها العبيد بعد مقتل العديدين منهم، وسميت أهم معركة بينهم بأم شريك، وكان ذلك عام ٤٥٩هـ. وقد انتهت الأزمة بسيطرة الجنود الأتراك على مقادير البلاد فغضب المستنصر منهم وأخذ يحاربهم حتى خلت خزائنه من المال وقتل بسبب تلك الحروب والأزمات عدد كبير من أهل مصر، وقد تزعم رجل من الأتراك يدعى حسين بن حمدان التمرد على المستنصر حتى أنه تمكن من السيطرة على أغلب مدن الوجه البحرى وأسقط الدعوة للمستنصر وأعلن ولاءه للخليفة العباسى (القائم بأمر الله فى ذلك الوقت)، وكان ذلك للمرة الأولى منذ قيام الدولة الفاطمية فى مصر.. ويبدو أن تلك المحاولة قد دعمها الأتراك المسيطرون على الدولة العباسية للرد على الفاطميين الذين دعموا حركة البساسيرى من قبل.

ومهما كان الأمر فقد ظهر فى تلك الأثناء رجل قوى آخر يدعى بلدكوش استغل

(١) انظر لمزيد من التفاصيل المروعة: المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس - الجزء الأول، وكذلك يمكن مراجعة خطط المقريزى الجزء الأول تحت عنوان (ذكر خراب الفسطاط).

الظروف وتمكن من قتل الحسين بن حمدان وسيطر على البلاد. واستمرت أحوال البلاد فى التدهور حتى عام ٤٦٦هـ عندما دعا الخليفة المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالى أن يأتى لإنقاذ مصر والدولة الفاطمية. وجدير بالذكر أن بدر الجمالى هذا كان أرمنياً ولاه المستنصر إمارة دمشق ثم إمارة عكا.

ولقد وصل بدر الجمالى إلى مصر عن طريق البحر فى مائة سفينة حربية بجنده، فاستوزره المستنصر، وسرعان ما تمكن من اعتقال بلدكوش والكثيرين من أمراء الدولة حيث أعدمهم وقطع رؤوسهم. ولقد اتسمت سياسة الوزير بدر الجمالى بالقسوة على كل الأعداء حتى أنه تتبعهم «فلم يبق منهم أحداً حتى قتله». ولقد امتدت يده إلى كل أقاليم مصر من شمالها إلى جنوبها يقتل حتى ضبط الدولة وأرجعها إلى قوتها واستقرارها. ولقد وصفه المقريزى (فى الخطط) بأنه «تحكم فى مصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر، واستبد بالأمور فضبطها أحسن ضبط وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة، قتل من مصر خلائق لا يحصيها إلا خالقها، منها أنه قتل من أهل البحيرة نحو عشرين ألف إنسان وغير ذلك من أهل دمياط والإسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد وأسوان وأهل القاهرة ومصر إلا أنه عمر البلاد وأصلحها بعد فسادها وخرابها بإتلاف المفسدين من أهلها وكان له يوم مات نحو الثمانين سنة[١] هذا.. وقد توفى الخليفة المستنصر بالله عام ٤٨٧هـ عن عمر يناهز سبع وستين سنة أمضى منها ستين عاماً فى الخلافة، وهى أطول فترة للحكم المستمر يقضيها رجل منذ دخول الإسلام مصر.

ولقد وقعت أحداث كبرى أخرى بعد وفاة المستنصر وبسببه، فقبل موته كان قد بايع لابنه الأكبر نزار، ولكن الوزير الأفضل (ابن الوزير بدر الجمالى والذى خلف أباه فى منصب الوزارة[٢]) سارع وزوج ابنته إلى شقيق نزار الأصغر والذى سمى (المستعلى)

---

(١) خطط المقريزى - الجزء الأول (نسخة مكتبة الثقافة الدينية).

(٢) عندما استدعى الخليفة المستنصر بدر الجمالى من عكا ليخمد الفتن فى مصر، أتاها الجمالى وهو رجل عسكرى بقواته وأظهر طغياناً وديكتاتورية كأى رجل عسكرى يتولى سلطة سياسية بدون خبرة تذكر أو استشارة أولى الحكمة والبصيرة..

وعندما هدأت الفتن بمصر كان الثمن مقتل عشرات الآلاف من الناس - وهكذا كل الديكتاتوريات العسكرية فى التاريخ - أخذت الأمور تتضح رويداً رويداً فى أن الدولة المدنية المزدهرة التى قامت بمصر على وشك الأفول لسيطرة العسكريين على المقاليد السياسية والإدارية. ومثلما كان حال الخلفاء العباسيين عندما سيطر على دولتهم العسكريون فضعف منصب الخلافة وكثرت الفتن والثورات والتمردات، ظهرت كل تلك الأمور فى الدولة الفاطمية بمصر عندما سيطر عليها العسكريون من أسرة بدر الجمالى، حتى أخذت فى الضعف ولم تقو - كما سنرى - على صد الحملة الصليبية التى اجتاحت الشرق الإسلامى، وخاصة مدينة القدس.

وبايعه لمنصب الخلافة، ومن هنا حدث تمزق فى القوى السياسية فى الدولة، فهناك الخليفة الشرعى نزار الذى يؤيده أبناء الطائفة الإسماعيلية، وهناك المستعلى الذى يبايعه الوزير الأفضل وقوات جيشه.

ولما تيقن نزار أن الوزير الأفضل قد حصن القاهرة بقواته سافر إلى الإسكندرية حيث بايعه أهلها بقيادة واليها التركى ناصر الدين أفتكين كخليفة للدولة الفاطمية، فزحف الوزير الأفضل بقواته تجاه الإسكندرية وحاصرها حصاراً شديداً لم يقو عليه نزار، فاستسلم هو ومساعده أفتكين، فاعتقلهما الوزير الأفضل وأمر بإعدامهما بأن وضع الأمير نزار بين جدارين وبنى عليهما فمات بداخلهما، أما الأمير أفتكين فقد قطع رأسه. وكان ذلك عام ٤٨٨ للهجرة. وبذلك أصبح المستعلى بالله هوالخليفة الفاطمى السادس. ولكن إعدام نزار جعل منه شهيداً لا يموت وخاصة عندما نتذكر أنه فاطمى شيعى، فرفض الشيعة الإسماعيلية فى الشرق الإسلامى مبايعة المستعلى وأبقوا على إيمانهم الذى لا يتزعزع بأحقية نزار فى الخلافة هو وأتباعه، وهذا الانقسام فى الفكر الإسماعيلى أضعف إلى حد كبير مقومات الدولة الفاطمية فى القاهرة، وإن قوى من ناحية أخرى فئة إسماعيلية شيعية أخرى سميت بالشيعة النزارية والتى انبثقت عنها طائفة الباطنية المتطرفة التى أسسها حسن الصباح وعرفت باسم طائفة الحشاشين التى روعت العالم الإسلامى باغتيالاتها السياسية المتتالية ردحا طويلاً من الزمن والتى اتخذت من فارس وشمال الشام مقار حصينة لها، أهمها فى قلعة علموت[1] جنوب بحر قزوين. وسوف يتم التعرض لأهم عملياتها للاغتيال تباعاً.

ولقد شهد عصر الخليفة المستعلى بالله الفاطمى هجوم الحملة الصليبية الأولى التى بلغ عدد رجالها حوالى المليون رجل، أتوا من مختلف بقاع أوربا بعد أن دعاهم البابا (أوربان الثانى) للزحف على الشرق الإسلامى واستخلاص بيت المقدس من المسلمين.

(١) قلعة علموت Alamot «هى حصن مقام فوق طنف ضيق على قمة صخرة عالية فى قلب جبال البورج، ويسيطر على وادٍ مغلق صالح للزراعة يبلغ طوله حوالى ثلاثين ميلاً وأقصى عرضه ثلاثة أميال، والقلعة ترتفع أكثر من ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، كما تعلو عدة مئات من الأقدام فوق قاعدة الصخرة ولايمكن الوصول إليها إلا عبر طريق ضيق شديد الانحدار كثير المنعطفات، أما التقدم نحو الصخرة فعن طريق الوادى الضيق لنهر (علموت) الذى يشق مجراه بين منحدرات صخرية عمودية أو نائتة بين حين وآخر».
انظر لمزيد من التفاصيل كتاب:
الحشاشون ـ فرقة ثورية فى تاريخ الإسلام ـ تأليف برنارد لويس، ترجمة محمد العزب موسى ـ منشورات دار المشرق العربى الكبير ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى عام ١٩٨٠.

فقد ذهب البابا أوربان الثانى إلى فرنسا عام ١٠٩٥م، وعقد مؤتمراً فى كليرمونت، خطب فيه متحمساً الخطبة التى أعقبتها الحملة الصليبية الأولى، حيث قال فيها ما نصه: «يا أمة الفرنج، يا أبناء السلالة التى أحبها الله واصطفاها. وصلتنا من جهات القدس والقسطنطينية أنباء مفجعة مفادها أن أمة من الأمم اشتطت عن السبيل، فعاثت فى ديار المسيحية سلباً وحرقاً وقتلاً. وقادوا جموعاً منهم أسرى، وأهلكوا آخرين بالتعذيب المبرح، ودمروا بيوت الله، واستولوا على بلاد تابعة لليونان شاسعة الأرجاء لا تقطع بمسيرة شهرين... إن الأرض التى تعيشون عليها الآن، المحصورة بين البحار والجبال، هى أضيق من أن تستوعبكم، وهذا هو ما يجعلكم تقتلون بعضكم بعضاً ويهلك منكم الكثير، فاربأوا بأنفسكم عن الضغائن، وانزعوا الحقد من قلوبكم... اسلكوا سبيل الله حيث يوجد البيت، وأنقذوا تلك الأرض، وامتلكوها لأنفسكم، فإن القدس هى من أكثر بلاد الدنيا ثماراً، وهى جنة الأفراح ومركز الدنيا. إنها اليوم تناشدكم المساعدة فاقصدوها بكل شوق، تغفر لكم ذنوبكم، وجزاؤكم دار الخلود»(١).

وسرعان ما أخذت جحافل الأوربيين تتجمع فى أعداد كبرى من كل أنحاء القارة طمعاً فى أرض المسلمين، لأن قارتهم ضاقت عليهم كما أوضح لهم البابا، ثم أخذوا يزحفون براً وبحراً حتى وصلوا إلى مدينة القسطنطينية واستعدوا للهجوم على المسلمين.

كان موقف الجبهة الإسلامية عند زحف الحملة الصليبية الأولى كما يلى:

السلاجقة (تحت راية العباسيين) فى شمال الشام وآسيا الصغرى والعراق... والفاطميون فى مصر وفلسطين والشام الأوسط. وبدأ هجوم الصليبيين عام ١٠٩٧ حيث تم اختراق دولة سلاجقة آسيا الصغرى، واندفع الصليبيون بسرعة حتى وصلوا إلى مدينة الرها (بشمال الشام) حيث احتلوها فى بداية عام ١٠٩٨م، وهى أول كيان صليبى يتم تأسيسه فى المشرق الإسلامى، ثم زحف الجنود الصليبيون تجاه أنطاكيا حتى دخلوها فى منتصف نفس العام موقعين بالسلاجقة الهزيمة الكبرى الثانية. وبعد عام على ذلك وفى يونيه عام ١٠٩٩ زحفت الجيوش الصليبية تجاه مدينة القدس وكان بها حامية فاطمية فحاصروها لمدة أربعين يوماً حتى هزموا الفاطميين واقتحموا المدينة فى منتصف يوليو

---

(١) الصراع بين العرب وأوروبا ـ الدكتور عبدالعظيم رمضان ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٣.

لنفس العام، حيث أوقعوا بسكانها المدنيين مذبحة مروعة راح ضحيتها سبعون ألف شخص، وهذا ـ للأسف ـ بعد أن أقسموا على عدم المساس بالمدنيين.

ويصف لنا وليم الصورى تلك المذبحة فقال: «إن البلد (أى القدس) أصبح مخاضة واسعة من دماء المسلمين، أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم». ويصف لنا مؤرخ صليبى آخر ما شاهده فقال أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا بصعوبة بالغة وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه. وأورد المؤرخون المسيحيون الشرقيون أيضاً أخبار هذه المذبحة فكتب ابن العبرى الملطى يقول: «ولبث الفرنج فى البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً»[1].

ويبدو أن الصليبيين كانوا يأخذون بفتوى أصدرها الفاتيكان لاستباحة دم المسلمين، إذ أوضح مؤرخ الكنيسة (أى الكنيسة الكاثوليكية) فلورى أن: «المسيحى الذى يبيد أعداء دينه، لا يخرج عن نطاق الإيمان.. لأنه بفعله هذا إنما ينحر القرابين ويقدمها إرضاء لله»[2].

ولعل القارىء يعلم بنص الأمان الذى كان الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أعطاه لسفرنيوس صاحب بيت المقدس عندما فتح المسلمون القدس عام ٦٣٧م (١٦ هـ) .. ذلك العهد العظيم الذى جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم لا تهدم ولا ينقص منها، ولا من غيرها، ولا من صليبهم، ولا من أى شىء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم»[3].

إذن، فقد المسلمون مدينة القدس لأول مرة فى تاريخهم منذ فتحها عمر بن الخطاب عام ١٦هـ. وبقى للصليبيين أن يحكموا كياناتهم الثلاثة باحتلال طرابلس (الكيان الرابع) وتحصينها عام ١١٠١م.

---

(١) انظر لمزيد من التفاصيل: الصراع بين العرب وأوروبا ـ الدكتور عبدالعظيم رمضان ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٣.

(٢) صليبية إلى الأبد ـ عبدالفتاح عبدالمقصود ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.

(٣) المرجع السابق نفسه.

وفى الحقيقة فقد كان ضعف الفاطميين سبباً رئيسياً فى عدم شنهم - برغم سيطرة العسكريين على الدولة - هجوماً مضاداً يتمكنون به من استعادة القدس.

ولقد مات الخليفة المستعلى بالله ابن المستنصر عام ٤٩٥هـ دون أن يرى أية بارقة أمل لإصلاح أحوال دولته أو لحمايتها من الخطر الصليبى الذى بات قريباً من أرض مصر.. ومع ذلك فقد أوضح المقريزى أن المستعلى لم يمت ميتة طبيعية بل (قيل أنه سمّ وقيل بل قتل سراً).

ومهما كان الأمر فقد تولى ابنه الآمر بأحكام الله الخلافة وكان طفلاً فى الخامسة من عمره، وكان وزيره هو الأفضل بن بدر الجمالى، فلما شبَّ الآمر أظهر كل أنواع الفسق والفجور ثم دبر اغتيال وزيره الأفضل لما أحس بأنه يميل تجاه أهل السنة فأبطل الاحتفالات الشعبية فى مصر بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومولد ابنته فاطمة الزهراء (التى أخذت الدولة اسمها) وزوجها الإمام على بن أبى طالب.. مما أحدث خللاً شديداً فى أركان الدولة الفاطمية، وبدت كما لو أنها تنهار، فقام الخليفة الآمر بتدبير عملية اغتياله، ثم عين بدلاً منه الوزير مأمون البطائحى ثم غضب عليه واعتقله هو وشقيقه وثلاثين رجلاً من أعدائه ثم أمر بإعدامهم جميعاً ثم صلبهم وألغى منصب الوزارة.

وبالرغم من أن طائفة الحشاشين كانت ترى فى الخليفة الآمر عدواً لها قد اغتصب الخلافة مثل أبيه إلا أنها لم تعلن الحرب السرية عليه على مدى سنوات عديدة إلا عندما وقعت حادثتان مهمتان، الأولى عندما قام الآمر باعتقال الداعية على بن إبراهيم فى اليمن وكان قد هاجم الآمر وأيد حق النزارية فى الخلافة، فلما اعتقله أتى به إلى القاهرة وأعدمه. والثانية عندما عين الآمر أحد الرهبان (يدعى ابن أبى نجاح) معاوناً له فأساء معاملة المصريين أسوأ معاملة. وبالرغم من أن الآمر قد غضب عليه فى النهاية وأعدمه إلا أن طائفة النزارية الباطنية وضعوا خطة محكمة لاغتيال الآمر ونجحوا فى تنفيذها. ويحدثنا ابن إياس عن تلك الحادثة فيقول: « وكان سبب قتله أنه توجه إلى بر الروضة على سبيل التنزه، فأقام هناك يوماً وليلة، فلما رجع إلى القاهرة مر على جسر الروضة الذى كان بالقرب من الجزيرة الوسطى (حى المنيل اليوم)، فلما عبر الجسر وثب عليه جماعة من العبيد السود فضربوه بالسكاكين تحت الليل - وكان سكران - فوقع عن فرسه

فحملوه إلى القاهرة وطلعوا به إلى قصره فمات من وقته،[1] وكان مقتله عام ٥٢٤ للهجرة بعد أن حكم مصر ما يقرب من تسع وعشرين سنة، فخلفه ابن عمه الحافظ لدين الله (حيث لم يكن للآمر أبناء يخلفونه) . وسرعان ما دعم الجيش رجل يدعى أبا على بن الأفضل الذى(قويت شوكته فقبض على الخليفة وحبسه واستولى على ما فى القصر من الذخائر والأموال وادعى أن ذلك كله كان لأبيه. وكان هذا الوزير إمامياً فدعا للإمام الثانى عشر[2]، ودعا لنفسه على المنابر بهذه الألقاب: ناصر إمام الحق، هادى العصاة إلى اتباع الحق، مولى الأمم، ومالك فضيلتى السيف والقلم. كما أزال عبارة (حى على خير العمل، ومحمد وعلى خير البشر) من الأذان، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق (أحد أئمة الشيعة الإسماعيلية) من الخطبة، وكان من أثر السياسة التى اتبعها أبو على بن الأفضل أن كرهه الشيعيون المصريون وصمموا على قتله، فكمن له جماعة منهم وقتلوه وأخرجوا الحافظ من سجنه،[3] .

وقد أدت تلك الأحداث إلى ازدياد نفوذ الأرمن بمصر خاصة بالغربية حيث قام واليها بهرام الأرمنى بتجميع الأرمن فى جيش قوامه ثلاثون ألف رجل وزحف بهم نحو القاهرة التى كانت خالية من الوزراء، وبالتالى خالية من الانضباط، فدخل المدينة وسيطر رجاله عليها، فاضطر الخليفة الفاطمى الحافظ أن يوليه الوزارة بالرغم من أنه أرمنى نصرانى، فقويت سلطة الأرمن وأخذوا يظلمون المصريين حتى طلب الخليفة تدخل رضوان بن العرلخش الذى كان قد عينه واليا على الغربية بعد خلو منصب الولاية فيها بتعيين بهرام الأرمنى وزيراً عاماً للدولة، فزحف رضوان بجيش قوامه ثلاثون ألف رجل ودخل القاهرة وطرد منها الأرمن كافة الذين رحلوا إلى جنوب الصعيد، فعينه الخليفة الحافظ وزيراً للدولة الفاطمية عام ٥٣١هـ حيث سيطر على القاهرة وصادر ممتلكات الأرمن وقتل وأعدم الكثيرين منهم، ومع ذلك فلم ينتشر الاستقرار فى أركان الدولة الفاطمية إذ أن الوهن أصابها فى الصميم ولم يكن هناك أى أمل فى إرجاع بأسها وقوتها.

---

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ الجزء الأول.

(٢) الإمام الثانى عشر للشيعة الإمامية هو الإمام حسن العسكرى الذى اختفى وهو طفل فى قرية بجنوب العراق، ولايزال المؤمنون بهذا المذهب يعتقدون أنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن سادها الظلم!

(٣) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ـ الجزء الرابع ـ الدكتور حسن إبراهيم حسن.

وفى عام ٥٤٤ هجرية مات الخليفة الحافظ فتولى من بعده ابنه الظافر بالله، وهو الخليفة الفاطمى التاسع.

ولقد كانت القوة الإسلامية على أيام الظافر بالله تتركز فى الشرق حيث السلاجقة بقيادة نور الدين محمود زنكى الذى شعر أن نجم الفاطميين يهوى.. ولكن لم يكن نور الدين وحده هو الذى علم بذلك بل الصليبيون كذلك. وهنا بدأت صفحة دموية أخرى فى تاريخ مصر حيث ظهر رجلان قويان يبغيان السيطرة على منصب الوزارة: الأول وهو ابن السلار وهو سنى يحالف نور الدين محمود فى المشرق العباسى، والثانى هو ابن مصال المغربى الشيعى. ولقد نجح الخليفة الظافر فى اغتيال ابن السلار بواسطة رجل شيعى يدعى نصر بن عباس وكان صديقاً ورفيقاً محبباً للظافر، فكافأه الخليفة بأن عين أباه عباساً وزيراً للدولة. ولما كان الظافر ونصر بن عباس فى سن واحدة تقريباً واعتادا أن يقيما معاً ويتسامرا، فقد هيأ الظافر الأمر لصديقه نصر أن يقتل أباه الوزير عباس (لأن الوزير كان يرتاب فى أمر العلاقة بين الخليفة وابنه، واغتاظ من ترديد العامة لشائعات مريرة عن تلك العلاقة). ولكن الوزير فطن للأمر ودبر من ناحيته أمر الخلاص من الخليفة حيث تم اغتياله، فثار أهل البيت الفاطمى، وكذلك سكان القاهرة غضباً، ففر الوزير العباس وابنه نصر إلى الشام، ولكنه أسر من قبل الصليبيين الذين قتلوه عام ٥٤٩هـ (١١٥٤م) وقاموا بإرسال ابنه نصر إلى القاهرة بناء على طلب أخت الخليفة المقتول (فعذبه نساء البلاط وطيف به فى المدينة، وصلب حياً على باب زويلة، وترك معلقاً هناك شهوراً كثيرة، ثم أحرقت جثته فى العاشر من المحرم سنة ٥٥١هـ)[١].

وبهذا تمكن الأمير طلائع بن رزيك من الوصول إلى الوزارة المصرية والسيطرة على الأوضاع فى ظل الخليفة الجديد الفائز (ابن الخليفة الظافر) الذى كان طفلاً فى الرابعة من العمر، ولقد تمكن الوزير طلائع من القضاء على الفتن فى مصر طوال الخمسة أعوام التى قضاها الخليفة الفائز فى الحكم وحتى مات بسبب الطاعون عام ٥٥٥هـ، فخلفه ابن عمه أبو محمد عبد الله الذى لقب بالعاضد بالله وهو آخر خلفاء الفاطميين بمصر والذى فى عهده وقعت أشد الأحداث السياسية خطورة على مصر منذ مقدم الفاطميين إليها.

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى - الجزء الرابع - الدكتور حسن إبراهيم حسن - الطبعة الثانية ١٩٨٢ - مكتبة النهضة المصرية.

فقد بدأت تلك الأحداث بسيطرة الوزير طلائع بن رزيك (المسمى أيضاً الصالح وله مسجد خارج باب زويلة بالقاهرة) على شئون الدولة وتضييقه على أعضاء البيت الفاطمى واستبداده بهم فتربص له بعض الرجال الشيعة وضربوه مما أدى إلى وفاته بعد أقل من عام على تولى الخليفة العاضد للحكم. وتجدر الإشارة إلى أن الوزير طلائع هو الذى كان قد نقل رأس الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما من عسقلان ودفنه بالقاهرة قبيل نجاح الصليبيين فى احتلال عسقلان. فلما قتل الوزير طلائع خلفه فى الوزارة ابنه رزيك بن طلائع وكان بين الوزير الجديد وبين والى الصعيد شاور السعدى عداوة، فقام رزيك بعزل شاور من منصبه، ولكن شاوراً رفض العزل وجمع قواته وزحف نحو القاهرة وهزم قوات الوزير رزيك بن طلائع ثم قتله عام ٥٥٨هـ (١١٦٣م)، وبهذا أصبح الوزير الفاطمى الجديد.

ولكن هذا لم يستمر إلا أياماً حيث ثار على الوزير شاور الأمير الفاطمى ضرغام، وقام بقتال شاور وجنوده فهزم شاور وفر إلى الشام (حيث سلاجقة الشام تحت قيادة نور الدين محمود زنكى)، فاستقل الأمير ضرغام بالوزارة الفاطمية.

ولقد اتبع ضرغام أسلوب القسوة فى التصدى لأعدائه فأعدم الكثيرين من قوات الجيش الفاطمى. أما شاور فقد ذهب إلى دمشق حيث السلطان نور الدين محمود السلجوقى ودعاه للتحالف معه لدخول مصر على نفقة شاور، ووعده بأن يعطيه ثلث خراج البلاد المصرية إن هو مكنه من الوزارة الفاطمية.

ولقد راقب الصليبيون فى فلسطين تحركات نور الدين محمود وعلموا أن مصر لو أصبحت تحت سلطانه فسوف تشترك لا محالة معه فى قتاله ضدهم وتدمير الممالك الصليبية، فسارع الملك الصليبى عمورى (ملك إمارة القدس الصليبية) إلى مصر حيث دخل بلبيس وهزم قوات ضرغام الفاطمية ثم تمكن ضرغام من عقد حلف عسكرى بينه وبين الملك عمورى لإنقاذه من خطر شاور ونور الدين محمود، إذا ما حاولا أن يهبطا مصر، فلما أرسل السلطان نور الدين محمود حملة بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى مع شاور، ودارت معركة بينهم وبين الصليبيين فى شرق مصر هزمت فيها الحملة السلجوقية، ولكن شيركوه تمكن من التخفى مع شاور وبعض القوات حتى دخلوا الفسطاط (جنوب القاهرة). ولقد ضعف مركز ضرغام ضعفاً شديداً من جراء تلك

المعارك والأخطار المحدقة بمصر، فثار المصريون عليه وقتلوه[1]، وبهذا تمكن شاور من العودة إلى منصب الوزارة الفاطمية (وهو المنصب الذى أصبح أقوى من منصب الخليفة الفاطمى)، فلما طالبه نور الدين محمود بالوفاء بوعوده السابقة وإعطائه ثلث خراج مصر

• رفض شاور وسارع بالاستعانة بالصليبيين لحمايته من جند أسد الدين شيركوه الذى غادر مصر عائداً إلى الشام وكان ذلك عام ٥٥٩هـ (١١٦٤م).

وبعد ثلاثة أعوام من هذا، عاد شيركوه على رأس حملة أخرى لدخول مصر بأمر من نور الدين محمود الذى أراد إنهاء عصر الدولة الفاطمية والاستيلاء على مصر، ولكن شاور المتحالف مع الصليبيين سارع مرة أخرى بدعوتهم لحمايته فساروا بجيشهم ومنعوا دخول شيركوه إلى مصر.

وفى وسط تلك الأحداث بدا واضحاً أن الدولة الفاطمية قد دخلت مرحلة الاحتضار حيث اندلعت الثورات الداخلية تباعاً ولم يتورع الوزير شاور عن تحطيمها وقمعها بقسوة بالقتل والإعدام الفردى والجماعى، مستعيناً بتحالفه المخزى مع الصليبيين الذين فرضوا على مصر لأول مرة منذ دخول الإسلام فيها دفع الجزية حتى لا يحتلوها.

ولا شك أن كل هذا دفع نور الدين محمود إلى الإحساس بالخطر فلو تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مصر فسوف لن يمضى وقت طويل حتى يستولوا على الشام وينهار المشرق الإسلامى بكامله، ولهذا سارع مرة أخرى بإرسال جيش قوى بقيادة أسد الدين شيركوه، الذى ما إن وصل إلى خارج أسوار القاهرة حتى علم أن الجيش الصليبى قد وصل إلى مدينة الفسطاط، فرحل شيركوه إلى الصعيد فزحف خلفه الصليبيون ودارت بين الجيشين معركة دموية إلى الجنوب من مدينة المنيا حيث انتصر شيركوه وسار مسرعاً إلى الإسكندرية حيث دخلها بدلاً من القاهرة التى لم يكن قادراً بعد على دخولها. وفى الإسكندرية ترك شيركوه ابن شقيقه صلاح الدين الأيوبى مع بعض القوات وعاد إلى الصعيد، ولما كانت الإسكندرية أقرب إلى الصليبيين من الصعيد وأكثر أماناً فقد زحفوا تجاهها وحاصروها براً وبحراً وكاد صلاح الدين أن ينهزم لولا أن عاد إليه عمه شيركوه

(١) يحدثنا المقريزى فى الخطط كيف قتل ضرغام فقال: فر ضرغام إلى باب زويلة فصاح الناس عليه ولعنوه وتخطفوا من معه وأدركه القوم فأردوه عن فرسه قريباً من الجسر الأعظم فيما بين القاهرة ومصر (الفسطاط) واحتزوا رأسه.. فصار ضرغام ملقى يومين ثم حمل إلى القرافة ودفن بها، وكانت وزارته تسعة أشهر.

وعندئذ لم تقع معارك تذكر، ولكن شيركوه عقد هدنة مع الصليبيين تنص على أن يغادر كلاهما - بقواته - مصر.

فلما عاد شيركوه إلى الشام أخبر نور الدين بأوضاع مصر وأطلعه على حجم القوات التى تمكنه من السيطرة عليها. وفى تلك الأثناء كان شاور قد فطن إلى الخطر الحقيقى الذى يمثله الصليبيون فرفض دفع الجزية لهم فهاجموا مصر واحتلوا مدينة بلبيس فى شهر صفر من عام ٥٦٤هـ (نوفمبر ١١٦٨م) وأخذوا يذبحون سكانها بدون تمييز. ولما أخذوا يعدون العدة للزحف على القاهرة والفسطاط سارع شاور بحرق مدينة الفسطاط(١) الأقل تحصيناً حتى لا يتخذها الصليبيون معبراً لاقتحام القاهرة.

وقبيل ذلك كتب الخليفة العاضد استغاثة سريعة للسلطان السلجوقى نور الدين محمود للحضور إلى مصر لحماية المسلمين من خطر الصليبيين، فسارع جيش سلجوقى تحت قيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى قوامه سبعون ألف رجل إلى مصر ليس فقط لحمايتها من الخطر الصليبى ولكن كذلك لإنهاء السيادة الفاطمية عليها.

فلما دخل شيركوه مصر وجد الملك الصليبى عمورى أن الحكمة تقضى عليه بالانسحاب والعودة إلى القدس، وبهذا سيطر شيركوه على القاهرة، فغضب الوزير شاور وأحس بالخطر على منصبه فحاول اغتيال شيركوه، ولكن صلاح الدين اكتشف الخطة وقبض على شاور وأعدمه بموافقة الخليفة وكان ذلك فى ١٧ ربيع الثانى عام ٥٦٤هـ (الثامن عشر من يناير ١١٦٩م) وقام الخليفة العاضد بعد ذلك بتعيين شيركوه وزيراً، ولكن الأجل وافاه بعد حوالى شهرين من ذلك، فعين الخليفة صلاح الدين الأيوبى فى منصب الوزارة الفاطمية، وهذه هى بداية قوة النفوذ الأيوبى فى مصر، أما الدولة

---

(١) يصف المقريزى فى الخطط ماحدث فى ذلك فيقول: (نادى شاور بمصر - أى الفسطاط - أن لايقيم بها أحد وأزعج الناس فى النقلة عنها فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم، وقد ماج الناس واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر لايعبأ والد بولده ولا يلتفت أخ إلى أخيه.. ونزلوا بالقاهرة فى المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات فصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم وقد سلبوا سائر أموالهم وينتظرون هجوم العدو على القاهرة بالسيف كما فعل بمدينة بلبيس. وبعث شاور إلى مصر - أى الفسطاط - بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظراً مهولاً، فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر أربعة وخمسين يوماً...). انظر الخطط - الجزء الأول - مكتبة الثقافة الدينية.

الفاطمية فقد احتاجت من صلاح الدين القيام بخطوتين هامتين قبل أن يطوى التاريخ صفحتها.

ولقد كان ذلك المنصب بداية لأخطار حاقت بصلاح الدين بقبول ذلك المنصب الوزارى، يعنى أنه أصبح مسئولاً عن تسيير أحوال الدولة الفاطمية الشيعية، بينما هو - أى صلاح الدين - سنى ملتزم مثله فى ذلك مثل نور الدين محمود سلطان سلاجقة الشام. ولهذا أخذ صلاح الدين الأيوبى يدعو فى المساجد للخليفة العباسى فى بغداد، والخليفة الفاطمى فى القاهرة.. ولم يكن هذا كافياً لدرء الأخطار والإحراج عنه.

الفصل الخامس

الإعدام السياسى فى العصر الأيوبى بمصر

قيام الدولة الأيوبية فى مصر:

لما أقام الخليفة الفاطمى الأخير العاضد بالله صلاح الدين الأيوبى(١) وزيراً للدولة الفاطمية فى القاهرة، اتضح لصلاح الدين أن ذلك المنصب الكبير قد سبب له الكثير من الأخطار والحرج. فالمنصب يعنى أنه أصبح مسئولاً عن تسيير أحوال الدولة الفاطمية الشيعية، بينما هو - أى صلاح الدين - سنى ملتزم مثله فى ذلك مثل نور الدين محمود سلطان سلاجقة الشام، والذى كان قد أرسله هو وعمه شيركوه للاستيلاء على مصر وطرد الجيش الصليبى منها. وإزاء هذه الحيرة أخذ صلاح الدين يدعو فى المساجد للخليفة العباسى فى بغداد، والخليفة الفاطمى فى القاهرة.. ولم يكن هذا فيما يبدو كافياً لدرء الأخطار، فقد غضب الخليفة الفاطمى من صلاح الدين لذكره اسم الخليفة العباسى فى القاهرة الفاطمية الشيعية. ولم يكن هذا الغضب ليوقف صلاح الدين عن إتمام سيطرته على مصر، حيث مكنته قوته من أن يسيطر سيطرة كاملة على مخصصات قصر الخليفة، وأخذ يستصفى أمواله بغية إضعافه، ثم أخذ يعتقل أمراء الدولة مما زاد من غضب الفاطميين عليه فسارعوا بمحادثة الصليبيين والتحالف معهم ضد صلاح الدين لإخراجه من مصر، ولكن صلاح الدين تمكن من معرفة أسرار التحالف الفاطمى الصليبى وأمر بإعدام الفاطمى المسئول عن تلك الاتصالات وكان يدعى (نجاح) والذى كان قائداً وزعيماً للجند السودانيين الذين شكلوا القوة الضاربة للجيش الفاطمى فى نهاية الدولة الفاطمية، وكان (نجاح) يطمع بلا شك فى طرد صلاح الدين من مصر ونيل منصب الوزارة المصرية (وكان إعدام نجاح وقطع رأسه عام ٥٦٤هـ - ١١٦٩م). ولقد أغضب قيام صلاح الدين بإعدام نجاح الجند السودانيين الذين كان قد تم استجلابهم إبان عهد

(١) كان مولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بقلعة تكريت فى سنة ٥٣٢ للهجرة، كان أبوه أيوب فى خدمة زنكى أبى نور الدين الشهيد، فلما توفى زنكى صار أيوب وأولاده فى خدمة نور الدين الشهيد، ثم ارتقى نور الدين حتى بقى صاحب البلاد الشامية. (انظر المختار من بدائع الزهور لابن إياس - الجزء الأول).

الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، وكان عددهم حوالى خمسين ألف جندى إذ سرعان ما خرج هؤلاء الجند فى شوارع القاهرة فى ثورة عارمة وأخذوا يتقاتلون مع جنود صلاح الدين قتال شوارع حتى بدا فى الأيام الأولى للقتال أن هزيمته باتت وشيكة، فما كان من صلاح الدين إلا أن أمر جنوده بحرق أحياء العبيد السودانيين فى القاهرة ثم محاصرتهم وتصفيتهم.. ويبدو أن جنود صلاح الدين الأكراد قد قتلوا أغلب من قام بالثورة الشيعية فى القاهرة، حتى أن حى بين القصرين قد امتلأ بالمصلوبين منهم، ففر من بقى منهم إلى صعيد مصر للتخفى.

ولقد هدأت الأمور بعد ذلك بعض الشيء فتمكن صلاح الدين من تأمين قواته بمصر وشرع ينفذ الخطوة التالية والأخيرة لإنهاء النفوذ الفاطمى فى البلاد بصفة رسمية وذلك تنفيذاً لمطالب نور الدين محمود زنكى من ناحية، ولتأسيس الدولة الصلاحية الأيوبية من ناحية أخرى.

ولم يكن صلاح الدين ينتظر وقتاً مناسباً أفضل من ذلك، فقد كان الخليفة الفاطمى مريضاً وبلا قوات، ولهذا قام صلاح الدين بجمع أمراء دولته وأخبرهم عن نيته فى الدعوة للخليفة العباسى وإسقاط الدعوة للخليفة الفاطمى، وكان بين الأمراء رجل يدعى (الأمين) من بلاد فارس قام وأخبر صلاح الدين بأنه كفيل بتنفيذ ذلك بالطريقة الملائمة. فلما حان وقت صلاة الجمعة قام على المنبر (وكانت أول جمعة من شهر المحرم) وذكر اسم الخليفة العباسى المستضىء بالله(١)، فلم يلحظ صلاح الدين غضباً من المصلين، فأمر أن تتم الدعوة للخليفة العباسى فى كافة مساجد مصر فى الجمعة التالية دون ذكر الدعوة للخليفة الفاطمى.. وقد تم بالفعل. «ولم يخبر العاضد أحداً من أسرته بذلك الحدث وقالوا: إن عوفى فهو يعلم وإن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته. وتوفى هذا الخليفة فى العاشر من المحرم عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) من غير أن يعلم بهذا الحدث التاريخى العظيم، فجلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على القصر»(٢).

---

(١) اختلف المؤرخون فى اسم الخليفة العباسى الذى نادى به صلاح الدين لأول مرة فى القاهرة، فقد ذكر ابن إياس، والسيوطى أنه الخليفة المستضىء بالله. وقال المقريزى أنه المستنصر بأمر الله (الخطط ـ الجزء الثانى) وأنه المستنجد بالله العباسى (الخطط ـ الجزء الأول). وعلى هذا رأينا أن يكون الاسم الصحيح هو المستضىء بالله، كما قال ابن إياس لأنه الخليفة الذى كان قائماً وقتئذ قبل عزله عن الخلافة.

(٢) تاريخ الإسلام ـ الدكتور حسن إبراهيم حسن ـ الجزء الرابع (مرجع سابق).

إلا أن هناك من المؤرخين (مثل ابن إياس) من يوضح بجلاء أن الخليفة الفاطمى العاضد علم بدعوة صلاح الدين للعباسيين فانتحر.. ويقول فى ذلك: فلما بلغ العاضد ذلك انقهر وعمد إلى فص من الألماس فابتلعه، فمات من يومه ودفن، فكانت وفاته فى عاشر المحرم.

ومهما كان الأمر فقد انتهت الدولة الفاطمية تاريخياً بموت العاضد.. فقام نور الدين محمود سلطان سلاجقة الشام بتعيين صلاح الدين والياً على مصر، فأخذ فى اعتقال كل أبناء البيت الفاطمى ووزع ممتلكاتهم على أقربائه وأمرائه وقادته، ويقال أن كنوز قصور الفاطميين استمر بيعها بمصر لمدة عشرة أعوام متصلة!

الإعدام السياسى فى عصر صلاح الدين الأيوبى:

ولم يكد صلاح الدين يفرغ من الاستيلاء على قصور الفاطميين حتى جاءته الأخبار بأن فرقة صليبية برية وبحرية قد حاصرت دمياط[1] وهاجمتها بشدة، فأرسل إلى هناك بعضاً من فرسانه وجنده ليعاونوا حامية دمياط على الصمود، ولكن الصليبيين كانوا من الكثرة (حوالى مائتى سفينة) بحيث تمكنوا من حصار المدينة، ولم يتمكن صلاح الدين من ترك القاهرة ليذهب لطرد الصليبيين خشية أن يثور الفاطميون المتخفون ويسيطروا مرة أخرى على البلاد، فأرسل رسله إلى نور الدين محمود لكى يسعفه، فقام نور الدين بإرسال فرقة إلى صلاح الدين بمصر، وقام هو ـ أى نور الدين ـ من ناحية أخرى بالضغط على الصليبيين فى حصن الكرك القوى بالشام. فلما علم الصليبيون بذلك غادروا دمياط فى نهاية الأمر بعد أن أحرقوا معدات الحصار الثقيلة حتى لا تعوقهم عن الرحيل. أما صلاح الدين فقد اكتشف أن هناك بعض الفاطميين الذين عاونوا الصليبيين وسهلوا لهم الأمر لحصار دمياط، فاعتقلهم وأعدمهم.

ولم تكن تلك هى آخر المحاولات الداخلية أو الخارجية للإطاحة بصلاح الدين

---

(١) «تقع مدينة دمياط على الضفة الشرقية لنهر النيل ـ فرع دمياط ـ فى منحنى شبيه بالهلال، وهى أشبه بجزيرة مساحتها تنيف على خمسمائة فدان تحوط بها مياه البحر الأبيض المتوسط من الشمال ومياه بحيرة المنزلة من الشرق، ويتدفق النيل متسعاً (رحيبا) فى غربها، وإلى الجنوب تمتد المزارع وسهول الدلتا». انظر للمزيد من التفاصيل الهامة عن تلك المدينة: تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ـ نقولا يوسف ـ مطبعة التحرير ـ القاهرة ١٩٥٩.

الأيوبى، فقد حدثت محاولة أخرى من الجند السودانيين الذين كانوا قد فروا من الذبح والإعدام فى القاهرة ليستوطنوا بجنوب مصر، وذلك عام ٥٦٨هـ (١١٧٣م) ويهاجموا من هناك بعض المدن والقرى المصرية، فأرسل صلاح الدين فرقة من جيشه بقيادة أخيه توران شاه فى فبراير لنفس العام وقد نجح الأيوبيون فى إخماد تلك الفتنة والسيطرة على بلاد النوبة.

وفى نفس العام قام صلاح الدين على رأس فرقة عسكرية لتأديب الأعراب بجنوب فلسطين والذين كانوا فيما يبدو يرشدون الصليبيين على أحوال مصر، فقتل العديد منهم. وبعد تلك الحملة شيد صلاح الدين قلعة بشبه جزيرة سيناء (توجد آثارها اليوم إلى الشمال من عين سدر)، وكان القصد من بنائها القضاء على أى خطر للأعراب فى سيناء، وتأمين حدود مصر الشرقية المجاورة لإمارة بيت المقدس الصليبية.

ثم أرسل صلاح الدين فى بداية عام ١١٧٤م (٥٦٩هـ) حملة عسكرية كبيرة بقيادة أخيه توران شاه للسيطرة على بلاد اليمن وكان لا يزال الشيعة الموالون للفاطميين يحكمونه بقيادة عبد النبى بن مهدى وقد نجحت الحملة وانتهى الحكم الشيعى باليمن وشيد الأيوبيون هناك مدينة تعز المشهورة حتى يومنا هذا. ثم دخل توران شاه الحجاز فى نفس العام.

وبينما كان صلاح الدين يوالى بناء قوته فى الداخل والخارج إذا بجهاز مخابراته الكردى القوى فى مصر يكشف مؤامرة دبرها بقايا الفاطميين فى جنوب مصر بالاتفاق مع كل من ملك إمارة بيت المقدس الصليبى (عمورى) وقائد فرقة الحشاشين المتطرفة بالشام (سنان) لكى تقوم ثورة شيعية فى مصر يصاحبها هجوم صليبى بحرى، مما يشتت جهود صلاح الدين وتنهار سيطرته على البلاد. واعتقل تسعة من كبار قادة المؤامرة الخطيرة، فأمر صلاح الدين بإعدامهم جميعاً فى مدينة القاهرة وذلك فى أبريل عام ١١٧٤م (رمضان عام ٥٦٩هـ).

وفى الشهر التالى لذلك جاءت الأخبار من دمشق تفيد بأن سلطان سلاجقة الشام نور الدين محمود قد توفى ودفن بجامع الكلاسة بدمشق، وبهذا أصبح صلاح الدين أقوى رجل فى المشرق الإسلامى.

وفى نهاية شهر يوليو قام الصليبيون بجزيرة صقلية بهجوم واسع النطاق على

الإسكندرية حيث بلغ عدد المهاجمين خمسين ألف رجل ومعهم كل أدوات القتال والحصار. وسرعان ما فرضوا الحصار على الإسكندرية وأوسعوها قصفا بحجارة المجانيق الثقيلة، ولما كان صلاح الدين قد قام بتحصين أسوار وقلاع المدينة فلم يتمكن الصليبيون من تحطيم أسوارها فطال حصارهم بدون جدوى إلى أن تمكنت الحامية المصرية والقوات التى أرسلها صلاح الدين من فك الحصار فوقعت أعداد كبيرة من الأعداء قتلى وجرحى وغرقى وأسرى، فغادر من تبقى منهم المدينة فى الأول من أغسطس لنفس العام بعد أن أحسوا بمدى القوة التى تتمتع بها مصر.

ويبدو أن صلاح الدين لم يكن قد قضى على النفوذ الشيعى فى مصر قضاء تاماً حتى ذلك الوقت، بالرغم من أنه طاردهم فى القاهرة وصادر قصورهم وكنوزهم وتتبع الخطرين منهم. فقد كان هناك أمير فاطمى شيعى يسمى (كنز الدولة) كان قد والى صلاح الدين عندما أنهى الخلافة الفاطمية بمصر، فوثق به صلاح الدين وعينه والياً على مدينة أسوان. ويبدو أن كنز الدولة كان يتابع التمردات الداخلية والاعتداءات الخارجية ضد صلاح الدين، فلما أحس بأن صلاح الدين بدا له مشتت الجهود قام وقاد تمردا خطيرا امتد إلى مدينة قوص (وهى إحدى المدن المشهورة بمحافظة قنا اليوم) وكان يحكمها الأمير (عباس بن شادى) وهو شيعى كذلك. وسارع صلاح الدين بإرسال فرقة كبيرة من جيشه تحت قيادة أخيه العادل أبو بكر (وهو الذى سيحكم الدولة الأيوبية فيما بعد) حيث تمكن العادل من هزيمة الشيعة فى قوص وأعدم قائدهم عباس بن شادى ثم زحف بجنوده تجاه أسوان حيث هزم القائمين بالتمرد هناك وقتل زعيمهم كنز الدولة.

وبهذه المحاولة الأخيرة للتمرد على صلاح الدين تمكن ذلك القائد الكبير من القضاء النهائى على أثر الشيعة الموالين للفاطميين بمصر، أما فى الشام فقد كان لهم (وخاصة طائفة الحشاشين المتطرفة) معه قصة مثيرة أخرى!

إن وفاة نور الدين محمود سلطان سلاجقة الشام جعلت أهل دمشق الموالين للبيت الأيوبى فى مصر يدعون صلاح الدين بالحضور إلى المدينة، فخاطب صلاح الدين الخليفة العباسى فى بغداد (المستضىء بالله) على نيته ضم دمشق فى دولته لتقوية ودعم الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، فوافق الخليفة، وقام صلاح الدين بالسفر على رأس فرقة من جيشه تاركاً مصر لأخيه العادل وذلك فى سبتمبر ١١٧٤م (صفر عام ٥٧٠هـ) فعبر

الصحراء الشرقية واتجه إلى سيناء ثم صعد إلى دمشق فدخلها بدون قتال فى آخر أكتوبر لنفس العام وسط ترحيب أهلها وجنودها. وبعد أن ترك أخاه سيف الإسلام ليحكم دمشق سافر صلاح الدين مع جنده قاصداً مدينة حمص وهى مدينة هامة إلى الشمال من دمشق. فدخلها كذلك بدون قتال فى ديسمبر عام ١١٧٤م، وفى نفس الشهر دخل مدينة حماة بدون قتال كذلك، ولم يتبق له من مدن كبرى سوى حلب (غرب الشام) ذات الموقع الإستراتيجى الخطير فحاصرها، ولكن أهلها دافعوا عنها عندما حاصرتها قوات صلاح الدين، فما كان من قائد المدينة سعد الدين كمشتكين سوى أن لجأ إلى قائد طائفة الحشاشين المتطرفة بالشام ويدعى سنان، وهو الرجل الشيعى المتطرف الذى كان قد تحالف مع بقايا الفاطميين فى مصر ومع الصليبيين لتنفيذ خطتهم - التى سبقت الإشارة إليها - لهزيمة صلاح الدين فى مصر. وبسرعة وضع سنان خطة لاغتيال صلاح الدين حيث أرسل جماعة من رجاله تمكنوا بمهارة فائقة من التوغل فى معسكر صلاح الدين، فلما اكتشفهم قائد المعسكر الأيوبى (ناصح الدين) سارعوا باغتياله، ثم ساروا متخفين حتى وصلوا إلى الخيمة التى يوجد بها صلاح الدين، ولكن ظهر لهم فى الوقت المناسب حرس الخيمة ودارت بين الحرس والحشاشين معركة بالخناجر قتل فيها بعض الحرس كما قتل كذلك فيها كل الحشاشين المهاجمين.

ولقد فك صلاح الدين حصاره عن حلب بعد أن جاءته معلومات بأن الحلبيين قد خاطبوا الجيش الصليبى والجيش الموصلى للدفاع عنهم، ولكنه عاد وفرض الحصار عليها مرة أخرى فى مايو ١١٧٦م حيث تمكن صلاح الدين من اقتحام عدة قلاع من حول حلب مما أدى إلى إضعاف دفاعاتها، فقام الحلبيون بتكرار اتصالهم بطائفة الحشاشين بقيادة سنان حتى يضع خطة تخلصهم من صلاح الدين باغتياله، «ولبى سنان دعوتهم وسلك هذه المرة مسلكاً أكثر حيطة مما سلكه فى محاولته الأولى، إذ أرسل بعض فداويته فى زى الأجناد، فاندسوا بين صفوف العساكر المصرية وهم على حصار عزاز (قلعة كان صلاح الدين يحاصرها بالقرب من حلب) علهم يجدون فرصة ينتهزونها للانقضاض على صلاح الدين فى فرصة مواتية، وحانت لهم تلك الفرصة فعلاً ليلة الأحد ٢٢ مايو سنة ١١٧٦م (١١ ذى القعدة سنة ٥٧١هـ) بعد أسبوع من حصار عزاز، إذ تسلل أربعة من الفداوية إلى حيث صلاح الدين وهو جالس إلى كبار قادته، بخيمة الأمير (جاولى الأسدى) التى اعتاد صلاح الدين أن يحضر إليها يومياً لتدبير العمليات الحربية والآلات،

وترتيب المهمات. وضربه الفداوى الأول ضربة بسكين مسددة إلى رأسه، فلم تصل إليه بسبب سنفرة الزرد (غطاء للرأس يصنع من حديد يلبس تحت القلنسوة) غير أن السكين جرحت خده وجرى الدم على وجهه، وقيل أنها جرحت فخذه، ثم هجم الفداوى الثانى على صلاح الدين، فأمسك الأمير سيف الدين يازكش سكين الفداوى بيده اليسرى فيما يبدو ولم يطلقها حتى قتله بيده اليمنى. وفى وسط الهرج الذى أحدثته هذه المحاولة الثانية قفز الفداوى الثالث نحو صلاح الدين فاعترضه الأمير داود بن منكلان الكردى، وما زال الأمير يصارع الفداوى والفداوى يصارعه حتى ماتا معاً. أما الفداوى الرابع فطعنه ناصر الدين محمد بن شيركوه وقتله. وهكذا نجا صلاح الدين بمعجزة من تلك المؤامرة الأربعية، وركب إلى خيمته كالمذعور لا يصدق بنجاته..»(١).

ولقد نتج عن تلك المحاولة الجريئة لقتل صلاح الدين أن قام بتشديد حصاره على قلعة عزاز حتى سقطت بعد قتال شديد، وبهذا أصبحت أغلب أراضى إمارة حلب (عدا مدينة حلب) فى يد صلاح الدين فوقع معاهدة صلح مع أهلها وتفرغ بعد ذلك للانتقام من الحشاشين الذين حاولوا اغتياله مرتين والقضاء على دولته الموحدة التى كانت تضم مصر والشام والحجاز واليمن وليبيا وبلاد النوبة.

ففى أغسطس ١١٧٦م تقدم صلاح الدين فى أراضى الحشاشين تحدوه الرغبة فى الانتقام، وحاصر مصياف (وهى قلعة حصينة يتخذها زعيم الحشاشين سنان مقراً له)، وأخذ يقصفها بحجارة المجانيق ولكن أسوار القلعة وارتفاعها لم تتأثر من القصف المستمر حتى فشل صلاح الدين فى اقتحامها.. بل إنه شك فى وجود بعض الحشاشين بين جنوده، وانتابته الوساوس والقلق حول حياته، فأمر بأن يرش الجير الأبيض حول مقر إقامته ليكتشف أى آثار لأقدام تريد اغتياله.. ومع تصاعد حدة المخاوف «رد سنان على صلاح الدين رداً حاسماً دل على قدرته وجرأته، إذ نزل ليلاً من الجبل وبين يديه فانوس يضىء إلى أن دخل خيمة صلاح الدين ووصل إلى مخدعه وحول النور الذى عند رأسه إلى رجليه، والنور الذى عند رجليه إلى عند رأسه، ووضع قريباً منه جرادق ساخنة من خبز الإسماعيلية كانت معروفة فى ذلك الزمان وشك فى الجرادق سكيناً من سكاكين الفداوية مغموسة فى السم إلى نصفها ثم وضع فوق الخبز ورقة فيها بيتان من الشعر بخط سنان نفسه:

---

(١) التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى - الدكتور نظير حسان سعداوى - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٧.

أما وجلال الملك ما تملكونها   مُراغمة ما دام ذا النصر قايم

نخبركم أنّا قدرنا عليكم   نؤخركم حتى تتم الغرايم

ومعنى البيتين (ما تملكه سوف يؤول إلينا فى النهاية) «واعرف أنك فى قبضة يدنا، وسنحتفظ بك حتى نحاسبك حساباً عسيراً».

«وعندما استيقظ صلاح الدين أخذته الدهشة والحيرة لتغيير معالم الحجرة على هذا النحو السابق الذكر، ولاحظ وجود أثر أقدام سنان فى الجير والرماد خارجاً فقط ولا أثر لدخوله وعم الذعر والخوف جميع العسكر وأقسم الحراس أنهم ما ناموا ليلتهم، ولا رأوا أحداً، وارتاب السلطان فى أقرب الناس إليه»[1]. فقام صلاح الدين بفك حصاره من حول قلعة مصياف - بعد أسبوع من حصارها - وعاد إلى حماة بالشام مختتماً بذلك قصة الصراع بينه وبين طائفة الحشاشين الذين لم يتعرضوا له بمكروه حتى وفاته.

وبينما كان صلاح الدين يواجه المخاطر أمام الحشاشين بالشام هاجم الصليبيون من جزيرة صقلية بحوالى أربعين سفينة مدينة تنيس[2] بالقرب من دمياط وتمكنوا من اقتحامها ولكن قائد الحامية البحرية بالمدينة محمد بن إسحق تمكن من مهاجمة الأعداء وأسر منهم مائة وعشرين رجلاً حيث أعدمهم بقطع رؤوسهم.

عاد صلاح الدين إلى القاهرة فى أكتوبر عام ١١٧٦م بعد أن تمكن من توحيد بلدان المشرق الإسلامى وأخذ يشيد من الحصون والقلاع فى تلك الدولة المترامية الأطراف استعداداً لتوجيه الضربة الكبرى للكيان الصليبى، فقام بسرعة فى بناء قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين بجبل المقطم شرق القاهرة)، ثم إنه أحاط القاهرة بسور كبير قوى من الحجر.. وفى أثناء ذلك حدثت فتنة كبيرة فى مدينة قفط (وهى من المدن التاريخية القديمة المعروفة بصعيد مصر غربى النيل) سببها: «أن داعياً من بنى عبد القوى ادعى أنه داود بن العاضد (آخر الخلفاء الفاطميين بمصر) فاجتمع الناس عليه فبعث السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه العادل أبا بكر بن أيوب على جيش فقتل من أهل قفط

---

(١) التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى - الدكتور نظير حسان سعداوى. (المرجع السابق).

(٢) تقع مدينة تنيس التاريخية القديمة بجوار مدينة دمياط الحالية. ويقال إنها بنيت على عهد قدماء المصريين، وأنها سميت كذلك نسبة إلى تنيس بن حام بن نوح عليه السلام. ولقد كانت تنيس مدينة كبيرة وفيها آثار هامة واشتهرت بالتجارة وصناعة السفن واستمرت كذلك حتى عهد الملك الكامل الأيوبى فأمر بهدمها (خشية الزحف الصليبى) وكان ذلك عام ٦٢٤هـ.

نحو ثلاثة آلاف وصلبهم على شجرها ظاهر قفط بعمائمهم وطيالستهم»[1]. ويبدو أن تلك كانت محاولة شيعية أخرى اتسمت بالتسرع للانقضاض على الدولة الأيوبية.

وفى عام ١١٧٧م سار صلاح الدين على رأس فرقة كبيرة من جيشه تقدر بحوالى أربعة عشر ألف مقاتل وآلاف غيرهم من الجنود واتجه نحو عسقلان بجنوب فلسطين وكانت تحت الاحتلال الصليبى منذ أيام الدولة الفاطمية، حيث اقتحمها وقتل حاميتها المدافعة عنها، وكان ذلك فى نوفمبر عام ١١٧٧م، ولكن الصليبيين أوقعوا بصلاح الدين هزيمة مفاجئة عند الرملة بنهاية العام، ولكنه تمكن وقواته من العودة إلى مصر. ويبدو أن الصليبيين أرادوا استمرار ضغطهم على صلاح الدين فهاجموا مدناً هامة بالشام (حماة وحارم) ولكن صلاح الدين أوقع بهم هزيمة بوادى مرج العيون فى منتصف عام ١١٧٩م، فأخذ الصليبيون يخططون للاعتداء على دولة صلاح الدين، وقادهم تفكيرهم إلى الاعتداء على المدينة المنورة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك عام ٥٧٩هـ (١١٨٢ ـ ١١٨٣م).

ويحدثنا المقريزى عن تلك الحملة العدوانية فيقول: إن فرنج الشوبك والكرك (أى الصليبيين) توجهوا نحو مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم لينبشوا قبره صلى الله عليه وسلم وينقلوا جسده الشريف المقدس إلى بلادهم ويدفنوه عندهم ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بجعل (أى برسوم)، فأنشأ البرنس أرباط صاحب الكرك سفناً حملها على البر إلى بحر القلزم (خليج السويس) وأركب فيها الرجال وأوقف مركبين على جزيرة قلعة القلزم تمنع أهلها من استسقاء الماء، فسارت الفرنج نحو عيذاب (بجنوب سيناء) فقتلوا وأسروا ومضوا يريدون المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على حران (مدينة بالشام) فلما بلغه ذلك بعث إلى سيف الدولة بن منقذ نائبه على مصر يأمره بتجهيز الحاجب لؤلؤ (قائد الأسطول البحرى الأيوبى وهو أرمنى أسلم وصلح إسلامه) خلف العدو فاستعد لذلك وأخذ معه قيوداً وسار فى طلبهم إلى القلزم، وعمر هناك مراكب (أى جهزها) وسار إلى أيلة (قلعة بجنوب سيناء تابعة للأيوبيين)، فوجد مراكب للفرنج (أى الصليبيين) فحرقها وأسر من فيها وسار إلى عيذاب، وتبع الفرنج حتى أدركهم ولم يبق بينهم وبين المدينة النبوية ـ على ساكنها

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى ـ الجزء الأول (طبعة مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة).

أفضل الصلاة والتسليم - إلا مسافة يوم، وكانوا ثلاثمائة ونيفاً، وقد انضم إليهم عدة من العربان المرتدة، فعندما لحقهم لؤلؤ فرت العربان فرقاً من سطوته، ورغبة فى عطيته (مكافأته) فإنه كان قد بذل الأموال حتى أنه علق أكياس الفضة على رؤوس الرماح، فلما فرت العربان التجأ الفرنج إلى رأس جبل صعب المرتقى فصعد إليهم عشرة أنفس وضايقهم فيه فخارت قواهم بعدما كانوا معدودين من الشجعان واستسلموا فقبض عليهم وقيدهم وحملهم إلى القاهرة، فكان لدخولهم يوم مشهود، وتولى قتلهم الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة بعدما ساق رجلين من أعيان الفرنج إلى منى (بالقرب من مكة المكرمة) ونحرهما هناك كما تنحر البدن (الذبائح) التى تساق هدايا إلى الكعبة»[1].

وبعد تلك الأحداث أخذ صلاح الدين يضم إلى دولته مدناً هامة فى شرق الشام وشماله إلى أن تمكن من دخول حلب فى منتصف عام ١١٨٣، وبذلك شعر الصليبيون أن خطر صلاح الدين بات يقترب منهم رويداً رويداً وبالفعل تمكن صلاح الدين من حشد كل طاقات المشرق الإسلامى الحربية والاقتصادية.. ولم يكن هذا أمراً يسيراً لأن زمناً يقارب الثمانية عشر عاماً (١١٦٩ - ١١٨٧م) قد مر منذ أن أصبح صلاح الدين حاكماً لمصر حتى تيقن من أن قبضته على مصر والشام تمكنه من التخطيط لمجابهة الصليبيين فى عقر دارهم. وبالفعل فقد بدأ صلاح الدين حرب التحرير الإسلامية بأن أخرج الأسطول المصرى ليفرض به حصاراً بحريا على سواحل المدن التى يحتلها الصليبيون منذ عام ١٠٩٩م. وخرجت الجيوش العربية من دمشق فى مارس ١١٨٧م وأخذت تكيل الضربات الموجعة إلى كل حصن صليبى يقابلها. وفى مايو من نفس العام دارت معركة كبرى بين صلاح الدين وعدة فرق من جيوشه وبين الصليبيين بالقرب من الكرك (بجنوب فلسطين) حيث خسرها الصليبيون. وفى ٤ يوليو من نفس العام وقعت معركة حطين (وهى منطقة يحدها من الشرق بحيرة طبرية ومن الغرب مدينتا عكا وحيفا) التى تعد واحدة من أكبر المعارك التى خاضها العرب والتى حطمت القوات الصليبية وقضت على الكثير من آمال زعمائهم فى البقاء بأرض العرب.

يقول ابن خلدون عن تلك المعركة: «وأحاط بهم - أى الصليبيين - المسلمون من كل ناحية.. فارتفعوا إلى تلٍ بناحية حطين لينصبوا خيامهم به فلم يتمكنوا إلا من خيمة الملك

---

(١) الخطط المقريزية - الجزء الثانى - (مطبعة الثقافة الدينية).

فقط، والسيف يجول فيهم مجاله حتى فنى أكثرهم، ولم يبق إلا المائة والخمسون من خلاصة زعمائهم مع ملكهم، والمسلمون يكرون عليهم مرة بعد أخرى حتى ألقوا ما بأيديهم، وأسروه وأخاه البرنس أرناط صاحب الكرك، وصاحب جبيل، وابن هنرى، ومقدم الفداوية وجماعة من الفداوية، والاسبتارية (وهم جنود) ولم يصابوا منذ ملكوا هذه البلاد أعوام التسعين والأربعمائة (الهجرية) بمثل هذه الموقعة»[1].

وبعد ذلك الانتصار، وفى الثانى من أكتوبر ١١٨٧م دخل صلاح الدين مدينة القدس بعد حصار دام أسبوعاً واحداً، وقد صحبه فى دخولها منتصراً علماء وفقهاء المسلمين.. وطارت الأخبار فى كل البقاع الإسلامية بالنصر المجيد. قال القاضى ابن شداد: «لما تسلم السلطان (أى صلاح الدين) عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساعد الجد والاجتهاد فى قصده، واجتمعت إليه العساكر التى كانت متفرقة فى الساحل بعد قضاء لبانتها، فسار نحوه - أى نحو القدس الشريف - معتمداً على الله مفوضاً أمره إلى الله، منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذى حث على انتهازه إذا فتح بقوله عليه السلام: من فتح له باب الخير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه. وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغربى وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة. ولقد تحارز أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ما عدا النساء والأطفال.. ثم انتقل رحمه الله تعالى (أى صلاح الدين) لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالى، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب ونصب عليه المنجنيقات، وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب فى السور مما يلى وادى جهنم فى قرنة شمالية، ولما رأى أعداء الله (أى الصليبيين) ما ترك بهم من الأمر الذى لا يندفع، وظهرت لهم إمارات نصرة الحق على الباطل، وكان قد ألقى الله فى قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبى والقتل والأسر ما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون وبالسيف الذى قتل به إخوانهم يقتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسلمه له (أى تسلم صلاح الدين للقدس الشريف) يوم الجمعة السابع والعشرون من رجب وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها فى القرآن المجيد.. فانظر إلى هذا الاتفاق

---

(١) تاريخ العلامة ابن خلدون - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - المجلد الخامس - القسم الأول - دار الكتاب اللبنانى - بيروت - ١٩٨١.

العجيب كيف يسر الله عوده إلى أيدى المسلمين فى مثل زمن الإسراء بنبيهم صلى الله عليه وسلم»(١).

ولما استولى صلاح الدين على بيت المقدس وقع فى يده كثير من الأسرى، فوفد عليه رهط من النساء وناشدنه أن يفك سراح أزواجهن وأولادهن، وقلن له أنهن إذا رحلن عن هذه البلاد فقدن أزواجهن، ولو ردهم إليهن لأزال بؤسهن وعشن سعيدات بفيض كرمه وواسع رحمته، فتأثر صلاح الدين بتوسلاتهن وأمر برد الأسرى إلى أقاربهم، ووزع الصدقات على اليتامى والأرامل. وعمل على إسعاف الجرحى ومعالجة المرضى بحجاج المسيحيين»(٢). هذا وقد قدر المؤرخون عدد الأسرى جميعاً بثلاثين ألفاً والقتلى ثلاثين ألفاً أيضاً»(٣).

وللقارىء أن يلاحظ الفرق الكبير الواضح بين موقف صلاح الدين من إطلاق سراح أسرى الصليبيين بعد تحريره القدس، وموقف الصليبيين عندما احتلوها عام ١٠٩٩ وقتلوا فيها سبعين ألف مسلم!

هذا، ولا شك أن انتصار الأيوبيين على الصليبيين بهذه الصورة قد هز البلدان الأوربية من أقصاها إلى أقصاها، فقامت بتجميع جيوشها وسفنها وأسلحتها ورجالها وفرسانها وزحفوا بها لاسترداد القدس من صلاح الدين، فيما سمى بالحملة الصليبية الثالثة التى رأس جيوشها ريتشارد قلب الأسد، وفردريك بارباروسا، وفيليب أغسطس، وقد فشلت تلك الحملة فشلاً ذريعاً فى إعادة احتلال القدس فبقيت لدى المسلمين، ولكن الصليبيين تمكنوا من احتلال مدينة عكا حيث أعدموا أسرى المسلمين فيها وكان عددهم ألفين وسبعمائة مسلم، وذلك فى أغسطس من عام ١١٩١ (رجب ٥٨٧هـ) ثم عقدوا صلحاً مع صلاح الدين فى سبتمبر من عام ١١٩٢ سمى بصلح الرملة، ثم غادروا عكا ـ بعد ترك قوات صليبية تدافع عنها ـ عائدين من حيث أتوا.

ولم تمض أشهر قلائل، وفى ٤ مارس ١١٩٣ (١٨ صفر ٥٨٩هـ) توفى صلاح الدين

---

(١) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ـ تأليف الشيخ الإمام شهاب الدين المقدسى الشافعى ـ الجزء الأول ـ مطبعة وادى النيل بمصر ـ القاهرة ١٢٨٧هـ.

(٢) تاريخ الإسلام ـ الجزء الرابع ـ الدكتور حسن إبراهيم حسن (مرجع سابق).

(٣) التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ـ الدكتور حسان سعداوى (مرجع سابق).

وعمره حوالى خمسة وخمسين عاماً، فدفن بدمشق، فخلفه ابنه الملك العزيز فى حكم مصر، وابنه الملك الأفضل فى حكم دمشق، وابنه الملك غياث الدين فى حكم حلب.

ولما تمكن العزيز من حكم مصر لم يستقر على علاقة جيدة مع شقيقه الأفضل الذى يحكم دمشق، فحدثت حروب بينهما كان عمهما العادل (شقيق صلاح الدين) يتدخل لإنهائها.

الإعدامات السياسية فى عصر خلفاء صلاح الدين:

وفى الحقيقة فإن الهدنة التى كانت بين الأيوبيين والصليبيين ساعدت أبناء صلاح الدين على أن يقاتل بعضهم بعضاً، ويبدو أن الملك العادل الذى ساعد أخاه صلاح الدين على تأسيس الدولة الصلاحية، بل وإحراز الانتصارات الباهرة على الصليبيين قد رأى - بعد وفاة صلاح الدين - أن الحكم قد خرج من بين يديه إلى أبناء أخيه صلاح الدين وحدهم، فرغب فى إزالة حكم الأضعف منهم وهو الأفضل حاكم دمشق فسار إليه من مصر واستولى عليها وأصبح هو حاكمها. أما الملك العزيز بالله حاكم مصر فقد: «سار مع الناس فى مصر أقبح سيرة.. وتجاهر بالمعاصى والمنكرات، حتى غلا سعر العنب فى أيامه لكثرة من يعصره، وحملت أوانى الخمر جهاراً من غير إنكار، وحميت بيوت المزارة، وأماكن الحشيش وأباح ذلك أرباب الأمر والنهى. قال القاضى الفاضل: إن فى أيام الملك العزيز هذا وقع غلاء بسبب توقف النيل وتشحطت الغلال فى وقت ميسورها والقمح فى الجرون، واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى والفسوق»(١).

ولقد استمر حكم العزيز إلى أن توفى عام ٥٩٥هـ «وكان سبب موته أنه خرج إلى الصيد، فوصل إلى الفيوم متصيدا، فرأى ذئباً فركض فرسه فى طلبه، فعثر الفرس، فسقط عنه فى الأرض ولحقته حمى فعاد إلى القاهرة مريضاً، فبقى كذلك إلى أن توفى بعد خمسة أيام»(٢).

فخلفه ابنه المنصور محمد، وكان طفلاً فى التاسعة فلم يتمكن من إرضاء أمراء

---

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور - ابن إياس - الجزء الأول.
(٢) نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين - تأليف عبدالباسط بن خليل بن شاهين الملطى - تحقيق محمد كمال الدين عز الدين على - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ١٩٨٧.

الدولة الذين طلبوا مبايعة الملك الأفضل الذى كان قد حكم دمشق بعد وفاة أبيه صلاح الدين، فتملك الملك الأفضل مصر، وسرعان ما طمع فى دمشق التى كان يحكمها عمه الملك العادل، وبعد سلسلة من المعارك فى الشام تمكن العادل من هزيمة الأفضل وبهذا تمكن الملك العادل من السيطرة على مصر عام ٥٦٧هـ (١١٩٩م) ليصبح بذلك حاكماً على مصر والشام معاً. أما الملك المنصور محمد فقد سجن بالقلعة حتى وفاته.

ويعتبر حكم الملك العادل سيف الدين أبى بكر من أفضل الفترات التى عاشتها مصر منذ وفاة صلاح الدين فقد تمكن بخبرته وحكمته من ضبط أمور الدولة وإشاعة النظام فيها.

ولكن فى القسم الثانى من حكمه انخفضت مياه النيل وارتفعت الأسعار ثم اختفت السلع: «وتبع ذلك فناء كبير وامتد ذلك ثلاث سنين فبلغت عدة من كفنه العادل وحده من الأموات فى مدة يسيرة نحو مائتى ألف وعشرين ألف إنسان فكان بلاءً شنيعاً»(١).

وفى أيام الملك العادل تجددت أطماع الصليبيين فى أراضى الشام ولكن العادل تمكن من صدهم، وعقد هدنة معهم، وقد استمرت حتى وفاته عام ٦١٥هـ، فخلفه ابنه الملك الكامل.

ولما كانت الدولة الأيوبية فى مصر والشام قد أخذت تضعف فإن هجمات الصليبيين فى الشام أظهرت لهم ذلك الضعف، فخططوا لغزو مصر، وأعدوا لذلك عدتهم فيما سمى بالحملة الصليبية الرابعة التى تجمعت قواتها الضارية من كافة أنحاء أوربا(٢) فى مدينة عكا التى حولها الصليبيون منذ اتفاق السلام بينهم وبين صلاح الدين (صلح الرملة) إلى قلعة حربية كبرى هددوا بها كل المشرق الإسلامى.

قصد الصليبيون إذن مدينة دمياط فى صيف عام ٦١٥هـ (١٢١٨م) فى نحو نصف

---

(١) المواعظ والاعتبار فى الخطط والآثار للمقريزى - الجزء الثانى (طبعة مكتبةالثقافة الدينية).

(٢) «أبحرت قوة عظيمة (من أوروبا) للتجمع فى عكا ومنها تبحر إلى دمياط، وكان هناك أندريه ملك المجر، والدوق ليبولد النمسوى، وهيوج القبرصى، وراندولف الإنجليزى.. وكثير من الأمراء والأساقفة، ثم لحق بهم أسطول الفريسيان وجنود من الراين... وكانت دمياط يوم حاصرها حنا دى برين عام ١٢١٨ - ١٢١٩ مدينة بها سبعون ألف نسمة، وكانت أسوارها الغاصة بالأبراج تكون ثلاثة حواجز من جهة البر واثنين من ناحية النهر...».
انظر لمزيد من التفاصيل الهامة:
تاريخ دمياط منذ أقدم العصور - نقولا يوسف - مطبعة التحرير - القاهرة (مرجع سابق).

مليون رجل (نعم نصف مليون رجل) ومعهم كل أدوات القتال وكل أسلحة الحصار، وحملت تلك الأسلحة براً وبحراً وسرعان ما وصلوا بدون مقاومة وبدون عائق، وفرضوا حصاراً محكماً على المدينة فى يونيو عام ١٢١٨ واستمر قصف المدينة حتى سقطت فى نوفمبر ١٢١٩ وجرت بداخلها مذبحة مروعة[١] بعد أن تغلبوا على المقاومة بداخلها وقطعوا السلاسل الواصلة بين أفرع النيل لمنع الملاحة، فأقام الملك العادل جسراً هائلاً على النيل جنوب دمياط ودارت فوق ذلك الجسر معارك دموية طاحنة ولكن الصليبيين حطموا الجسر وانتشروا فى شرق الدلتا يحطمون ويحرقون ويقتلون وبدا أنهم قد تملكوا مصر، فاستغاث الملك الكامل بحكام المسلمين فأنجدوه بالرجال والسلاح.. ثم انتشر الصليبيون جنوباً تجاه المنصورة فى قوات بلغ تعدادها مائتى ألف رجل، ولكن المصريين وجنود الإمارات الأيوبية فى الشام سارعوا بحصارهم براً وبحراً، وأخذ الأعراب يخطفون جنود الصليبيين على نطاق واسع، فشعر الصليبيون بأن خسائرهم فاقت ما أحرزوه من نصر فشرعوا إلى طلب الصلح واشترطوا أن يسلم المسلمون جميع المدن والقلاع والحصون التى حررها صلاح الدين الأيوبى بما فى ذلك القدس وعسقلان، فرفض الأيوبيون ذلك فتجدد القتال، وساعد المسلمين فيضان النيل الذى أغرق تحصينات الصليبيين فى دمياط وحولها فانهمرت سهام المسلمين عليهم تحصدهم من كل صوب، فطلبوا الصلح على أن يسلموا دمياط إلى الملك الكامل وأن ينسحبوا جميعاً من كل أراضى مصر وشواطئها على أن تكون القدس لهم.

ولقد وقف خلف تنازل الملك الكامل عن القدس للصليبيين نزاعه مع شقيقه المعظم عيسى أمير دمشق، حيث خشى الكامل من ضياع مصر فيتفق المعظم مع الصليبيين على إعطائهم بيت المقدس وينال هو (أى المعظم) مصر!

وبالفعل قام الكامل بتسليم الإمبراطور فردريك الثانى بيت المقدس وكان ذلك فى ١٨ فبراير عام ١٢٢٩ عندما وصل فردريك مع عدة مئات من جنده إلى الأرض المقدسة.

وعلق ابن الأثير على تسليم الملك الكامل القدس للصليبيين فقال: تسلم الفرنج بيت

---

(١) يقول المقريزى واصفاً تلك المذبحة: ولما أخذوا البلد - أى دمياط - وضعوا السيف فى الناس فتجاوزوا الحد فى القتل وأسرفوا فى مقدار القتلى، وجعلوا الجامع كنيسة وبثوا سراياهم فى القرى فقتلوا ونهبوا.. وجهز الفرنج من أسروه من المسلمين فى البحر إلى عكا... إلخ. انظر خطط المقريزى - الجزء الأول - طبعة مكتبة دار الثقافة الدينية بالقاهرة.

المقدس، واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه،[1] «وعقدت المجالس فى دمشق ومعظم نواحى الشام، وفى بغداد نفسها تندد بسلوك الكامل وتسليمه القدس وخرجت النساء يبكين وينحن لهذا الحدث الخطر وكن قبل ذلك يقصصن شعورهن ويجدلنها حبالاً ليتخذ منها المعظم عيسى لجماً لخيول المجاهدين المكافحين»[2].

هذا وقد انقضت أيام الملك الكامل عندما هاجمه المرض وهو بدمشق فمات حيث دفن هناك، وكان ذلك عام ٦٣٥ للهجرة وبذلك بلغت مدة حكمه لمصر حوالى عشرين سنة، فخلفه ابنه الملك العادل أبو بكر (العادل الصغير). ولما كان العادل أصغر سنا من أخيه الأمير نجم الدين أيوب ابن الكامل صاحب حلب، فإن الثانى غضب من ذلك وسافر إلى مصر حيث دارت بينه وبين أخيه العادل عدة معارك انتهت بهزيمة العادل، فسيطر نجم الدين على مصر حيث بايعه أمراء الدولة ملكاً أيوبياً عليها وسمى (بالصالح)، أما العادل فقد تم سجنه بالقلعة.. ويبدو أن سجنه كان فترة مؤقتة إذ سرعان ما قام أخوه الملك الصالح باغتياله حيث أرسل إليه عدة رجال من مماليكه فخنقوه وذلك عام ٦٤٠هـ.

ويبدو أن الملك الصالح (وكان سابع ملوك بنى أيوب بمصر) قد شاهد خطورة بقاء مصر بغير جيش متكامل يدافع عنها فأكثر من شراء المماليك، وبنى لهم قلعة خاصة بهم يتدربون فيها ويقيمون بين أنحائها الواسعة وهى قلعة الروضة[3] والتى اتخذها مقراً لحكمه بدلاً من قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين). ولا شك أن شراء المماليك وتربيتهم فى مصر ابتداء من عصر الملك الصالح الأيوبى قد صدم المصريين، حيث أخذوا يعانون من سوء معاملتهم وسرقاتهم ونهبهم المستمر لمتاجرهم وأسواقهم ومنازلهم، ومع ذلك فقد تمكن الملك الصالح من استخدام المماليك لقمع تمرد بالصعيد أخمده بتشتيت الأعراب وإعدام قادتهم الذين أسروا. وفى عام ٦٤٤هـ اعتقل المماليك عشرين رجلاً كانوا يسرقون قوافل التجارة ويقتلون المدافعين عنها فأمر الملك الصالح بشنقهم.

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل فى التاريخ ـ حوادث سنة ٦٢٦ هـ.

(٢) مصر والشام والصليبيين ـ الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ـ الطبعة الثانية ١٩٨٢م.

(٣) هى قلعة الروضة بحى المنيل الذى يتوسط نيل القاهرة اليوم، وهى بهذا مواجهة لحى مصر العتيقة (الفسطاط). ولازالت أسوار وأبراج تلك القلعة موجودة حتى يومنا هذا يلاحظها كل زائر، وهى تتصف بالجمال والدقة والمتانة، وبها اليوم حدائق بالغة الجمال يزيد من جمالها وقوعها على ضفاف النيل الخالد.

وفى أثناء قيام الملك الصالح بزيارة لدمشق فاجأه مرض عضال كان السبب فى وفاته، ولكن قبل أن يموت هاجمت حملة صليبية جديدة مصر تشكلت فى معظمها من جنود وفرسان فرنسيين تحت قيادة لويس التاسع، ولم تكن مصر فى ذلك الوقت ضعيفة مثلما كانت أيام الملك الكامل، ولم تكن الحملة ضخمة كالحملة الصليبية الرابعة. وقد أبحرت الحملة من موانىء جنوب فرنسا فى أغسطس عام ١٢٤٨م مكونة من ١٨٠٠ سفينة وحوالى الثمانين ألف فارس وجندى، وفى يونيو من العام التالى - بعد توقف فى بعض الموانىء والجزر بالبحر الأبيض - وصلت سفن الحملة إلى شواطىء دمياط لحصار المدينة، ولما علم الملك الصالح بذلك غادر دمشق وهو مريض حتى وصل إلى المنصورة. أما قائد حامية دمياط الأمير فخر الدين يوسف، فأمر حامية دمياط بالانسحاب فسقطت المدينة فى يد لويس التاسع. ويحدثنا المقريزى عن ذلك الانسحاب المخزى فيقول: فلما أمسى الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بعساكر المسلمين جبنا وصلفاً، وسار بهم فى بر دمياط وسار إلى جهة أشموم طناح (بالقرب من المنصورة)، فخاف من كان فى مدينة دمياط وخرجوا منها على وجوههم فى الليل لا يلتفتون إلى شىء، وتركوا المدينة خالية من الناس ولحقوا بالعسكر فى أشموم وهم حفاة عرايا جياع حيارى بمن معهم من النساء والاولاد وفروا هاربين إلى القاهرة فأخذ منهم قطاع الطريق ما عليهم من الثياب وتركوهم عرايا. فشنعت القالة على الأمير فخر الدين من كل أحد وعدّ جميع ما نزل بالمسلمين من البلاء بسبب هزيمته، فإن دمياط كانت مشحونة بالمقاتلة والأزواد العظيمة والأسلحة وغيرها خوفاً أن يصيبها فى هذه المدة ما أصابها فى أيام الكامل، فإنه ما أتى عليها ذاك إلا من قلة الأقوات بها، ومع ذلك امتنعت عن الفرنج أكثر من سنة حتى فنى أهلها كما تقدم، ولكن الله يفعل ما يريد، ولما أصبح الفرنج يوم الأحد لسبع بقين من صفر عام ٦٤٦هـ قصدوا دمياط فإذا أبواب المدينة مفتحة ولا أحد يدفع عنها فظنوا أن ذلك مكيدة وتمهلوا حتى ظهر لهم خلوها، فدخلوا إليها من غير مانع ولا مدافع واستولوا على ما بها من الأسلحة العظيمة وآلات الحرب والأقوات الخارجة عن الحد فى الكثرة والأموال والأمتعة صفوا بغير كلفة، فأصيب الإسلام والمسلمون ببلاء لولا لطف الله لمحى اسم الإسلام ورسمه بالكلية، وانزعج الناس فى القاهرة ومصر انزعاجاً عظيماً لما نزل بالمسلمين مع شدة مرض السلطان وعدم حركته، وأما السلطان فإنه اشتد حنقه على الأمير فخر الدين وقال: أما قدرت أنت والعساكر أن تقفوا ساعة بين يدى الفرنج وأقام

عليه القيامة، لكن الوقت لم يكن يسع غير الصبر والإغضاء. وغضب على الكنانيين الذين كانوا بدمياط ووبخهم، فقالوا ما نعمل إذا كان عساكر السلطان بأجمعهم وأمراؤه هربوا وأخربوا الزردخانة (مخزن السلاح) كيف لا نهرب نحن. فأمر بشنقهم لكونهم خرجوا من دمياط بغير إذن، وكانت عدة من شنق من الأمراء الكنانية زيادة على خمسين أميراً في ساعة واحدة ومن جملتهم أمير جسيم له ابن جميل سأل أن يشنق قبل ابنه فأمر السلطان أن يشنق ابنه قبله، فشنق الابن ثم الأب، ويقال أن شنق هؤلاء كان بفتوى الفقهاء، فخاف جماعة من الأمراء وهموا بالقيام على السلطان فأشار عليهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بأن السلطان على خطة (على مرض) فإن مات فقد كفيتم أمره وإلا فهو بين أيديكم[١].

أما ما كان من أمر الملك الصالح، فقد اشتد المرض عليه حتى مات بمدينة المنصورة بينما المماليك والمصريون يقاتلون الصليبيين بدمياط والقرى المحيطة بها. فأخفت زوجة الملك الصالح شجرة الدر خبر موته حتى لا تنهار معنويات الشعب والجنود وأرسلت إلى ابنه توران شاه، حيث بايعه أمراء الدولة فتولى حكم مصر عام ٦٤٨هـ، وقاد الملك الجديد مصر وجنودها حتى تمكنوا من هزيمة الحملة الفرنسية هزيمة منكرة وأسروا ملك فرنسا لويس التاسع (وهي المرة الأولى التي يؤسر فيها ملك أوربي في زمن الدولة الأيوبية بمصر) وكبار أمراء وقادة الحملة بعد أن حدثت بجيوشهم مقتلة كبرى. واعتقل لويس التاسع في دار القاضي فخر الدين بن لقمان إلى أن قامت فرنسا بدفع فدية كبرى لإطلاق سراحه ووعد رسمي بعدم تكرار مهاجمة مصر.

أما الملك توران شاه فقد أخذ يضطهد مماليك أبيه، ثم دبر خطة للتخلص من شجرة الدر، فتحالف المماليك مع شجرة الدر على قتله، وتم اغتياله فعلاً في شهر المحرم من عام ٦٤٨هـ. وطوى التاريخ صفحته.. وانتهت بعهده سنوات حكم الدولة الأيوبية في مصر.

---

(١) خطط المقريزي - الجزء الأول - طبعة مكتبة الثقافة الدينية.

الفصل السادس

الإعدام السياسى
فى عصر المماليك

تأسيس دولة المماليك الأولى:

استمرالضعف يسرى فى أوصال الدولة الأيوبية التى كان لمؤسسها صلاح الدين الأيوبى الفضل فى هزيمة الأوربيين الصليبيين وإخراجهم من مدينة القدس، فأخذت الدولة تنقسم على نفسها، ويقوم كل أمير من أمرائها بالاستقلال بقسم من أقسامها يعادى به الأمراء الآخرين، ولما نقص عدد الرجال الأقوياء وقلت الثقة فيهم أخذ الأمراء الأيوبيون فى استجلاب المماليك من مناطق عديدة يقع معظمها حول البحر الأسود وبحر قزوين ليدعموا جيوشهم ويتخذوهم أداة لحمايتهم وحماية عروشهم المتداعية.

ولم يتخذ أمراء بنى أيوب عظة ذات نفع من اتجاه من سبقهم من خلفاء بنى العباس فى الاعتماد على جنود من خارج العالم العربى حتى سيطر بنو بويه والسلاجقة على الخلفاء وجعلوا الخلافة العباسية مجرد اسم تحيطه هالة روحانية فحسب دون أى مدلول إدارى أو سياسى أو عسكرى بأى صورة من الصور.

وهكذا فإن قيام الملك الصالح أيوب باستجلاب المماليك إلى مصر لمؤازرته[١] إنما هو تكرار لنفس الخطأ الذى وقع فيه العباسيون من قبل، فبمجرد أن مات ذلك الملك إبان حملة لويس التاسع الصليبية على مصر وخلفه ابنه توران شاه، أخذ المماليك بمصر يقتربون من الإطاحة بالدولة الأيوبية والاستيلاء على حكم مصر ليعيشوا فيها حوالى ثلاثة قرون ممتدة من الزمن.

ويعتبر حكم المماليك لمصر من أكثر فترات الحكم إثارة، لما تخلله من أحداث كبرى عديدة أثرت بشكل لافت للنظر على مجمل القيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر ربما حتى وقتنا الحاضر.

(١) تم استجلاب المماليك للعمل فى مصر لأول مرة بواسطة الملك الصالح أيوب، وقد اقتدى في ذلك بأفراد العائلة الأيوبية فى الشام ولكنه لم يكن يدرك أن استجلابهم وهو ضعيف لن يزيده قوة بل سيزيده ضعفاً إلى أن يزول عهده.

وبالرغم من الإيجابيات العديدة للمماليك فى مصر إلا أن سلبيات حكمهم لها فاقت تلك الإيجابيات بكثير بسبب تعدد أصولهم وأعراقهم وعناصرهم والعداوة المستمرة فيما بين زعمائهم.. تلك العداوة التى استخدمت فيها كل الطرق الخاصة بالقتل والاغتيال والإعدام والتمرد والعصيان بل والحروب الدموية... حتى أن الباحث فى تاريخ المماليك بمصر لا يكاد يرى استقراراً سياسياً ممتداً إلا فى فترات قليلة حكم فيها سلاطين مماليك أقوياء اتصفوا بكل صفات العظماء الذين يحدثنا عنهم التاريخ السياسى للأمم، أما ما بين تلك الفترات القليلة فكان الصراع السياسى يعود ليطغى بظلاله المأساوية على تاريخهم الطويل فى أرض الكنانة.

ويمكن تقسيم حكم المماليك المستقل بمصر (والشام والحجاز واليمن) إلى قسمين: الأول هو حكم دولة المماليك الأولى أو دولة المماليك الترك، والثانى هو حكم دولة المماليك الثانية أو دولة المماليك الشراكسة. فدولة المماليك الترك يعود أصلها إلى سيطرة أمراء المماليك الذين عاشوا بمصر إبان نهاية عصر الدولة الأيوبية، أى أنهم ـ فى أغلبهم ـ من المماليك الصالحية (نسبة إلى الملك الصالح أيوب).. أما دولة المماليك الشراكسة فهم الذين جلبهم ورباهم السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الثانية.

ويلاحظ بصفة عامة أن دولة المماليك الأولى كانت أقوى بكثير من دولة المماليك الثانية، وربما يعود ذلك إلى عدم وجود قوة إسلامية أخرى تستطيع منازعة دولة المماليك الأولى فى حكم قلب العالم الإسلامى بعكس الثانية التى ظهرت أمامها قوة الدولة العثمانية القوية. والتى قضت فى النهاية ـ بعد محاولات فاشلة متكررة ـ على دولة المماليك الثانية.

ومهما كان الأمر فإن الكثير من صور الحياة سوف تتضح للقارىء الكريم أثناء مطالعته لأحداث الإعدام السياسى العديدة التى وقعت إبان حكم المماليك لمصر.

أولاً الإعدام السياسى إبان عصر دولة المماليك الأولى:

لم يكن انتقال السلطة من آخر ملوك الدولة الأيوبية فى مصر إلى المماليك سلمياً بل كان دموياً. إذ أنه بعد وفاة الملك الصالح أيوب تولى ابنه توران شاه حكم مصر فأخذ يستبد بالأمور فى خِفةٍ وطيش لصغر سنه وولعه بالشراب حتى أنه أخذ يردد أنه سيصفى

نفوذ المماليك بمصر ليتمكن من حكم البلاد، فلما سمع المماليك ذلك اتفقوا على الخلاص منه، فاغتالوه فى شهر المحرم من عام ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) وقلدوا الحكم شجرة الدر زوجة الملك الصالح أيوب، فرفض الخليفة العباسى أن تحكم مصر امرأة، فلم يجد المماليك وسيلة أخرى سوى أن يعلنوا زواج شجرة الدر (وهى آخر من كان له شرعية الحكم الوراثى من الدولة الأيوبية) إلى أميرهم عز الدين أيبك، على أن يكون أيبك هو حاكم مصر الاسمى، ولقد سبب زواج شجرة الدر (الأيوبية) من عز الدين أيبك (المملوكى) غضب بنى أيوب فى الشام فقاموا بتجهيز جيش للزحف به على مصر لإرجاع الحكم الأيوبى بها مرة أخرى، وساعدهم على ذلك قيام فئة من المماليك الصالحية (الأيوبية) على ترشيح أمير أيوبى لحكم مصر هو المغيث عمر، فزحف الجيش الأيوبى من الشام ودخل فلسطين، فقام عز الدين أيبك بتجميع قواته والخروج لملاقاة الجيش الأيوبى حيث تقابل الجيشان بالقرب من الصالحية فى فبراير ١٢٥١م حيث انتصر عز الدين أيبك واعتقل كثيراً من قادة الجيش الأيوبى حيث تم إعدام أغلبهم. وتمكن أيبك بذلك من السيطرة على فلسطين.

أما المماليك الصالحية الذين شجعوا الأيوبيين فى مصر فقد جرت عمليات واسعة النطاق لاعتقالهم وإعدامهم.

بعد ذلك شعر أيبك أن المماليك البحرية - الذين ساعدوه على هزيمة الأيوبيين - قد أخذوا يستبدون بالأمر دونه فأمر باغتيال زعيمهم فارس الدين أقطاى وقطع رأسه وقذف من أعلى القلعة لمماليكه الذين غضبوا على أيبك لغدره بهم، ولكن أيبك تمكن من القبض على البعض منهم حيث أعدمهم بينما فر الباقون إلى الشام بما فيهم الأمير بيبرس (الظاهر بيبرس الذى سيبزغ اسمه فيما بعد).

ولا شك أن كل تلك الأحداث أظهرت عز الدين أيبك كما لو أنه الحاكم الفعلى لمصر دون شجرة الدر التى كان لها الفضل - بزواجها منه - فى أن يحكم مصر بمشورتها، فلما ساءت الأمور بينهما قامت شجرة الدر بتدبير اغتيال عز الدين أيبك وتم ذلك فى شهر ربيع الأول عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) فقام ابنه الأمير على ومماليك أبيه بالانتقام من شجرة الدر واغتيالها فى ربيع الآخر عام ٦٥٦هـ (أى بعد أقل من شهرين من اغتيال أيبك).

ولقد قام المماليك المعزية (مماليك عز الدين أيبك) بالانتقام من قتلة أميرهم أيبك، فقبضوا عليهم - على القتلة - وأعدموهم بعد تعذيبهم وصلبهم على مدخل القلعة وتركوا

جثثهم أياماً بدون دفن حتى يشيعوا الرعب فى نفوس المماليك الصالحية (مماليك الصالح أيوب الذين قام بعضهم باغتيال أيبك) وبهذا تمكن الأمير على (الملقب بالمنصور نور الدين على) من الوصول إلى حكم مصر، وكان طفلاً فى الحادية عشرة من عمره، وكان نائبه الأمير سيف الدين قطز الذى كان يحكم مصر فعلياً، وسارع قطز بالتخلص من أعدائه فى السلطنة فقبض على الأمير شرف الدين الغائزى وكان وزير الدولة واعتقله بالقلعة وصادر ممتلكاته وكل أمواله، ثم أمر بإعدامه وصلبه على مدخل القلعة.

ولما كان قطز (وهو من مماليك عز الدين أيبك) له طموحات واسعة فقد استغل قيام المغول بالهجوم على بغداد وتدميرها وقتل ما لا يقل عن ١,٨ مليون شخص من أهلها بما فى ذلك الخليفة العباسى نفسه (المعتصم بالله) فى صفر عام ٦٥٦هـ/ فبراير ١٢٥٨م وتهديدهم لمصر، واتفق مع أمراء المماليك على عزل المنصور نور الدين على، وأن يحل هو - أى قطز - محله فى حكم مصر وكان ذلك فى شهر ذى القعدة من عام ٦٥٧هـ (١٢٥٩م).

ولقد كانت هجمات المغول بقيادة هولاكو على المشرق العربى أخطر تحدٍ للدولة المملوكية الأولى، إذ أن هولاكو قد دمر عاصمة الخلافة العباسية بغداد بجيوش قوية جرارة، ثم إنه كان قد دمر قبلها الدولة الخوارزمية فى آسيا الوسطى وأباد ودمر مدناً إسلامية رائعة هناك مثل بخارى وسمرقند، ولم يكن باقياً أمامه إلا مصر - حماها الله - لكى ينتهى العالم العربى.

وهنا بلا شك يبرز دور الصفوة السياسية التى تظهر من العبقرية الإدارية ما يؤهلها لتبوء أعلى درجات الفخر فى التاريخ. فلم تكن دولة المماليك الأولى إلا فى بداية تكوينها واختبار المغول لها وتحديهم لقوتها كان اختباراً - لا شك - صعباً، ولكنهم - أى المماليك - تمكنوا من قبول التحدى وتوحيد الصفوف وإطلاع الشعب فى مصر على الخطر المحدق به.

لقد أرسل هولاكو عدة رجال من المغول يحملون إنذاراً مهيناً لمصر، قال فيه مهدداً ومتوعداً: يا أهل مصر أنتم قوم ضعاف، فصونوا دماءكم منى، ولا تقاتلونى أبداً فتندموا[1].

---

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور.

وقال هولاكو كذلك: «فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مُزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ. فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن اشتكى.. فأى أرض تأويكم وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال..!»[١].

وما أن استمع السلطان سيف الدين قطز لرسالة هولاكو حتى اعتقل رسله، وقام بمشاورة أمراء المماليك وأعيان مصر الذين اتفقوا على أن مجابهة العدو الذى يهدد الديار أمر واجب شرعاً، فأمر قطز بإعدام رُسل هولاكو المغول فقطعت رؤوسهم وعلقت على باب زويلة[٢] لتكون إشارة من قادة مصر على أنهم لا يخضعون لتهديد معتد أثيم. ولهذا أخذ المماليك بقيادة قطز والظاهر بيبرس (الذى عاد إلى مصر بعد اغتيال عز الدين أيبك) فى إعداد مصر لتمويل المجهود الحربى لصد الغزو المغولى المرتقب بقيادة هولاكو زعيم المغول.

وعندما اكتملت عدة الجيش المصرى خرج لملاقاة المغول حيث تقابل معهم عند عين جالوت بالشام فى سبتمبر ١٢٦٠م، فوقعت الهزيمة بالمغول، فتتبعهم المصريون وقاتلوهم مرة أخرى عند بيسان حيث دحر بقية المغول.. وكانت أقسى هزائمهم منذ زحفوا على العالم الإسلامى.

ومكنت هزيمة المغول السلطان سيف الدين قطز من التخلص من بقايا الأيوبيين فى الشام فخلعهم من مناصبهم وولى أمراء من مماليكه أمر مدن الشام الكبرى، ويبدو أن ذلك أغضب الظاهر بيبرس (وكان من أمراء الملك الصالح أيوب) الذى أراد أن يعينه قطز على إمارة حلب، ولكن قطز رفض ذلك فيما يبدو بعد أن كان قد وعده بها قبل مقاتلة المغول، فاتفق مع بعض خاصته على التخلص من سيف الدين قطز أثناء عودتهم إلى مصر فاغتالوه فى نهاية شهر أكتوبر من عام ١٢٦٠م، واشترك فى قتله الظاهر

---

(١) الظاهر بيبرس ـ تأليف الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ـ أعلام العرب ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة.

(٢) باب زويلة يعتبر أحد أشهر أبواب القاهرة، سمى بذلك الاسم تخليداً لاسم قبيلة زويلة المغربية التى ساعدت الفاطميين على تأسيس دولتهم والهجرة معهم إلى مصر. ولازال ذلك الباب التاريخى الأثرى موجوداً حتى يومنا هذا على مقربة من مسجد الغورى بحى الغورى بمنطقة الأزهر.

بيبرس وكبار أمراء المماليك البحرية فى حادثة اغتيال مروِّعة تشبه حادثة اغتيال يوليوس قيصر الإمبراطور الرومانى بيد أصدقائه فى ساحة البرلمان بمدينة روما فى مارس عام ٤٤ ق. م.

عاد إذن المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقدارى إلى مصر فى أكتوبر عام ١٢٦٠م بعد ذبحهم للسلطان قطز، وبذلك أصبح بيبرس سلطان دولة المماليك البحرية فى مصر، فدخل بيبرس القلعة وهى مقر الحكم ليلقبه الأمراء والأعيان بلقب: الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (بعد أن رفضوا تسميته بالقاهر لأنه لم يفلح أحد حمل ذلك اللقب)، فكان بذلك رابع سلاطين المماليك الترك (بعد عز الدين أيبك وابنه على وسيف الدين قطز) وكان ذلك فى الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٢٦٠ ميلادية.

ولم يكد الظاهر بيبرس ينحو إلى الراحة والطمأنينة حتى جاءت الأخبار إلى مصر بتمرد أمير دمشق علم الدين سنجر الحلبى ـ الذى كان السلطان سيف الدين قطز قد ولاه على دمشق ـ على الدولة المملوكية وأعلن أنه هو سلطان المماليك وأنه يحكم من دمشق وطعن فى أحقية الظاهر بيبرس بالسلطنة المملوكية، فغضب الظاهر بيبرس منه وأخذه بالحسنى وأرسل له يدعوه بالرجوع عن العصيان، ولكن الأمير سنجر رفض دعوة بيبرس وشجعه على ذلك أمراؤه بالشام، فلم يجد الظاهر بيبرس وسيلة أخرى غير استخدام القوة وإعادة السيطرة على الشام، فأرسل حملة عسكرية نجحت فى دخول دمشق واعتقال الأمير سنجر وعادت به إلى القاهرة حيث أمر الظاهر بيبرس بإعدامه فى شهر يناير ١٢٦١م أى بعد حوالى شهرين من تمرده، فخمدت فتنة الشام وعادت السيطرة المملوكية عليه مرة أخرى بقيادة أمير مملوكى أرسله بيبرس إلى هناك وهو علاء الدين البندقدارى (وهو أستاذ الظاهر بيبرس ومربيه).

وما أن خمدت فتنة الشام حتى اندلعت فتنة أخرى ضد الظاهر بيبرس، ولكن هذه المرة من القاهرة. فلما كانت بغداد قد دمرت من قبل المغول وأنهيت الخلافة العباسية السنية فيها، فيبدو أن ذلك كان سبباً معقولاً لنمو النشاط الشيعى المعادى. فقد ظهر رجل شيعى فى القاهرة يدعى الكورانى، أخذ يدعو الناس إلى الثورة علناً على الحكم المملوكى، فلم يتهاون معه الظاهر بيبرس وأمر المماليك بمقاتلة الكورانى وأتباعه حتى تم اعتقاله، فأمر بيبرس بإعدامه ومن شايعه شنقاً، فتم الإعدام وشنق الكورانى ومن معه على باب زويلة.

وفى عام ١٢٦٢م وصلت الأخبار إلى القاهرة بأن رجلاً يدعى الإمام أحمد وهو من النسل العباسى فى سبيله للوصول إلى مصر، فقابله الظاهر بيبرس هو وكبار رجال الدين المصريين حيث تحققوا من صحة نسبه إلى الخلافة العباسية، فوافق السلطان بيبرس على أن يصبح ذلك الإمام خليفة للدولة العباسية على أن يحكم من القاهرة حيث لا زالت بغداد مدمرة من فعل الغزوة المغولية. وفى الحقيقة فإن قيام الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية من القاهرة فيه أكبر دليل على قوته واحترامه لشرعية البيت العباسى مما انعكس على استمرار ودوام حكمه فغدت مصر أقوى دولة فى العالم الإسلامى.

وفى عام ١٢٦٣م، قام أمير مملوكى يدعى المغيث عمر وهو من أمراء المماليك الصالحية الذين كانوا بمصر على أيام حكم عز الدين أيبك. وفروا منها بعد تصدى أيبك لهم. وقد تمكن المغيث عمر من حكم إمارة الكرك بشمال شرق الشام، ثم قام بالتمرد على دولة المماليك وطالب بحقه فى أن يكون سلطاناً لها بدلاً من الظاهر بيبرس، فقام بيبرس بإرسال حملة عسكرية إلى الكرك تمكنت من اعتقال المغيث عمر وإرساله مكبلاً إلى القاهرة حيث أدانه المماليك بالخيانة وبإقامة اتصالات تآمرية مع المغول بهدف الإطاحة بنظام الحكم المملوكى فأمر الظاهر بيبرس بإعدامه ونفذ الإعدام فى شهر أبريل من نفس العام.

وخلال تلك الفترة كان الظاهر بيبرس يحاول أن يجعل من دولته دولة كبرى قوية مزدهرة، فأقام العديد من التحصينات والقلاع، وأمّن شبكة الطرق والمواصلات بين مصر والشام وقوى من مدن الساحل فى مصر وفلسطين وسوريا ثم أخذ يبنى العديد من المبانى الهامة مثل جامعه المشهور باسمه فى القاهرة وبنى المدرسة الظاهرية بالقاهرة وأخذ يتقرب من عامة الشعب المصرى حيث خفض الضرائب عنهم وأقام لهم مشروعات رى وحرف تفيد اقتصادهم، ثم أخذ يبنى جيشاً قوياً يعتد به لدحر الصليبيين فى شمال فلسطين. ولا شك أن كل تلك الأعمال قد رفعت من مكانة الظاهر بيبرس لتكون مثل مكانة صلاح الدين الأيوبى.

ولقد عمل الظاهر بيبرس على إحياء الورع والتقوى فى نفوس المصريين فأبعدهم عن شرب الخمور وتعاطى الحشيش المخدر، فأغلق الخمارات وأعدم تجار الحشيش، بل إنه أعدم شخصاً يدعى ابن الكازرونى قبض عليه وهو فى حالة سكر شديد فأعدمه صلباً وقد

ربطت فى عنقه القدح والجرة التى كان يشرب منها وتركه ليراه الأهالى فيرتدعوا ويعودوا إلى الصلاح.

ويبدو أن الظاهر بيبرس أراد أن يهيِىء البلاد لخوض غمار حروب بالغة الأهمية مع الصليبيين، ويبدو أنه رأى أن انتشار السكْر وتعاطى المخدرات ستعيق قدرة جيوشه على الانتصار، فتشدد فى أمر تلك الموبقات حتى يبطلها فى أسرع وقت ممكن.

وسرعان ما تمكن بيبرس من تهيئة جيشه لإخراج الصليبيين من إمارة أنطاكية الصليبية حيث نجح فى ذلك فى شهر رمضان من عام ٦٦٦ هجرية (مايو عام ١٢٦٨م)، ويعد تحرير تلك الإمارة الواقعة بشمال الشام الغربى أكبر انتصار إسلامى على الصليبيين منذ أن قام صلاح الدين الأيوبى بتحرير القدس منهم.

لقد أمضى الظاهر بيبرس كل سنوات حكمه فى نضال لا تنقطع حلقاته مع أعدائه فى الداخل والخارج، وكان لا يكف عن الخروج بجيشه لفتح من الفتوح أو هزيمة متمرد من المتمردين عليه، وقد وصفه المؤرخ المصرى الكبير ابن إياس بأنه كان ملكاً عظيماً جليلاً مهيباً، كثير الغزوات، خفيف الركاب، يحب السفر والحركة فى الشتاء والصيف. وكان مشهوراً بالفروسية فى الحرب، وله إقدام وعزم وقت القتال.. وكان كريماً سخياً على الرعية، باسط اليد.. وكان مبجلاً فى موكبه، كفؤاً للسلطنة، منقاداً للشريعة، يحب العلماء والصالحين[(١)].

ولقد توفى الظاهر بيبرس بعد مرض ألم به بمدينة حلب، فعالجه أطباؤه ولم يفلح معه العلاج فرحلوه إلى دمشق، ففاضت روحه إلى بارئها فى ضواحى المدينة عام ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) وكان عمره نحو ستين سنة، فخلفه ابنه السعيد بركة (الملك السعيد أبو المعالى) الذى لم يكن فى كفاءة أبيه فعاونه على حكم البلاد الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، فلما توفى الأمير بيليك لم يتمكن الملك السعيد من تسيير دفة البلاد وتصادم مع نائبه الجديد الأمير آمد سنقر، فاعتقله ثم أمر بخنقه فى القلعة. فلما وجد الأمير قلاوون أن الملك السعيد غير قادر على الحكم سعى لعزله فى شهر أغسطس من عام ١٢٧٩م وأتى بأخيه سلامش بن الظاهر بيبرس (الملك العادل سيف الدين سلامش) وكان يبلغ حوالى الثامنة من العمر، ثم سرعان ما قام الأمير قلاوون نائب السلطنة بعزل سلامش فى شهر

---

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور - ابن إياس - الجزء الأول - كتاب الشعب ١٩٦٠ - القاهرة.

نوفمبر من عام ١٢٧٩، وعين نفسه سلطاناً على البلاد وحمل لقب (الملك المنصور سيف الدين قلاوون) وكان من المماليك الصالحية (أى مماليك الملك الصالح الأيوبى)، الذى خرج بعد عام واحد من توليه السلطنة لملاقاة جيش تترى، وألحق به هزيمة فى معركة كبرى سميت بالمرج الأصفر، ولقد نتج عن تلك المعركة الكبرى أن اهتدى التتار لنور الإسلام حيث بعث سلطانهم إيلخان أحمد تكدار رسالة بذلك إلى السلطان الملك المنصور قلاوون «مخبراً بانتقاله إلى ملة الإسلام هو ومن معه من التتار.. وجاء فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، بإقبال قا آن فرمان أحمد إلى سلطان مصر: أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى، بسابق عنايته ونور هدايته قد أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام بصدق نبوته، وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عبادته فى بريته، (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)... الخ[١]، ثم أخذ قلاوون بعد ذلك فى التفرغ إلى تعمير مصر والشام فبنى مسجده الشهير بالقاهرة والذى لا زال باقياً حتى اليوم، وبنى بيمارستان لعلاج كافة أنواع الأمراض وخصصه لعلاج الفقراء والمعوزين وتمكن قلاوون من تقوية نفوذه على بلاد النوبة واليمن والشام وفلسطين وأخذ يقلص من نفوذ الصليبيين فى إمارة طرابلس الصليبية حتى حررها منهم عام ١٢٨٩م، ثم وافته المنية فى شهر نوفمبر من عام ١٢٩٠م، وكان عمره سبعين عاماً بعد أن حكم مصر لمدة تقرب من أحد عشر عاماً فخلفه ابنه خليل (الملك الأشرف صلاح الدين خليل) الذى سارع باعتقال نائبه الأمير طرنطاى وكان من كبار مساعدى أبيه ونائبه المخلص فى ذات الوقت، وسجنه فى القلعة لاعتقاده بأنه أقنع أباه السلطان قلاوون بعدم المبايعة لخليل، والمبايعة لشقيقه الأكبر علي، فلما مات على بن قلاوون قبيل وفاة أبيه اعتقد الأمير طرنطاى أن خليلاً قد دس السم لأخيه للفوز بالسلطنة. ومهما كان الأمر فقد أصدر السلطان الأشرف خليل أمره لجنده بإعدام الأمير طرنطاى بالسجن، فخنقوه وهو فى معتقله بالقلعة حيث سارعوا بدفنه ليلاً. وقد امتدت أعمال الانتقام من قبل الأشرف خليل لتشمل كل من وصلته عنه الشائعات والأقاويل ـ وما أكثرها فى عصر المماليك ـ عن مساعدى أبيه الذين أخذ يعتقلهم ويسومهم أنواعاً عديدة مروعة من التعذيب، ثم يأمر بإعدامهم. وبعدما تخلص الأشرف

(١) انظر نص الرسالة فى كتاب: مختار الأخبار ـ تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٢٠هـ ـ تأليف بيبرس المنصورى نائب السلطنة فى مصر ـ حققه الدكتور عبدالحميد صالح حمدان ـ الناشر الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ١٩٩٣.

خليل من أعداء الداخل أعد جيشه وزحف به تجاه عكا حيث كان هناك حصن صليبى ضخم كان هو آخر حصون الكيان الصليبى وحاصرت قوات الأشرف ذلك الحصن عشرة أيام، وأخذت المجانيق تدكه دكاً حتى اقتحمه المماليك ودارت بداخله معارك كبرى، فقد فيها المماليك الكثير من أمرائهم، ولكن النصرة كانت لهم فى آخر الأمر، فسيطروا عليه فى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر مايو عام ١٢٩١م، وبهذا انتهى الوجود الصليبى فى الشرق العربى، ودخل الأشرف خليل القاهرة من باب النصر معتزاً بكونه السلطان الذى أنهى الوجود الصليبى على ديار المسلمين.

وقد مكن النصر الكبير هذا الأشرف خليل من تصفية نفوذ عدد كبير من أمراء المماليك بمصر، حيث قبض على سبعة من كبار مساعديه وسجنهم فى قلعة الجبل واتهمهم بإساءة الحكم أثناء غيابه لفتح عكا وإثارة الاضطرابات والقلاقل ضده. ثم إنه أمر بإعدامهم خنقاً فخنقوا جميعاً وماتوا عدا أمير منهم يدعى الأمير لاجين السلحدار وكان حاكماً على الشام الذى لم يكن قد مات بعد، فأخبر المماليك الأشرف خليل بذلك فعفا عنه وقلده أحد المناصب الكبرى فى الجيش.

ولا شك أن اتجاه الأشرف خليل إلى التخلص من أعدائه بتعذيبهم وقتلهم وإعدامهم قد أظهر العداوة فى نفوس المقربين منه وإن لم يظهروا هذا، فقام نائبه الأمير بيدرا بالاتفاق مع بعض كبار الأمراء (منهم الأمير لاجين السلحدار الذى نجا من الإعدام) على اغتيال الملك الأشرف خليل، فعاجلوه بسيوفهم بينما هو فى رحلة صيد مع عدد قليل من الحراس، فقتلوه قتلة مروعة يصفها ابن إياس فيقول: (... فلما أن وصلوا إليه عاجلوه بالحسام قبل الكلام. فكان أول من ابتداه بالحسام الأمير بيدرا نائب السلطنة فضربه بالسيف على يده، فصاح عليه الأمير لاجين وقال له: ويلك! الذى يريد أن يتسلطن يضرب هذه الضربة؟ ثم ضربه الأمير لاجين على كتفه ضربة فوقع إلى الأرض.. فجاء الأمير بهادر رأس نوبة النواب، ونزل عن فرسه، وأدخل السيف فى دبر السلطان وأخرجه من حلقه، وصار كل واحد من الأمراء يظهر ما كان فى نفسه من السلطان، ثم تركوه ميتاً فى المكان الذى قتل فيه،[1] فترك ثلاثة أيام تأكل الذئاب منه حتى رفعه مماليكه ودفنوه.

---

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور- الجزء الأول.

ولكن خطة بيدرا نائب السلطان وإن نجحت فى اغتيال الأشرف خليل إلا أنها لم تكلل بالنجاح، فما أن عرفت المماليك السلطانية (مماليك الأشرف خليل) بأن بيدرا هو قائد الفرقة التى اغتالت أستاذهم إلا وسارعوا بمطاردة الأمير بيدرا حتى تمكنوا من القبض عليه حيث أعدموه تقطيعاً بالسيوف قطعة بعد قطعة، ثم فتحوا بطنه وأكلوا من كبده وقطعوا رأسه وحملوه فوق رمح وذهبوا به إلى بيته بالقاهرة حيث علقوه على مدخله حتى يراه الأهالى.

اغتيل إذن السلطان الأشرف خليل وأعدم مدبر حادثة اغتياله الأمير بيدرا، فخلف الأشرف شقيقه الناصر (الملك الناصر محمد) وهو شقيق الأشرف الذى لم يترك ولداً يخلفه. ولما كان الناصر محمد طفلاً فى العاشرة من عمره أصبح الأمير كتبغا نائباً للسلطنة، والأمير سنجر الشجاعى وزيراً للدولة. وسرعان ما أخذ الشجاعى ينتقم من كل الأمراء الذين دبروا ونفذوا اغتيال أستاذه الأشرف خليل. فاعتقل ستة منهم وهم قفجق السلحدار، وقرش السلحدار، وبورى السلحدار، ولاچين شركس، ومغلطاى المسعودى، وكردى الساقى. وفى أثناء اعتقالهم جرت عملية تعذيبهم المروعة، ثم أمر الأمير كتبغا نائب السلطنة بإعدامهم، فقطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا فوق الجمال، وطاف بهم المماليك فى شوارع مدينة القاهرة، وفى النهاية قطع المماليك وسطهم بالسيف.

ويبدو أن بعض هؤلاء الأمراء الذين تم إعدامهم قد اعترفوا قبل تنفيذ حكم الإعدام فيهم على أمير مملوكى رفيع الشأن اشترك معهم وهو الأمير شمس الدين بن السعلوسى الذى كان مستشاراً للسلطان الأشرف خليل (وكان والياً على مكة المكرمة قبل ذلك). فقام الأمير سنجر الشجاعى باعتقاله حيث أمر بإعدامه عصراً بآلات خاصة فمات نتيجة لذلك، وصودرت كل أملاكه وممتلكاته وشردت عائلته.

ويبدو أن الأمير سنجر الشجاعى وزير الدولة أحس بقوته بعد سلسلة الإعدامات التى نفذها على قتلة أستاذه الأشرف خليل فأراد أن يستأثر بالسلطنة، ولكن الأمير كتبغا نائب السلطنة وقف ضده، فحدثت معارك طاحنة حول القلعة انتهت بمقتل الشجاعى حيث قطع رأسه وأمر الأمير كتبغا برفعه على رمح وأن يطاف به فى شوارع القاهرة ثلاثة أيام فانتهت الفتنة! وكانت قد وقعت عام ١٢٩٣م.

وفى العام التالى لذلك حدثت ثورة فى القاهرة من قبل بعض مماليك الأشرف خليل

وكان عددهم حوالى ثلاثمائة، فتصدى لهم الأمير كتبغا نائب السلطنة وقبض على زعمائهم حيث أمر بإعدامهم وصلبهم على باب زويلة.

وقد رأى كبار زعماء المماليك أن سبب تلك الفتن هو صغر سن السلطان الناصر محمد فاتفقوا على عزله واختاروا الأمير كتبغا (الملك العادل كتبغا) سلطاناً على البلاد، وهو لم يكن من مماليك مصر، بل كان من أسرى التتار الذين أسرهم السلطان قلاوون وتوسم فيه الذكاء والإخلاص، فقربه منه حتى ترقى إلى منصب الأمراء. وقد اختار السلطان كتبغا الأمير لاجين (والذى كان قد اشترك فى اغتيال السلطان الأشرف خليل) نائباً له. وفى العام التالى لحكمه حدث القحط بمصر ثم تبعه الوباء حتى بلغ عدد من مات حوالى ربع مليون إنسان. وفى عام ١٢٩٦ قام السلطان كتبغا بزيارة للشام واستقر بمدينة دمشق، فسارع الأمير لاچين بالسيطرة على البلاد وأعلن نفسه سلطاناً على الدولة وعزل السلطان كتبغا الذى لم يقاوم ذلك العزل بل وافق عليه ومن ثم أصبح لاچين (المنصور حسام الدين لاچين) سلطاناً على دولة المماليك ولكنه اغتيل من قبل مماليك السلطان الأشرف خليل لعلمهم أنه اشترك من قبل فى قتله، وحدث ذلك وهو يهم بصلاة العشاء فكان قتله فى عام ١٢٩٨م فخلفه الملك الناصر محمد بن قلاوون (فترة حكم ثانية بعد أن كان قد عزل عام ١٢٩٤)، وفى عهده هذا هاجم التتار الشام وهددوا مصر فخرج لهم السلطان وجنده لوقفهم، وقد دارت معارك متفرقة بين الجانبين كانت نتائجها غير حاسمة حتى حدثت الموقعة الكبرى فى مرج راهط، حيث قاد المماليك السلطان الناصر محمد، وبلغ قوام جيشه حوالى مائتى ألف رجل وكان للتتار مثل ذلك العدد. وفى تلك المعركة انتصر المماليك حيث أوقعوا بالتتار مقتلة كبرى فغطت أشلاء قتلاهم أرض المعركة. وفى عام ١٣٠٨م ذهب السلطان الناصر محمد إلى الكرخ حيث اختار الإقامة هناك وعزل نفسه عن السلطنة، ولهذا اختار المماليك أميراً منهم هو بيبرس الجاشنكير (الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى) واختار المظفر نائباً له الأمير سلار الذى كان أجرد وأصله من التتار فغضب عليه عامة الناس ورددوا عليه أزجالاً تهكمية، فأمر السلطان بالقبض على ثلاثمائة من هؤلاء حيث أمر بضربهم وقطع ألسنة بعضهم. وحدث أن أخذ المماليك يكاتبون السلطان الناصر محمد فى الكرخ بأنهم يرغبون فى عودته لحكم البلاد ثم أخذ المماليك يخرجون من مصر ويذهبون إلى الكرخ حتى ضعف موقف الملك المظفر، فرأى من الحكمة عزل نفسه، ولكنه اختلس من بيت مال

المسلمين ما تمكن من حمله وغادر القاهرة هارباً والناس يقذفونه بالسباب والحجارة، ومن ثم عاد الملك الناصر محمد إلى حكم مصر مرة ثالثة وكان ذلك عام ١٣٠٩ وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من العمر، واستمر يحكم دولة المماليك حتى وفاته عام ١٣٤١ وهى فترة طويلة شهدت الكثير من أحداث الإعدام السياسى.

فقد أرسل الملك الناصر إلى الملك المظفر الذى كان قد هرب من القاهرة واستقر بالصعيد يطالبه برد الأموال التى كان قد أخذها من بيت المال، ولكن المظفر سارع بالهرب فى اتجاه الكرك، ولهذا قام الملك الناصر بإرسال من تتبعه واعتقله وأرسله ليسجن بالقلعة، ثم ترك معتقلاً عدة أيام فأرسل الناصر فى طلبه، فلما مثل بين يديه وبّخه الناصر على ما كان من فعله ثم أمر جنده بأن يعدموه خنقاً. أما ما كان من أمر الأمير سلار وهو نائب السلطنة الذى خلع نفسه وطلب من الملك الناصر الموافقة على إقامته بالكرك، فقد استدعاه الناصر من الكرك واعتقله ثم أعدمه هو الآخر بأن منع عنه الطعام حتى مات وصادر أملاكه وممتلكاته الضخمة.

وفى عام ١٣٤٠م تمكن بعض خاصة الملك الناصر محمد من الإيقاع بينه وبين الأمير تنكز نائب الشام، وكان من أقرب المقربين للسلطان فأرسل يطلبه، فتأخر تنكز فى الحضور إلى القاهرة فأرسل يطلبه فى الحضور أو يتم اعتقاله، وبعد المحاولة الثالثة اعتقل مماليك الناصر محمد الأمير تنكز وأتوا به إلى القاهرة حيث أمر الناصر محمد بإيداعه سجن القلعة، وهناك مكث أربعين يوماً حتى أمر الناصر محمد بإعدامه خنقاً. وكان قد استمر على ولاية دمشق عاصمة الشام مدة ثمانية وعشرين عاماً!

وهكذا استمر الناصر محمد يحكم مصر حتى وفاته نتيجة مرض ألم به وكان عمره ثمانية وخمسين عاماً. ويذكر عن أعماله الإنشائية بمصر والشام أن آثاره بدولته قد تزايدت بمقدار النصف خلال مدة حكمه الطويلة، وشمل ذلك المساجد والقناطر والجسور والحمامات، وقد خلفه ابنه أبو بكر (الملك المنصور سيف الدين أبو بكر). وبصفة عامة يعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون عصر ازدهار ورخاء ورفاهية لمصر وزيادة كبيرة فى مركزها الإسلامى والدولى حتى أنه خلا تقريباً من الحروب والمعارك فانعكس ذلك على الحياة الاجتماعية للمصريين عامة.

أما عصر ابنه الملك المنصور فكان عهداً مبتسراً صغيراً إذ أنه تولى الحكم بعد وفاة

أبيه بعد أن رشحه للحكم دوناً عن إخوة أكبر منه، ولم يستمر حكمه إلا لفترة وجيزة حيث خلعه المماليك بقيادة أمير قوى يدعى قوصون الذى سجنه وشقيقين له فى سجن بمدينة قوص (جنوب صعيد مصر)، ثم أوعز قوصون إلى رجاله بقتل الملك المنصور فقتلوه وقطعوا رأسه حيث أرسل إلى القاهرة سراً، وسرعان ما وافق المماليك على اختيار الملك الأشرف علاء الدين كجك (وهو حفيد للسلطان قلاوون) وكان طفلاً فى السابعة من عمره وأصبح الأمير قوصون نائباً للسلطنة يدير شئونها كافة، وأخذ الأمير قوصون يتتبع مماليك الملك المنصور، مما جلب الانقسام فى دولة المماليك وخاصة فى الشام حيث تحالف أمراء ولايات الشام على الزحف إلى مصر وخلع الملك الأشرف. ووضع الأمير أحمد بن الملك الناصر محمد فى الحكم (والذى كان مقيما بالكرك) وبالفعل حضر جمع غفير من مماليك حلب والكرك ودمشق إلى مصر وحاصروا القلعة ومعهم الأمير أحمد. فلما شعر الأمير قوصون بقرب هزيمته هرب، فسرق الأهالى بيته وخيوله وسلاحه وأخذوا يطاردون مماليكه ويقتلونهم ويمثلون بهم فى ثورة غضب عارمة. ثم عندما لم يجد الأمير قوصون وسيلة للفرار خارج مصر استسلم حيث اعتقل فى سجن الإسكندرية. وبهذا خلع الملك الأشرف كجك بعد حكم دام خمسة أشهر، فخلفه الملك أحمد (الملك الناصر شهاب الدين أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون). وعندما استتب له الأمر أصدر أوامره بإعدام سبعة من كبار أمراء المماليك المعتقلين بسجن الإسكندرية، والذين رأى أن مجرد وجودهم على قيد الحياة فيه خطر على سلطانه. ويبدو أن الملك أحمد كان غير مستقر عقلياً ينتابه شعور بالخوف من أقرب معاونيه، فقد عين الأمير طشتمر نائباً له فى السلطنة وبعد شهر على ذلك خلعه واعتقله بسجن الإسكندرية. وعندما حل شتاء عام ١٣٤٢م قام الملك الناصر أحمد بتجهيز عدة السفر ليقضى الشتاء فى الكرك، ونهب قبل سفره كميات كبيرة من الأموال السلطانية واصطحب معه كلاً من الأمير طشتمر والأمير قطلوبغا مقيدين مظنة أن تركهما فى سجن الإسكندرية ورحيله إلى الكرك سوف يمكنهما ومماليكهما من التمرد عليه وخلعه من السلطنة. وعندما وصل إلى الكرك أمر بإعدام الأميرين بالسيف وذلك فى ساحة قلعة الكرك.. بالرغم من أن كلا الأميرين ساعداه على الوصول إلى حكم دولة المماليك. وعندما وصلت أخبار ذلك الإعدام إلى أمراء المماليك بالقاهرة اجتمعوا وتيقنوا أن الملك الناصر أحمد لا يثق بأحد، وأن هناك خطراً على استمراره فى حكم الدولة فقرروا عزله ووقع اتفاقهم على أن يتولى أخوه إسماعيل السلطنة. أما الملك الناصر أحمد فعندما علم بنبأ عزله اختار البقاء فى الكرك.

وعندما استلم الملك إسماعيل (الملك الصالح علاء الدين أبو الفداء إسماعيل) الحكم قام بتعيين الأمير آن سنقر نائباً للسلطنة، وبعد عدة أشهر عزله واعتقله بسجن الإسكندرية ثم أمر بإرسال حملة عسكرية لإحضار شقيقه الناصر أحمد من الكرك، ولقد وجدت تلك الحملة وغيرها من الحملات صعوبة فى هزيمة الناصر أحمد، ولكن فى النهاية استسلم لهم الناصر أحمد فاعتقلوه وأرسلوه لأخيه الملك الصالح إسماعيل، فأمر بإعدام الناصر أحمد حيث اعتقل فضربوا رأسه وأحضروه فى علبة إلى القاهرة. ولم تمض على تلك المأساة بضعة أشهر إلا ومرض السلطان ومات، فخلفه شقيقه شعبان (الملك الكامل شعبان ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون) وقد بدأ عهده باعتقال بعض كبار أمراء المماليك فى سجن الإسكندرية، ثم تبع ذلك باعتقال شقيقيه الأمير حسين والأمير حاجى، وذكر أنه رغب فى وضعهما فى حجرة وسدها عليهما ليموتا فيها محبوسين بدون طعام أو شراب فتكون لهما قبراً.. ولكن حدث تمرد فى نفس الوقت من أمير مملوكى كبير يدعى ملكتمر الحجازى، فدارت معارك شتى حول القلعة هزم فيها السلطان، وتمكن الأمير ملكتمر ورجاله من اعتقال كبار مماليك السلطان وإعدامهم، ثم قام بإطلاق سراح شقيقى السلطان الأمير حسين والأمير حاجى، حيث اتفق المماليك على أن يتولى الحكم الأمير حاجى. أما ما كان من أمر الملك الكامل شعبان فقد جرى البحث عنه فى القاهرة إلى أن تم اعتقاله وسجن فى نفس المكان الذى كان قد اعتقل فيه شقيقيه، وبعد ثلاثة أيام من تولى الأمير حاجى السلطنة أمر بإعدام شقيقه الملك الكامل شعبان خنقاً فى السجن حيث دفن فى نفس يوم إعدامه.

وقد بدأ الملك حاجى (الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون) حكمه - كعادة سلاطين المماليك - باعتقال عدد كبير من أمراء المماليك الذين شك فى ولائهم له ووضعهم فى سجن الإسكندرية حيث أمر بإعدامهم، وكان منهم الأمير آن سنقر والأمير ملكتمر الحجازى اللذان ساعدا حاجى على الوصول إلى الحكم، ولم يكن هذا الغدر أمراً نادر الحدوث فى دولة سلاطين المماليك بل إنه كان أمراً كثير الحدوث على مدار عصورهم.

ويبدو أن قسوة الملك حاجى قد دعت والى دمشق إلى التمرد وهو الأمير يلبغا اليحياوى ولكن لما تتبعه مماليك السلطان هرب فتبعوه واعتقلوه حيث أعدموه وأرسلوا رأسه - كدليل على نهايته - إلى القاهرة حيث أمر الملك حاجى بأن يعلق على باب زويلة.

ولما قويت شوكة الملك حاجى أخذ معاونوه فى الاستبداد بالمصريين وبالمماليك على حد سواء، وكان أبرز هؤلاء الأمير شجاع الدين، فلما علم الملك المظفر حاجى بذلك أراد أن يتقى شره وأن يتقرب من المصريين فأمر باعتقاله وإعدامه خنقاً وهو فى السجن حيث تم دفنه ليلاً. ولما علم المصريون بذلك خرج بعضهم إلى قبره حيث نبشوه وأشعلوا فيه النار، فغضب من ذلك الملك حاجى وأمر باعتقال من قام بذلك العمل، فقبض المماليك على بعض المصريين وقطعوا أيديهم وطافوا بهم فى شوارع المدينة. ولم يكن الملك المظفر حاجى مستقراً عقلياً حيث إنه كان مغرماً بتربية الحمام وعمل الخلاخيل الذهبية له حيث كان مسرفاً فغضب عليه المماليك، لأنهم كانوا يودون أن ينفق عليهم ما كان ينفق على الحمام، وهذا كان وراء ثورة المماليك ضده واغتيالهم له عام ١٣٤٨م وكان عمره عشرين عاماً، واختاروا خلفاً له شقيقه الأمير حسن (الملك الناصر أبو المحاسن حسن) وكان يبلغ الثالثة عشرة من العمر فعين نائباً له الأمير يلبغا أروس وفى عهده وقع بمصر الطاعون وكان قد انتشر بها بعد فتكه بأوروبا وأهلك فيها ثلث سكانها وفى إنجلترا حيث أفنى نصف أهلها، وعرف بالطاعون الأسود، أما فى مصر فقد هلك حوالى تسعمائة ألف إنسان منه.

ويبدو أن ذلك الوباء قد شجع أمير إمارة طرابلس على غزو إمارة دمشق وقتل حاكمها المملوكى أرجون شاه بغتة دون علم الملك حسن الذى غضب من ذلك وطالب بهزيمة أمير طرابلس الأمير جبغا فاعتقله المماليك فى قلعة دمشق حيث أرسل الملك حسن أوامره بإعدامه حيث علق جسده على باب القلعة بدمشق لمدة ثلاثة أيام.

وفى عام ١٣٥١م حدث انقلاب فى مصر على الملك الناصر حسن حيث عزله المماليك واعتقلوه بالقلعة بعد حكم دام ثلاثة أعوام ونصف تقريباً إلا أنه سيعود للحكم مرة أخرى. فتولى الحكم خلفاً له أخوه صالح (الملك الصالح صلاح الدين صالح) ويساعده الأمير طاز المنصورى الذى عزل الناصر حسن وأخذ يضطهد المماليك ويقتلهم وخاصة مماليك الأمير منلكى بغا الفخرى الذى كان مقرباً من الملك الناصر.

وفى عام ١٣٥٢م حدثت فتنة كبيرة بين المماليك فى دمشق (وكانت مجمل بلاد الشام خاضعة لدولة المماليك بمصر منذ تأسيسها فى عهد عز الدين أيبك)، فسافر الملك وكبار قادته إلى الشام حيث أخمدوا الفتنة التى قادها الأمير بيبغا الذى هرب إلى تركيا،

ولكن كبار مساعديه اعتقلوا فى قلعة دمشق حيث صدرت أوامر الملك الصالح بإعدام ستة منهم. واستمر معاونو الملك الصالح فى مطاردة أمراء مدن طرابلس وحلب وحماة والذين كانوا قد تمردوا ضد الملك، وفروا إلى تركيا وهناك تم إعدامهم وإرسال رؤوسهم إلى مصر كدليل حسن نية. وإثبات حسن الجوار من الأتراك لدولة المماليك القوية فى مصر، فأمر الملك الصالح بتعليقها لمدة ثلاثة أيام على باب زويلة.

وفى عهد الملك الصالح عاث العربان فى صعيد مصر فساداً كبيراً فسافر إليهم الملك ومعه جنده وحاصرهم، وقتل وأعدم منهم أعداداً غفيرة حتى أنه عاد ومعه ألف رأس من رؤوسهم إلى القاهرة.

وفى آخر عام ١٣٥٣م تمكن المماليك بالشام بأوامر من الملك الصالح من اعتقال الأمير التركمانى تراجا بن ذو الغادر، والذى كان يشجع تمرد مماليك حلب على مصر، فأحضروه إلى القاهرة حيث أمر الملك الصالح بصلبه فوق جمل والطواف به فى شوارع القاهرة، ثم إنه بعد ذلك أمر بإعدامه فى ساحة الرميلة (بالقرب من القلعة).

وفى عام ١٣٥٤م، تمكن المماليك الموالون للملك الناصر حسن (الذى كان قد خُلع واعتقل عام ١٣٥١م) من خلع الملك الصالح واعتقاله بينما كان نائبه الأمير طاز فى رحلة صيد خارج القاهرة (بالبحيرة)، وسارعوا بإطلاق سراح الملك الناصر حسن وبايعوه للسلطنة. فلما عاد الأمير طاز من رحلته، اعتقلوه ولكن الملك الناصر حسن أفرج عنه وعينه حاكماً لإمارة حلب.

وفى عام ١٣٥٧م قام مملوك يدعى قطلو قجاه باغتيال أمير كبير من أمراء المماليك يسمى شيخو العمرى وكان من قادة الجيوش، فاعتقل الجانى حيث أمر الملك الناصر حسن بصلبه على جمل والطواف به فى شوارع القاهرة، ثم أمر بإعدامه فى حى الرميلة.

وفى عام ١٣٦٠م اعتقل الملك الناصر حسن مستشاره القوى الأمير سيف الدين صرغتمش خشية أن ينقلب عليه وسجنه بالإسكندرية حيث خنق فيما بعد. وفى العام التالى وقعت فتنة - غذاها المماليك - بين الملك الناصر حسن وبين الأمير يلبغا العمرى، ودارت معارك بين أنصار كل منهما هزم فيها الناصر حسن واعتقل ثم قتل ولم يُعثر على جثته، وكان عمره وقتئذ حوالى سبع وعشرين سنة، فخلفه فى السلطنة أخوه محمد (الملك

المنصور محمد) وكان نائبه الأمير يلبغا قائد الانقلاب ضد الناصر حسن. وفى السنة الأولى من حكمه (عام ١٣٦١م) وقع تمرد فى الشام بقيادة الأمير بيدمر الخوارزمى فسافرت له وحدات عسكرية مملوكية من مصر بقيادة الملك المنصور محمد حيث هزم بيدمر وأسر وأرسل إلى سجن الإسكندرية. وفى عام ١٣٦٣م قام الأمير يلبغا بقيادة انقلاب ضد الملك المنصور محمد فخلع الملك واعتقل وظل معتقلاً إلى أن مات فيما بعد، فخلفه الأمير شعبان (الملك الأشرف أبو المعالى زين الدين شعبان) وهو من نسل السلطان قلاوون، وكان فتى فى الثانية عشرة من العمر وكان الأمير يلبغا العمرى مساعده الأول والأقوى.

وفى عام ١٣٦٥م هاجمت سفن أوربية (من قبرص والبندقية ورودس وجنوا) عددها حوالى سبعين سفينة، مدينة الإسكندرية واحتلتها لمدة أسبوع وقتلت حاميتها ودمرت متاجرها وذبحت العديد من أهلها، وكان قائد تلك الحملة الدموية ملك قبرص بطرس الأول الذى أسر ما لا يقل عن خمسة آلاف مصرى من المسلمين والأقباط واليهود وحملهم فى سفنه وعاد بهم إلى بلاده. وفى العام التالى وقعت فتنة كبرى بين مماليك الملك الأشرف شعبان والأمير يلبغا، دارت فى أثنائها معارك عديدة بين الطرفين وانتهت باغتيال الأمير يلبغا حيث ضربه أحد المماليك بالسيف فقطع رأسه وحمله المماليك حيث علقوه على باب بيته فى منطقة الكبش (بجوار القلعة)، أما مساعدو الأمير يلبغا فقد اعتقلوا بسجن الإسكندرية، ولكن واحداً منهم ويدعى الأمير فخر الدين ابن قرونيه حكم عليه بالضرب حتى الموت. ويبدو أن تلك الفتنة شجعت ملوك أوروبا على مهاجمة المدن الشامية (وكانت خاضعة لحكم دولة المماليك) فهبطوا عند طرابلس فى مائتى سفينة وأحدثوا مذبحة مروعة بين الأبرياء هناك راح ضحيتها ألفا شخص، ولم يكن المماليك فى مصر قادرين فيما يبدو على وقف تلك التهديدات المتكررة خاصة أن مصر فى ذلك الوقت (عام ١٣٦٧م) تعرضت لوباء كبير حتى أن عدد الموتى فى القاهرة وحدها كان يبلغ فى كل يوم حوالى اثنى عشر ألف شخص.

وفى العام التالى حدثت فتنة بقيادة الأمير استدمر الذى حاول خلع الملك الأشرف شعبان وناصره فى ذلك المماليك التابعون للأمير يلبغا الذى اغتيل عام ١٣٦٦م، ولكن مماليك الملك الأشرف شعبان قضوا على التمرد وأخذوا يعتقلون المماليك المتمردين ويعدمونهم بأسوأ الأساليب، أما الأمير استدمر فقد اعتقل فى سجن الإسكندرية.

وعلى مدى العشرة أعوام التالية تمكن الملك الأشرف شعبان من الحفاظ على ملكه ودولته بل وتمكن جنوده فى الشام من دخول مدينة سيس الأرمنية (وكانت تساعد الأوروبيين فى هجماتهم البحرية على مدن الشام والإسكندرية) وأسر ملك المدينة وكان يدعى تكنور حيث أمر الملك الأشرف بإيداعه السجن، وقد حدث ذلك فى عام ١٣٧٤م، فظل أسيراً إلى أن دفع ذووه فدية ضخمة لإطلاق سراحه عام ١٣٨٢م.

وبحلول عام ١٣٧٦م شعر الأشرف شعبان برغبته فى السفر لأداء فريضة الحج. وبمجرد وصوله إلى الأراضى الحجازية حدثت فتنة كبرى ضده وأشيع أنه اغتيل فى الحجاز، فكثرت الفوضى بالبلاد وأخذت المعارك تدور بين المماليك المتمردين والمماليك المؤيدين للملك الأشرف الذى لم يتمكن من العودة لمصر فور علمه بالتمرد والفوضى، ولكن بعض خاصته أقنعوه بضرورة العودة والتخفى حتى تتضح الأحوال. وتمكن الأشرف من التخفى لبعض الوقت إلى أن عثر عليه أعداؤه فاعتقلوه وعذبوه ثم أعدموه خنقاً ورموا جثته بعد تحطيمها ووضعها فى جوال فى بئر الزغلة (الزغلة باب من أبواب القاهرة المملوكية)، وكان يبلغ الرابعة والعشرين من العمر، فخلفه ابنه على (الملك المنصور على) الذى فى عهده كثرت فتن المماليك وأمرائهم خاصة فى الشام مما جعل مصر فى حالة استنفار دائم ثم تبع ذلك هجوم العربان (البدو) على البحيرة، فتصدى لهم المماليك وقتلوا منهم ألف شخص.

وفى عام ١٣٧٩م اعتقل الأمير برقوق (الذى ظهر اسمه فى عصر الملك المنصور على وترقى إلى أن أصبح من كبار أمراء المماليك) الأمير خليل بن عرام، واتهمه بالخيانة وبأنه كان ينوى خلع الملك المنصور وعذب ثم صلب على جمل، وساروا به فى شوارع القاهرة إلى أن أوقفوه، ثم أعدموه عند باب السلسلة ثم قطعوا جسده، وعلق رأسه على باب زويلة.

وبحلول عام ١٣٨١م انتشر الوباء فى مصر وتوفى الملك المنصور على وعمره اثنتا عشرة سنة، وربما كان سبب وفاته إصابته بالطاعون فخلفه شقيقه أمير حاج (الملك الصالح أمير حاج)، وهو آخر سلاطين المماليك الترك، وآخر سلالة السلطان قلاوون. وفى عصره حدث أول اعتداء تركى عثمانى واضح على أملاك دولة المماليك فى الشام حيث هاجمت فرقة عثمانية ضواحى مدينة حلب بشمال الشام، فأرسل لهم الأمير برقوق وكان

قائد المماليك العسكرى (يعادل منصب وزير الدفاع) حملة سريعة أوقعت الهزيمة بالأتراك وقتلت منهم العديدين.

ويبدو أن الأمير برقوق كان يسارع فى خطوات متصلة للاستيلاء على السلطة. فأخذ يعتقل من أمراء المماليك الترك، ويقرب إليه المماليك الشراكسة. فاعتقل خمسة وستين من المماليك الترك الذين وجد فيهم خطراً على حياته أو مخططاته. ثم دعا الأمير برقوق القضاة الأربعة فى مصر، والخليفة العباسى (المتوكل على الله)، وكانت الخلافة العباسية قد نقلت إلى مصر إبان عصر الظاهر بيبرس بعد أن دمر المغول بغداد عام ١٢٥٨م، ثم إن الأمير برقوق خطب فى الحضور خطبة طويلة أوضح لهم فيها أن المملكة قد ضعفت بسبب فساد المماليك الترك، وكثرت أطماع الأعداء فيها من الخارج والعربان والخوارج من الداخل، وأخذ أمراء الشام يتمردون على القاهرة، وأن الحاجة الآن أصبحت تدعو إلى تشكيل دولة جديدة تتمتع بالقوة والسلطان، والهيبة. وقد اتفق الحاضرون على خلع الملك الصالح أمير حاج، وبايعوا الأمير برقوق سلطاناً لدولة المماليك الشراكسة (دولة المماليك الثانية).

وبهذا طوى التاريخ صفحة دولة المماليك الأولى بعد أن دامت مائة وثلاث سنين.

ثانيا: الإعدام السياسى إبان عصر دولة المماليك الثانية (الشراكسة):

تقلد الأمير برقوق (الملك المظفر ركن الدين أبو سعيد برقوق ابن أنصى) حكم دولة المماليك الشراكسة عام ١٣٨٢م، وهو أول ملوك الشراكسة بمصر. وكان منذ صغره من مماليك الأمير يلبغا العمرى. وعندما تم اغتيال الأمير يلبغا عام ١٣٦٦م، فر برقوق إلى الشام وتخفى هناك، ثم ظهر فى عصر دولة الملك الأشرف شعبان، وفى عهد الملك المنصور على أصبح أميراً وقائداً لقوات المماليك.

ويبدو أن بقايا المماليك الترك فى مصر الذين كانوا يرفضون تولى برقوق للسلطنة شكلوا عنصراً خطيراً على بداية دولة المماليك الشراكسة. فقد تحالف بعض كبار الأمراء من المماليك الترك ضد السلطان برقوق، وأيدوا تولية الخليفة العباسى المتوكل على الله حاكماً للدولة فهو أحق بها من برقوق الأجنبى الذى لا يحظى بالشرعية. ولكن برقوقاً كان قوياً، ماهراً، فتمكن من إخماد تلك الفتنة بسرعة وتخلص من أعدائه، واعتقل الخليفة

العباسى المتوكل على الله، وعين أخاه (الواثق بالله) خليفة عباسياً جديداً، وكان ذلك فى عام ١٣٨٣م.

وإذا كان هذا ما فعله السلطان برقوق بالخليفة العباسى، فإنه لم يتورع كذلك عام ١٣٨٤م عن معاقبة القاضى تقى الدين عندما خالفه حيث أمر بضربه مائة وخمسين ضربة بالعصا حتى مات بسبب ذلك. وفى العام التالى اعتقل الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب حيث سجنه بالإسكندرية.

وفى عام ١٣٨٧م، وصلت الأخبار السلطان برقوق بأن تيمورلنك التترى قد هزم جيوش الأتراك العثمانيين هزيمة كبرى ودمر قلاعهم وحصونهم، وأنه فى طريقه إلى الشام، فاستعد برقوق لذلك، وفرض ضرائب باهظة على المصريين، ولقد وقعت معركة بين جند تيمورلنك والمماليك انتصر فيها المماليك وعادوا لمصر.

وفى عام ١٣٨٩م، تمكن أميران مملوكيان كبيران وهما الأمير يلبغا الناصرى (وعاونه مماليك الأشرف شعبان) والأمير منطاش وقواته وأثاروا الشام ضد السلطان برقوق، ودارت معارك قاسية بين قوات السلطان وقوات الأميرين هزمت فيها قوات السلطان وقتل أغلب أمرائه فى قلعة دمشق أو أعدموا، وهى القلعة التى كان الأمير يلبغا قد سيطر عليها، ثم زحف يلبغا على مصر ودخل غزة ثم القاهرة حيث انضم إليه بعض أمراء السلطان برقوق الذى أدرك أنه هالك لا محالة، فقام بالهرب ليلاً من باب السلسلة إلى خارج القاهرة، فدخل الأمير يلبغا والأمير منطاش القلعة حيث اتفقا مع الخليفة العباسى المتوكل على إعادة الملك الصالح أمير حاج (آخر سلاطين دولة المماليك الأولى والذى عزله برقوق). وبهذا تم خلع السلطان برقوق بعد أن حكم البلاد لمدة سبعة أعوام تقريباً.. إلا أنه سيعود للحكم مرة أخرى!

ولقد تبع خلع برقوق سلسلة متصلة من أعمال الاعتقال شملت كبار أمراء المماليك الشراكسة الذين عاونوا السلطان برقوق فبلغ عدد من تم اعتقاله حوالى خمسة وسبعين أميراً وقائداً... وبدا واضحاً أن الأمير يلبغا الناصرى الذى حظى بتأييد الشام له وحضر إلى مصر ومعه العديد من المماليك الترك.. بدا أنه ينوى القضاء على نفوذ المماليك الشراكسة المعادين له، فنادى فى القاهرة بطرد كل المماليك الشراكسة منها فى موعد محدد وإلا فسيتم شنق كل من يوجد بها بعد ذلك.

ولقد نجح السلطان برقوق فى التخفى عندما أحس بضعف مركزه، وتحول المماليك عنه، ولهذا فقد شكل اختفاؤه مشكلة للأمير يلبغا الناصرى، فهدد كل من يخفيه بالإعدام شنقاً على باب بيته، وسرعان ما علم يلبغا بمكان برقوق فاعتقله، وإن أبدى له الكرم حتى أصدر أمرهِ بترحيله إلى سجن قلعة الكرك.

ثم وقع خلاف بين الأمير يلبغا الناصرى والأمير منطاش (وهما اللذان كانا قد تحالفا لإسقاط السلطان برقوق)، وأخذ ذلك الخلاف يتسع حتى حدثت معارك طاحنة بالقاهرة هزم فيها الأمير يلبغا ومساعدوه من خارج مصر، وتوجهوا إلى الشام، ولكنهم اعتقلوا قبل أن يصلوا إلى الشام وأُحضروا إلى القاهرة حيث وضعهم الأمير منطاش فى السجن بالإسكندرية، وبهذا تمكن منطاش (وكان من مماليك السلطان برقوق) من أن يصبح قائداً عسكرياً للمماليك.

وفى أثناء ذلك، يبدو أن السلطان برقوق المسجون فى قلعة الكرك قد وجد حيلة للهرب وتجميع بعض المماليك حوله والسيطرة على القلعة هناك.

ولما وصلت تلك الأخبار إلى الأمير منطاش بالقاهرة حزن حزناً شديداً، وزاد حزنه أن بعض مماليك السلطان برقوق الذين كانوا قد فروا من القاهرة بعد هروبه قد اعتقلوا حاكم مدينة قوص بجنوب مصر وأعدموه، ثم توجهوا إلى زعيمهم برقوق ليقابلوه فى الشام، ومن ثم أخذت قوة السلطان برقوق تزداد فسيطر على دمشق، وبايعه المماليك سلطاناً على الدولة هناك ثم أخذ يحشد قواته للزحف على مصر، فدخل غزة، وإزاء ذلك أخذ الأمير منطاش يقسو على مماليكه وعلى المصريين من أجل تحصيل الأموال اللازمة لمقاتلة برقوق، فضاق به الناس، وتمنوا هزيمته وانتصار برقوق.. وبالقرب من غزة أخذ المماليك ينصرفون عن مناصرة الأمير منطاش وينضمون للسلطان برقوق. أما فى القاهرة، فقد عمت الفوضى المدينة إلى أن خرج للناس الأمير سودون الفخرى نائب السلطنة ودعا علناً بنصرة السلطان برقوق.

ولقد تقابلت قوات السلطان برقوق مع قوات الأمير منطاش فى الشام، فلم ينتصر أحد.. إلا أن الخسائر فى الجانبين جعلت الملك المنصور حاج يقبل التنازل عن السلطنة لبرقوق، فلما علم منطاش بذلك آثر السلامة وسار إلى الشام وعاد برقوق إلى مصر حيث استقبله سكان القاهرة استقبال الفاتحين المنتصرين.

أما ما كان من أمر منطاش فإنه أخذ يقوى نفوذه فى الشام بعد هروبه من مصر إلى أن تملك مدينة بعلبك وكان ذلك عام ١٣٩٠م وفى العام التالى وصلت الأخبار إلى مصر بأن منطاش قد تملك مدينة حمص وأخذ يهاجم دمشق نفسها حتى دخلها فخرج إليه من مصر السلطان برقوق فهرب منطاش إلى الدولة العثمانية لتحميه.

أما يلبغا الناصرى فكان هارباً هو الآخر حتى تمكن مماليك السلطان برقوق من أسره بحلب حيث اعتقل فأمر السلطان برقوق بإعدامه هو ومن معه من الأمراء وكان عُددهم حوالى ثلاثة وعشرين من الأمراء.

وفى عام ١٣٩٢م وصلت الأخبار إلى السلطان برقوق بأن خمسة عشر من المماليك اقتحموا سجن القلعة بدمشق، وأفرجوا عن نحو مائة مملوك من أنصار الأمير منطاش، وقتلوا أثناء ذلك نائب قائد القلعة، ولكن مماليك السلطان برقوق فى دمشق سارعوا بتطويق القلعة، واعتقلوا المماليك الخمسة عشر وأعدموهم.

ثم حدثت فتنة من المماليك فى القاهرة ـ فى ذات العام ـ فاعتقلهم السلطان برقوق فى سجن القلعة حيث طلب إعدامهم خنقاً ليلاً.

ولكن أخطر ما كان يهدد السلطان برقوق هو تمرد الأمير منطاش فى الشام، ولهذا عهد إلى أحد الأمراء ويدعى نعيراً باقتفاء أثره وبالفعل مكث نعير هذا يبحث عن منطاش حتى تمكن منه واعتقله... ويقول ابن إياس واصفاً ما حدث(١): «ثم إن نعيراً ندب إلى منطاش أربعة عبيد غلاظ شداد، فلما أتوا إليه أحس بالشر، وكان راكباً على هجين، فنزل عنه وركب على فرس، فأمسك بعض العبيد لجام الفرس وقالوا له: كلم الأمير نعيراً، فقال منطاش: وإيش يعمل بى نعير؟؟... فتكاثر عليه العبيد، وأنزلوه عن فرسه وأخذوا سيفه منه، فقال لهم منطاش: دعونى حتى أبول. فقصد إلى جانب حائط وكان فى تكته (سرواله) خنجر فشق به بطنه، فغشى عليه، فحمله العبيد وأتوا به إلى نعير، فقيده وأرسله إلى نائب حلب. وكان له يوم مشهود فتسلمه نائب حلب وسجنه بالقلعة، وكتب محضراً وأرسله إلى السلطان (برقوق)، فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر خلع على القاصد خلعة عظيمة، ودقت الكئوسات، وزينت له القاهرة سبعة أيام، ونسى السلطان ـ لما ظفر بمنطاش ـ ما قاساه من التعب ومن القهر ومن المال الذى صرفه على التجاريد (الحملات).

---

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ ابن إياس ـ الجزء الثالث ـ كتاب الشعب ـ القاهرة ١٩٦٠.

ثم إن السلطان عين الأمير طولو بن على شاه إلى حلب ليحضر منطاش. فلما وصل إلى حلب تسلم منطاش وجعل يعاتبه ويعصره ويقرره على الأموال التى غصبها من البلاد فلم يقر بشيء. ودخل عليه النزع (حشرجة الموت) فقطع الأمير طولو رأسه ووضعه فى علبة، ثم خرج من حلب وجعل يطوف برأس منطاش فى كل مدينة يدخلها حتى وصل إلى القاهرة، فكان يوم دخوله إلى القاهرة يوماً مشهوداً، وزينت المدينة زينة عظيمة، فشقوا برأس منطاش فى القاهرة، ثم طلعوا به إلى القلعة. فرسم السلطان بأن يعلق على باب زويلة فعلق ثلاثة أيام ثم دفنت وقلعت الزينة، وانقضى أمر منطاش».

ولم يكن الخطر الداخلى هو الخطر الوحيد على سلطنة برقوق، ولكن كان هناك خطر التتار الذى أخذ يهدد - مرة أخرى - المشرق العربى.

فها هو ذا تيمورلنك التترى[1] يدمر تبريز وشيراز من بلاد فارس، ثم دخل مدينة بغداد بعد أن فتح أهلها أبوابها لجيوشه دون قتال فى يوليو عام ١٣٩٣م، ومن هناك أصبح مشرفاً على حدود دولة السلطان برقوق، فأرسل رسله إلى أبى العباس أحمد والى مقاطعة قيصرية يخبره عن طريقهم بأنه سيدمر مدن المقاطعة ويجعلها خراباً. ولما كان السلطان برقوق ليس ضعيفاً إلى حد قبول التهديد، فقد اعتقل أبو العباس رسل تيمورلنك وأمر بإعدام بعضهم وقطع رؤوسهم وعلقها فى أعناق رفاقهم وأعادهم - هكذا - إلى تيمورلنك. ولا بد أن ذلك يذكرنا بما كان قد فعله سيف الدين قطز - فى أوائل دولة المماليك الأولى - برسل هولاكو الذين أتوا بإنذار منه لإخضاع مصر.

ولقد تمكن السلطان برقوق ببراعته السياسية الفذة من تكوين حلف موسع ضد تيمورلنك، فعقد تحالفاً مع السلطان العثمانى بايزيد الأول، والملك قرا يوسف صاحب بلاد التركمان (بغرب آسيا الوسطى)، والملك طقتمش صاحب منغوليا. وإزاء ذلك أرسل تيمورلنك رسله إلى السلطان برقوق الذين حملوا بعض الهدايا (من ضمنها أسرى بعض كبار أعيان بغداد.. وهذا دليل مقنع بالتهديد) إلى برقوق.. ولكن السلطان برقوق كان

---

(١) أصله من قبيلة جوركان، إحدى فروع قبيلة برلاس التترية، وهو حفيد قراشور نويان وزير جقطاى الابن الثانى لجنكيز خان. أطلق عليه تيمور كور كان، ومعناه صهر الملوك، وأصل اسمه (تمر) ثم أضيف إليه (لنك) ومعناه الأعرج لإصابته فى فخذه حين كون عصابة لسرقة الأغنام وصار يعرج، ومالبث أن اتجه لقتل الملوك وامتلاك أرضهم حتى وصل إلى الملك. (انظر: قيام دولة المماليك الثانية - الدكتور حكيم أمين عبدالسيد - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٦).

يعلم أن أسلوب تيمورلنك هذا كان قد اتخذه مع زعماء كل البلدان التى دمرها، فأمر باعتقال الرسل وإعدامهم. وإزاء ذلك التحالف القوى تمكن الملك قرا يوسف من الاشتباك مع بعض جيوش التتار وأسر أحد كبار زعمائهم ويدعى (أطلمش) وقام بتقييده وإرساله للسلطان برقوق الذى أمر بسجنه. ولقد كانت تلك الحادثة من أشد الحوادث ألماً لتيمورلنك، فقرر أن يبتعد مؤقتاً عن خطر المماليك، وأن يوسع فتوحاته فى الهند وشرق آسيا. ومع ذلك فقد هيأ السلطان برقوق جيشاً مملوكياً ضخماً وسافر به إلى دمشق فى مايو ١٣٩٤م وذلك لحماية حدود دولته الشرقية. فى الشهر التالى هاجمت جيوش السلطان برقوق التتار الذين كانوا لا زالوا يحتلون بغداد فهزموهم وحرروا المدينة العربية مرة أخرى. ثم عاد برقوق إلى مصر. وكانت الأمور قد هدأت إلى أن عاد تيمورلنك مرة أخرى عام ١٣٩٨م ليهدد السلطان برقوق ويطالبه بإخضاع مصر للتتار وبإطلاق سراح القائد التترى أطلمش. فرفض برقوق تهديدات تيمورلنك الذى شعر بقوة الدولة المملوكية وقائدها السلطان برقوق.

وفى نهاية عام ١٣٩٨م حدثت فتنة بين بعض المماليك فى القاهرة حيث وردت الأخبار للسلطان برقوق بأن بعض المماليك ينوون قتله بقيادة أمير مملوكى يدعى على باى، فجهز برقوق حرسه وخرجوا لقتال مماليك على باى الذى سرعان ما انهزم وفر خارج القاهرة.. ولقد تمكن حرس السلطان من أسر أحد المماليك من مؤيدى على باى وأحضروه للسلطان برقوق الذى أمر بإعدامه بالسيف. أما الأمير على باى نفسه فقد تتبعه جند السلطان برقوق وتمكنوا من أسره وإحضاره للقلعة فأمر السلطان برقوق بتعذيبه إلى أن مات. وأخذ بقية مماليك على باى فى السقوط بأيدى مماليك السلطان، حتى وصل عددهم إلى سبعة مماليك فأمر السلطان برقوق بصلبهم على الجمال والطواف بهم فى شوارع القاهرة ثم إنه أمر بإعدامهم جميعاً.

على أن أخطر الأحداث التى هزت السلطان برقوق كانت هى أحداث الخطر التترى.. ولقد كانت قوة دولة السلطان برقوق هى السبب فى ابتعاد تيمورلنك عن إبعاد الخطر عنها.. ولكن جاءت وفاة السلطان برقوق فى عام ١٣٩٩م عن عمر يناهز ثلاثاً وستين سنة بعد أن حكم الدولة المملوكية لمدة ست عشرة سنة تقريباً، فخلفه ابنه فرج (الملك الناصر فرج) وكان فتى فى الثانية عشرة من عمره، فرأى تيمورلنك بهذا الفرصة للهجوم على الدولة المملوكية متخذا من المطالبة بقائده المأسور فى مصر أطلمش حجة

لتوسيع أطماعه وإمبراطوريته. فهاجم بغداد مرة أخرى واحتلها فى نهاية عام ١٣٩٩م، ووصل بهذا إلى المشارف الشرقية لدولة المماليك التى لم يتمكن الناصر فرج من إدارتها الإدارة الحكيمة، فتقدمت جحافل تيمورلنك نحو الشام وحاصرت مدينة حلب الاستراتيجية حصاراً محكماً، وفشل الناصر فرج فى إرسال الجيوش المملوكية الكافية للدفاع عنها فسقطت المدينة ودخلها التتار، وكان عددهم حوالى ثمانمائة ألف رجل حيث عاثوا فى المدينة فساداً كبيراً وأعدموا ما لا يقل عن عشرين ألفاً من الأبرياء بها.. ويقول ابن تغرى بردى: «لجأ تيمورلنك إلى إشعال النار بالمدينة حتى هرب سائر نساء البلد والأطفال إلى مساجد حلب، فهجم أصحاب تيمورلنك عليهن وربطوهن بالحبال وأعملوا فيهن السيف. ثم صارت الأبكار تفض من غير تستر والخدرات (النساء صاحبات الخدور) يفسق فيهن من غير احتشام، وبذل عساكر تيمورلنك السيف فى عامة حلب وأجنادها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى»(١).

وقد مكث تيمورلنك وجنده بمدينة حلب حوالى شهر تحولت فيه المدينة الإسلامية العظيمة إلى خراب، بينما السلطان فرج المملوكى عاجز عن إبداء المقاومة. ولما غادر التتار حلب اتجهوا نحو مدينة حمص وهى - كذلك - تحت النفوذ المملوكى، ففعلوا بأهلها ما فعلوا بأهل حلب. ثم أرسل تيمورلنك رسله للسلطان الناصر فرج بضرورة إخضاع مصر للنفوذ التترى وتسليم القائد أطلمش، فأبى الناصر فرج وخرج بجيوشه إلى دمشق ليحميها من هجمة تترية محتملة. فلما مكث بعض الوقت هناك بلغه أن بعض المماليك يدبرون لاغتياله وعزله ومبايعة الأمير لاجين الشركسى فى حكم الدولة، فجمع جنده وأمراءه وعاد إلى مصر. فلما غادر دمشق سارع التتار بقيادة تيمورلنك بحصار المدينة، فعاد الناصر فرج إلى دمشق وتقاتلت جيوشه مع جيوش التتار إلى أن تم الصلح بينهما على أساس إطلاق سراح القائد التترى أطلمش، وذكر اسم تيمورلنك - وكان مسلماً - فى مساجد مصر على أساس أنه قائد المسلمين، وعاد الناصر فرج إلى القاهرة، ولكن تيمورلنك أخذ يهاجم المماليك من حول دمشق ويعدم الأسرى منهم.

لقد أحس تيمورلنك بضعف الناصر فرج، وبخطر القلاقل التى يظهرها المماليك ضده فى مصر، فعزم على اقتحام دمشق وتدميرها.

---

(١) عن ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - الجزء ١٢ - (كما وردت فى كتاب: قيام دولة المماليك الثانية - الدكتور حكيم أمين عبدالسيد - مرجع سابق).

ولقد استمر حصار التتار لدمشق مدة طويلة، أظهر أهلها كل صور البطولة والتضحية والشجاعة، ولكن استمرار الحصار وتقاعس الناصر فرج عن إنقاذها أديا بها إلى السقوط، فدخلها الجند التتار كالوحوش الضارية، وقتلوا وعذبوا وأعدموا عشرات الآلاف من سكانها: «وحين عزم تيمورلنك على ترك دمشق دك معالم الحضارة فيها وأشعل النار بها في يوم عاصف، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام، حتى احترق كله وسقطت سقوف الجامع الأموى وزالت أبوابه، وفنيت دمشق ودورها وأسواقها وحماماتها. والخلاصة، أن تيمورلنك ترك دمشق أطلالاً بالية، وفيها أطفالها معرضون للجوع والموت وأخذ معه أشهر الفنانين والبنائين إلى سمرقند عاصمة بلاده حيث استخدم هؤلاء في تجميل عاصمته»(١).

«وقيل إن تيمورلنك لما أراد أن يرحل عن دمشق - وكانت تابعة لمصر المملوكية - جمعوا له أطفال المدينة الذين أسر أهلهم، فكانوا ما بين ابن خمس سنين إلى شهر وشهرين، فركب تيمورلنك وأتى إلى ذلك المكان الذى هم به خارجاً عن المدينة. فلما أتى إليهم، وقف ساعة وهو ينظر إليهم ويتأملهم، ثم قال للعسكر: سوقوا عليهم بالخيل... فساقوا بالخيل فماتوا أجمعين، وكانوا نحو عشرة آلاف طفل. فلما رجع لامه أمراؤه على ذلك فقال: ما نزل على قلبى فيهم رحمة، فكان تيمورلنك يقول: أنا غضب الله فى أرضه، يسلطنى على من يشاء من خلقه»(٢).

ويبدو أن تدمير الشام من قبل التتار حفز العثمانيين إلى الظهور لصد الهجمة التترية على بلاد الشرق الإسلامى.. فقد اتضح لهم مدى ضعف السلطان فرج بن برقوق الذى كان «كلما طرقته هذه الأخبار - أخبار هزائم المماليك فى حلب ودمشق - يتغافل عنها ويتشاغل بشرب الراح وحب الملاح»(٣). ولهذا فقد بدأ التصادم بين تيمورلنك وبين بايزيد الأول السلطان العثمانى. ولقد اندلعت معارك ضارية بين المماليك والعثمانيين فى جنوب تركيا انتهت ليس فقط بهزيمة الأتراك العثمانيين وسقوط مدينة بروسا الاستراتيجية، ولكن كذلك بوقوع السلطان التركى العثمانى بايزيد الأول نفسه فى الأسر وكان ذلك فى عام ١٤٠٢م.

---

(١) انظر: قيام دولة المماليك الثانية - الدكتور حكيم أمين عبدالسيد (مرجع سابق).
(٢) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور - ابن إياس - الجزء الثالث - كتاب الشعب ١٩٦٠.
(٣) المرجع السابق نفسه.

وبعد أن حقق التتار انتصاراتهم المذهلة على أقوى دولتين إسلاميتين فى ذلك الوقت وهما دولة سلاطين المماليك، ودولة الأتراك العثمانيين، كان لابد أن يرسل تيمورلنك رسله إلى الملك الناصر فرج يهدده ويطالبه بإطلاق سراح القائد التترى أطلمش، فلم يجد الناصر فرج إلا الإذعان!

وإزاء ذلك الضعف كثرت أعمال الاضطراب بين المماليك فى مصر (خاصة عندما علموا بوفاة تيمورلنك عام ١٤٠٥م) حتى تمكنوا من عزل الملك الناصر فرج، وتعيين أخيه عز الدين (الملك المنصور عز الدين ابن السلطان برقوق) وكان ذلك عام ١٤٠٦م وكان عمره عشرة أعوام، ولقد استمرت الفتنة بين المماليك وانقسموا ما بين مؤيد علناً للناصر فرج ومؤيد للمنصور عز الدين، فكثرت أعمال القتل إلى أن تمكن مماليك الناصر فرج من إعادته للحكم بعد غيبة استمرت سبعين يوماً. وما أن عاد الناصر فرج إلى الحكم للمرة الثانية حتى أخذ يصدر أوامره المتكررة بتتبع مماليك أبيه السلطان برقوق والذين ظن فيهم سوء النية ويعدمهم تارة بالسيف وتارة بالإغراق فى النيل، ويقول المؤرخ المصرى الكبير ابن إياس: «أسرف الملك الناصر فى قتل مماليك أبيه، فكان يسكر إلى نصف الليل ويخرج إلى الحوش ـ بالقلعة ـ وهو سكران، فيعرض المماليك الذين فى السجن بالأبراج، فيحضرونهم فى زناجير، فيقدمون إليه واحداً بعد واحد، فيقول: من هذا؟.. فيقولون له: هذا فلان من الطبقة الفلانية، فيقول: قدموه.. فيبطحونه على الأرض فيذبحه بيده ثم يدوس على وجهه برجله، وربما كان يبول عليهم أو يصب عليهم النبيذ.. وكل هذا من شدة قهره وما قاساه منهم، فكان يذبح من المماليك فى كل ليلة بحسب ما يختار فى تلك الليلة، وذكروا عنه أشياء شنيعة من هذا النمط. فاستمر على هذه الحالة مدة طويلة حتى قيل أنه ذبح فى هذه المدة من مماليك أبيه نحواً من ألفى مملوك، وقد تجرأ على القتل حتى صار يقتل فى كل ليلة نحو عشرين مملوكاً»(١). وقد حدثت تلك الإعدامات فى عام ١٤١٠م. وبالرغم من ذلك فلم يمر عامان حتى تمكن المماليك من اغتيال الملك الناصر بينما هو موجود بقلعة دمشق، وكان قتلته من مماليك أبيه الذين أساءهم سلوك الناصر معهم.(٢)

---

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ الجزء الثالث.

(٢) شرح المقريزى فى كتابه «السلوك» كيفية قتله فقال: «دخل عليه ثلاثة، أحدهم ابن مبارك أخو الخليفة العباسى، وآخر من ثقات الأمير شيخ، وآخر من ثقات نوروز، ومعهم رجلان من المشاعلية، فعندما رآهم ثار إليهم ودافع عن نفسه، فساوره الرجلان حتى صرعاه بعدما أثخنا جراحه. وتقدم إليه بعض صبيان الفداوية=

ويعتبر عصر الناصر فرج عصراً مظلماً بالنسبة للمصريين وأهل الشام على حد سواء، فقد رأينا تخاذله أمام التتار وإسرافه فى إعدام طائفة المماليك الذين ناصروا أباه السلطان برقوق فحققوا معه العزة والفخار لدولة المماليك.

وقد اختار المماليك الخليفة العباسى المستعين بالله ليحكم دولة المماليك ليكون حاكماً بصفة مؤقتة، حتى يتمكنوا من مبايعة أمير منهم. وبالفعل اختار المماليك الأمير المحمودى (الملك المؤيد المحمودى) وهو من مماليك السلطان برقوق، وما أن تم له السيطرة على الأمور حتى سارع باعتقال بعض الأمراء الذين رأى فيهم الخطر عليه، ثم اعتقل القاضى فتح الله وصادر ممتلكاته ثم أمر بإعدامه خنقاً أثناء الليل وكان ذلك فى عام ١٤١٢. وبعد عامين من ذلك تمرد حاكم دمشق الأمير نوروز على الملك المحمودى، فسافر إليه المحمودى وشدد الحصار على قلعة دمشق وتمكن من اعتقال نوروز حيث أمر بإعدامه فحز رأسه وأرسل إلى القاهرة حيث علقه المماليك على باب زويلة لمدة ثلاثة أيام ثم رفع ودفن.

وقد عين الملك المحمودى نواباً له فى الشام من الأمراء، فعين الأمير قانباى المحمدى على ولاية الشام (دمشق) والأمير إينال الصصلانى نائباً على ولاية حلب، وغيرهما على ولايات أخرى مثل طرابلس وحماة. ولكنهم - فور عودة الملك المحمودى إلى مصر - تمردوا عليه، فسافر المحمودى إلى الشام مرة أخرى وقاتل هؤلاء الأمراء قتالاً مريراً، وتمكن من اعتقال الأمير قانباى المحمدى وأعدمه فقطع رأسه، واعتقل الأمير إينال الصصلانى وابنه حيث أعدم الابن أمام أبيه، ثم أعدم الأب بعد ذلك.

وبالرغم من تلك الأحداث الدموية إلا أن الأمور كانت تسير فى مصر سيراً طبيعياً إلى أن توفى الملك المؤيد المحمودى عام ١٤٢١م بعد مرض ألم به وكان عمره خمساً

= بخنجر فخنقه، وقد أصابته الجراحة فى خمسة مواضع، فلما ظن أنه قد أتى على نفسه وقام عنه، تحرك، فعاد وخنقه مرة ثانية، حتى قوى عنده أنه هلك تركه، فإذا به يتحرك فعاوده مرة ثالثة، وفرى أوداجه بخنجر، وسحب بعدما سلب جميع ماعليه من ثياب، وألقى على مزبلة مرتفعة عن الأرض تحت السماء وهو عريان البدن، يستر عورته وبعض فخذيه سراويله، وعيناه مفتوحتان، والناس تمر به مابين أمير ومملوك، قد صرف إليه قلوبهم عنه وغوغاء العامة وأراذل الغلمان تعبث بلحيته ويديه ورجليه طوال نهار السبت، فلما كانت ليلة الأحد حمل وكفن بعدما غسل وصلى عليه، ودفن بمقبرة باب الفراديس بموضع يعرف بمرج الدحداح...
انظر:
نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين: تأليف عبدالباسط بن خليل بن شاهين الملطى - تحقيق محمد كمال الدين عز الدين على - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ١٩٨٧ - الطبعة الأولى.

وستين سنة وبعد أن حكم دولة المماليك الثانية حوالى تسعة أعوام فخلفه ابنه أحمد (الملك المظفر أبو السعادات أحمد) وكان طفلاً لم يبلغ العامين، واختار المماليك الأمير ططر ليدير أحوال السلطنة.

ثم ثارت ثورة المماليك فى الشام بقيادة الأمير القرش الذى تمرد على السلطنة، فسافر الأمير ططر بجيوشه إلى الشام واعتقل الأمير القرش، والأمير جقمق وأعدمهما بقلعة دمشق، واستمر يطارد المتمردين ويعدمهم إلى أن بسط نفوذه على الشام، فعزل الملك المظفر أحمد بعد أن تزوج بأمه خوند سعادات. فلما بايعه المماليك سلطاناً طلقها وسجن ابنها بسجن الإسكندرية وأعطاه المماليك لقب الظاهر ططر، ولكنه سرعان ما مرض ومات بعد ثلاثة أشهر فى الحكم، فخلفه ابنه محمد (الملك الصالح ناصر الدين محمد)، وكان طفلاً فى الحادية عشرة من العمر فعاونه فى الإدارة الأمير جانى بك الصونى، ولكن المماليك انقلبوا على جانى بك واعتقلوه وأتوا بالأمير برسباى الدقماقى ليدير الأمور الذى سارع بعزل الملك الصالح ناصر الدين، وأخذ مكانه فى السلطنة حيث أعطاه المماليك لقب الأشرف برسباى. وكان ذلك عام ١٤٢١م فسيطر على أحوال السلطنة بسرعة، وفرض نفوذه عليها حتى أنه تمكن من إحياء الحماس الإسلامى القديم فى الجهاد ومحاربة أعداء الخارج، وقد توج ذلك بغزوه جزيرة قبرص (التى كان القراصنة يستخدمونها قاعدة للهجوم على موانى دولة المماليك) وفرض النفوذ المصرى عليها وكان ذلك عام ١٤٢٥م واعتقل ملك قبرص وأرسله إلى القاهرة حيث سار به المماليك وهو مكبل بالأصفاد فى شوارع القاهرة المزدانة.

ولقد شاع الاستقرار فى دولة السلطان برسباى مدة طويلة من الزمن، وزالت الاضطرابات وحالات العصيان فى مصر والشام إلى أن توفى الأشرف برسباى عام ١٤٣٨م، بعد أن حكم الدولة المملوكيةحوالى ست عشرة سنة تقريباً، وكان عمره عند وفاته حوالى خمس وسبعين سنة، وهو بهذا يعد من أطول سلاطين المماليك عهداً بالحكم، وقد خلفه ابنه أبو المحاسن (الملك العزيز أبو المحاسن جمال الدين يوسف) وكان فتى يبلغ الرابعة عشرة من العمر فعاونه فى إدارة الحكم الأمير جقمق فلم يمكث فى الحكم سوى بضعة أشهر حتى أطيح به بعد أن تعارك المماليك من أنصار الأشرف برسباى مع مماليك الأمير جقمق، فهزم المماليك الأشرفية (نسبة إلى أستاذهم الأشرف برسباى) وبهذا تمكن الأمير جقمق من فرض سيطرته على البلاد فخلع السلطان العزيز أبو

المحاسن، وتسلطن هو بدلاً عنه، حيث أعطاه المماليك لقب الظاهر جقمق وكان ذلك عام ١٤٣٩م، وفى العام التالى لذلك تمرد نائب الشام الأمير إينال الحكمى وأمير حلب تغرى برش على السلطان جقمق، فأرسل لهم جقمق حملة عسكرية تمكنت من إلحاق الهزيمة بالأميرين حيث تم اعتقالهما وإعدامهما، وأرسل رأساهما إلى القاهرة حيث أمر الظاهر جقمق بتعليقهما على باب زويلة. وما أن انتهت فتنة الشام حتى ظهرت فتنة فى القاهرة قادها الأمير قرقماش وهو قائد المماليك العسكرى (يعادل منصب وزير الدفاع) ولكن الظاهر جقمق تمكن من هزيمته، واعتقله فى سجن الإسكندرية حيث أمر بإعدامه وقطع رأسه، وكان ذلك فى نهاية عام ١٤٤٠م.

ولقد استمر الاستقرار فى دولة جقمق إلى أن وافته المنية عام ١٤٥٣م بعد أن استمر حكمه للدولة حوالى أربع عشرة سنة، وكان عمره حوالى إحدى وثمانين سنة، فخلفه ابنه عثمان (الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان)، وكان شاباً فى العشرين من عمره ولكن المماليك ثاروا عليه وعزلوه بعد أربعين يوماً من توليه الحكم وأتوا بالأمير إينال ليكون سلطاناً للدولة (الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين إينال) الذى نعمت فى حكمه الدولة بالاستقرار وبلغت فيها العلاقة المملوكية العثمانية أوج ازدهارها إلى أن مرض ومات عام ١٤٦١م بعد أن حكم البلاد لمدة ثمانية أعوام تقريباً، فخلفه ابنه أحمد (الملك المؤيد أبو الفتح شهاب الدين أحمد) الذى عزله المماليك بعد حوالى أربعة أشهر من توليه الحكم وعينوا بدلاً عنه الأمير سيف الدين (الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم) وكان أصله رومياً، وقد شهدت بداية حكمه نزاعاً مريراً بين المماليك الذين تعصبوا ضد بعضهم البعض، ولكن السلطان خشقدم تمكن من البطش بهم وإخماد الفتنة.

وفى عام ١٤٦٣م اعتقل السلطان الأمير تمراز الأشرفى (من مماليك الأشرف إينال)، واتهمه بالتآمر والكفر وسجنه ثم أمر بإعدامه وقطع رأسه، وفى العام التالى تمرد الأمير جانى بك أمير جدة بالجزيرة العربية وكان مقيماً بالقاهرة فقامت معركة بين مماليك السلطان ومماليك جانى بك انتهت بمصرع جانى بك، وفى عام ١٤٦٨م مرض السلطان خشقدم ومات فخلفه الملك الظاهر بلباى المؤيدى، الذى سرعان ما خلعه المماليك بعد فتنة كبيرة وقعت بعد شهرين من توليه الحكم، فخلفه الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهرى الذى عين الأمير قايتباى المحمودى قائداً حربياً للمماليك.

ولقد استمرت فتن المماليك الذين كثرت وتباينت أعراقهم مما هدد كيان الدولة بالخطر.. وفى ذلك الوقت - وطبقاً لسنن التطور والتوازن الطبيعى والسياسى - كان لابد أن يظهر مملوك قوى يتقن إدارة الحكم، ويبعد الأخطار المتزايدة من حول دولة المماليك.. وكان ذلك المملوك هو الأمير قايتباى الذى اختاره المماليك ليكون سلطانهم بعد أن تمكنوا من خلع الملك تمربغا.

ويعود أصل السلطان قايتباى (الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباى المحمودى) إلى أصل شركسى وكان من مماليك الأشرف برسباى، وترقى سريعاً من بين المماليك إلى أن عينه الملك تمربغا قائداً للمماليك. ولقد بدأ السلطان قايتباى حكمه فى شهر يناير عام ١٤٦٨م وكان عمره حوالى خمس وخمسين سنة.

ولقد وجد قايتباى أن العلاقات قد ساءت إلى حد كبير بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية، خاصة فى عهد السلاطين الضعاف الثلاثة الذين حكموا من قبله. ولهذا، وعلى مدى ما يقرب من ثلاثين عاماً، تمكن ذلك القائد المملوكى العظيم من إثبات أنه أقوى سلاطين دولة المماليك الثانية - ربما بعد السلطان برقوق - وأكثرهم حنكة ودراية وعبقرية.

لقد استهل السلطان قايتباى حكمه باعتقال كل الأمراء الذين تأكد من أنهم مثيرو الشغب والتمرد. فلما فرغ من أعداء الداخل أرسل حملة عسكرية كبيرة إلى الشاه (سوار بن دلغادر) سلطان التركمان، نظراً لكثرة اعتداءاته وتهديداته لحدود دولة المماليك من الشمال الشرقى.. ولقد انهزم المماليك فى البداية وقتل منهم بعض قادتهم، ولقد كانت تلك الأخبار محزنة عندما وصلت مصر ومما زاد من شدتها ظهور الطاعون وانتشاره واشتداد الغلاء.

ولكن بمرور الوقت اختفى الوباء، وجاءت الأخبار السارة من حلب بأن المماليك دخلوا فى معركة مع جند الشاه سوار تمكنوا فيها من إلحاق الهزيمة بهم وقتل شقيق سوار المدعو مال باى، وعدد كبير من قادة التركمان وجنودهم حيث قطع المماليك رؤوسهم وأرسلوها إلى القاهرة حيث علقت على باب زويلة. ثم وقعت معركة أخرى انتصر فيها المماليك على قوات الشاه سوار عند نهر جيحون، وفر الشاه سوار ببعض جنده إلى قلعة تسمى (زمنوط) فسارع المماليك بحصارها حتى أعلن الشاه سوار الاستسلام فاعتقله

المماليك وسار به الأمير يشبك (قائد المماليك الذين حاربوا التركمان) متجهاً به إلى مصر.

ولقد خرج أعيان وأهالى القاهرة جميعاً ليشاهدوا أخطر أعداء الدولة وهو فى الأسر.. ويصف لنا ابن إياس ذلك الموقف فيقول: (... ثم إن السلطان ـ قايتباى ـ نادى فى القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة، ورجت القاهرة لدخول سوار حتى بلغت أجرة كل بيت على الشارع أربعة أشرفية ـ أربعة دينارات ـ وأجرة كل دكان أشرفى ذهب، بسبب الفرجة على سوار. فخرجت البنت من خدرها تنظر إلى سوار الذى قتل العباد ويتم الأطفال ونهب الأموال... ثم إن سواراً أدخل قدام الأمير يشبك وهو راكب على فرس، وكان قدام سوار إخوته وأقاربه وأعيان من قُبض عليه من أمرائه ممن نزل معه من قلعة زمنوط، فكانوا نحواً من عشرين إنساناً... واصطفت الناس على الدكاكين، وكان له يوم مشهود بالقاهرة لم يقع نظيره فى الفرجة، وكان من نوادر هذا الزمان. واستمر الأمير يشبك فى ذلك الموكب حتى طلع إلى القلعة فعمل السلطان الموكب فى القصر الكبير.. ثم انتقل إلى الإيوان وطلب سواراً هناك. فلما مثل بين يديه وبخه بالكلام وعاتبه عتاباً لطيفاً، وسوار ساكت لم يتكلم.

ثم إن السلطان رسم بتسليم سوار إلى الوالى يشبك بن حيدر فأركبوا سواراً على جمل، وألبسوه ملوطة بيضاء، وجعل فى عنقه طوق حديد، وفيه عمود من حديد طويل، وفى رأس العمود جرس، حسبما رسم السلطان له ذلك. ثم سمروا ـ أى ثبتوا ـ إخوته وأقاربه على جمال وهم عرايا ورؤوسهم مكشوفة.. فلما سمروهم وأركبوهم على ظهور الجمال، نزلوا بهم من الصليبة ـ مكان بالقلعة ـ والمشاعلية ـ حملة المشاعل ـ تنادى عليهم: هذا جزاء من يخامر على السلطان ـ أى يعاديه ـ واستمروا على ذلك حتى وصلوا إلى باب زويلة، فشنكلوا سواراً ـ شنقوه ـ وعلقوه فى وسط باب زويلة وأخوه يحيى كاور عن يمينه فى الدخول من باب زويلة لصوب باب النصر، وأردوانه ـ شقيق سوار الآخر ـ عن شماله كذلك، وعلقوا حداداً ـ أمير تركمانى ـ داخل الباب. وأما سلمان ـ شقيق سوار ـ فكان أمرد مليح الشكل فرقّ الناس له، فشفع فيه الأمير يشبك وخلصه من الشنكلة. ثم توجهوا بالباقى ـ باقى الأسرى ـ إلى باب النصر فوسطوهم بأجمعهم ـ أعدموهم بالسيف ـ واستمر سوار معلقاً حتى مات هو وإخوته، فأقاموا معلقين يوماً وليلة ـ والناس ينظرون إليهم ـ ثم أنزلوهم

وغسلوهم وكفنوهم وصلوا عليهم وتوجهوا بهم إلى تل عال بالقرب من زاوية كهبنوش - بحى الجمالية - فدفنوهم هناك، ثم قلعوا الزينة(١).

ولا يعتبر إعدام الشاه سوار وأقاربه حدثاً كبيراً فى حد ذاته، فهو لم يختلف عن أى إعدام سياسى فى دولة المماليك أو فى غيرها من الدول من المشرق أو من المغرب، ولكنه يدل على المدى الذى بلغته دولة المماليك فى عهد السلطان قايتباى من قوة وتصميم على هزيمة أعدائها. هذا وقد جرت تلك الواقعة فى نهاية عام ١٤٧٣م.

وما أن انتهت حادثة الشاه سوار حتى هدد الفرس الحدود الشرقية للدولة المملوكية بقيادة رجل شيعى يدعى الحسن الطويل الذى تمكن من احتلال العراق، فأعلنت حالة الطوارىء فى دولة المماليك وخاصة فى الشام. وسرعان ما تمكن المماليك بحلب من اعتقال حوالى أربعين رجلاً من أتباع حسن الطويل بالشام، أى أنهم كانوا جواسيس له، فأمر نائب الشام المملوكى بإعدامهم، فقام حسن الطويل بالاستعانة بملوك الفرنجة لمساعدته على قتال المماليك. ويبدو أن الفرنجة (حكام الجزر الأوربية فى شرق البحر المتوسط وجنوب إيطاليا) استجابوا لطلب حسن الطويل فأرسلوا حملة إلى الإسكندرية ودمياط ضربت بعض سواحلها وأسروا بعض الأبرياء. ولكن يبدو أن حسن الطويل شعر بأنه تمادى فى الخطأ، فكاتب السلطان قايتباى فى العفو عنه ونسيان الماضى، فعفا عنه السلطان (إلى أن مات حسن الطويل عام ١٤٧٨م فزال خطره).

وفى عام ١٤٧٧م اعتقل السلطان قايتباى الأمير على برهان الدين النابلسى المسئول عن بيت المال، واتهمه بالخيانة العظمى لتبديده أموال الدولة. ولقد أمر بتعذيبه حتى الموت ليفصح عن مكان الأموال المنهوبة، فقام بتعذيبه الأمير يشبك إلى أن مات نتيجة الضرب والتعذيب. وفى العام التالى اكتمل بناء قلعة قايتباى التى لا تزال قائمة بغرب الإسكندرية حتى اليوم وهى من أهم معالم المدينة.

وفى عام ١٤٨١م أخذت الخلافات تظهر من جديد بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية، وكانت العلاقات قد تحسنت كثيراً فى النصف الأول من حكم السلطان قايتباى. ويعود ظهور الخلافات إلى انقسام البيت العثمانى على نفسه بعد النزاع الذى وقع بين السلطان بايزيد الثانى وبين أخيه الأمير الجام بن عثمان، ولجوء الثانى إلى مدينة حلب

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس.

المملوكية ليكون فى حماية السلطان قايتباى، فدعاه قايتباى إلى القاهرة، فلما طالت إقامته بها طلب مغادرتها للسفر إلى أخيه بايزيد الثانى لقتاله، مما جر على مصر مشاكل كبيرة فيما بعد. فقد اعتقد بايزيد أن السلطان قايتباى دعم الأمير الجام بن عثمان للإطاحة به والاستيلاء على كرسى الخلافة العثمانية. ولهذا سارع السلطان العثمانى بايزيد الثانى بمساعدة التركمان (أتباع الشاه سوار الذى كان المماليك قد اعتقلوه وأعدموه فى القاهرة)، فقام هؤلاء بإنزال الهزيمة بمماليك حلب عام ١٤٨٤م. ولكن المماليك سرعان ما هاجموا الجيش التركمانى والعثمانى وانتصروا عليه. وبالرغم من مسارعة السلطان قايتباى فى إظهار الود تجاه بايزيد الثانى إلا أن بايزيد تمادى فى عدوانه، ففى العام التالى هاجم قلعة كبيرة بالشام تسمى قلعة كولك، وكانت تحت نفوذ دولة المماليك، ثم تمادى وهاجم ضواحى إمارة حلب بشمال الشام، فلم يجد السلطان قايتباى مفراً إلا أن يتصدى بقوة للأتراك العثمانيين والدفاع عن دولته. فأرسل جيشا كبيراً إلى الشام أنزل أول هزيمة مملوكية بهم وقتل منهم أربعين ألفاً وأسر بعض كبار القادة الأتراك الذين كان بينهم أحمد بك بن هرسك قائد الجيش العثمانى وقطع رؤوس العشرات من القادة الآخرين وأرسلها إلى القاهرة وكان عددها حوالى مائتى رأس، فزينت القاهرة لاستقبالها.

ولقد تكررت هزيمة الجيوش العثمانية عدة مرات أخرى أمام الجيش المملوكى القوى إلى أن تمكن السلطان قايتباى من إقناع السلطان العثمانى بايزيد الثانى من عدم جدوى تكرار مهاجمة دولة المماليك وتوقيع صلح بينهما عام ١٤٩١م. وقد جاء ذلك الصلح بعد سلسلة الهزائم المريرة التى تعرض لها الأتراك العثمانيون على أيدى المماليك من مصر والشام، فى الوقت الذى كانت الدولة العثمانية من أقوى القوى فى أوروبا، ولها بذلك خبرة متزايدة بفنون القتال الحديث وقتئذ بالمدافع والبارود. وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على مدى الازدهار التقنى والتنظيم الإدارى البارع الذى كانت عليه دولة المماليك وجيشها فى عصر السلطان قايتباى. ومع ذلك فلابد هنا أن نظهر أسفنا على أقوى دولتين إسلاميتين فى ذلك الوقت قد اختارتا أن تتصارعا فى الوقت الذى كان الأسبان يحاصرون فيه المسلمين فى مقاطعة غرناطة بالأندلس، ذلك الحصار الدموى الذى لم ينتهِ إلا بزوال الإسلام عن الأندلس وبدء سلسلة الأحكام القمعية بتنصير المسلمين هناك وإعدامهم فوق الحطب المشتعل.

ولا شك أن تلك الحروب المهلكة قد أنضبت الخزائن المملوكية، فعم الغلاء بين

الناس، ثم ظهر الطاعون وانتشر فى أرجاء مصر فقضى على مائتى ألف إنسان، ومع ذلك بقى الخطر العثمانى بعيداً عن حدود الدولة المملوكية إلى أن توفى السلطان قايتباى بعد مرض مرهق ألم به وهو فى الخامسة والثمانين من عمره، وكان ذلك عام ١٤٩٦م بعد أن حكم دولة المماليك حوالى تسع وعشرين سنة، فخلفه ابنه محمد (الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد) وكان عمره أربع عشرة سنة، فسيطر الأمير قانصوه خمسمائة على مقاليد الدولة، وأصبح وكيلاً للسلطنة.

وقد قام قانصوه بتصفية كل معارضيه، واستخدم الحيلة للإيقاع بثلاثة من كبار المناوئين له، وهم: الأمير شاد بك، والأمير إينال الخسيف، والأمير جانم، وكان ثلاثتهم مختفين منذ عهد السلطان قايتباى، فلما تمت المبايعة للملك الناصر أبو السعادات، قام بإعلان عفوه عنهم لتمردهم السابق على أبيه، فلما ظهروا تصالحوا مع أبى السعادات، وخرجوا لزيارة الأمير قانصوه خمسمائة فرحب بهم فى داره ثم أمر جنوده باعتقالهم والتوجه بهم إلى جزيرة الروضة (جزيرة كبيرة بالنيل إلى الغرب من الفسطاط) حيث أمر قانصوه خمسمائة بإعدامهم عن طريق تقييدهم وإغراقهم فى النيل. ولقد تمكن الأمير قانصوه خمسمائة بهذه الطريقة من أن ينادى بخلع الملك أبى السعادات، ولكن مماليك أبى السعادات، وكانوا نحواً من ألف مملوك، دافعوا عنه ضد قانصوه خمسمائة، وطاردوه حتى اختفى. وأخذ الملك أبو السعادات بعد ذلك يطارد كل الأمراء الذين عاونوا قانصوه حتى تأكد من خلو الساحة من الأعداء، ولكن بقى أمير قوى من أتباع قانصوه خمسمائة هو الأمير قانصوه الشامى، ولكن مماليك السلطان تمكنوا من اعتقاله هو الآخر وسجنه بسجن الإسكندرية حيث صدرت أوامر سلطانية بإعدامه بالسيف فقطع رأسه وعلق على باب قلعة الإسكندرية. ويبدو أن هروب قانصوه خمسمائة، وكان من كبار الأمراء فى عهد دولة السلطان الأشرف قايتباى، قد شغل بال السلطان الأشرف أبى السعادات، فأمر بالبحث عنه واعتقاله، ولقد استمرت عمليات المتابعة والتحرى فى كل أنحاء مصر حتى عرف أنه قد فر إلى خان يونس على مقربة من غزة، وهناك دارت معارك طاحنة بين قانصوه خمسمائة والحامية المملوكية هناك إلى أن هزم قانصوه وأسر هو وبعض خاصته، فأصدر السلطان أبو السعادات أمره بإعدامهم، وهم الأمير ماماى بن خداد، والأمير فيروز الزمام، والأمير سودون الداودار بالإضافة إلى قانصوه خمسمائة نفسه الذى قطع رأسه وحمل على رمح إلى القاهرة. ولقد بقى خمسة عشر أميراً فى الأسر، وقام حاكم خان

يونس بالاستفسار من الملك أبى السعادات عن فتواه فى أمرهم فأمر أبو السعادات بإعدامهم جميعاً، فأعدموا وقذفت جثثهم فى بئر، وطويت صفحتهم.

ولا شك أن تلك الإعدامات الجماعية المتكررة بدون أسباب سياسية معقولة لا تعكس قوة الملك الأشرف أبو السعادات، بل على العكس تعكس ضعفه وقلة حيلته، فالملوك الأقوياء لا يستخدمون البطش العام والإعدام ليتسنى لهم الحكم، ولقد رأينا ملوكاً كباراً فى دولة المماليك يكاد يكون الإعدام السياسى المبرر فى دولهم أمراً نادراً.

ويبدو أن الملك الأشرف أبو السعادات لم يكن ديكتاتوراً فحسب، ولكنه كان دموياً سادياً كذلك.. فقد أعدم سبعة آخرين من المساجين بيده فى سبيل تمتعه المريض بإيقاع العذاب عليهم، حيث قطع أطرافهم طرفاً طرفاً، وآذانهم ثم ألسنتهم حتى ماتوا!!

وإزاء تلك الوسائل القمعية كثرت التمردات التى كان السلطان يقابلها فى أغلب الحالات بالتعذيب والإعدام، فقد أعدم مملوكاً يدعى عبد القادر القصديرى لتمرده، وأعدم أمير هواره داود بن عمر وعلقه مشنوقاً بأحد ميادين مدينة منفلوط. ثم حدثت فتنة كبرى بين المماليك بغية خلع الأشرف أبو السعادات انتهت بإعدام الأمير تمراز وكيل السلطنة وأحد أكبر أمرائها حيث قطع رأسه وهو كهل فى الثمانين من العمر.

وفى عام ١٤٩٨م ظهر الطاعون بمصر واستمر ثلاثة أشهر قضى فيها على ما يقرب من مائتى ألف إنسان. وبحلول عام ١٤٩٩م أخذت فتن المماليك تتوالى ليس فى مصر وحدها ولكن كذلك فى الشام مما أدى إلى إنهاك الدولة المملوكية، فى الوقت الذى كان العثمانيون يبنون قوتهم ويخططون للتوسع فى العالم العربى بعد فتوحاتهم الكبرى فى شرق ووسط أوربا. وقد أدت تلك الفتن إلى قيام بعض المماليك باغتيال الملك أبى السعادات فى نهاية عام ١٤٩٩م، فخلفه الملك أبو سعيد قانصوه وكان من مماليك السلطان قايتباى. ولقد تحسنت بسرعة أوضاع السلطنة المملوكية، فانتهت فتن طوائف المماليك. ولكن طومان باى الدوادار نائب السلطنة رأى أن الأعراب كانوا يهاجمون قرى الدلتا وقرى الصعيد فأخذ يسافر لهم ويخمد اضطراباتهم ويقضى على أخطارهم، ولعل ما فعله بفتنة عرب عزالة بالوجه القبلى خير دليل على كيف كان يتصدى للأعراب، حيث سافر لهم على رأس حملة كبيرة من المماليك واعتقل حوالى ثلاثمائة منهم حيث أصدر السلطان أبو السعيد أمره بإعدام أغلبهم، فقطعت رؤوس الرجال وعلقت فى رقاب النساء، وأمر السلطان الأهالى برجم الباقين من الأعراب.

وفى العام التالى (عام ١٥٠٠م) أمر السلطان بإعدام الأمير تانى بك قرا، وكان قد اعتقل وسجن بالقدس، وكان السلطان أبو سعيد ينظر له على أنه من كبار أعدائه. ثم تجددت الفتن بين المماليك فاتفقوا على خلع السلطان أبى سعيد قانصوه، ومبايعة الأمير جان بلاط، وكان وكيلاً للسلطنة (الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط) وكان من المماليك القايتبية (نسبة إلى السلطان الأشرف قايتباى). ولقد بويع الملك الأشرف أبو النصر رغماً عن إرادة الكثيرين من أمراء المماليك وقادة الجند، ولكن الأمير طومان باى الدوادار هو الذى هيأ الأمر له للحكم، مما أدى إلى ظهور ثورة المماليك ضده بسبب قلة رواتبهم مما دفع بالسلطان جان بلاط إلى فرض ضرائب قاسية على المصريين.

ولكن الفتنة ظهرت من جديد فى الشام بزعامة الأمير قصروه الذى سار بحملة من مماليكه واحتل مدينة غزة، ثم دخل مدينة القدس، وكان الشخص الذى وقف خلف هذا التمرد الأمير طومان باى الدوادار نائب السلطنة، ولكنه أضمر نواياه عن السلطان جان بلاط. ويبدو أن السلطان جان بلاط كان يثق ثقة كبرى فى طومان باى الدوادار، فهو الذى هيأه لمنصب السلطان ولهذا نراه يرسله على رأس حملة كبيرة من المماليك لإخضاع حاكم الشام المتمرد الأمير قصروه، فما أن خرج طومان باى بهذا الجيش إلى الشام حتى التف حوله المماليك هناك وبايعوه سلطاناً على الدولة وسموه العادل، فأخذ طومان باى الدوادار يقضى على نفوذ مماليك السلطان جان بلاط، فأصدر أوامره بإعدام أحد مشايخ العربان الموالين لجان بلاط من قبيلة ابن نبيعة، وشنق شيخ آخر من قبيلة بنى حرام. ولقد عرف السلطان جان بلاط بأخبار استلاب طومان باى للشام، فأخذ يحصن القلعة ويستعد لجيش طومان باى.. وفرق رشاوى كبيرة على أمراء جدد ليساعدوه على الاستمرار فى السلطنة وهزيمة غريمه طومان باى، أما من رفض المساعدة - مثل الأمير إسماعيل زامل - فقد أمر بشنقه بالقلعة. فلما اكتملت جيوش الأمير طومان باى الدوادار زحف بها من الشام تجاه مصر، فدخل القاهرة وحاصر القلعة، ودارت معارك طاحنة استخدم فيها الجانبان المجانيق والرصاص وقواذف النفط المشتعلة، فهزم السلطان جان بلاط واعتقل وعذب لمدة ثمانية عشر يوماً ورحل ليسجن بالإسكندرية حيث أصدر طومان باى أوامره بإعدامه خنقاً عام ١٥٠١م، وبهذا تمكن طومان باى الدوادار (الملك العادل طومان باى ابن قانصوه أبو النصر) وهو من مماليك الأشرف قايتباى من الاستيلاء على حكم دولة المماليك.

وقد ابتدأ حكمه القمعي باعتقال زوجة السلطان جان بلاط وأخذ منها ثروة كبيرة، وفرض عليها غرامة تعادل خمسين ألف دينار. ثم إنه خان صديقه الأمير قصروه وكيل السلطنة واعتقله ثم أمر بخنقه، وكان - مثل طومان باى - من مماليك السلطان قايتباى، وهو الذى كان قد ساعد طومان باى فى الشام لكى يطيح بحكم السلطان جان بلاط. فلما شعر المماليك بخيانة طومان باى الدوادار لكبار أصدقائه ثاروا عليه قبل أن يقتلهم وخلعوه من السلطنة ففر هارباً وترك السلطنة - بعد أن حكم لمدة ثلاثة أشهر - ليخلفه الغورى (الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن بيبردى الغورى) وكان من مماليك السلطان قايتباى، ومن أمراء المماليك الذين تحالفوا مع طومان باى الدوادار ضد السلطان جان بلاط. فلما تسلطن الغورى أرسل رجاله للبحث عن طومان باى الدوادار الهارب مما سبب الضيق والقلق لدى المصريين الذين كانت بيوتهم تقتحم ليلاً أو نهاراً للبحث عنه، ولكن طومان باى لم يتمكن من الفرار طويلاً، إذ سرعان ما اعتقل وقطع رأسه وحمل فى إناء نحاس وقدم للسلطان الغورى الذى أمر بدفنه، وبهذا طوى التاريخ صفحته وكان ذلك فى نهاية عام ١٥٠١م، فتمكن السلطان الغورى من التفرغ لتقوية دولته بعد أن أخذت الدول القوية المحيطة بها مثل الدولة العثمانية فى تركيا والدولة الصفوية فى فارس تتصارع على زعامة العالم الإسلامى.

وفى الحقيقة، فيمكن مقارنة فترة حكم السلطان الغورى - كسلطان مملوكى قوى - بمثله من سلاطين المماليك الأفذاذ مثل السلطان برقوق والسلطان قايتباى.. فهو رجل امتلك الخبرة والحكمة والمقدرة على إدارة الدولة. ولا شك أن هذه الموهبة ساعدته على حكم دولة المماليك والإبقاء عليها قوية، فلم تحدث أية أخطار ذات قيمة فى الجزء الأول من حكمه بالرغم من أنه رفع من قيمة الضرائب على الشعب المصرى.

ومع ذلك فيبدو أن زوال دولة المسلمين فى غرناطة (آخر أقاليم الأندلس الإسلامية) عام ١٤٩٢م قد مكن البرتغاليين والأسبان فى الإسراع برحلات الاستكشاف الجغرافية التاريخية بعد أن وضعوا أيديهم على أسرار الملاحة العربية وخرائط كبار الرحالة العرب، فاكتشف الأسبان الساحل الشرقى لما يعرف اليوم بأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية، واكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح مما مكنهم من الوصول إلى الهند والسيطرة على طريق التجارة بين آسيا وأوربا مما أضعف بشكل كبير الازدهار التجارى والمالى الذى تمتعت به دولة المماليك فى مصر والشام. وعندما أحس السلطان الغورى بشدة الخطر

البحرى البرتغالى أرسل أسطوله لهزيمة البرتغاليين ولكنه لقى هزيمة كبرى عام ١٥٠٩م فى معركة ديو البحرية[١].

ومهما كان الأمر فإن حوادث الإعدام السياسى فى عصر السلطان الغورى كانت نادرة بشكل ملحوظ مقارنة بطول سنوات حكمه ولقدرته على حل الصراعات بين طوائف المماليك سلمياً. ومع ذلك ففى العام التالى لحكمه عام ١٥٠٢م كان قد تمكن من اعتقال اثنين من أمراء المماليك اللذين شعر أنهما يشكلان خطراً عليه وهما على جانى بك الشامى، وخاير بك اللامى، وبالرغم من أنه تمكن من اعتقالهما وسجنهما فى سجن الإسكندرية إلا أنهما تمكنا من قتل حارسهما والفرار خارج السجن حتى تم اعتقالهما مرة أخرى فأمر بإعدامهما فى القلعة.

وفى عام ١٥٠٣م أمر الغورى بإعدام شيخ من الأعراب من قبيلة بنى وائل اسمه شرف الدين بن موسى وذلك لحثه الأعراب على التمرد على الدولة، فشنق وعلق على باب زويلة. ثم استمرت محاولات السلطان الغورى عام ١٥٠٤م فى إعدام مشايخ الأعراب المتمردين على حكمه، فأعدم الشيخ علاء الدين بن قرطام وعلق رأسه فى باب زويلة، ثم أمر بتعذيب وإعدام متمرد آخر يدعى على بن أبى الجود فشنق وعلق على باب زويلة لمدة ثلاثة أيام.

وفى عام ١٥٠٧م حدثت فتنة بين مماليك السلطان الغورى ومماليك الأمير خاير بك (الذى سيبزغ اسمه فى نهاية عصر الغورى)، انتهت بقتل مملوك من مماليك السلطان، فهاجم المماليك منزل الأمير خاير بك، فلما علم الغورى بذلك أمر باعتقال القاتل حيث أعدم فى حى الرملة بالقاهرة. ويبدو أن تلك الحادثة أثرت فى نفس الأمير خاير بك تجاه السلطان الغورى فأضمر فى نفسه الشر تجاهه وتحين الفرصة للانتقام منه.. ولكن الانتقام جاء بعد عدة سنوات.

وفى عام ١٥٠٨، أمر السلطان الغورى بإعدام أربعة من عبيده بعد قتلهم عبداً من عبيده فتم قطع جسدهم نصفين، وفى عام ١٥٠٩م أمر الغورى بشنق ثلاثة أشخاص سرقوا ذهباً من القلعة (مقر الحكم).

---

(١) يقول ابن إياس تعليقاً على هزيمة حملة السلطان الغورى البحرية لمواجهة البحرية البرتغالية: «جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجه إلى الهند صحبة حسين المشرف قد كسرهم - أى هزمهم - الفرنج (يقصد البرتغاليين) كسرة فاحشة وقتلوا العسكر عن آخره، ونهبوا مافى مراكبهم أجمعين، فتنكد السلطان لهذا الخبر». انظر المختار من بدائع الزهور - الجزء السابع.

وفى عام ١٥١٠م أخذت قوة الدولة الصفوية الشيعية تظهر تهديداتها لكل من الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى، ودولة المماليك فى مصر والشام. ولقد كانت علاقة المماليك والعثمانيين حتى ذلك العام على أحسن ما يكون حتى أن السلطان الغورى لما أبلغ بنبأ وفاة السلطان العثمانى أبى يزيد بن محمد حزن عليه وبكى، وأمر الناس فى مساجد مصر الكبرى أن يصلوا عليه صلاة الغائب. وبالرغم من ذلك فلم تحدث معارك بين الصفويين وبين المماليك، إذ كان الخطر الصفوى على العثمانيين أكبر وأشد. ولكن أخذت الأوضاع تنحو نحو العداء بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية فى عام ١٥١٣م عندما حدث نزاع فى بيت الخلافة العثمانية بين سليم شاه الذى خلف أباه يزيد وبين أخيه قرقد، فما كان من الأمير قرقد إلا أن خرج من تركيا وتوجه إلى مصر. فلما رحب به السلطان الغورى اعتقد السلطان سليم شاه (سليم الأول العثمانى) أن المماليك يرغبون فى تقوية جانب الأمير قرقد ليهددوا الدولة العثمانية بالرغم من أن السلطان الغورى لم يكن ينوى أبداً تهديد الدولة العثمانية. وبالرغم من ذلك، فيبدو أن العثمانيين لم يرغبوا فى مهاجمة دولة المماليك فى ذلك الوقت نظراً لأن التهديد الصفوى الشيعى لهم كان أخطر.. وبالفعل حدثت معركة كبرى بين العثمانيين والصفويين عند جالديران عام ١٥١٤م انتهت بهزيمة الصفويين فزال خطرهم، فلم يبق أمام العثمانيين سوى دولة المماليك.

وفى الحقيقة فإن الغورى لما له من خبرة سياسية شعر بالخطر العثمانى بعد هزيمة السلطان إسماعيل الصفوى، ولهذا نراه يلفت نظر المماليك من اقتراب الخطر العثمانى. وابتداء من عام ١٥١٥م أخذ الغورى يحصن موانىء دولته وقلاعها وحصونها استعداداً للنضال ضد العثمانيين، وفى عام ١٥١٦م سافر الغورى مع بعض من خيرة قوات الجيش المملوكى إلى إمارة حلب التى تشترك حدودها مع حدود الدولة العثمانية. وفى أغسطس من عام ١٥١٦م التقى الجيش المملوكى بالجيش العثمانى فى موقعة مرج دابق بالقرب من حلب، وقد أظهر الجيش المملوكى براعة فائقة فى القتال ولكن العثمانيين المسلحين بالمدافع القوية ـ ولم يكن لدى المماليك أسلحة مماثلة ـ كانوا قد تمكنوا من رشوة واحد من كبار قادة الجيش المملوكى وهو الأمير خاير بك (والذى سماه المصريون خاين بك لأنه خان زعيمهم السلطان الغورى) فتمكن العثمانيون من دحر الجيش المملوكى بعد أن هرب خاير بك بقواته ودخل مدينة حماة ليتسنى للعثمانيين الالتفاف حول مؤخرة المماليك. أما الغورى الذى رأى جيشه يتهاوى فقد وصف حاله المؤرخ المصرى الكبير ابن إياس،

فقال: «وصار السلطان واقفاً تحت السنجق - أى العلم - فى نفر قليل من المماليك، فشرع ينادى: يا أغوات هذا وقت المروءة، هذا وقت النجدة.. فلم يسمع له أحد قولاً، وصاروا يتسحبون من حوله، وهو يقول للفقراء: ادعوا الله تبارك وتعالى بالنصر فهذا وقت دعائكم.. وصار لا يجد له معيناً ولا ناصراً، فانطلقت فى قلبه جمرة نار لا تطفأ، وكان ذلك اليوم شديد الحر، وانعقد بين العسكريين غبار حتى صاروا لا يرى بعضهم بعضاً، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر - أى المماليك - وغلت أيديهم عن القتال، وشخصت منهم الأبصار، فلما اضطربت الأحوال، وتزايدت الأهوال، خاف الأمير تمر الزردكاش - من أمراء الجيش المملوكى - على السنجق السلطانى فأنزله وطواه وأخفاه، ثم تقدم إلى السلطان وقال له: يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك وادخل إلى حلب، فلما تحقق السلطان ذلك غلبه فى الحال خلط فالج، أبطل شقه وأرخى حنكه، فطلب ماء فأتوه بماء فى طاسة من ذهب، فشرب منه قليلاً، وألفت فرسه على أنه يهرب فمشى خطوتين، وانقلب عن الفرس إلى الأرض، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره، وقيل فقئت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر»(١).

وهكذا هزمت دولة المماليك الهزيمة الكبرى القاتلة بسبب ضعفهم الناتج عن تعدد أعراقهم، وخيانتهم لزعيمهم بعد أن أقسموا له بإخلاصهم ومودتهم.. وكان من جراء تلك الهزيمة سقوط الشام تحت الحكم العثمانى.. أما هدية الخائن خاير بك، فقد كانت فرماناً من السلطان سليم الأول العثمانى بتوليته حكم ولاية حلب تحت العلم العثمانى.

أما ما كان من أمر مصر.. فقد ارتجت القاهرة بعد وصول أنباء هزيمة السلطان الغورى ومصرعه.. واستمر الاضطراب بالمدينة حتى شهر أكتوبر من عام ١٥١٦م حينما بايع المماليك طومان باى بن قانصوه (الملك الأشرف طومان باى).. وهو كما يرى القارىء الكريم ليس طومان باى الدوادار الذى تمرد على السلطان جان بلاط وأعدمه السلطان الغورى عام ١٥٠١م.

ويعتبر السلطان طومان باى بن قانصوه آخر سلاطين المماليك الشراكسة بمصر..

---

(١) راجع للمزيد من التفاصيل المأساوية كيف انهزم مماليك السلطان الغورى أمام جحافل الجيش العثمانى فى: المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور - الجزء التاسع - كتاب الشعب - ١٩٦٠.

وقد تولى حكمها بعد أن حدثت مأساة مرج دابق، وبعد أن شطر العثمانيون دولة المماليك إلى نصفين، فلم يبق منها سوى مصر.

ولقد أخذ العثمانيون يمارسون حرب الأعصاب عن طريق بث الشائعات ونشر الجواسيس فى مجمل أنحاء مصر، وأخيراً أرسل السلطان العثمانى إنذاراً للسلطان طومان باى يحذره فيه من مغبة الاستمرار فى قتال بنى عثمان ونصحه قائلاً:

إن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة فى مصر باسمنا، وكذلك الخطبة، وتكون نائبنا بمصر، ولك من غزة إلى مصر، ولنا من الشام إلى الفرات. وإن لم تدخل فى طاعتنا أدخل إلى مصر، وأقتل جميع من بها من الجراكسة - المماليك الشراكسة - حتى أشق بطون الحوامل، وأقتل الأجنة التى فى بطونهن من الجراكسة»[١].

ولما رفض طومان باى الإنذار، أخذ يحث المماليك على السفر للدفاع عن مصر، ولكنهم تقاعسوا وطلبوا أموالاً كثيرة منه، وكانت خزائن مصر خاوية، فلما تقاعس المماليك زحف الجيش العثمانى على حدود مصر، ودخل غزة حيث قتل من أهلها المدنيين قرابة ألف إنسان.

ولقد لجأ السلطان طومان باى إلى طوائف الأعراب للدفاع عن البلاد بعد أن فقد الثقة فى المماليك.. واستمر فى نفس الوقت زحف الجيش العثمانى حتى دخل العريش.. وعلى مدى كل تلك الأيام حدثت عمليات إعدام لأى جاسوس كان يعمل لصالح العثمانيين، ومع ذلك لم يؤخر هذا تقدم الجيش العثمانى نحو الدلتا التى خرج الكثيرون من أهلها مهاجرين إلى القاهرة، واستمر تقدم العثمانيين حتى وصلوا إلى الرايدانية والجبل الأحمر (إلى الشرق من القاهرة)، وتقابل الجيشان العثمانى مع المصرى (المماليك والعربان) هناك فدارت معركة كبرى عام ١٥١٧م انتصر فيها الجيش العثمانى فلم يجد طومان باى من مفر إلا الهرب، فدخل الجيش العثمانى القاهرة عنوة (وهو أول جيش إسلامى يدخل مصر بالسيف منذ أن فتحها العرب عام ٢١هـ) وبهذا اختفى نجم الدولة المملوكية إلى الأبد ليفتح التاريخ صفحة جديدة سوداء دونها الأتراك العثمانيون على ضفاف النيل.

---

(١) المختار من بدائع الزهور لابن إياس - الجزء العاشر.

الفصل السابع

الإعدام السياسى في العصر العثمانى

مذابح العثمانيين فى مصر:

بعدِ دخول العثمانيين بقيادة سلطانهم سليم الأول مصر، صدر فرمان من سليم الأول يطالب فيه المصريين بالإرشاد عن أى مملوك جركسى مختبىء، ومن يثبت عليه إيواء أى مملوك سيشنق على الفور. ولا يمكن بأى حال تقدير العدد الإجمالى للمماليك الشراكسة الذين اعتقلوا بعد هذا الفرمان.. ولكن المؤكد أنه تم إعدام كل شركسى اعتقل: «وشرعت العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة من الترب وفساقى الموتى، ومن غيطان المطرية، فلما أحضروهم بين يدى السلطان أمر بضرب أعناقهم»... «وصار العثمانية ـ أى الجند العثمانيين ـ يكبسون الترب، ويقبضون على المماليك الجراكسة منها، وكل تربة وجد فيها مملوك جركسى حزوا رأسه ورأس من بالتربة التى وجدوا فيها من الحجازيين ـ قبيلة ـ وعلقوا رؤوسهم فى وطاق فضرب فى يوم واحد ثلاثمائة وثلاثون رأساً من سكان الصحراء، وقيل كان فيهم ينابعة وأشراف ـ قبائل عربية مهاجرة بمصر ـ فراحوا ظلماً لا ذنب لهم، وصاروا يكبسون الحارات والبيوت ويقبضون على المماليك الجراكسة من اصطبلاتهم باليد ويتوجهون بهم إلى الوطاق بالريدانية فيضربون أعناقهم هناك.

فلما كثرت رؤوس القتلى بالريدانية نصبوا صوارى وعليها حبال وعلقوا عليها رؤوس من قتل من المماليك الجراكسة وغيرهم، حتى قيل قتل فى هذه الواقعة بالريدانية فوق أربعمائة إنسان ما بين جراكسة وغلمان وعربان من الشرقية والغربية وصارت الجثث مرمية من سبيل علان إلى تربة الأشرف قايتباى، فجافت منهم الأرض وصارت لا تعرف جثة الأمير من جثة المملوك وهم أبدان بلا رؤوس...»(١).

فلما دخل سليم الأول القاهرة استقر فى الوطاق بحى بولاق، ووصفه إبن إياس فقال:

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ لابن إياس ـ كتاب الشعب ـ الجزء العاشر.

«قيل أن صفته درى اللون، حليق الذقن، وافر الأنف، واسع العينين، قصير القامة، وعلى رأسه عمامة صغيرة. وكان عنده خفة، ورهج، كثير التلفت إذا ركب الفرس، وقيل إنه كان له من العمر حين ذاك نحو أربعين سنة دون ذلك، وليس له نظام يعرف به مثل نظام الملوك السابقة. وكان سيىء الخلق، سفاكاً للدماء شديد الغضب، لا يراجع فى القول»(١).

ولقد استمرت أعمال القهر الواسعة النطاق فى مصر من قبل الجنود العثمانيين، فعمت الفوضى البلاد، وأصبح السوقة يرشدون هؤلاء الجنود على ممتلكات المماليك التى بحوزة زوجاتهم، فيقوم هؤلاء باقتحام البيوت عنوة ويسرقون كل ما له قيمة بها، ثم أخذوا يهاجمون المتاجر والأسواق: «فانفتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شىء جليل، وظفروا بأشياء لم يظفروا بها قط فى بلادهم، ولم يروها قبل ذلك، ولا أستاذهم الكبير - أى السلطان سليم الأول»(٢).

ولقد تأثر أحد كبار مؤرخى مصر فى العصر الحديث وهو عبد الرحمن الجبرتى بمظالم الأتراك العثمانيين تأثراً بالغاً أشار إليه فى عبارات تنم عن الألم والحزن فقال: فانظر، يا أخى وتأمل.. ويضيق صدرى ولا ينطق لسانى! وليس الحال بمجهول، حتى يفصح عنه اللسان بالقول.. وقد أخرسنى العجز أن أفتح فماً، أفغير الله أبتغى حكماً؟»(٣)، وهذا يعنى أن الجبرتى لم يكن ليقدر على مواجهة طغيان العثمانيين فى كتابه وإلا كانوا قد قتلوه لا محالة، واكتفى بكتابة تلك الجملة الحزينة فى تاريخه لعلنا نفهم موقفه ونقدر معاناته.

ولعل القارىء الكريم يرى أن مصر والقاهرة لم تشهد مثل هذه الأفعال البربرية منذ أن دخلها الإسلام على عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بالرغم من تعاقب الدول المتباينة الأصول والاتجاهات عليها.. بل إننا إذا راجعنا التاريخ جيداً سنجد أن مصر لم تفتح غصباً إلا منذ دخلها ملك البابليين بختنصر فى نهاية الدولة الفرعونية القديمة، وقد سبق فى الفصل الثانى من هذا الكتاب التعرض لذلك الحدث المروع.

(١) المرجع السابق نفسه.
(٢) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور - لابن إياس - الجزء العاشر.
(٣) المختار من تاريخ الجبرتى - اختيار محمد قنديل البقلى - كتاب الشعب - الجزء الأول.

ويبدو أن تلك الأفعال قد دفعت بالسلطان المملوكى الهارب طومان باى إلى تجميع جنده - وكان هارباً كما نعلم - والهجوم على الجند العثمانيين. ففى أحد الأيام التى كان السلطان العثمانى يقيم فيها فى حى الجزيرة الوسطى (الزمالك اليوم) إذا بطومان باى وقواته يهاجمون مقر إقامة سليم الأول، ودارت معارك دموية بين الفريقين خسر فيها العثمانيون العديد من القتلى.. وربما شعر السلطان العثمانى بقرب هزيمته لأنه فر من بولاق إلى مكان مجهول يختبىء فيه، ولكن المماليك الذين تحالفوا معه لتحقيق أطماعهم لم يخذلوه، ربما لأنهم أدركوا أن حياتهم سيقضى عليها لو انتصر طومان باى ورجع للحكم، ومن ناحية أخرى فإن دفاعهم عن السلطان العثمانى سيقوى مركزهم لديه فيما بعد وهذا ما حدث بالفعل. فلما شعر طومان باى بذلك اختار الفرار والتخفى. وقام الجنود العثمانيون بعمليات قمع جديدة واسعة النطاق فى القاهرة فقتلوا العديد من الأبرياء الذين ظنوا أنهم قد ساعدوا طومان باى، حتى امتلأت الشوارع بجثثهم فى المدينة من أقصى جنوبها عند الفسطاط إلى أقصى شمالها عند الناصرية.. وقد قدر عدد من قتل من المصريين فى تلك الحملة بعشرة آلاف إنسان على مدى الأيام الأربعة التى أعقبت فرار طومان باى.

ولم يكد العثمانيون يتوقفون عن قتل المصريين إلا وأخذوا يبحثون من جديد عن المماليك الجراكسة، وكانوا يعدمون فوراً أياً من هؤلاء المماليك فور القبض عليه.. وذكر أن حوالى ثلاثمائة من أمراء وجند المماليك الجراكسة قد اعتقلوا حيث تم تقييدهم وعرضهم على السلطان العثمانى سليم الأول الذى أمر بإعدامهم بقطع الرأس، ثم ربطت تلك الرؤوس بحبل علق بالجزيرة الوسطى، أما جثث تلك الرؤوس فرميت فى النيل!

أما ما كان من أمر طومان باى فإن الأخبار وردت إلى القاهرة بأنه توجه إلى الصعيد (بهنسا)حيث كانت له علاقات قوية مع قبيلة أولاد عمر، ومن هناك أرسل إلى سليم الأول يخبره باستعداده للتفاوض معه على أن تكون مصر لطومان باى والذى يحكمها بدوره باسم السلطان العثمانى ويدفع له خراجها، فرفض سليم الأول طلب طومان باى للاجتماع به والتفاوض معه وأرسل له بعثة مكونة من القضاة الأربعة وبعض الجند العثمانيين، فسافروا إلى بهنسا، ولكن ذكر أن طومان باى قتل الجند العثمانيين (ويمكن أن يكون الذى قتلهم - فى رأينا - الأعراب الثائرين ضد العثمانيين وليس طومان باى)، فلما بلغ ذلك السلطان العثمانى غضب وأعلن استمرار الحرب على طومان باى. ثم إن

السلطان العثمانى كان قد اعتقل أربعة وخمسين أميراً من أمراء المماليك الجراكسة بالقلعة فلما تيقن بخطرهم عليه أمر بإحضارهم إلى مقر حكمه فى بركة الحبش (بعد أن انتقل من الجزيرة الوسطى التى كان طومان باى قد هاجمه فيها) .. فلما حضروا وهم مقيدون أهانهم ووبخهم وأمر أتباعه بإعدامهم وقطع رؤوسهم جميعاً حيث تركت جثثهم تنهشها الكلاب والضباع والذئاب. ولقد كانت قصة اعتقال هؤلاء الأمراء دليلاً جديداً على غدر السلطان سليم الأول الذى كان قد أعطاهم الأمان بعد أن دخل مصر ليظهروا ويسلموا أنفسهم بعد أن اختفوا، فلما ظهروا اعتقلوا، ولما اعتقلوا أمر بإعدامهم.. ولا شك أن هذا الإعدام الجماعى الذى أتى بعد ما وصلت الأخبار من الصعيد بأن طومان باى قد قتل البعثة العثمانية التى أرسلها سليم الأول للتفاوض مع طومان باى، إنما يعكس مقدار غضب سليم الأول من طائفة المماليك الجراكسة (التى ينتمى إليها طومان باى الذى كان على وشك القضاء على سليم الأول مؤخراً كما رأينا) .

ثم إن السلطان العثمانى وجنده أخذوا يعتقلون الأعراب الذين ساعدوا طومان باى ويعدمونهم ويحملون رؤوسهم فى المراكب من الجزيرة الوسطى إلى القاهرة، حيث طاف بها العثمانيون، وقدر عددها بعدة مئات.

ويبدو أن طومان باى قد أخذ يتحالف مع كبير مشايخ الأعراب بالبحيرة حسن مرعى، وحلف كل منهما للآخر بأن لا يخون صاحبه أبدا. وكان يحد البحيرة من ناحية الغرب الصحراء التى يقطنها الأعراب الذين كانوا يهاجمون تلك الولاية (وهى اليوم محافظة البحيرة وعاصمتها مدينة دمنهور إلى الجنوب من الإسكندرية) .. فلما علم الأعراب أن طومان باى موجود بالبحيرة، سارعوا وأبلغوا السلطان العثمانى الذى لم يتأخر لحظة فى إرسال حملة من الجند العثمانى، تمكنت من اقتحام المكان الذى تخفى فيه طومان باى حيث تم اعتقاله وإرساله إلى القاهرة، ويبدو أن حسن مرعى الذى أظهر لطومان باى الإخلاص هو الذى خانه وأبلغ الأعراب بأمره لكى يتقاسم معهم مكافأة من السلطان العثمانى[1] . ويصف لنا المؤرخ المصرى الكبير ابن إياس ماذا حدث لطومان باى

(١) لايمكن العثور على فرق واضح بين مايذكر مراراً وتكراراً عن خيانة المماليك لبعضهم البعض وخيانة الأعراب.. فبالرغم من قيام شيخ الأعراب بالبحيرة حسن مرعى بالقسم - على المصحف الشريف - لطومان باى بعدم خيانته إلا أنه خانه وقدمه هدية سهلة لعدوه الشرس اللدود سليم الأول. ومع أن ذلك الحدث قد وقع عام ١٥١٧م، إلا أنه لم يمض عامان على ذلك (وفى عام ١٥١٩م) إلا وحدث أن دبر أنصار طومان باى من بقايا المماليك الشراكسة خطة للانتقام من حسن مرعى (وشقيقه شكر مرعى)، وذلك بالتعاون مع حاكم =

فيقول: «فلما أحضروا السلطان طومان باى بين يدى ابن عثمان - السلطان سليم الأول - وهو لابس مثل لبس العرب الهوارة، وعلى رأسه زنط وعليه شاش، وعلى بدنه ملوطة بأكمام طوال. فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له ثم عاتبه ببعض الكلمات، فلما خرجوا به من قدامه توجهوا به إلى خيمة من الخيام فأقام بها، واحتاطت به الانكشارية[1] بالسيوف لأجل الحفظ به. فأقام هناك أياماً وهو بوطاق ابن عثمان ببر انبابه - مدينة إمبابة شمال غرب القاهرة - فأقام السلطان طومان باى فى الوطاق عند ابن عثمان وهو فى الحديد إلى يوم الاثنين حادى عشر ربيع الأول من تلك السنة - ٩٢٣هـ / ١٥١٧م - وكان ذلك اليوم يوم الخماسين وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر.

فعدوا بالسلطان طومان باى من بر انبابه إلى بولاق وطلعوا به من هناك وهو راكب على أكديش، وهو فى الحديد، وعليه لبس العرب الهوارة كما تقدم. وكانت مدة إقامته فى الوطاق على تلك الحالة نحو سبعة عشر يوماً. وأشيع أن ابن عثمان قصد أن يرسل طومان باى إلى مكة ولا يقتله، ثم بدا له بعد ذلك ما سنذكره، فلما علم ابن عثمان أن الناس لا تصدق بمسك طومان باى، حنق من ذلك وعدى إلى بولاق، فلما طلع إلى بولاق وشق من المقس كان قدامه نحو أربعمائة عثمانى ورماة بالنفط، فطلع من جهة سوق مرجوش، وشق من القاهرة، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة وهو

= مديرية الغربية إينال السيفى طراباى. فقد استضاف إينال السيفى الشيخ حسن مرعى وشقيقه، ومد لهما الأطعمة والأشربة حتى سكرا، فلما تيقن من ثقل رأسيهما دخل عليهما بعض المماليك الشراكسة حيث اغتالوهما فى لمح البصر وقطعوا رأسيهما.. بل يذكر أن بعض المماليك شربوا من دمائهما، وقطعوا لحم أجسادهما تشفياً لغدرهما بزعيمهم طومان باى وتسليمه لسليم الأول الذى أمر بشنقه. ويظهر هذا الاغتيال (اغتيال الشيخ مرعى وشقيقه) كيف ينتقم المماليك من أعدائهم، وكيف لاينسون الأخذ بالثأر، وكيف يجمعون الأخبار والمعلومات وكيف يصلون بالحيلة لعدوهم.. كذلك يظهر مدى الولاء الذى يكنه بعض المماليك لزعمائهم - حتى بعد أن يكونوا قد رحلوا وطويت صفحتهم - على العكس من غدر البعض الآخر منهم بنفس الزعماء، كغدر الأمير خاير بك بطومان باى عندما خانه وسهل دخول الجيش العثمانى مصر لتنتهى دولة المماليك القوية من أجل المصالح والأهواء الخاصة.

(١) الانكشارية: «هم جند أنشأه العثمانيون على شكل خاص لم يسبق له مثيل، لخلوه من عصبية تبعثه على التمرد، لأنه مؤلف من الغلمان الذين كان العثمانيون يأسرونهم فى الحرب، وأكثرهم من أصل مسيحى. فكان العثمانيون فى أول دولتهم إذا فتحوا بلداً دخل فى حوزتهم من أهله المأسورين جماعة من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم وأصبحوا لانصير لهم، ولا مرجع لمآلهم. فارتأى قرة خليل وزير السلطان أوخان ثانى سلاطين آل عثمان (سنة ٧٢٦ - ٧٦١ هـ) أن يربى أولئك الغلمان تربية إسلامية ويدربهم على الفنون الحربية، ويجعلهم جنداً دائماً لايخشى منه التمرد، لأنه لايعرف عصبية غير الدولة، ولا عملاً غير الجندية، ولا ديناً غير الإسلام، فجندهم وسار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية بأماسيا، ليدعو لهم فدعا لهم وسماهم (يكى جرى) أى الجند الجديد. انظر للمزيد من التفاصيل: مصر العثمانية - تأليف جرجى زيدان - تحقيق الدكتور محمد حرب - دار الهلال - القاهرة ١٩٩٤.

لا يدرى ما يفعل به. فلما أتوا إلى باب زويلة، أنزلوه عن فرسه وأرخوا له الحبال، ووقفت حوله العثمانية بالسيوف المسلولة، فلما تحقق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة، وقال للناس الذين حوله: اقرأوا لى الفاتحة ثلاث مرات. ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات، وقرأت الناس معه، ثم قال للمشاعلي: اعمل شغلك، فلما وضعوا الخية ـ حبل الأنشوطة ـ فى رقبته ورفعوا الحبل انقطع به فسقط على عتبة باب زويلة، وقيل انقطع به الحبل مرتين، وهو يقع على الأرض ثم يعلقونه وهو مكشوف الرأس، وعلى جسده شاياه جوخ أحمر، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار، وفى رجليه لباس من جوخ أزرق... فلما شنق وطلعت روحه، صرخت عليه الناس صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والأسف، فإنه كان شاباً حسن الشكل، كريم الأخلاق، سنه نحو أربع وأربعين سنة، وكان شجاعاً بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه، وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى وكسرهم ثلاث مرات، وهو فى نفر قليل من عسكره. ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة»[١].

ولقد زالت الأخطار فى مصر على السلطان سليم الأول بشنق عدوه الأكبر طومان باى.. الذى كان أول سلطان مصرى يشنق على إحدى بوابات القاهرة منذ أن بناها الفاطميون، ولهذا فقد أخذ سليم الأول فى الإعداد لمغادرة مصر والعودة إلى بلاده. ولكن قبل أن يغادرها أخذ يأمر بعمليات نهب واسعة النطاق فى أنحاء القاهرة حتى أنه خلع رخام القلعة وحمله معه، وأخلى القاهرة من كل أرباب الحرف والصناعات وبلغ عددهم حوالى ألف وثمانمائة إنسان[٢].

وعلق الجبرتى على ذلك فقال: «ولما خلص أمر مصر للسلطان سليم.. رجع إلى بلاده، وأخذ معه الخليفة العباسى، وانقطعت الخلافة والمبايعة، وأخذ صحبته ما انتقاه من أرباب الصنائع التى لم توجد فى بلاده بحيث أنه فقد من مصر نيف وخمسون صنعة»[٣].

ولقد ترك السلطان سليم الأول النظام السياسى الآتى شرحه وهو نظام فريد من نوعه والذى به يضمن له بقاء مصر تحت السيطرة العثمانية المستمرة:

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ـ كتاب الشعب ـ الجزء العاشر.

(٢) لم يكن هناك تقدير دقيق لعدد سكان القاهرة فى ذلك الوقت (١٥١٧م) ولكن الرحالة الأجانب قدروا عدد سكانها فى القرن الثامن عشر بما يتراوح بين ربع مليون وسبعمائة ألف نسمة. انظر: الوجود العثمانى المملوكى فى مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ـ الدكتور عراقى يوسف محمد ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٥.

(٣) المختار من تاريخ الجبرتى ـ اختيار محمد قنديل البقلى ـ كتاب الشعب ـ الجزء الأول.

أولا ـ الباشا: وهو عثماني ويعين من قبل السلطان العثماني نفسه، وكان يعتبر نائباً للسلطان فى مصر ومن وظائفه جمع خراج مصر، وتعيين من يراهم مناسبين لشغل الوظائف الإدارية فى البلاد. وكان الباشا يترأس اجتماعات الديوان العثماني العالى لرسم السياسات العامة ومتابعة تنفيذها.. ومع ذلك كان السلطان العثماني لا يثق بهم ويغيرهم تباعاً حتى أن عدد من حكم مصر من الباشاوات العثمانيين فى تلك الفترة الممتدة من عام ١٥١٧م وحتى عام ١٨٠٥م، فاق عدد من حكم مصر منذ فتحها عمرو بن العاص، وحتى دخول العثمانيين مصر. وقد استخدم الباشا العثماني منصبه كوسيلة سهلة للإثراء الكبير والسريع على حساب الشعب المصرى حتى عاش أغلب الناس فى فقر مدقع وانكسار مستمر.

ثانيا ـ الجيش: وكان مكوناً من وحدات عددها حوالى ستة آلاف جندى (فارس)، وستة آلاف من الشاه حاملى البنادق.

ثالثاً ـ المماليك: وكان الأمراء المماليك الذين تحالفوا مع الدولة العثمانية أو أعلنوا الخضوع المباشر لها هم أساس ذلك الجانب من المماليك الذين سيطروا فعلياً على ما يمكن أن يسمى اليوم الحكم المحلى، أى مديريات الإقليم المصرى فى شمال وجنوب مصر، وكان عددها ١٢ مديرية (سنجقية).

وقبل أن يغادر السلطان سليم الأول مصر عائداً إلى بلاده قام بعض جنود الانكشارية بمحاولة لاغتياله بينما كان بالمقياس (مقياس النيل الذى كان بجزيرة الروضة إلى الغرب من الفسطاط).. ولكن المحاولة باءت بالفشل، فتم اعتقال أربعة وعشرين منهم حيث أمر السلطان بإعدامهم جميعاً. ولا يعرف على وجه التحديد لماذا قام هؤلاء بمحاولة لاغتيال سلطانهم.. ولكن تلك المحاولة سبقها بعدة أيام اغتيال أمير عثماني كبير بينما كان نائماً بواسطة جند عثمانيين، وبالرغم من اعتقال الجناة وإعدامهم إلا أن ذلك لا يفسر محاولة اغتيال السلطان العثماني نفسه. ومع هذا فمن الصحيح القول أن الجند العثمانيين لم يكونوا جميعاً من أصل عرقى أو جغرافى واحد[1]، وربما شعر هؤلاء الذين قاموا بمحاولة اغتيال

(١) «انحدر العنصر العثماني من عدة ولايات ومدن منها: استانبول، أنطاكية، قيسارية، منتشا، أزمير، نكسار، ملاطيا، عينتاب، أرزروم، بنى شهر.. هذا بالإضافة إلى بعض الولايات الأوروبية التابعة للدولة العثمانية، منها ولاية البوسنة، غاليبولى، أسبرطه.. والجزر مثل: كريت، رودس».. انظر لمزيد من التفاصيل: الوجود العثماني المملوكى فى مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ـ الدكتور عراقى يوسف محمد ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٥.

السلطان سليم الأول بالظلم الواقع عليهم لسبب أو لآخر، أو أن فئات أخرى من الجند العثمانيين يحظون بمميزات أفضل مما لهم فقاموا يحاولون الانتقام من سلطانهم.

ومهما كان الأمر فقد غادر سليم الأول مصر عائداً إلى بلاده[1] فترك نائباً له الأمير خاير بك (وهو الذى سماه المصريون خاين بك لخيانته للسلطان طومان باى، وكان من المماليك) كنائب للسلطنة وسمى ملك الأمراء.. وترك الأمير خير الدين باشا وهو عثمانى ليكون والياً فى مصر ومقره القلعة التى عليه ألا يغادرها.. وترك السلطان سليم الأول كذلك حامية عسكرية عثمانية من حوالى ستة آلاف عسكرى[2]، ومنذ ذلك الوقت وحتى استقلال محمد على بحكم مصر عام ١٨٠٥م، أصبحت مصر مجرد ولاية من الولايات فى الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، بعد أن كانت سلطنة مستقلة منذ الدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية والمملوكية.

أى على مدى ستمائة وخمسين عاماً (من عام ٨٦٨م وهى بداية الدولة الطولونية وحتى الاحتلال العثمانى عام ١٥١٧م).

وفى طريق عودة السلطان العثمانى سليم الأول، خارجاً من القاهرة، عائداً لبلاده، وكان بصحبته كبار رجال دولته وحاشيته، وعند بلدة الحظارة، قام السلطان سليم بإعدام واحد من أكبر وزرائه وهو الأمير يونس باشا، الذى كان قد ساعد سليم الأول فى الفوز بكرسى السلطنة العثمانية، عندما دب الخلاف عليه بين سليم الأول وإخوته ثم ساعده على احتلال الشام ومصر. ولا شك أن هذا يظهر من جديد دموية السلطان سليم الأول وحبه لسفك الدماء وخيانته لأقرب مساعديه والغدر بهم فى أى وقت.

---

(١) «أشيع أن ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة مابين ذهب وفضة، هذا خارجاً مما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس والخيول والبغال والجمال وغير ذلك، حتى نقل منها - أى من مصر - الرخام الفاخر، وأخذ منها من كل شىء أحسنه، مما لم يفرح به آباؤه ولا أجداده من قبله أبداً، وكذلك ماغنمه وزراؤه من الأموال الجزيلة وكذلك عسكره، فإنهم غنموا من النهب ما لايحصى.. وصار أقل مافيهم أعظم من أمير مائة ومقدم ألف (ألقاب عسكرية مملوكية) ما غنمه من مال وسلاح وخيول وغير ذلك.. فما رحلوا عن الديار المصرية إلا والناس فى غاية البلية».. انظر: المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس - كتاب الشعب - الجزء العاشر.

(٢) وصف ابن إياس الجند العثمانيين بما يلى: «وأما عسكره - أى جند سليم الأول - فكانوا جميعاً عيونهم دنية، ونفوسهم قذرة، يأكلون وهم راكبون على خيولهم فى الأسواق، وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة وقلة دين، يتجاهرون بشرب الخمر فى الأسواق بين الناس. ولما جاءهم شهر رمضان كان أغلبهم لايصوم ولا يصلى فى الجامع، ولا صلاة الجمعة إلا قليل منهم، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة، وليس لهم نظام يعرف لا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم، وهم همج كالبهائم». انظر: المختار من بدائع الزهور - المرجع السابق - الجزء العاشر.

الإعدام السياسى فى عهد الولاة العثمانيين:

ومهما كان الأمر فقد بدأ خاير بك حكمه لمصر تحت الرايات العثمانية فأفرج عن عدد كبير من المماليك الذين كانوا تحت الاعتقال، وظهر جلياً من هذه الخطوة أن اضطهاد المماليك الجراكسة قد انتهى بعودة السلطان العثمانى لبلاده.

ولعل القارىء الكريم يتذكر أن الخلاف فى بيت السلطنة العثمانية بين الأشقاء أولاد السلطان يزيد بن عثمان بعد وفاته، وفرار الأمير (قرقد) إلى مصر أيام دولة السلطان الغورى كان سبباً وراء مهاجمة العثمانيين لمصر خشية أن يتمكن الأمير قرقد من تكوين جيش مملوكى يهاجم به الدولة العثمانية. ومع ذلك فلم يحدث ذلك.. ولكن كان هناك أمير عثمانى آخر يدعى قاسم بك بن يزيد، كان قد فر من تركيا وأتى إلى مصر ولكنه اختفى بعد هزيمة كل من السلطان الغورى والسلطان طومان باى. وكان السلطان سليم الأول يعمل له حسابه، ويخشى أن يظهر فيلتف من حوله الجند العثمانيون ويبايعونه للسلطنة. ولقد ظل الأمير قاسم بك متخفيا بالصعيد إلى أن غادر مصر السلطان العثمانى فكثرت تحركاته وعلم بمكانه نائب السلطنة بمصر الأمير خاير بك فألقى القبض عليه سراً، واستشار فى أمره الأمراء والأعيان الذين طالبوا بإبلاغ السلطان سليم الأول، ولكن خاير بك رفض ذلك بحجة أن خبر اعتقال الأمير قاسم بك سوف يفشى بين الناس مما قد يساعد الجنود العثمانيين بمصر وعددهم حوالى ستة آلاف جندى على الالتفاف حوله ومبايعته سلطاناً عثمانيا بمصر، ولهذا أمر جنوده بإعدامه فى السجن، فدخلوا عليه وخنقوه، وكان ذلك فى عام ١٥١٨م، وأرسل خاير بك بعد ذلك رأسه فى علبة إلى السلطان سليم الأول. ولقد حزن الجند الانكشارية العثمانيون على قتل قاسم بك حزناً شديداً، ويبدو أنهم كانوا يرون فيه أملاً يمكن أن ينقذهم من طغيان سليم الأول.. وربما يدل قدر كراهيتهم لسليم الأول على رفضهم السفر إلى تركيا بناء على طلبه، والتخفى بين الناس، مما يعتبر تمرداً عسكرياً واضحاً، مما دفع بملك الأمراء نائب السلطنة خاير بك إلى تحذير المصريين بعدم إيواء الانكشارية وإخفائهم، وإلا تعرضوا للإعدام الفورى.

ولقد كان السبب فى طلبهم من قبل السلطان العثمانى سليم الأول دعم قواته للدفاع عن حلب من هجوم فارسى متوقع. ولقد خرجت فرقة من الجنود العثمانيين للبحث عن الانكشارية الهاربين من أداء الخدمة، ودارت بين الطائفتين معارك متفرقة انتهت بمعركة

فى النيل فوق السفن فغرق بعض الجنود الانكشارية وتم اعتقال الباقين وعددهم نحو مائة وخمسين جندياً، فأرسلوا إلى القاهرة حيث أمر ملك الأمراء خاير بك بإعدامهم جميعاً، فقام المماليك الجراكسة بإعدامهم.

وفى نفس العام (١٥١٨م)، حدثت فتنة بين الأعراب الذين أخذوا يهاجمون المطرية (شرق الدلتا)، فأرسل لهم ملك الأمراء خاير بك فرقة من المماليك الجراكسة والجند العثمانيين تمكنوا من أسر أربعة من قادة الأعراب حيث أعدموهم، وأرسلوا برؤوسهم إلى القاهرة، أما من أسر من عامة الأعراب فقد أرسل إلى القاهرة كذلك حيث تم شنقهم.

وبعد ذلك بعدة أيام أمر ملك الأمراء خاير بك بإعدام شخص اتهمه بالتجسس لصالح الفرس فشنق، بالرغم من أن تلك التهمة كانت ظالمة، والصحيح أن خاير بك طمع فى أموال ذلك الشخص واستولى على أمواله كافة. ويبدو جلياً أن خاير بك كان تواقاً للسير على مسلك السلطان سليم الأول، فتقمص دمويته وقسوته، وقد وصفه ابن إياس بأنه: «يبيت يسكر طول الليل، ويصبح فى خبال السكر يحكم بين الناس بما يقول له عقله ولم يظهر العدل فى محاكماته قط منذ ولى على مصر». ووصفه فى مكان بأنه كان «عجولاً فى أمر القتل، وقد شنق وخوزق ووسط فى أيام ولايته على مصر ما لا يحصى من الناس، والغالب راح ظلماً من غير ذنب»(١).

ولم تنته سنة ١٥١٨م إلا وأمر ملك الأمراء خاير بك بشنق ستة أشخاص من الأعراب الذين شكلوا خطراً على دولته.

وفى مستهل عام ١٥١٩م، وقعت فتنة بين بعض طوائف الجند العثمانيين وبين ملك الأمراء خاير بك، حيث طالبوه بصرف رواتبهم المتأخرة منذ ثلاثة أشهر فلم يعرهم خاير بك اهتماماً، فتظاهروا فى الرميلة القريبة من القلعة، فتحدث فيهم الأمير جانم الحمزاوى، وهو أحد الأمراء المماليك، إلا أنهم غضبوا عليه وحاولوا قتله ففر هارباً، ثم تصدى لهم الأمير بخشباى، وهو أمير مملوكى كذلك، فضربوه بالسيوف فمات متأثراً بجراحه. ولما وصلت الأخبار إلى ملك الأمراء خاير بك أمر باعتقال قتلة الأمير بخشباى وكانوا سبعة

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس - كتاب الشعب - الجزء العاشر، والجزء الحادى عشر على التوالى.

حيث أمر بإعدامهم جميعاً، فشنق ستة منهم بحبال علقت بشجرة نبق بجوار مدرسة السلطان حسن، أما السابع فأعدم شنقاً كذلك، ولكن عند باب النصر.

وفى الحقيقة فلم تكن الاضطرابات السياسية تحدث فى مصر من الأعراب أو من الجند العثمانيين فحسب، بل إنها حدثت كذلك من المماليك الجراكسة أنفسهم. فقد ذكر أن عشرة منهم حاولوا الفرار من مصر - وكان ذلك محظوراً - والتوجه إلى الشام عند الأمير جان بردى الغزالى الذى يبدو أنه وعدهم بمراكز أفضل، فلما خرجوا من القاهرة ووصلوا إلى مكان يسمى قطيا على مقربة من الصالحية بشرق الدلتا، اعتقلهم حاكم المدينة وأرسل إلى ملك الأمراء يطلب مشورته إزاءهم، فأمر خاير بك بإعدامهم جميعاً، وكان مع هؤلاء رجل من الأعراب. يساعدهم ويرشدهم على الهروب فى الصحراء، فأعدم هو أيضاً. ولقد جاء ذلك الحدث كوقع الصدمة على بقية المماليك الجراكسة بمصر الذين شعروا بأن خاير بك (وهو جركسى كذلك) قد تمادى فى الظلم.. أما الأمير جان بردى الغزالى فقد غضب من خاير بك ورغب فى الانتقام منه.

وفى العام التالى (١٥٢٠م) خرجت حملة مملوكية عثمانية لتأديب الأعراب (عرب السوالم) الذين كانوا يهاجمون مديرية الشرقية، وتم اعتقال ستة عشر منهم حيث تم سلخ ستة أعراب، وحشى جلدهم تبنا، وأعدم عشرة آخرون وقطعت رؤوسهم، وأرسل كل هذا إلى القاهرة حيث علق المماليك الجلود المسلوخة والرؤوس المقطوعة فوق باب زويلة وباب النصر.

وقبل نهاية ذلك العام، أصدر ملك الأمراء خاير بك أمراً بتخفيض قيمة العملة، وإجبار الناس على استخدام العملات الفضية بجوار الذهبية، وإن من يرفض التعامل بالعملة الفضية يعدم على الفور.. ولقد جاء ذلك الفرمان والفقر يعم البلاد، فراح ضحية لذلك الفرمان الظالم عدة أشخاص.

وفى نهاية ذلك العام توفى السلطان العثمانى سليم الأول، عن عمر يناهز سبع وأربعين سنة، فخلفه ابنه سليمان بن سليم وعمره ثمان وعشرون سنة، فأرسل إلى ملك الأمراء خاير بك رسولاً ومعه فرمان باستمرار خاير بك فى حكم مصر تحت النفوذ العثمانى، فاستمر خاير بك فى سياساته القمعية ضد المماليك والجند الانكشارية والشعب المصرى على حد سواء. فقد اعتقل أحد الغلمان من المماليك الجراكسة، كان قد ذهب إلى

الشام عند الأمير جان بردى الغزالى الذى تمرد على السلطنة العثمانية ونصب نفسه حاكماً مستقلاً هناك، وسمى نفسه الملك الأشرف، فلما اعتقل ذلك المملوك الذى ظن خاير بك أنه جاسوس أمر خاير بك بتوسيطه، فتم ذلك بجوار باب السلسلة(١).

وفى بداية عام ١٥٢١م أمر ملك الأمراء خاير بك بإعدام أحد الأتراك لأنه أشاع عن خاير بك أنه يود أن يتمرد على السلطنة العثمانية ويستقل بحكم مصر، فتم إعدام ذلك الرجل ويدعى إياس فى منطقة سوق الخيل بحى الرميلة بجوار القلعة. وبعد عدة أيام من ذلك وصلت معلومات إلى خاير بك أن محمد بن شمس الدين محمد الفرنوى، وهو من أعيان القاهرة وكان مسئولاً عن وقف السلطان حسين قد قال كلاماً يفيد بأن الأمير جان بردى الغزالى سوف يأتى إلى مصر ليضمها إلى مملكته المستقلة بالشام وبذلك يزول حكم ملك الأمراء خاير بك، فأمر خاير بك بإعدام الفرنوى فتم الإعدام بحى الرميلة.

ولقد كان خاير بك شديد التخوف بالفعل من أن يؤدى تمرد الأمير الغزالى فى الشام (ولم يكن تابعاً لمصر) إلى تمرد مماثل من المماليك فى مصر، فأخذ بسياسة القسوة البالغة وقتل أى شخص يتشكك فيه، ولقد استمر ذلك جارياً حتى تمكن جيش عثمانى كبير من إلحاق الهزيمة بالغزالى فى الشام، حيث قتل فى تلك المعركة حوالى عشرة آلاف شخص وأسر فى عقبها الغزالى وقطع رأسه وأرسل إلى اسطانبول (العاصمة العثمانية)، فانتهت بذلك ثورته، ومع ذلك لم تنته قسوة ملك الأمراء خاير بك فى مصر. فبعد عدة أشهر من هزيمة الغزالى اعتقل خاير بك ثلاثة من كبار رجال المماليك الجراكسة بمصر كانوا من المؤيدين للأمير الغزالى فى الشام، فلما هزم الغزالى وأعدم، سير خاير بك رجاله وراء المماليك الثلاثة حتى تم اعتقالهم فى القاهرة فصدرت أوامر خاير بك بإعدامهم فقطعت رؤوسهم بالقلعة.. ثم أصدر خاير بك أوامره كذلك بتتبع كل مملوك جركسى من الذين أيدوا الغزالى واعتقاله وإعدامه فوراً.

وبعد عدة أسابيع على ذلك اعتقل خاير بك خمسة من المماليك الجراكسة واتهمهم بالخيانة والتمرد وأمر بإعدامهم شنقاً.

---

(١) باب السلسلة هو أحد الأبواب بجوار القصر الكبير الذى كان مقراً للخلفاء الفاطميين، ويقول المقريزى إن درب السلسلة كان بجوار مطبخ القصر. وكان هناك سلسلة ترمى فى المضيق مابين القصرين (قصرى الخلافة الفاطمية) فينقطع المار من ذلك المكان (بعد صلاة العشاء) إلى أن تضرب النوبة سحراً قرب الفجر فتنصرف الناس من هناك بارتفاع السلسلة (بمعنى رفعها). انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى - الجزء الأول - مكتبة الثقافة الدينية - الطبعة الثانية - القاهرة - ١٩٨٧م

وفى نهاية العام تقريباً اعتقلت سفن المماليك بعض سفن الفرنجة وأرسل من فيها إلى خاير بك حيث أخبره رجاله بأن تلك السفن كانت تقوم بأعمال قرصنة على الشواطىء المصرية، فأمر خاير بك بإعدام تسعة عشر شخصاً من الفرنجة وسجن الباقين. واتضح فيما بعد أنهم كانوا بحارة يتاجرون فى السلع. وأتبع خاير بك ذلك بعملية إعدام كبيرة مشابهة حيث اعتقل رجاله سفنا للفرنجة، ذكر عنها كذلك أن بحارتها يعبثون فى شواطىء مصر، فأمر خاير بك بإعدام تسعة عشر رجلاً منهم.. وقد علق ابن إياس المؤرخ المصرى المعروف على تلك الإعدامات التى نفذت فى أواخر عام ١٥٢٠م بقوله: «وربما يثور من هذه الحركة فتنة كبيرة بين الفرنج وبين أهل مصر بسبب ذلك، ويمنعون التجار من المرور فى البحر ويقتلونهم كما فعلوا بالفرنج المقدم ذكرهم»(١).

وفى عام ١٥٢٢م، مرض ملك الأمراء خاير بك، واستمر مريضاً عدة أيام أحس فيها بقرب نهايته، فسارع بعتق عبيده وجواريه وأفرج عن كل المعتقلين، وذبح الذبائح ووزعها على الفقراء، فلم يغن عنه ذلك شيئاً، ومات مخلفاً وراءه تاريخاً مظلماً ملطخاً بعار الخيانة والقسوة والظلم وسفك دماء الأبرياء، فقد خان زعيمه وأستاذه السلطان الغورى، وغدر برفيقه طومان باى، وتسبب فى احتلال مصر والشام بجحافل الجيوش العثمانية، وتسبب فى اعتقال وإعدام طومان باى، ثم قام بإعدام أعداد كبيرة من الناس فى مصر قدر عددهم بعشرة آلاف رجل أغلبهم قتل ظلماً.

ولما كانت القبضة العثمانية على مصر لا زالت فى عنفوانها فإن السلطان العثمانى سليمان بن سليم سارع بإرسال حاكم جديد لمصر- عثمانى الأصل على العكس من خاير بك الذى كان مملوكاً جركسياً- يدعى مصطفى باشا الذى كان زوجاً لابنة السلطان العثمانى سليم الأول، وهذا يدلنا على رغبة العثمانيين فى تولية أقربائهم حكم أقوى الولايات التابعة لهم. ومع ذلك فيبدو أن مصطفى باشا لم تعجبه الإقامة بمصر- بعد حوالى عشرة أشهر- فتولى من بعده أحمد باشا، فظهر النزاع بينه وبين المماليك الذين سارعوا بمحاولة قتله بموافقة السلطان العثمانى، ولكن أحمد باشا فطن للمحاولة وقام باعتقال المماليك الذين حاولوا اغتياله وأعدمهم، فزاد النزاع بينه وبين السلطان العثمانى، فقام أحمد باشا بإعلان استقلاله بمصر عن الدولة العثمانية، ولما لم يكن له فئة تنصره فى مصر، فقد ضعف موقفه بها فدخل عليه اثنان من أمرائه ليقتلاه ففر وتخفى لدى

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور- كتاب الشعب- الجزء الحادى عشر.

شيخ عربي يدعى (ابن بقر)، ولكن المماليك تتبعوا أثره إلى أن تمكنوا من قتله فقطع رأسه أمام باب زويلة. ولقد نبهت تلك الحادثة السلطان العثمانى إلى ضرورة التدقيق فى اختيار ولاة مصر وتقصير مدة حكمهم بها حتى لا يفكروا فى الاستقلال بها عن الدولة العثمانية، ولهذا فنحن نرى تبديلاً سريعاً للولاة من عام ٩٣١هـ إلى عام ٩٧٣هـ إذ حكم مصر فيها أحد عشر والياً، وفى عام ٩٧٣هـ كان والى مصر هو محمود باشا وكان قاسياً دموياً (قتل معظم أعيان القاهرة. فكان لا يمر إلا ومعه الشوباحى - رئيس الجلادين - فإذا مر بأحد وأراد قتله أشار بيده إلى الشوباحى، فيعمد حالاً إلى ذلك التعس ويقتله بأسرع من لمح البصر»[١]. وربما تكون قسوته تلك وراء سبب اغتياله عام ٩٧٥هـ ولم تعثر السلطات على قتلته، ولكنها اعتقلت اثنين من الفلاحين كانا بالمنطقة التى اغتيل فيها (البساتين) فتم تنفيذ حكم الإعدام فيهما.

وقام السلطان العثمانى سليم بن سليمان بإرسال سنان باشا ليكون والياً على مصر وكان ذلك عام ٩٧٦هـ، وفى ولايته تم إخضاع اليمن للدولة العثمانية وخلفه حسين باشا. الذى حكم مصر حوالى خمسة أعوام ونصف ثم استبدل بحسن باشا الذى صرف اهتمامه لجمع الأموال، فتم استبداله بإبراهيم باشا الذى ذهل من كثرة المظالم التى أحدثها حسن باشا فكاتب السلطان العثمانى فأمر بإعدام حسن باشا شنقاً. وفى عام ٩٩٤هـ حكم مصر أويس باشا، وفى عهده حدثت فتنة بين الجنود فى شوال من عام ٩٩٧هـ كانت نتيجتها مقتل عدة أمراء وقاضيين من القضاة فى مصر، وعمت الفوضى البلاد فاستبدل بحافظ أحمد باشا عام ٩٩٩هـ، وتتابع تعيين الولاة على مصر إلى أن حكمها على باشا السلحدار عام ١٠١٠هـ «وكان محباً للحرب ولذلك كان يكرم الجند على الخصوص، ولكنه كان سفاكاً للدماء، فتظلم الناس من قسوته، ولم يكن يخرج فى موكبه إلى المدينة أو ضواحيها إلا ويميت على الأقل عشرة أشخاص تحت حوافر جواده، فكان الناس يرتعدون خوفاً من ذكر اسمه، ورافق ذلك جوع عظيم فكثرت الوفيات وعم الخراب، فازداد الرعب حتى أمر الباشا أن تدفن الموتى سراً»[٢].

وفى عام ١٠١٣هـ تولى حكم مصر إبراهيم باشا، ويبدو أنه كان مثل أغلب ولاة مصر العثمانيين طاغية ظالماً محباً للمال، فمنع رواتب الجنود فثاروا عليه واغتالوه هو

---

(١) مصر العثمانية - تأليف جرجى زيدان - تحقيق د. محمد حرب - دار الهلال - القاهرة ١٩٩٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

وأحد مساعديه، بالقلعة وقطعوا رأسيهما. فخلفه محمد باشا الخادم الذى صمم على معاقبة قتلة إبراهيم باشا، وبالفعل تم له ذلك وأعدم رجلين اتهما باغتيال إبراهيم باشا، ثم أخذ الوالى الجديد فى تتبع كل من ثار من الجند فأعدم منهم حوالى مائتين فى خلال عدة أشهر.

وفى عام ١٠١٦هـ تولى حكم مصر محمد باشا، وما أن انتهى عام واحد من حكمه حتى ثارت فتنة بينه وبين الجنود بسبب ارتفاع الضرائب فقام بتجميع بعض قادة الجيوش الموالية له وحاصر المتمردين بالمدافع حتى استسلموا، فأعدم ٧٧ من رؤسائهم وأخذ يتتبع من لاذ بالفرار منهم حتى كثرت المذابح، وبالرغم من ذلك فقد عاد الوالى محمد باشا إلى مراجعة النظام الضريبى فأصلحه وخفف الأعباء بذلك عن الكثيرين فساد البلاد جو الاستقرار والطمأنينة.

وفى عام ١٠٢٧هـ كان والى مصر هو مصطفى لفغلى، وفى مدة حكمه الصغيرة اندلعت انتفاضة من قبل الجند كانت نتيجتها مقتل العديد من كبار رجال الدولة، فسارع السلطان العثمانى عثمان الثانى بعزل الوالى مصطفى باشا فهدأت الأحوال بمصر. «فتولى مكانه الوزير جعفر باشا وهذا لم تطل حكومته أكثر من خمسة أشهر ونصف. وكان محباً للعلم والعلماء، يجمع إليه رجال الأدب، ويكرم مثواهم، ولم يهتم كل تلك المدة إلا بما فيه منفعة البلاد وراحة العباد. وظهر فى أيامه وباء انتشر فى مصر، وفتك بأهلها فتكاً، من غاية ربيع الأول سنة ١٠٢٨هـ إلى غاية جمادى الثانية من السنة المذكورة. وقد لوحظ أن معظم الذين ماتوا بهذا الوباء شبان بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من أعمارهم، وبلغ عدد من توفى بسببه ٣٦٥,٠٠٠ نفس»(١).

وفى عام ١٠٣٥هـ ظهر وباء شديد آخر قتل فيه ٣٠٠,٠٠٠ نفس وكان يحكم مصر فى ذلك الوقت مصطفى باشا، الذى قام باستلاب أموال كل من مات بسبب ذلك الوباء وخاصة من الأثرياء، فسارع ذوو هؤلاء بمخاطبة السلطان العثمانى بالاستانة وتظلموا لديه من أفعال الوالى فعزل مصطفى باشا واعتقله واستصفى أمواله كلها ثم أعدمه بالاستانة عام ١٠٣٧هـ.

وفى سنة ١٠٤٠هـ (١٦٣١م) تولى حكم مصر الوالى موسى باشا وسرعان ما استبد

(١) مصر العثمانية - تأليف جرجى زيدان - دار الهلال (مرجع سابق).

بأمر الحكم وأظهر قسوته وطغيانه فلما هاجمه أكابر القوم بمصر سارع بقتلهم ظلماً، فثار عليه كبار قادة الجند وعزلوه بعد مخاطبة السلطان العثمانى.

وفى عام ١٠٤٣هـ كان يحكم مصر الوالى أحمد باشا الذى أرهق الناس بالضرائب، وأخذ يجمع الأموال الكثيرة لنفسه بدلاً من السلطان الذى غضب عليه واستدعاه ليصدر حكماً بإعدامه فى الاستانة، فخلفه حسين باشا الذى جدد المظالم على شعب مصر بالإضافة إلى حبه لسفك الدماء فكان يقتل فى كل يوم يخرج فيه بالمدينة شخصاً أو شخصين. «وقد حسب عدد الذين ذهبوا فريسة عتو هذا الغاشم فى مدة حكمه وهى سنة و١١ شهراً، فبلغوا نحواً من ألف ومائتى نفس غير الذين كان يقتلهم بيده»(١).

واستمرت مصر تحكم من قبل الولاة العثمانيين حتى عام ١١١٥هـ (١٧٠٣م) إلى أن انتقل الحكم إلى المماليك تحت قيادة وإشراف السلطان العثمانى، وكان ذلك بسبب دخول الدولة العثمانية مرحلة الارتباك والضعف بعد سلسلة الهزائم التى منيت بها فى أوربا وخاصة أمام الروس، وبسبب «تزايد ورود المماليك إلى مصر بشكل متدفق خلال القرن الثامن عشر بعد أن تراخت قبضة الدولة على ولاياتها، مما أفسح المجال للعصبيات المحلية لأن تقوى على حسابها.

ويظهر من خلال دراسة وثائق المحاكم الشرعية فى القرن الثامن عشر أن الأوجاقات العسكرية العثمانية قد امتلأت بأعداد هائلة من المماليك بصورة أفقدت العنصر العثمانى فيها فاعليته ونفوذه وخاصة أنه لم يحدث توازن فى تزويد الأوجاقات من الجانب العثمانى وإنعاشها من حين لآخر، فرجحت كفة المماليك فيها، وأصبحت قيادات الأوجاقات فى أيديهم وشغلوا المناصب الهامة فى ولاية مصر»(٢).

«وتعد البيوت المملوكية التى عرفتها مصر إبان القرن الثامن عشر امتداداً للتقاليد المملوكية السابقة (إبان حكم دولتى المماليك الترك، والجراكسة) وإن كانت فى صورة مضطربة عن ذى قبل، فتغيرت الأهداف والوسائل، إذ أصبحت طموحات هذه البيوت المملوكية تتجه إلى الفوز بمنصب مشيخة البلد، زعامة المماليك بمصر- وليس عرش

(١) مصر العثمانية- جورجى زيدان- المرجع السابق.
(٢) الوجود العثمانى المملوكى فى مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر- الدكتور عراقى يوسف محمد- دار المعارف ١٩٨٥ - القاهرة.

السلطنة المملوكية كما هو الحال سابقاً. وإذا كان السلطان المملوكى قد منح مماليكه الإقطاعات الواسعة مكافأة لهم على خدماتهم وضماناً لولائهم نحوه، أصبح مؤسسو البيوت المملوكية فى القرن الثامن عشر يحرصون على إلحاق أتباعهم فى الأوجاقات العسكرية للحصول على رواتب نقدية وعينية - جرايات - مع استمرار رابطة الولاء تجاههم، ويتركون لأتباعهم وسائل النهب والسلب لأموال الرعية وممتلكاتها دون مراعاة لمصالح المحكومين وتدهور الأوضاع الداخلية بالبلاد»[١].

«ويعد الصراع بين طائفتى الفقارية والقاسمية خلال القرن السابع عشر بولاية مصر البداية الحقيقية لهذه البيوت المملوكية»[٢].

ولقد أورد الجبرتى قصتين مختلفتين لتفسير ظهور طائفتى المماليك:

القاسمية والفقارية. الأولى تعود إلى الفترة الأولى لدخول السلطان العثمانى مصر ومعرفته بوجود مملوك جركسي: «يسمى سودون الأمير، طاعن فى السن كبير، رزقه الله تعالى بولدين شهمين بطلين، لا يضاهيهما أحد فى الميدان»[٣] فلما دخل العثمانيون مصر وأخذوا يقتلون المماليك الجراكسة اختفى الرجل وابناه وتفرغ بهما للعبادة. فلما علم سليم الأول بذلك استدعى الرجل وولديه (قاسم وذو الفقار)، وطلب أن يترامح (أى يلعبا بالرمح وكأنهما فى قتال ضد بعضهما البعض) الولدان بعد أن ضم فرسان العثمانيين إلى ذى الفقار، وشجعان المصريين إلى قاسم. وقد أعجب سليم الأول بالعرض الذى قدم له ولكنه نسى أن ذلك التقسيم سوف يجر الفوضى وسفك الدماء فى مصر، يقول الجبرتى: «ولم يزل الأمر يفشو ويزيد (يقصد النزاع بين طائفة القاسمية وطائفة الفقارية) ويتوارثه السادة والعبيد، حتى تجسم ونما، وأهريقت فيه الدماء فكم ضربت بلاد، وقتلت أمجاد! وهدمت دور، وأحرقت قصور! وسبيت أحرار، وقهرت أخيار!»[٤].

أما القصة الثانية التى يوردها الجبرتى عن ظهور طائفتى القاسمية والفقارية، فهى: «أن أصل القاسمية ينسبون إلى قاسم بيك الدفتردار تابع مصطفى بيك، والفقارية نسبة إلى

---

(١) الوجود العثمانى المملوكى فى مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر - الدكتور عراقى يوسف محمد.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المختار من تاريخ الجبرتى - الجزء الأول - كتاب الشعب - اختيار محمد قنديل البقلى.

(٤) المرجع السابق نفسه.

ذى الفقار بيك الكبير. وأول ظهور ذلك من سنة ١٠٥٠هـ (١٦٤٠م) والله أعلم بالحقائق». «واتفق أن قاسم بيك المذكور أنشأ فى بيته قاعة جلوس، وتأنق فى تحسينها، وعمل فيها ضيافة لذى الفقار بيك أمير الحج المذكور، فأتى عنده وتغدى عنده بطائفة قليلة. ثم قال له ذو الفقار بيك: وأنت أيضاً ضيفى فى غد. وجمع ذو الفقار مماليكه فى ذلك اليوم - صناجق وأمراء واختيارية - وحضر قاسم بيك بجمع من طائفته، فدخل قاسم بيك عنده فى البيت. وأوصى ذو الفقار أن لا أحد يدخل عليهما إلا بطلب، إلى أن فرشوا السماط، وجلس صحبته على السماط، فقال قاسم بيك: حتى يقعد الصناجق والاختيارية!

فقال ذو الفقار: إنهم يأكلون بعدنا، هؤلاء جميعهم مماليكى، عندما أموت يترحمون علىّ ويدعون لى.. وأنت قاعتك تدعو لك بالرحمة! لكونك ضيعت المال فى الماء والطين! فعند ذلك تنبه قاسم بك، وشرع ينشىء إشراقات كذلك. وكانت الفقارية موصوفة بالكثرة والكرم، والقاسمية بكثرة المال والبخل»[1].

ولقد حدثت أعمال عنف كثيرة بين كلتا الطائفتين على مدار عقود ممتدة من الزمن اتصفت بأعمال القتل والنهب والتدمير، وفى بعض الأحيان بالمعارك اليومية الطاحنة فى سبيل السيطرة على الوظائف والإقطاعات، ويصعب على الباحث استخلاص أعمال الإعدام السياسى من بين تلك المجازر وعمليات القتل بينما يسهل عليه إجلاء عمليات الخطف والاغتيال.

ولقد استمرت تلك الأحداث بصورة متصلة أو متقطعة حتى تمكن على بك الكبير، وهو أحد أمهر أمراء المماليك أن يستقل بمصر عن الدولة العثمانية محدثاً بذلك أول انهيار داخلى كبير فى صرح الإمبراطورية العثمانية. ولا شك أن على بك الكبير استغل الحروب المتتالية بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية فى الاستقلال بمصر عن الخلافة، ولكنه كان قبل ذلك، وبعد وصوله إلى منصب والى مصر يسير على سياسة إضعاف الجيش العثمانى بمصر حتى لا يكون - فى المستقبل - قوة تضعفه وتهزمه إذا ما جاءت الفرصة لتنفيذ مخططه للاستيلاء على البلاد. وأخذ يرقى أمراء المماليك الموالين له، ويزيد من استجلاب المماليك إلى مصر حتى كون جيشاً قوياً قوامه ستة آلاف مملوكى أخذ به يقضى على نفوذ كل من تصور أنه يمكن أن يشكل ضده خطراً. ولما فرغ بسرعة من

(١) المرجع السابق نفسه.

ذلك سير جيشاً من عشرين ألفاً لدخول اليمن والحجاز وطلب أن يذكر اسمه فى المسجد الحرام بدلاً من السلطان العثمانى، ثم سير جيشاً كبيرا عام ١١٨٥هـ (١٧٦٤م) لإخضاع الشام بمساعدة الشيخ ضاهر العمر، ولا شك أن كل تلك الأحداث جعلت الدولة العثمانية فى حالة قلق وخطر شديدين، فنظرت إلى على بك الكبير على أنه خائن يستحق القتل، ولقد أشار أحد أهم كتب تاريخ الدولة العثمانية إلى تلك الأحداث بالقول(١): «... كان على بيك الملقب بشيخ البلد الذى استقل تقريباً بشئون مصر تخابر مع قائد الدونانمة الروسية (البحرية الروسية) بالبحر الأبيض المتوسط ليمده بالذخائر والأسلحة حتى يتم استقلال مصر، فساعده القائد الروسى رغبة فى وجود الحروب الداخلية فى الدولة (العثمانية) وبذلك أمكن لعلى بيك فتح مدائن غزة ونابلس وأورشليم (القدس) ويافا ودمشق وكان يستعد للسير إلى حدود بلاد الأناضول إذ ثار عليه أحد بيكاوات المماليك وهو محمد بيك الشهير بأبى الذهب، فعاد على بيك إلى مصر لمحاربته فانهزم. وبعد أن تحصن فى القلعة التجأ إلى الشيخ طاهر الذى كان عاملاً على مدينة عكا من قبل الدولة العلية واستأثر بها واتحد معه على محاربة العثمانيين بالاتحاد مع الروس وتخليص مدينة صيدا التى كانوا يحاصرونها فسارا إلى هذه المدينة والتقيا بالعثمانيين خارجها وانتصرا عليهم بمساعدة المراكب الروسية التى كانت ترسل مقذوفاتها على الجيش العثمانى ثم أطلقت السفن الروسية قنابلها على مدينة بيروت فأخربت منها نحو ثلاثمائة بيت، وبعد ذلك عاد على بيك إلى مصر فى محرم سنة ١١٨٧هـ الموافق ابريل سنة ١٧٧٣م لمحاربة محمد بيك أبى الذهب وانضم إلى جيوشه أربعمائة جندى روسى فقابلهم أبو الذهب عند الصالحية بالشرقية وفاز عليهم بالنصر وأسر على بيك وأربعة من ضباط الروس بعد أن قتل كل من كان معهم ورجعا إلى مصر، حيث توفى على بيك مما أصابه من الجراح فقطع رأسه وسلمه مع الأربعة ضباط الروسيين إلى الوالى العثمانى خليل باشا وهو أرسلهم إلى القسطنطينية».

أما الجبرتى فيقول أن على بيك قد قتل بدس السم فى جراحه، ففى الثامن من مايو ١٧٧٣م «توفى الأمير على بيك وذلك بعد وصوله (إلى مصر) بسبعة أيام.. قيل إنه سم فى جراحاته فغسل وكفن، ودفنوه عند أسلافه بالقرافة»(٢).

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية - تأليف الأستاذ محمد فريد بك المحامى - دار الجيل - بيروت - ١٩٧٧.
(٢) المختار من تاريخ الجبرتى - الجزء الأول - كتاب الشعب - اختيار محمد قنديل البقلى.

الفصل الثامن

الإعدام السياسي منذ الحملة الفرنسية وحتى القضاء على النظام الملكي

كيف احتل الفرنسيون مصر؟:

أخذت الأوضاع فى أوربا تدفع كلا من بريطانيا وفرنسا للتصارع.. فقامت فرنسا بتجهيز حملة بحرية كبرى قوامها حوالى ٤٦ ألف رجل لغزو مصر، وذلك لتحقيق عدة أهداف هامة، فهى أرادت تذكير الشرق بالحملات الصليبية التى جرت فى العصور الوسطى وبمدى تقدم الغرب بالثقافة والمعارف والعلوم على الشرق المتمسك بالخرافات والتواكل والفساد. وهى ثانية أرادت استمرار إلحاق الهزائم ببريطانيا فى الشرق وقطع إمدادات السلع عنها من مستعمراتها فى الهند مثلما ساعدت على هزيمتها فى الغرب (حرب التحرير فى الولايات المتحدة الأمريكية). ثم هى - أى فرنسا - أرادت إنشاء إمبراطورية لها فى الشرق تعادل أحلامها فى إنشاء إمبراطورية تكون هى زعيمتها فى أوربا.

وقد وصلت تلك الحملة بقيادة نابليون بونابرت وبعض من أمهر القادة العسكريين الفرنسيين فى الأول من يوليو عام ١٧٩٨ إلى غرب الإسكندرية (منطقة العجمى حالياً).. وبعد يومين من ذلك أخذت تسير تجاه الإسكندرية التى كانت تقريباً بلا استعدادات هامة تذكر لصد حملة عسكرية مجهزة بكل أسلحة النصر الحديثة فى ذلك الوقت.

ولقد خاض المصريون بقيادة زعيم وحاكم الإسكندرية محمد كريم معارك شرسة فقد فيها الفرنسيون حوالى ثلاثمائة قتيل وجريح وفقد فيها المصريون حوالى ضعف ذلك العدد، وبعدها احتلت الإسكندرية من قبل الغازى. ولقد حاول المماليك صد القوات الفرنسية ولكن محاولتهم باءت بالفشل فدخل الفرنسيون القاهرة فى ٢٤ يوليو، وهى المرة الأولى التى يدخل مدينة القاهرة قوات احتلال أوربية منذ دخول الإسلام مصر، ولقد حدث ذلك فى تاريخ حكم الأتراك العثمانيين المظلم للبلاد، ذلك الحكم الذى اعتمد على فروسية المماليك وتجاهل تحصين مصر بالسلاح الحديث الذى كانت أوربا تستخدمه منذ القرن السادس عشر.

كانت الإسكندرية إذن هى أول مدينة مصرية تواجه جنود الغزو الفرنسى، وكان أول شهداء مصر الأبرار من هذه المدينة العريقة ولهذا فلم يكن مستغرباً ألا يستكين أهلها أمام طغيان العدو وظلمه وسفكه دماء أهلها واحتلالها. كذلك كانت الإسكندرية هى المدينة الأولى التى تنبثق منها روح الجهاد ضد جنود الاحتلال.

إعدام محمد كريم:

ولقد تمكن حاكم المدينة وزعيمها محمد كريم من التوصل إلى فكرة المقاومة السرية ضد قوات الاحتلال الفرنسية بعد أن تمكن هؤلاء من السيطرة على المدينة، فقد عرف محمد كريم أنه ليس لديه القوات العسكرية المنظمة لكى يخوض غمار حرب شاملة، فوجد أن خير وسيلة هى أن يدفع سكان الإسكندرية لاغتيال الجنود الفرنسيين فى كل فرصة سانحة، وعندما أخذ الجنود الفرنسيون يتساقطون تباعاً، سارعت القيادة الفرنسية باعتقال محمد كريم واتهموه بتنظيم المقاومة الشعبية ضدهم، وكان ذلك فى العشرين من شهر يوليو. وأرسل محمد كريم إلى القاهرة حيث حوكم أمام محكمة فرنسية، وأصدر نابليون بونابرت قراراً بإعدامه بالرصاص أو أن يدفع فدية عن نفسه قيمتها ثلاثون ألف فرنك فرنسى، فعجز محمد كريم عن دفع الفدية، فنفذ فيه حكم الإعدام فى صباح الخامس من سبتمبر عام ١٧٩٨م، والذى وصفه الجبرتى كما يلى: «فلما كان قريب الظهر، وقد انقضى الأجل أركبوه حماراً، واحتاط به عدة من العساكر، وبأيديهم السيوف المسلولة، وبقدمهم طبل يضربون عليه، وشقوا به الصليبة (حى بجوار القلعة) إلى أن ذهبوا إلى الرميلة، وكتفوه وربطوه مشبوحاً، وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه، ثم قطعوا رأسه ورفعوه على نبوت، وطافوا به بجهات الرميلة، والمنادى يقول: هذا جزاء من يخالف الفرنسيس. ثم إن أتباعه أخذوا رأسه، ودفنوه مع جثته، وانقضى أمره...»(١).

---

(١) المختار من تاريخ الجبرتى - الجزء الثالث - كتاب الشعب ١٩٥٨.

وقد قامت الحكومة المصرية عام ١٩٥٤ بتكريم الشهيد الكبير محمد كريم، وذلك ببناء مسجد يحمل اسمه فى الإسكندرية كتب على لوحته: «بسم الله الرحمن الرحيم - مسجد محمد كريم - إكباراً للبطولة، وتكريماً للرجولة، واعتزازاً بالوطنية وإنصافاً للتاريخ، رأت وزارة الأوقاف أن تطلق اسم السيد محمد كريم على هذا المسجد فى حى رأس التين. والسيد محمد كريم حاكم الإسكندرية وابنها البار وشهيدها العظيم، اعتقله الجيش الفرنسى وقتله رمياً بالرصاص فى مدينة القاهرة بجوار القلعة يوم ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨م، وهو يدافع عن أمته ويذود دنس الاحتلال عن شرف وطنه العزيز». انظر: تاريخ مصر السياسى من الحملة الفرنسية إلى انهيار الملكية - تأليف أمين سعيد.

بعد ذلك أخذ جنود الحملة الفرنسية ينتشرون فى كافة أنحاء مصر وخاصة فى الدلتا التى شعر سكانها الوطنيون بأن عليهم واجبا مقدسا لمواجهة الاحتلال.. وأخذت الانتفاضات تتوالى، فقام الفرنسيون كعادتهم بمقابلة المصريين بالقسوة والعنف واعتقلوا خمسة من زعماء مدينة الرحمانية فى ديسمبر عام ١٧٩٨م وأعدموهم، ثم اعتقلوا زعماء آخرين من مدينتى إدكو وإدفينا وأعدموهم كذلك.

ويبدو أن الإعدام كان يستخدم بطريقة منتظمة بشعة من قبل الفرنسيين لدرجة أنهم أعدموا تقريباً معظم الزعماء المصريين فى فترة وجيزة من الزمن، وفى أى مكان قابلوهم.. وإن دلنا ذلك على شىء فإنما يدل على قوة معدن المصريين واستعدادهم للموت بالفعل فى سبيل تطهير بلادهم من أى محتل غاشم.. ويدلنا ذلك على مدى البربرية التى وصلتها دولة أوربية كانت تتشدق بحقوق الإنسان وبالإخاء والمساواة، وهى الأفكار التى ظهرت عقب الثورة الفرنسية وظهور الفكر الليبرالى فى أوربا وصدور الدستور الفرنسى الذى نصت مادته السادسة والثلاثون على: أن من يضطهد أمة واحدة يعلن نفسه عدوا لجميع الأمم.. ونصت مادته السابعة والثلاثون على أن الذين يحاربون شعبا من الشعوب لكى يوقفوا تقدم الحرية ويطمسوا حقوق الإنسان يجب أن تلاحقهم جميع الشعوب لا كأعداء عاديين وإنما كمجرمين قتلة وكلصوص عصاة.

أما فى القاهرة فقد اندلعت ثورة كبرى كان سببها مرتبطا بقيام نابليون بزيادة الضرائب على المصريين بكافة فئاتهم، وقيام جنده بتخريب بعض المناطق السكنية وبعض معالم القلعة، بما فى ذلك ما كان قد تركه سلاطين المماليك العظام من زخرفة وأسلحة ودروع، وقاموا بهدم القصر الذى كان يسكنه صلاح الدين الأيوبى (وهو الذى كان قد ابتنى تلك القلعة عندما دخل مصر وأزال حكم الفاطميين) ثم أخذ الفرنسيون يسرقون ويسلبون كل ما يجدونه ذا قيمة لهم ويقتلون من كان يعترض على ذلك من الأهالى.

ويبدو جلياً أن نابليون بونابرت هو الذى أباح لجنوده تلك الأفعال، ففى الرسالة التى وجهها نابليون نفسه يوم ٣٠ يوليو، أى بعد أسبوع من دخوله القاهرة، إلى الجنرال زايوشك حاكم المنوفية قال: «يجب أن تعاملوا الترك (الأهالى) فى منتهى القسوة، وإنى هنا أقتل كل يوم ثلاثة، وآمر أن يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة وهذه هى الطريقة

الوحيدة لإخضاع الناس، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لإخضاعهم وتجريدهم من جميع أنواع السلاح»[١].

«وأرسل نابليون رسالة بمثل هذا المعنى إلى الجنرال مينو حاكم رشيد قال فيها: ولا يمكن إخضاع هؤلاء القوم إلا بالقسوة، وإنى كل يوم آمر بقتل خمسة أو ستة أشخاص...»[٢].

وإزاء كل تلك القسوة والظلم والطغيان بدأت بذور الثورة تتفتح تدريجياً. ولما كان رجال الدين هم الصفوة السياسية المؤثرة فى اتجاهات الرأى العام فى ذلك الوقت، فقد أخذت المساجد تتحول إلى حث المصريين على الانتفاض والثورة، وقاد تلك الصحوة الكبرى علماء الأزهر الشريف الذى كان منارة العلم والفكر والسياسة.. وفى الثانى والعشرين من شهر أكتوبر ١٧٩٨م، قام التجار بإغلاق متاجرهم وتجمعوا وأخذوا يهتفون بسقوط الفرنسيين وضرورة رحيلهم عن البلاد، وما أن سمع الأهالى تلك الهتافات حتى التفوا من حول التجار واتجهوا لحى الأزهر لتنظيم صفوفهم، وهناك اتفقوا على الذهاب إلى مقر نابليون نفسه ليعرضوا عليه مطالبهم، وفى الطريق قابلهم الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكرى الفرنسى، فلما حاول مهاجمتهم التفوا من حوله وقتلوه ثم تمكنوا من تأمين بوابات القاهرة الجنوبية. ولقد أخذ عدد الثوار يتزايد فأصدر نابليون عدة قرارات سريعة لتوزيع قواته ومدافعه لإخماد الثورة. وفى صباح اليوم التالى أخذ الثوار يتقاتلون مع الجنود الفرنسيين كل بسلاحه وخبرته، ولكن لما كان للفرنسيين مدافع قوية نصبت فوق جبل المقطم من الجهة المطلة على شرق القلعة، فقد استخدموها لضرب الجامع الأزهر. ويقول الكولونيل دوترى فى مذكراته: إن ضرب الأزهر بالقنابل بدأ عند الظهر، وإن أول قنبلة أطلقت كانت من المدفع المنصوب على سفح المقطم، واستمر الضرب حتى الساعة الثامنة مساء، فسقطت آلاف القنابل على الأزهر والأحياء المجاورة كالصنادقية والغورية والفحامين. وجاءت بعد ذلك الكتائب فاحتلت الطرق المؤدية إلى الأزهر»[٣].

وبهذا نجح الفرنسيون فى إحداث أكبر تدمير ممكن لمركز القاهرة الذى اندلعت منه

---

(١) تاريخ مصر السياسى من الحملة الفرنسية إلى انهيار الملكية - تأليف أمين سعيد - مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه - القاهرة ١٩٥٩.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) تاريخ مصر السياسى - من الحملة الفرنسية إلى انهيار الملكية - أمين سعيد - مرجع سابق.

الثورة. وقد وصف المؤرخ المصرى الكبير عبد الرحمن الجبرتى ما شهده بنفسه من تدمير للأزهر وأحيائه فقال فى تاريخه:... فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وجرروا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين: كسوق الغورية، والفحامين. فلما سقط عليهم ذلك ورأوه، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه، نادوا: يا سلام من هذه الآلام، ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف! وهربوا من كل سوق، ودخلوا فى الشقوق. وتتابع الرمى من القلعة والكيمان.. حتى تزعزعت الأركان، وهدمت فى مرورها حيطان الدور، وسقطت فى بعض القصور، ونزلت فى البيوت والوكائل، وأصمت الآذان بصوتها الهائل»[١].

ولقد قدر الفرنسيون عدد خسائر المصريين فى ذلك اليوم بما بين ٢٥٠٠ ـ ٤٠٠٠ قتيل، أما خسارة الفرنسيين فكانت حوالى مائتين.

«وبعد هجعة من الليل، دخل الإفرنج المدينة كالسيل، ومروا فى الأزقة والشوارع، لا يوجد لهم ممانع... كأنهم الشياطين أو جند إبليس، وهدموا ما وجدوه من المتاريس. ودخل طائفة من باب البرقية، ومشوا إلى الغورية، وكروا، ورجعوا، وترددوا، وما هجعوا. وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين، وتراسلوا إرسالاً ـ ركباناً ورجالاً ـ ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر، وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول. وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها. وأحدثوا فيه وتغوطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه، ومن ثيابه أخرجوه!»[٢].

إعدام المصريين فى ثورتهم الأولى فى الأزهر:

ثم جاءت عمليات تنفيذ الإعدام لمن اشترك فى الثورة ودعا إليها وشجع على اتساعها. فتم إعدام ما بين ألفين وثلاثة آلاف مصرى فى مذبحة مروعة وصفها نابليون

(١) المختار من تاريخ الجبرتى ـ الجزء الثالث ـ كتاب الشعب ـ القاهرة.
(٢) المختار من تاريخ الجبرتى ـ الجزء الثالث ـ كتاب الشعب ـ القاهرة.

بونابرت بقوله: فقد الثائرون نحو ألفى قتيل، وفى كل ليلة نقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال وكثيراً من زعماء الأهالى، وأظن أن هذا سيكون درساً قاسياً لهم»[١].

ووصف تلك المذبحة كذلك الجنرال رينيه فقال: «ولقد نكلنا بالثائرين فى مذبحة رهيبة، فسادت السكينة مساء أمس، وقتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف»[٢]. أما الجبرتى فقد وصفها بقوله: «وكثير من الناس ذبحوهم، وفى بحر النيل قذفوهم، ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله»[٣].

أما زعماء الثورة الذين تم إعدامهم فهم الشيخ إسماعيل الدارى، والشيخ يوسف المصيلحى ـ والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ـ والشيخ سليمان الجوسقى ـ والشيخ أحمد الشرقاوى . وقد تم تنفيذ حكم الإعدام فيهم جميعاً ـ رحمهم الله ـ يوم الرابع من نوفمبر، وتم الإعدام سراً.

وبانتهاء ثورة القاهرة الأولى بتلك المذابح والتى اعتقد الفرنسيون أنهم تملكوا مصر بعدها، فإن سكان القاهرة ثاروا مرة أخرى ولكن فى حى بولاق غرب القاهرة.

وهناك سببان هامان وراء اندلاع ثورة القاهرة الثانية فى حى بولاق.. الأول هو وصول معلومات إلى مصر بأن الجيش العثمانى قد وصل إلى شرق الدلتا لدحر الفرنسيين، والثانى أن سكان حى بولاق لم يشتركوا فى ثورة القاهرة الأولى بحى الأزهر ـ وكان حى بولاق فى ذلك الوقت أهم حى شعبى بعد حى الأزهر ـ ويبدو أن سكانه أرادوا أن يثبتوا تاريخياً أنهم من رجال مصر الأبرار، ولهذا فقد بدأت الثورة فى الثانى من مارس تحت قيادة الشيخ مصطفى البشتيلى، حيث اشترك فيها أكثر من اثنى عشر ألف رجل أخذوا يهاجمون التجمعات الفرنسية القريبة منهم فى قلعة الليمون (قريبة من ميدان رمسيس بوسط القاهرة اليوم) والأزبكية (إلى الجنوب من قلعة الليمون).

إعدام المصريين فى ثورتهم الثانية فى بولاق:

ولقد دارت معارك طاحنة بين المصريين والفرنسيين استخدم فيها الفرنسيون البنادق والديناميت والمدافع.. وفى أثناء ذلك علم الثوار أن مصطفى أغا (وهو مملوكى عينه

(١) تاريخ مصر السياسى ـ أمين سعيد ـ مرجع سابق.
(٢) تاريخ مصر السياسى ـ أمين سعيد ـ مرجع سابق.
(٣) المختار من تاريخ الجبرتى ـ الجزء الثالث ـ كتاب الشعب ـ القاهرة.

الفرنسيون محافظاً لمدينة القاهرة وكان من الطغاة الذين ساعدوا الفرنسيين على إعدام المصريين فى ثورتهم الأولى) كان لا يزال يساعد الفرنسيين ضد المصريين فهاجموا منزله، وقبضوا عليه وحاكموه محاكمة شعبية قضت بإعدامه.

ويبدو أن المصريين قد استفادوا بخبرة الثورة الأولى، حيث استمرت ثورتهم الثانية حوالى خمسين يوماً. وقد ساعدهم على ذلك تمكنهم من صناعة البارود والأسلحة النارية والقنابل والمدافع، وغياب جزء هام من الجيش الفرنسى ذهب لمقاتلة الأتراك العثمانيين فى عين شمس وبعد حى بولاق عن مدافع المقطم التى أخمدت الثورة الأولى.

ولقد نجح الجنرال كليبر ـ الذى خلف نابليون فى قيادة الحملة بمصر ـ فى حث وفد عثمانى أرسل مع الجيش التركى على مغادرة القاهرة والبلاد حتى يسهل التفاوض مع تركيا بشأن مستقبل الوجود الفرنسى بمصر.

ثم تمكن كذلك من إبعاد المماليك من الاشتراك فى الثورة، فوجد المصريون أنفسهم بمفردهم أمام وحدات الجيش الفرنسى التى حاصرت القاهرة، وأخذت تصب نار غضبها على حى بولاق ووسط القاهرة (الفجالة والأزبكية)، ثم أخذت تهاجم تلك المناطق بالمدافع، وخصت بالاهتمام حى بولاق ـ معقل الثورة ـ حتى اشتعلت النيران بأركان ذلك الحى.. وشرح المؤرخ المصرى الكبير ما حدث لحى بولاق فقال: «... ثم إنهم هجموا على بولاق من ناحية البحر ـ يقصد النيل ـ ومن ناحية بوابة أبى العلا، وقاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيون عليهم وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب. وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصى وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة، واحترقت الأبنية والدور والقصور.. وخصوصاً البيوت والرباع المطلة على البحر وكذلك الأطارف. وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة فنجوا بأنفسهم إلى الجهة القبلية، ثم أحاطوا بالبلد ومنعوا من يخرج منها، واستولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال والسكر والأصناف العطرية، وما لا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور، والذى وجدوه منعكفاً فى داره أو طبقته ولم يقاتل، ولم يجدوا عنده سلاحاً، نهبوا متاعه وعروه من ثيابه ومضوا وتركوه حياً، وأصبح من بقى من ضعفاء أهل بولاق وأهلها وأعيانها الذين لم يقاتلوا فقراء لا يملكون ما يستر عوراتهم»[١].

---

(١) المختار من تاريخ الجبرتى ـ الجزء الثالث ـ كتاب الشعب ١٩٥٨.

ووصف جالون (مؤرخ فرنسى) فى كتابه (صورة مصر فى عهد الجيش الفرنسى) مأساة بولاق وقد شهدها بالذات فقال: ... واستمر القتال فجعلنا الحى خراباً وأسلمناه للنهب وصار أهله عرضة لبطش الجند وتنكيلهم، فجرت الدماء أنهاراً فى الشوارع وسرت النار فى أنحاء بولاق من أقصاها إلى أقصاها واستهدفت تلك المدينة العامرة الزاهرة للخراب، وأهلكتها أهوال الحروب وفظاعتها»[١].

وكان من نتائج تلك الثورة الكبرى إعدام قادتها وعلى رأسهم الشيخ مصطفى البشتيلى.. ولقد ابتكر الفرنسيون طريقة جديدة للإعدام وهى إجبار أتباع الشيخ البشتيلى على ضربه بالعصى حتى الموت.

ولقد فرضت السلطات الفرنسية ضرائب باهظة على مدينة القاهرة بلغت ٢٠ مليون فرنك فرنسى، لكى يستخدمها الفرنسيون ـ كما قالوا ـ لإصلاح ما خربه الثوار.

إعدام سليمان الحلبى ورفاقه بالقاهرة:

وإذا كان الفرنسيون قد نجحوا بقوة السلاح والتدمير فى كبت العمل الجماعى الثورى ضدهم، فإن قوة كراهية المصريين لهم لم تدمر ولم تختف.. بل تحولت للعمل السرى الفردى، وهذا ما حدث عندما قام سليمان الحلبى ـ الطالب بالأزهر ـ باغتيال الجنرال كليبر قائد القوات الفرنسية فى مصر يوم السبت الموافق الرابع عشر من شهر يونيو عام ١٨٠٠م، حيث تخفى فى زى شحاذ فقير فى حديقة بالقرب من فندق سياحى بالقاهرة (فندق شبرد) وخرج نحو كليبر يقبل يده ليعطيه صدقة، ولكن سليمان أخرج من ملابسه خنجرا حاد النصل وانهال به طعناً فى جسد الجنرال الفرنسى فسقط صريعاً ميتاً. ولقد قبض الجنود الفرنسيون بالطبع على سليمان واعتقلوه وعرضوه على محاكمة عسكرية فرنسية ذكر فيها الحلبى أنه قام باغتيال كليبر لظلمه وبطشه واستهزائه بالإسلام وأركانه. وقد قضت المحكمة بإحراق يد سليمان الحلبى اليمنى (التى قتل بها كليبر) ويلى ذلك إعدامه بالخازوق. وكذلك حكمت نفس المحكمة بإعدام أربعة من رفاق الحلبى وهم عبد القادر الغزى، ومحمد الغزى، وعبد الله الغزى وأحمد الوالى وذلك بقطع رؤوسهم وتحمل على نبابيت، ثم تحرق أجسادهم.

---

(١) تاريخ مصر السياسى من الحملة الفرنسية إلى انهيار الملكية ـ أمين سعيد ـ مرجع سابق.

ولقد شجعت أعمال الجهاد الوطنى التى قام بها المصريون على مدار ثلاثة أعوام تقريباً كلا من تركيا وبريطانيا على التدخل عسكرياً وسياسياً لإنهاء الوجود الفرنسى، فأدرك الجنرال مينو (الذى خلف الجنرال كليبر) أن الوجود الفرنسى مقضى عليه بالفشل، فوقع اتفاقيات مع الدولة العثمانية وبريطانيا تسمح له ولقواته بمغادرة مصر نهائياً.

وفى الثامن عشر من شهر اكتوبر عام ١٨٠١م كانت مصر تشهد رحيل آخر جندى فرنسى من على أرضها، بعد أن فقدت الحملة أسطولها ونصف عدد جنودها تقريباً، فعادت مصر كما كانت قبل الاحتلال الفرنسى تحت سلطة العثمانيين والمماليك.. ولكن شعبها بلا شك أدرك أنه لا الاستانة ولا المماليك ولا الانجليز يمكنهم أن يدافعوا عن بلاده العزيزة.. وأن عليه أن يهب من سباته، ويدخل مضمار الحضارة الحديثة.. ولكن هذا تطلب الكثير من الوقت والجهد والضحايا.

أحوال مصر بعد رحيل الجيش الفرنسى وعصر محمد على:

غادر الفرنسيون مصر، وتركوا فيها الجيش العثمانى، والمماليك، ووحدات من البحرية البريطانية (فى الإسكندرية). ولقد أحس العثمانيون أنهم أصحاب الحق الأول والأخير فى السيطرة على مصر ولكنهم وجدوا المماليك أمامهم يسيطرون على شئون البلاد شمالاً وجنوباً. ولهذا لجأ العثمانيون إلى محاولات متكررة للقضاء على المماليك للحد من خطرهم، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل لمساعدة انجلترا للمماليك من ناحية ولتغلغل نفوذ المماليك فى مجمل بقاع مصر من ناحية أخرى. ولقد عانى المصريون أشد معاناة من تلك الاضطرابات، فكسدت التجارة وارتفعت الأسعار وانعدم الأمن وانتشر الظلم والعسف، سواء من قبل الجند العثمانيين أو من جند المماليك. ولقد أورد الجبرتى تفصيلات مروعة عن مدى معاناة سكان مدينتى القاهرة من قبل العثمانيين، ومدينة دمياط من قبل المماليك.

ولقد استمرت تلك الأحداث تتوالى حتى تدخلت الدولة العثمانية ووافقت بعد تردد كبير على منح محمد على ولاية مصر. وفى الخامس من أغسطس عام ١٨٠٥م دخل محمد على باشا (المولود فى ألبانيا) القلعة ليبدأ حكمه الطويل لمصر، والذى استمر حتى ٢ أغسطس عام ١٨٤٩م شهدت فيها مصر تطورات مذهلة وأحداثاً جساما.

ولقد اختلف المؤرخون فى الحكم على عصر محمد على.. فبالنسبة للامبراطورية البريطانية كان محمد على أخطر رجل عليها فى المشرق.. وبالنسبة للمماليك كان محمد على رجلاً دموياً طاغية.. وبالنسبة للمصريين فهو مؤسس مصر الحديثة بالرغم من طغيانه وحكمه الأوتوقراطى.

ولقد بدأ محمد على حكمه بالتودد للمصريين، فهو ليس منهم وكانت أول مرة يدخل فيها مصر كجندى فى الجيش العثمانى فى يوليو ١٧٩٩م لمقاتلة الجيش الفرنسى. أما المرة الثانية التى دخل فيها البلاد فكانت عام ١٨٠١م بعد أسابيع من رحيل الحملة الفرنسية وتحت قيادة القبطان حسين باشا، ومنذ ذلك الوقت لم يغادرها بل أخذ يترقى وينتهز الفرص حتى عرفه المصريون ووثقوا به ورفعوه واليا عليهم.

الإعدام السياسى فى عصر محمد على:

وربما كان الحظ - بالإضافة إلى الفطنة والذكاء - عاملاً هاماً للغاية فى وصول محمد على لحكم أكبر قوة عربية فى ذلك الوقت، فقد كانت هناك محاولة لاغتياله فى الخامس والعشرين من يوليو عام ١٨٠٥م أى قبل عشرة أيام من دخوله القلعة ليتولى حكم مصر.. وبالرغم من أنه تمكن من القضاء على الذين خططوا لها إلا أنه علم يقينا أنه لابد من أن يؤمن القاهرة عاصمة الحكم من مخاطر كل أعدائه ثم أخذ ينشر أعوانه ليتحسسوا أخبار مناوئيه فى الجيزة خاصة، فكان يرسل الحملات التى تهاجم معاقل المماليك، وكانت تلك الحملات تأتى برؤوس العشرات من أعداء محمد على بصفة متوالية.. ولعل أخطرها ما وقع فى السادس عشر من أغسطس عام ١٨٠٥م عندما وقعت معركة بين جند محمد على وبعض المماليك فى وسط القاهرة بجوار القلعة كانت تبغى اغتيال محمد على وإنهاء ولايته.. ومع ذلك فقد تمكن جنده من القضاء على التمرد واعتقال الثوار، الذين تم إعدامهم - بعد التعذيب - فى فجر الثالث والعشرين من أغسطس وكان عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً.

ويبدو أن سياسة العنف المتواصل من قبل محمد على ضد المماليك، وإن كانت قد أراحت الدولة العثمانية، إلا أنها أغضبت انجلترا التى كانت ترى فى المماليك فرصتها للسيطرة على مصر ثم احتلالها.

وجاءت وفاة زعيمي المماليك القويين البرديسي في شهر نوفمبر عام ١٨٠٦م، والألفي في شهر يناير عام ١٨٠٧م لتخيب آمال انجلترا ولترفع من آمال محمد على للسيطرة على مصر. فقامت انجلترا بشن حملة بحرية ضد جنوب تركيا عبر مضايق البحر الأسود، ولكن الحملة فشلت لقوة حصون بو غاز البسفور، الذى حصنته فرنسا (المتحالفة مع تركيا ضد انجلترا) بمدافع قوية، فعادت السفن الحربية البريطانية إلى البحر المتوسط قاصدة تدمير الإسكندرية واحتلال مصر. ولم تكن أخبار وفاة البرديسي والألفي قد وصلت إلى الأسطول الإنجليزى بعد، واعتقدت بريطانيا أن احتلال الإسكندرية سيحرك المماليك بقيادة الأميرين المذكورين.. فاتجهت السفن وعليها خمسة آلاف جندى إلى مدينة الإسكندرية واحتلتها في ٢٠ مارس عام ١٨٠٧م، وخرج جنودها بأسلحتهم تجاه رشيد ففشلوا في احتلالها نتيجة التحصينات والإمدادات الكبيرة التى أرسلها محمد على إلى الجبهة. ويبدو أن معركة رشيد تلك كانت شديدة الوطأة على الإنجليز حيث قتل منهم ٤١٦ رجلاً، وأسر المصريون حوالى ٤٠٠ أسير، وأرسلت رؤوس القتلى مع الأسرى إلى القاهرة ليراها الأهالى.

وبانتهاء تلك المعارك التى خرجت مصر منها منتصرة اختفت المطامع الأجنبية في البلاد، وضعفت قبضة الدولة العثمانية عليها، فتفرغ محمد على باشا ـ وهو المنتصر الأول ـ لإحكام قبضته على مصر بطولها وعرضها، ولكن كان عليه قبل أن يفكر في تنفيذ مخططاته لتوسيع إمبراطوريته أن يتخلص من بقايا أعدائه القدماء.. أى المماليك، فانتهز فرصة ذهاب الجيش العثمانى للجزيرة العربية، ودعا المماليك إلى القلعة في حين أغلقت دونهم الأبواب، وذبحوا عن بكرة أبيهم في أكبر مذبحة عرفها تاريخ مصر الحديث.. وقد قتل في تلك العملية حوالى ألف من المماليك من بينهم حوالى أربعمائة أمير وقائد وزعيم، وبهذا انتهى إلى الأبد تاريخ المماليك في مصر. ولقد حدث ذلك في الأول من مارس عام ١٨١١م.

ومنذ ذلك الوقت تفرغ محمد على لحكم مصر ونهضتها، وساعده على ذلك غناها واستقرارها وتاريخها ونباهة عقول أبنائها، فشرع في سنوات قليلة في تحديث مجمل أركان الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية فيها.. وما هى إلا سنوات حتى توسعت إمبراطورية محمد على لتشمل مصر والسودان وشرق ليبيا والحجاز والشام.. وبدا لزعماء العالم في ذلك الوقت أن محمد على لم يكتف بذلك بل إنه يفكر جدياً في القضاء على

الدولة العثمانية الضعيفة ذاتها، وباتت القسطنطينية عام ١٨٣٢م على مرمى بصر الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا ابن محمد على.. ولم يجد السلطان العثمانى من أحد ينقذه سوى عدوه القديم قيصر روسيا، الذى سارع بإرسال خمسة عشر ألف جندى بالقرب من الآستانة لمنعها من السقوط فى أيدى الجيش المصرى، وكذلك إرسال تحذير إلى محمد على فى مصر حمله رجل روسى يدعى (مورافيف)، فرفض محمد على تلك التحذيرات، وسارعت انجلترا وفرنسا خشية ازدياد النفوذ الروسى فى الشرق الأوسط، بإقناع محمد على والسلطان العثمانى بالتصالح فوقعت اتفاقية (كوتاهية) فى مايو عام ١٨٣٣م. إلا أن تلك الاتفاقية لم تدم طويلاً لأنها لم تعط المنتصر محمد على جائزة النصر وهى السيطرة على الأراضى التى وصلت إليها قواته، فدارت معركة أخرى بين المصريين والأتراك فى يونيو ١٨٣٩م انتهت بهزيمة كبرى للأتراك عند (نصيبين) حدث على إثرها تشتت الجيش التركى، وفرار الأسطول التركى بقيادة أحمد فوزى إلى الإسكندرية ليعلن للعالم أجمع أن الإمبراطورية العثمانية قد فقدت جيشها وأسطولها، وأن لمحمد على أن يجمع الأرباح. ولقد أدى الانتصار المصرى المدوى فى جنوب أوربا إلى رجة كبرى فى العواصم الأوربية التى خشيت انبعاث قوة عربية موحدة تهدد التوازن السياسى فى العالم فى ذلك الوقت. فسارعت بعقد عدة لقاءات دبلوماسية - بواسطة خبث وكراهية وزير خارجية بريطانيا بالمرستون لمحمد على - فوقعت معاهدة لندن فى ١٥ يوليو عام ١٨٤٠م بين كل من تركيا وروسيا وألمانيا والنمسا وكان أهم بنودها إجبار محمد على باشا على سحب جيوشه إلى داخل مصر، وإن لم ينفذ ذلك أخضع بالقوة على التنفيذ.

وقد رفض محمد على تلك المعاهدة، ورفضتها فرنسا كذلك واستعدت للحرب، أما فى مصر فقد أخذ محمد على فى تحصين القلاع البحرية وحث الناس على التطوع للقتال. واندلعت الحرب بين الدول الأوربية بقيادة انجلترا وبين الجيش المصرى فى الشام، وتحملت البحرية البريطانية النصيب الأوفر فى قصف مدن الشام الساحلية ثم احتلالها، ثم قطع طرق الإمداد بين مصر وسوريا. وبحلول ديسمبر عام ١٨٤٠م تحطمت آمال محمد على فى البقاء فى الشام، فأمر بسحب قواته، ثم دارت مفاوضات بين بريطانيا وتركيا على إصدار فرمان عثمانى يمنح محمد على وأسرته من بعده حكم مصر على أن يقوم بإعادة الأسطول التركى إلى تركيا، على أن تكون وراثة حكم مصر لأكبر أفراد أسرة

محمد على سناً، وأن تدفع مصر جزية سنوية مقدارها أربعمائة ألف جنيه للدولة العثمانية، ولقد عمل بذلك الاتفاق فى ١٠ يونيو عام ١٨٤١م واستمر محمد على يحكم البلاد حتى وفاته فى قصر رأس التين بمدينة الإسكندرية فى الثالث من أغسطس عام ١٨٤٩م ليدفن بمسجده المشيد فوق القلعة.

مقتل عباس حلمى وعدم معرفة القتلة:

بالرغم من أن محمد على قد أعاد بناء مصر مادياً ليقف بها فى مصاف الدول القوية فى العالم، إلا أن حروبه التى انتهت بهزيمته قد جعلت ميزانية مصر مكبلة بالجزية الكبيرة التى تدفعها لتركيا سنوياً، وبالضغوط السياسية التى شنتها على مصر الدول الأوربية، فلما حكم مصر الخديوى عباس حلمى الثانى سارع بإنقاص عدد أفراد الجيش المصرى، وألغى البعثات العلمية إلى أوربا، وأغلق الكثير من المصانع والمعاهد والمدارس فتدهورت أحوال البلاد بسرعة، ثم زاد من تلك المشاكل مشكلة سياسية أخرى وهى الخلاف الذى ظهر بين عباس حلمى وبين الخلافة العثمانية حول أسلوب الوراثة فى حكم مصر، حيث طالب عباس حلمى بأن تكون مصر لأولاد الحاكم كبيرهم ثم صغيرهم، ولا تكون لأكبر أبناء أسرة محمد على (وهم كثيرون)، فرفضت تركيا ذلك.

وربما يكون ذلك الخلاف الذى كانت له أصداء فى مصر بدون أدنى شك وراء اغتيال عباس حلمى فى مخدعه فى قصره بمدينة بنها فى الثانى عشر من شهر يوليو عام ١٨٥٤م. ولقد ذكر أن أفراداً من أسرته قد قتلوه. وذكر كذلك أن أفراداً من خدمه هم القتلة لإساءته معاملتهم. ولقد تم إخفاء خبر قتله عدة أيام ثم أخرجه أهله ودفنوه بقصره بالعباسية ثم نقل إلى مقابر الإمام الشافعى بجنوب شرق القاهرة. وعلى هذا لم تحدث محاكمة للقتلة وبقى الخلاف على ماهية القتلة حتى يومنا هذا، مما قد يشجع على الاعتقاد بأن أفراداً من أسرته (حيث إنه اغتيل داخل قصره) هم الذين قتلوه أو شجعوا على قتله، وقد يؤيد ذلك أنه لم تجر عملية تحرٍ رسمية واسعة لمعرفة طبيعة الجريمة وكشف سر القتلة! وكأن هناك مصلحة شخصية كبيرة لإخفائهم.. وهذا كما نرى يحدث فى تاريخ مصر الحديث لأول مرة، لم يسبقه ولم يعقبه ـ كما سيظهر ـ حادث مماثل.

ومهما كان الأمر، فقد خلف سعيد باشا الخديوى عباس حلمى فى حكم مصر وامتد حكمه حوالى تسعة أعوام (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) شهدت مصر فيها عودة للازدهار فى كافة

المجالات وخاصة فى جانب المواصلات والرى حيث تمت الموافقة على شق قناة السويس التى كانت أهم مشروعات مصر الاقتصادية فى القرن التاسع عشر، والتى لم يشب مشروعها من عيوب سوى لجوء سعيد باشا إلى الاقتراض لأول مرة. وقبل أن يتم افتتاح المشروع، وفى ١٨ يناير عام ١٨٦٣ توفى سعيد باشا بعد مرض مجهول ألم به، ودفن بمسجد النبى دانيال بمدينة الإسكندرية، فخلفه ابن أخيه إسماعيل باشا الذى اتبع سياسة التوسع فى القروض حتى بلغت ديون مصر حوالى ١٢٦ مليون جنيه لم تنفق جميعها على بناء المشروعات بل خصص جانب منها للرشاوى وخاصة لكبار رجال الدولة العثمانية بما فيهم السلطان العثمانى نفسه الذى وافق على أن تكون وراثة حكم مصر لأكبر أبناء الحاكم وليس لأكبر أبناء الأسرة العلوية. وفى السادس عشر من نوفمبر عام ١٨٦٨م اختلطت مياه البحر الأحمر بمياه البحر المتوسط لتظهر قناة السويس على الخريطة السياسية والجغرافية لمصر.. وربما أخذت انجلترا الاستعمارية تفكر جدياً فى احتلال مصر الفعلى من ذلك اليوم الذى بدت لها فيه المغانم الكبرى التى يمكن أن تعود عليها لو تمكنت من السيطرة على مصر وقناتها. ولما كان الاحتلال العسكرى المباشر أمراً بلا مبرر فى ذلك الوقت، فقد أخذت انجلترا فى التمهيد لذلك عن طريق الاقتصاد، فسارعت بشراء أسهم قناة السويس التى امتلكها الخديوى إسماعيل.. وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى مهدت بشكل مباشر لسيطرة الدول الأجنبية على مقدرات مصر، بعد أن ازدادت ديونها وعجز الخديوى إسماعيل عن تسديدها، فأعلنت أوربا إفلاس مصر، وضغطت على تركيا فعزلت إسماعيل وعينت ابنه توفيق خديوياً لمصر، وفى ٣٠ يونيو ١٨٧٩م غادر إسماعيل القاهرة ليعيش فى منفاه الاختيارى فى إيطاليا (بمدينة نابولى) مع أسرته وكنوزه، وطوى التاريخ صفحته إلى أن توفى فى ٣ مارس عام ١٨٩٥م حيث دفن بمسجد الرفاعى بالقاهرة.

ولم تكن مصر فى ذلك الوقت مستقلة سياسياً أو إدارياً بأى صورة من الصور، فقد سيطر عليها الساسة الغربيون والشركات والبنوك الأوربية، ولم يعد منصب الخديوى إلا رمزاً بلا معنى ولا سلطة.

الثورة العرابية والحكم بإعدام عرابى مع وقف التنفيذ:

لم يكن قيام أوربا، وخاصة انجلترا، بتدمير طموحات محمد على بعد سلسلة

انتصاراته المبهرة على تركيا فى الشام واستعداده لإنزال الهزيمة النهائية بالدولة العثمانية، لم يكن ذلك إلا وسيلة ماكرة ليس فقط لإبعاد خطر صحوة عربية كبرى تقودها مصر.. ولكن كذلك من أجل التخطيط لاحتلال مصر ذاتها ـ أقوى الدول العربية سياسياً وعسكرياً حتى اليوم ـ ومن ورائها بقية الدول العربية.

فقد أخذت الدول الأوربية خاصة بريطانيا وفرنسا فى التدخل فى الشئون الداخلية فى مصر تدريجياً بمساعدة أحفاد محمد على الذين بهرهم السلطان وأضعف إرادتهم السياسية كثرة البذخ والاقتراض الخارجى حتى كبلت البلاد بالديون، فاستعان إسماعيل بعدة مندوبين من الحكومة البريطانية للإشراف على الاقتصاد المصرى، ثم تطورت الأحوال إلى موافقته على إنشاء صندوق الدين، ثم موافقته على دخول وزيرين بريطانى وفرنسى فى الحكومة المصرية، فترسخت أقدام الأوربيين فى مصر، وبات واضحاً لكل وطنى أن احتلال البلاد أصبح قريباً.

ثم عندما سيطر الأوربيون على اقتصاد مصر، سارعوا بفرض القيود على الجيش المصرى لإضعافه عدداً وعدة وخبرة وإرادة، فتظاهر حوالى ثلاثة آلاف من الضباط والجنود منددين بالحكومة والخديوى، استقالت بعدها وزارة نوبار باشا فى مارس ١٨٧٩م، ثم خلع السلطان العثمانى الخديوى إسماعيل، فخلفه ابنه توفيق الذى كانت فترة حكمه لمصر أسود فترات تاريخها الحديث.

ولقد أخذت الأحوال السياسية والاقتصادية فى البلاد تنحو نحو الفساد والظلم والقهر وإتاحة الفرصة للانجليز لكى يسيطروا على أحوال الشعب المصرى، فما كان من ضباط الجيش بقيادة أحمد عرابى إلا تنظيم مسيرة صاخبة إلى قصر عابدين بوسط القاهرة (مقر الخديوى توفيق) لتقديم مطالبهم الخاصة بإقالة وزارة رياض باشا، وإنشاء مجلس شورى النواب وزيادة عدد قوات الجيش المصرى، فرفض الخديوى تلك المطالب، ثم عاد بعد ثبات عرابى ورفاقه إلى الموافقة عليها. ومع ذلك استمرت بريطانيا وفرنسا فى السيطرة على الخديوى وعلى السياسات الاقتصادية المصرية، فزاد ضغط الضباط المصريين بتشجيع من محمود سامى البارودى الذى اختير رئيسا للوزراء، فغضبت انجلترا وفرنسا، وأرسلتا بوارج حربية إلى مصر لتهديد الخديوى، الذى سارع بعزل الوزارة وتسلمها بنفسه، فرحبت بريطانيا بذلك وكانت تستعد لافتعال حدث كبير يساعدها على احتلال مصر، فدبرت مذبحة الإسكندرية.

وقد وقعت مذبحة الإسكندرية بعد أن قام أحد الرجال المالطيين من الرعايا البريطانيين بضرب رجل مصرى يوم ١١ يونية عام ١٨٨٢م، فقام المصريون بحماية بني وطنهم ضد المالطيين والأجانب الذين سارعوا باستخدام السلاح على نطاق واسع، ودارت معارك حامية بين الطرفين كان من نتيجتها سقوط ١٤٠ مصرياً قتيلاً، أما قتلى الأجانب فكانوا ٥٧ فرداً. ولقد هزت تلك الحادثة المدينة، فقام أحمد عرابى بتدعيم حصون الإسكندرية البحرية، فاحتجت بريطانيا على ذلك العمل بحجة أنها تستهدف ضرب الأسطولين الإنجليزى والفرنسى، وردت الحكومة المصرية مؤكدة أنها لا تنوى أبداً الاعتداء على الأساطيل الأوربية.

فطلبت بريطانيا أن تقوم مصر بسحب مدافع قلاع الإسكندرية فرفضت مصر ذلك. وفى أثناء ذلك صدرت أوامر قناصل الدول الأوربية إلى رعاياهم فى مصر بمغادرتها بأسرع ما يمكن تحسباً لاندلاع القتال. فغادر ميناء الإسكندرية حوالى ٣٢ ألف أجنبى فى خلال أسبوع (من يوم ١٢ إلى يوم ١٨ يونية ١٨٨٢م). وفى العشرين من نفس الشهر تشكلت وزارة جديدة برئاسة إسماعيل راغب باشا، على أن يحتفظ عرابى بمنصبه فى وزارة الحربية. ولقد كان تغيير الوزارة كافيا لمنع عدوان انجلترا على الإسكندرية، ولكن لما كانت نيتها مبيتة لذبح سكان المدينة واحتلال مصر، فإن ذلك لم يكن كافياً. وبالإضافة إلى ذلك أفشلت بريطانيا كل المساعى الدبلوماسية لحل نزاع الفتنة التى وقعت بين الأهالى والأجانب فى الإسكندرية. ولهذا، وفى ١١ يوليو عام ١٨٨٢ قامت البوارج البريطانية وحدها (انسحبت الوحدات البحرية الفرنسية إلى ميناء بور سعيد ولم تشارك فى قصف الإسكندرية) بقصف قلاع الإسكندرية صباحاً حتى أسكتتها، ثم تحولت إلى قصف الأحياء السكنية بالمدينة التى يقطنها المدنيون[1] فراح ضحية ذلك حوالى ألفى شهيد مصرى. ولقد انسحب أحمد عرابى وقواته من المدينة المدمرة فدخلها الإنجليز،

---

(١) شهد المسيو جون نينيه عميد الجالية السويسرية فى مصر سنة ١٨٨٢ حرب الإسكندرية، ووصف هذه المأساة فى كتابه (عرابى باشا) فقال: «يجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لاضرورة لها ولم يكن لها أى مسوغ، وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة إلى القتل وسفك الدماء. ولقد كان بودى أن أسأل أولئك الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقذفون قنابل المترليوزات، هل يستطيعون حينما يعودون إلى بلادهم ويجلسون حول موائد الشاى فى بيوتهم، أن يتحدثوا إلى ذويهم عن آثار الفتك والتدمير التى خلفتها تلك المجازر البشرية؟ إنى أشك فى ذلك، فليت شعرى أى إهانة لحقت الأمة البريطانية حتى تثأر لنفسها بهذه الفظائع». انظر لمزيد من التفاصيل: عبدالرحمن الرافعى ـ مصر الثورة العرابية ـ دراسات قومية ـ مركز النيل للإعلام ـ القاهرة.

فرحب بهم الخديوى توفيق، فقام الإنجليز بإعلان حمايتهم للمدينة بناء على طلب الخديوى. ثم قام الخديوى توفيق بإنذار عرابى بأن يكف عن الاستعدادات العسكرية، وأجابه عرابى بأن من الواجب على كل وطنى الدفاع عن بلاده. وشجع عرابى على ذلك قرار كبار أعيان مصر وشيوخها وعلمائها بمساعدة ودعم موقف عرابى، والوقوف صفاً واحداً أمام العدوان. ولهذا فقد دارت معارك كبرى بين الجيش المصرى وبين الجيش البريطانى بالقرب من قناة السويس لعل أشهرها معركة التل الكبير فى الثالث عشر من سبتمبر ١٨٨٢م، والتى استشهد فيها حوالى ألفى جندى مصرى، والتى ذكر عنها أن قادة عسكريين قد خانوا عرابى وجيشه فيسروا للإنجليز اقتحام المواقع والزحف نحو القاهرة، وخاصة الأميرالاى على يوسف خنفس. وعندما سقطت القاهرة تحت الاحتلال البريطانى لأول مرة فى التاريخ وقام الخديوى توفيق بإقالة وزارة راغب باشا وتأليف وزارة جديدة برئاسة شريف باشا، سعت تلك الوزارة أول ما سعت إلى تطبيق حملة اعتقالات واسعة النطاق لعرابى ورفاقه ومؤيديه بلغ عددهم حوالى ٢٩ ألف معتقل!!

«ولقد حوكم عرابى وصحبه أمام محكمة عسكرية مصرية بتهمة عصيان الخديوى، واهتم بأمره منذ القبض عليه المستر ولفرد بلنت المستشرق الإنجليزى الذى ناصره منذ ابتداء الحركة والمشهور بمناصرته لمصر والمصريين، وسعى جهده فى إنقاذ عرابى من الإعدام، ولم يكن هذا المسعى من صالح عرابى فى شىء، لأن حياته فى الواقع لم تكن لها قيمة بعد الهزيمة، وقد اختار له مستر بلنت مع السلطات الإنجليزية اثنين من المحامين الإنجليز وهما المستر برودلى والمستر نابييه للدفاع عنه أمام المحكمة العسكرية. واستقر رأى الإنجليز على أن يقدم عرابى وصحبه أمام المحكمة العسكرية بتهمة عصيان الخديوى، واستبعاد تهمة مذبحة الإسكندرية وتهمة إحراقها، وأن يعترفوا بجرمهم، وأن يستبدل الخديوى بحكم الإعدام النفى المؤبد، وأن يصدر بعد ذلك مرسوم بمصادرة أملاكهم.. وانعقدت المحكمة برئاسة محمد رءوف باشا فى الموعد المذكور - وهو ٣ ديسمبر ١٨٨٢م - فلما فتحت الجلسة أمر رءوف باشا كاتب الجلسة بتلاوة الحكم، فتلاه، وهو يقضى على عرابى بالإعدام، وتلا عقب صدور الحكم الأمر الخديوى بإبدال الإعدام بالنفى المؤبد»[١].

وهكذا تم نفى الزعيم المصرى الكبير أحمد عرابى ورفاقه إلى جزيرة سيلان فى

(١) عبدالرحمن الرافعى: مصر الثورة العرابية (مرجع سابق).

صباح الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٨٨٢، وهكذا تخلص الإنجليز من أعدائهم وحققوا حلمهم القديم واحتلوا مصر عسكرياً وهكذا نعم الخديوى توفيق بخيانته للمصريين فى سبيل احتفاظه بعرشه وأملاكه.

ولقد تعرضت الثورة العرابية ـ بالرغم من أصالتها ووطنيتها ـ لكثير من النقد من قبل المؤرخين المعاصرين والمحدثين على حد سواء، ووضح أن هناك نقطة مركزية اتفقوا عليها، وهى التى أوضحها بجلاء أحد مؤرخى قبل ثورة يوليو[1] إذ يقول: إن زعامة الحركة كانت بيد العسكرية، والعسكرية فئة تمتاز حقاً بنظامها واستقامتها وقوتها ولكنها تزدرى السياسة وأساليبها، ولا يهمها من العلم والمعرفة إلا ما كان خاصاً بالحروب. والعسكرية فى كل البلاد شديدة الاعتداد بنفسها، عظيمة الازدراء لغيرها من المهن. وهذا طبيعى لمن نصبوا أنفسهم لخدمة غيرهم وكان من أقدس واجباتهم أن يقدموا أرواحهم فى أى وقت فى سبيل هذه الخدمة. فالعسكرية إذا ما تفوقت فى بلد فهى إما أن تضم الجمهور لصفوفها وإما أن تخضعه لها قوة واقتداراً وهذا وجه الخطر من الزعامة الحربية».

إعدام المصريين فى دنشواى:

لن يجد الباحث فى تاريخ مصر الحديث أية دلائل تشير إلى أن الخديوى توفيق قد طلب من بريطانيا الرحيل عن مصر بعد القضاء على أحمد عرابى ورفاقه وسيطرتهم على البلاد. ولهذا فقد استمر الوجود البريطانى فى شتى بقاع مصر، وأخذوا يسيطرون على كل صغيرة وكبيرة فى شئون البلاد السياسية والاقتصادية والعسكرية، وما كان على الخديوى إلا الطاعة العمياء.

وكان لابد أن يظهر جيل مصرى جديد يغذى الحياة السياسية ويكشف الوجه القبيح للامبراطورية البريطانية. ولقد قام مصطفى كامل، ذلك الشاب المصرى الأصيل الذى درس القانون فى فرنسا وعلم بالمظالم التى يعيش فيها شعبه تحت الاحتلال البريطانى، فأخذ يكتب فى صحف فرنسية وأوربية عديدة مطالباً الحكومات والشعوب الأوربية بالضغط على بريطانيا للرحيل عن مصر.

---

(١) تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة ـ تأليف محمد رفعت بك ـ وزارة المعارف العمومية ـ المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٤٧.

ولقد زاد نشاط مصطفى كامل عندما أحس بشعبه يلتف حوله فشكل أول حزب سياسى عربى وهو الحزب الوطنى عام ١٩٠٧م، وكان من قبل، وفى عام ١٩٠١م، قد أصدر جريدة اللواء. أما الحزب الوطنى فقد نص برنامجه على ضرورة العمل على استقلال مصر وبث المشاعر الوطنية بين جميع فئات الشعب المصرى.

ولقد حدثت أثناء حملة مصطفى كامل الوطنية ضد بريطانيا حادثة قرية دنشواى الشهيرة التى جاءت كدليل ناصع لإظهار المدى الذى بلغته قوات الاحتلال البريطانى فى مصر.

وما حدث فى دنشواى يمكن تلخيصه فيما يلى: فى ظهيرة يوم العاشر من يونيو عام ١٩٠٦ توجه خمسة من ضباط جنود الاحتلال إلى قرية دنشواى بمحافظة المنوفية لصيد الحمام، ووزعوا أنفسهم على أنسب المواقع الملائمة للصيد وأخذوا يطلقون النار فأصيبت فلاحة مصرية وثلاثة رجال مصريين إصابات مختلفة، فهجم الفلاحون على الضباط الخمسة يحاولون انتزاع البنادق من بين أيديهم فاندلعت النار فى أحد أجران دراس القمح نتيجة خروج بعض الرصاص منها. وانتشر الغضب، وهجم الأهالى على العسكر يضربونهم ففروا قاصدين إلى مركز الشرطة، فمات واحد منهم نتيجة شدة الحرارة والخوف، وسرعان ما تدفقت القوات العسكرية على القرية وفرضت عليها الحصار، لتبدأ فى اعتقال الأهالى لتقديمهم إلى المحاكمة.

وكان اللورد كرومر هو قائد قوات الاحتلال البريطانية فى مصر، فأصدر أوامره بتشكيل محاكمة عسكرية استثنائية رأسها وزير الحقانية (العدل) المصرى فى ذلك الوقت بطرس غالى، وكان ذلك يوم ٢٤ يونيو عام ١٩٠٦، وبعد ثلاثة أيام فقط وفى السابع والعشرين من نفس الشهر أصدرت المحكمة حكمها الذى جاء كما يلى(١):

- الإعدام شنقاً على أربعة هم: حسن على محفوظ، ويوسف حسين سليم، والسيد عيسى سالم، ومحمد درويش زهران.

- الأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين هما: محمد عبد النبى المؤذن، وأحمد عبد العال محفوظ.

---

(١) دنشواى - الدكتور محمد جمال الدين المسدى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٤.

ـ الأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاماً على أحمد محمد السيسى.

ـ الأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات على ستة هم: محمد على سمك، وعبده البقلى، وعلى على شعلان، ومحمد مصطفى محفوظ، ورسلان السيد على، والعيسوى محمد محفوظ.

ـ الجلد خمسين جلدة والحبس مع الشغل لمدة عام على ثلاثة هم: حسن إسماعيل السيسى، وإبراهيم حسنين السيسى، ومحمد الغباش السيد على.

ـ الجلد خمسين جلدة على خمسة هم: السيد العوفى، وعزب عمر محفوظ، والسيد سليمان خير الله، وعبد الهادى حسن شاهين، ومحمد أحمد السيسى.

وتنفذ أحكام الشنق والجلد فى دنشواى.

وقد عهدت المحكمة إلى مدير المنوفية بتنفيذ هذه الأحكام.

«وفى ٢٨ يونيو ١٩٠٦ نفذت أحكام الإعدام والجلد فى أهالى دنشواى. وكانت قد أعدت لتنفيذ الأحكام أرض فضاء تواجه دنشواى وتواجه مكان الحادث من ناحية الشمال. فى هذه الأرض، وفى مكان المشنقة، يقوم الآن متحف دنشواى. وفى هذه الأرض نصبت المشنقة، وقريباً منها آلة الجلد (العروسة)، وضربت خيمتان إحداهما للمحكوم عليهم بالشنق، والأخرى للمحكوم عليهم بالجلد. وجىء بالمحكوم عليهم من نقطة بوليس الشهداء، وكانوا قد نقلوا إليها من شبين الكوم فى الصباح الباكر إلى ساحة تنفيذ الأحكام وقد اصطف حولها نطاقان، أحدهما من البوليس المصرى، والآخر من قوات الاحتلال. وحضر التنفيذ مدير المنوفية، ومستشار الداخلية، ومفتش الداخلية، والعمدة والمشايخ والخفر فى دنشواى».

«بدأ التنفيذ فى الساعة الثانية بعد الظهر وهو نفس الوقت الذى وقع فيه الحادث. بدأوا بحسن محفوظ السجين رقم ١١ وأول الشهداء. فصعد إلى المشنقة ونطق بالشهادتين، ثم قام الجلاد بمهمته وترك جسد حسن محفوظ متدلياً من حبل المشنقة مدة ربع ساعة، تم خلالها جلد اثنين من المحكوم عليهم لكل منهم خمسون جلدة، وهما حسن إسماعيل السيسى وإبراهيم حسنين السيسى. بعد ذلك نفذ حكم الإعدام فى السجين رقم ١٤ الشهيد يوسف حسن سليم، وقد صعد درجات المشنقة بثبات رغم أن سنه لم تتعد ٢٢ عاماً، ثم

واجـه القرية قبل تنفيذ الحكم وصاح بأعلى صوته «لعنة الله على الظالمين» وكررها مرتين. وجلد بعده اثنان. وعلى هذه الوتيرة سار تنفيذ الأحكام.

ويقول الشيخ عبد الغفار الشاذلى عمدة دنشواى السابق، أنه لم يسمح للأهالى بتشييع جثمان الشهداء إلى المقابر، وقام رجال البوليس بدفنهم»(١).

اغتيال بطرس غالى باشا وإعدام قاتله:

وكان من نتائج تلك المذبحة أن انتشر السخط الشعبى فى طول البلاد وعرضها ضد سياسة الاحتلال البريطانى، واستغل ذلك مصطفى كامل استغلالاً حسناً، ففضح تلك السياسة فى أوربا وفى بريطانيا ذاتها حتى اضطرت الحكومة البريطانية إلى إقصاء اللورد كرومر وتعيين السير الدن جورست، أما فى مصر فقد استقالت وزارة مصطفى فهمى باشا التى حكمت البلاد من عام ١٨٩٥ إلى عام ١٩٠٨، وجاءت وزارة بطرس غالى باشا فى نوفمبر من عام ١٩٠٨، لتواجه طلب شركة قناة السويس بمد امتيازاتها فى مصر لمدة أربعين عاماً متتالية، فرفضها الشعب، وامتلأت الصحف المصرية بالهجوم على سياسة بطرس غالى الذى وافق على مد الامتياز بصفته رئيس الوزراء وحولها للمناقشة فى الجمعية العمومية، وفى تلك الأثناء صدر قرار من بطرس غالى بمحاكمة المصريين الذين يندوون بسياسة الاحتلال، وسمى ذلك بقانون المطبوعات الذى لم يراع أبسط القواعد السيكلوجية فى حكم شعب ذاق الإهانة فى حادثة دنشواى ثم رأى أن حكومة بلاده بدلاً من أن تقوم بتقليص النفوذ الاستعمارى لجأت إلى تهيئة الظروف لمد بقائه أربعين عاماً أخرى.

ولقد كان أكثر الذين عارضوا تلك الاتفاقية أعضاء الحزب الوطنى الذى كان قد أسسه مصطفى كامل قبل وفاته فى فبراير عام ١٩٠٨، والذى لم يكن أحد فى مصر يعرف أنه (ذلك الحزب) قد أسس جناحاً سرياً مسلحاً لمقاومة الاحتلال بعد حادث دنشواى، بما فى ذلك المخابرات البريطانية ذاتها.

لقد تمكن إبراهيم الوردانى عضو الحزب الوطنى من تشكيل خلايا مسلحة من داخل الحزب هدفها اغتيال رموز الاحتلال البريطانى وكل من يؤيدها فى الحكومة وسميت تلك

---

(١) دنشواى - الدكتور محمد جمال الدين المسدى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٤.

الخلايا بجمعية التضامن الأخوى، واعتبر أن كل عضو فى تلك الجمعية سيكون فدائياً يموت من أجل إخراج الاحتلال البريطانى من مصر.

وفى ظهيرة يوم ٢٠ فبراير عام ١٩١٠م وبينما كان رئيس الوزراء بطرس غالى يهم بركوب سيارته خارجاً من مقر عمله اقترب إبراهيم الوردانى منه وأطلق الرصاص عليه من مسدس كان معه فسقط بطرس باشا واعتقل الوردانى وقدم إلى المحاكمة. أما بطرس باشا فقد مات متأثراً بجراحه فى مساء اليوم التالى.

وفى ١٨ مايو أصدرت المحكمة التى رأسها مستر (وليو جلو) حكمها الذى يقضى بإعدام إبراهيم الوردانى شنقاً، وفى ١١ يونيو رفضت محكمة النقض الطعن الذى قدمه الوردانى فى الحكم، وبهذا أصبح حكم المحكمة واجب التنفيذ.

وفى صباح الثامن والعشرين من يونيو عام١٩١٠ تم إعدام إبراهيم الوردانى وطويت صفحته.

ولقد اعتبرت سلطات الاحتلال أن الوردانى قاتل مجرم ولهذا سعت لإصدار قرار يمنع كل مصرى من تعليق صورته أو الاحتفاظ بها، أما الحزب الوطنى، وجمعية التضامن الأخوى فقد اعتبروا الوردانى الفدائى الأول، ولم يغيروا من منهج عقيدتهم التى تؤمن باغتيال رموز الاحتلال ومن يظنون أنه يتعامل معه من الشخصيات المصرية.

محاولات اغتيال السلطان حسين وإعدام الجناة:

رفضت الجمعية العمومية مشروع مد امتياز شركة قناة السويس الذى كان أحد أهم الأسباب فى مصرع بطرس باشا غالى وإعدام الوردانى والتزمت الوزارة الجديدة (وزارة محمد سعيد باشا) بقرار الجمعية العمومية إلى أن بدأت أعمال القتال فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وسارعت بريطانيا بإعلان هيمنتها الرسمية على مصر منتزعة إياها من تركيا المريضة بأدوائها العاجزة بضعفها، وبذلك أصبحت مصر تعيش فى ظل الأحكام العرفية.

وفى ظل الأحكام العرفية فإن ما لا يجوز يجوز.. فأصبح السير جون ماكسويل قائداً عاماً لقوات الاحتلال البريطانية بمصر فعزل الخديو عباس الموالى لتركيا (التى حالفت

المانيا ضد بريطانيا) وأتى بالأمير حسين كامل سلطاناً على مصر الذى كان كدمية فى يد البريطانيين.. مما جعله عرضة للجناح المتطرف من الحزب الوطنى (جمعية التضامن الأخوى)، الذى قام أعضاؤه بمحاولتين لاغتيال السلطان كلتاهما تمت فى عام ١٩١٥، الأولى فى ٨ أبريل عام ١٩١٥ عندما تعرض لسيارة السلطان حسين وهى تسير فى ميدان عابدين بوسط القاهرة الشاب محمد خليل وأطلق عليه الرصاص، ولم يصب السلطان فى ذلك الحادث وتم اعتقال ذلك الشاب، وقدم لمحاكمة سريعة (نظراً لحالة الطوارىء بالبلاد) قضت بإعدامه، فتم تنفيذ الحكم فى الرابع والعشرين من نفس الشهر. أما المحاولة الثانية، فقد وقعت عندما ألقيت قنبلة يدوية على سيارة السلطان حسين ولم تنفجر، وقد اعتقل بسبب ذلك كل من محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين، وقدما إلى محاكمة عسكرية بريطانية فقضت بإعدامهما شنقاً، ولكن السلطان المثقل بمرضه تدخل وخفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.

إعدام شاب حاول قتل إبراهيم فتحى وزير الأوقاف:

لم تتوقف محاولات الجناح السرى (جمعية التضامن الأخوى) للحزب الوطنى عن الهجوم على كل من اعتقد أعضاؤه أنه يتعاون مع سلطات الاحتلال البريطانية. فلم تمض عدة أشهر على آخر محاولة لاغتيال السلطان حسين إلا وقام الشاب صالح عبداللطيف بالهجوم على وزير الأوقاف إبراهيم فتحى وطعنه بخنجر كان معه، ثلاث طعنات وهو يهم بركوب قطار الصعيد، وقد أدى ذلك إلى إصابة الوزير إصابات خطيرة ولكنه لم يمت وتم إسعافه واعتقل الجانى وقدم لمحاكمة عسكرية بريطانية فقضت بإعدامه شنقاً. وفى الثالث من أكتوبر عام ١٩١٥ تم تنفيذ حكم الإعدام. وكانت محاولة قتل الوزير قد تمت فى ٤ سبتمبر عام ١٩١٥م.

إعدام شاب حاول اغتيال محمد توفيق نسيم رئيس الوزراء:

انتهت الحرب العالمية الأولى وانتصر الحلفاء، وبقى الوعد البريطانى لمصر بالاستقلال معلقاً فقامت ثورة عام ١٩١٩م وظهر نجم سعد زغلول فى مسرح السياسة المصرية. ولكن الظروف المرتبطة بالاحتلال كانت لا تزال تساعد المتطرفين على القيام بأعمال العنف المسلح حيث وقع العديد من محاولات الاغتيال لكبار الشخصيات السياسية

المصرية، وخاصة فى النصف الثانى من عام ١٩١٩م وعام ١٩٢٠، إلا أن المحاكمات العسكرية لم تكن تصدر أحكاماً بالإعدام على الجناة إذا تم القبض عليهم. وربما يعود ذلك إلى أن بريطانيا لم تكن المقصودة مباشرة بتلك المحاولات بل إن الساسة المصريين أنفسهم كانوا الهدف.. وربما يعود ذلك كذلك إلى أن بريطانيا لم تكن تود تنفيذ عقوبة الإعدام حتى لا يتم توجيه العنف إليها، ويؤكد ذلك أن محاولة اغتيال محمد توفيق نسيم رئيس الوزراء التى تمت فى القاهرة فى ١٢/٦/١٩٢٠ بعد أن انفجرت قنبلتان فى سيارات موكبه وإن لم تؤد إلى مصرعه إلا أن المحكمة قضت بحكم الإعدام على الشاب حسن مسعود فأعدم. وبتنفيذ الإعدام شهدت مصر سلسلة متواصلة من أعمال (ومحاولات) قتل مسئولين بريطانيين كبار كان منهم قتل مستر براون مراقب عام وزارة المعارف فى ١٨ فبراير ١٩٢٢، وقتل المستر كييف وكيل حكمدار القاهرة فى ٢٤ مايو ١٩٢٢، ومحاولة قتل المستر براون فى ١٢ أغسطس ١٩٢٢، وفى الحالات الثلاث لم يتم اعتقال الجناة وبالتالى لم يصدر أى حكم - ولو غيابياً - بالإعدام. ولا شك أن ذلك يعكس مدى ما وصلت إليه كراهية المصريين لطغاة الاحتلال البريطانى، ويعكس مدى ضعف أجهزة الأمن البريطانية فى حماية الساسة البريطانيين، بالإضافة إلى عدم القدرة على الوصول إلى الجناة.

وفيما بعد، فقد اعترف أعضاء جمعية التضامن الأخوى بأنهم كانوا وراء تلك الاغتيالات، ولابد أن هؤلاء الأعضاء قد رأوا فى ذلك نجاحاً لهم دفعهم إلى تنفيذ أكبر عملياتهم ضد الاحتلال البريطانى ولكن ذلك تطلب مرور عامين تقريباً على آخر عملياتهم التى نفذت فى أغسطس ١٩٢٢ ضد المستر براون رئيس مصلحة البساتين.

إعدام سبعة مصريين لقتلهم سير لى ستاك سردار الجيش المصرى:

كللت جهود الزعيم المصرى الفذ سعد زغلول أمام الحكومة البريطانية بصدور الدستور المصرى عام ١٩٢٣ وإعلان استقلال مصر الذى سرعان ما ظهر أنه مجرد شكل فارغ من المضمون الفعلى، فأبدى المصريون غضبهم فى صور شتى من أعمال التظاهر وكراهية قوات الاحتلال.

وفى تلك الظروف طمعت انجلترا الاستعمارية فى فرض كامل نفوذها على السودان،

فغضب المصريون لذلك حكومة وشعباً، وأصدر مجلس الوزراء المصرى بقيادة سعد زغلول بياناً أدان فيه النوايا البريطانية وأيد البرلمان المصرى الموقف الرسمى والشعبى، فحدثت تظاهرات فى السودان كان هدفها العمل على إبقاء روح الوحدة بين شطرى وادى النيل، وتلى ذلك خروج طلبة الكلية الحربية بمدينة الخرطوم بتظاهرة مندّدين بالاحتلال فاعتقلت سلطات الاحتلال الطلبة. ولقد كان للسيرلى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العسكرى رأى أغضب حكومة بلاده الاستعمارية حيث نادى بضرورة قيام مصر بالمشاركة فى حكم السودان مما اغضب الحكومة البريطانية، فاستدعته للحضور إلى لندن، فغادر الخرطوم متوجهاً إلى القاهرة. وفى ظهر يوم التاسع عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٢٤ وأثناء ركوب السيرلى ستاك سيارته مغادراً وزارة الحربية المصرية قام خمسة من الشباب بالهجوم عليه بالرصاص وتم نقله إلى مستشفى الأنجلو أمريكان بحى الجزيرة غرب القاهرة حيث مات هناك متأثراً بجراحه.

ولقد أدى ذلك الاغتيال إلى إقالة وزارة سعد زغلول وإجبار الحكومة المصرية على دفع تعويض مالى كبير إلى أسرة السيرلى ستاك وإخراج الجيش المصرى من السودان، واعتقال أعداد غفيرة من المصريين شباباً وزعماء على حد سواء. وكان من أهم الشخصيات الهامة التى اعتقلت محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر والدكتور شفيق منصور وعبد الفتاح عنايت. وسارعت السلطات بإعلان أن هناك مكافأة عشرة آلاف جنيه ستقدم لمن يدلى بمعلومات تفيد فى القبض على الجناة الحقيقيين فى تلك القضية، فظهر شاب يدعى محمد الهلباوى وأعطى معلومات أدت إلى اعتقال عدد من الشباب المصرى الذين اعترفوا كما ذكرِ فى ذلك الوقت بأنهم نفذوا العملية بأوامرِ صدرت إليهم من رئيس جماعة سرية نشطة، يعتقد أنها جمعية التضامن الأخوى التى دمر تنظيمها من قبل الاحتلال تدميراً شاملاً فيما يبدو بعد ذلك الحادث. ولقد قدم المتهمون لمحاكمة نظرت فى أقوالهم، وأصدرت حكماً قاسياً يقضى بإعدام سبعة مصريين شنقاً، فتم تنفيذه فى صباح يوم ٧/٢٣ /١٩٢٥ وكان فى مقدمتهم عبد الحميد عنايت، ومحمود منصور.

إعدام قاتل أحمد ماهر باشا رئيس الوزراء:

لم تتوقف محاولات العنف السياسى بعد مصرع سردار الجيش المصرى فى القاهرة، ولكنها تحولت من ضرب رجال الاحتلال البريطانى إلى ضرب كبار الساسة المصريين.

فقد استقالت وزارة سعد زغلول، وألف الملك فؤاد وزارة جديدة برئاسة أحمد زيوار باشا (ولم يكن مصرى الأصل بل شركسياً) وأخذت الأحوال السياسية تنحو نحو عدم الاستقرار لتصارع الملك مع حزب الوفد، وتأييده للأحزاب الصغيرة التى لا تحظى بالشعبية، إلى أن أجريت الانتخابات البرلمانية فى نهاية ديسمبر عام ١٩٢٩، ففاز بها الوفديون وشكل النحاس باشا الوزارة الجديدة ولكنها لم تستمر إلا ستة أشهر بسبب الخلاف بين النحاس باشا والملك فؤاد، فقدم النحاس استقالته فشكل فؤاد وزارة بديلة برئاسة إسماعيل صدقى باشا فى ١٩ يونيو عام ١٩٣٠. ولقد سارع إسماعيل صدقى بتعديل الدستور، وقانون الانتخاب، وربما يكون ذلك سبباً لمحاولة الاغتيال التى تعرض لها فى القطار فى ٢٥ أغسطس ١٩٣٠ ولكنه نجا منها لتستمر وزارته حتى أكتوبر عام ١٩٣٣، فخلفه عبد الفتاح يحيى باشا (الذى كان وزيراً للخارجية فى وزارة صدقى باشا)، التى استقالت هى الأخرى فى نوفمبر عام ١٩٣٤ بسبب النزاع مع الحكومة البريطانية فخلفه محمد توفيق نسيم بدعم وترشيح من انجلترا.

ولقد كان تدخل بريطانيا فى شئون السياسة الداخلية المصرية سافراً كما رأينا، وكانت حجتها فى ذلك هى ظهور الأحزاب الفاشية والنازية فى كل من إيطاليا وألمانيا وأثر ذلك على المستعمرات البريطانية. وفى أبريل عام ١٩٣٦ مات الملك فؤاد فخلفه ابنه فاروق، وفى مايو من نفس العام نجح حزب الوفد فى تشكيل الوزارة بعد فوز الحزب بالانتخابات وأصبح النحاس باشا رئيساً للوزراء بعد أن خلف سعد زغلول فى رئاسة الحزب.

ولقد كانت معاهدة عام ١٩٣٦ أهم أعمال النحاس باشا، تلك المعاهدة التى أعطت لمصر الاستقلال لأول مرة.. ولكنه كان استقلالاً اسمياً، نظراً للمادة الثامنة من الاتفاقية والخاصة بوجود قوات عسكرية بريطانية كبيرة فى منطقة قناة السويس، ولقد كان ذلك هو السبب المباشر فى حدوث التصدع والانقسام فى حزب الوفد، فقام محمود فهمى النقراشى (وزير المواصلات) ومحمد صفوت (وزير الأوقاف) ومحمد غالب (وزير العدل)، بالانفصال عن الوفد وتشكيل حزب آخر يسمى حزب الهيئة السعدية. ولقد كان لذلك الانقسام دوره فى محاولة اغتيال النحاس باشا بواسطة الشاب عز الدين فهمى وهى المحاولة التى نجا منها النحاس، وصدر حكم قضائى بمعاقبة الجانى بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ولقد أخذت علاقات الملك فاروق تزداد سوءاً مع النحاس باشا، فتمكن الملك من إقالته وأتى بمحمد محمود باشا رئيساً للوزراء وكان رئيساً لحزب الأحرار الدستوريين، فلم يمكث طويلاً لقلة شعبيته فخلفه على ماهر باشا، ثم خلفه سرى باشا عام ١٩٤٠ .

ولما كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت بعنف فى أوربا وأخذت الانتصارات الألمانية تتوالى حتى أن بريطانيا نفسها كانت على وشك الانهيار لولا المساعدات الأمريكية والإمدادات الوافرة من المستعمرات، سارعت بريطانيا بإنزال قوات عسكرية أمام قصر عابدين فى فبراير عام ١٩٤٢ لتجبر الملك فاروق على عزل سرى باشا وتعيين النحاس باشا رئيساً للوزراء، وإلا تم عزل الملك فاروق نفسه عن حكم مصر، فرضخ الملك لذلك وأصبح النحاس باشا رئيساً للوزراء ليلقى بثقل مصر مع بريطانيا ضد قوات المحور. وفى أكتوبر عام ١٩٤٤ أصبحت كفة الحلفاء أقوى من كفة المحور نظراً للانتصارات السوفيتية الكبرى فى أوربا، وتدخل الولايات المتحدة ضد ألمانيا واليابان، فقام الملك فاروق بعزل النحاس باشا، وأتى بأحمد ماهر باشا رئيساً للوزراء. وكان عضواً هاماً فى حزب الهيئة السعدية. ولم تكن مصر حتى ذلك الوقت قد أعلنت رأيها رسمياً فى أى الطرفين تدعم فى الحرب العالمية، أتقف رسمياً مع بريطانيا، أم تقف مع ألمانيا وإيطاليا (التى كان الملك فاروق مقرباً منها) أتقف مصر مع الدولة التى تحتلها ضد الدولة التى تعدها بالحرية والانعتاق (ألمانيا) . ولم تكن الصورة واضحة حتى عام ١٩٤٤ أمام الساسة المصريين، إلى أن زادت الضغوط على مصر لتعلن رأيها الرسمى، فوقف أحمد ماهر باشا ليعلن رسمياً أن مصر تقف مع الحلفاء، وكان هذا سبباً كبيراً لغضب الملك منه، وحزب الوفد وطوائف عديدة من المصريين.. وفى مثل تلك الظروف تكثر الشائعات والأقاويل التى يصدقها الغاضبون. فقام شاب يدعى محمود العيسوى (محام) بدخول البرلمان المصرى فى يوم ٢٤ فبراير عام ١٩٤٥ ، وبينما كان أحمد ماهر باشا خارجاً من البهو الفرعونى اعترضه العيسوى وضربه بمسدس كان بحوزته ثلاث رصاصات أدت إلى مصرعه قبل أن ينقل إلى المستشفى ولقد ذكر عن العيسوى أنه كان محامياً نابهاً وكان يدرس لنيل رسالة الدكتوراة فى القانون وكان موضوع رسالته: مركز مصر الدولى بعد معاهدة عام ١٩٣٦ ، ولكنه كان من المتحمسين لدول المحور مؤمناً بسياسة العنف وتصفية الخصوم، وهى المبادىء التى كانت شائعة عن الجناح العسكرى للحزب الوطنى فى ذلك الوقت.

ولما قدم العيسوى للمحاكمة التى تعتبر من أطول المحاكمات السياسية فى مصر فى ذلك الوقت، نظراً لأن العيسوى نجح فيما يبدو فى إظهار أنه لم يكن له شركاء فى اعتدائه على أحمد ماهر باشا الذى كان ثانى رئيس وزراء مصرى يغتال بعد بطرس غالى باشا، ونظراً لأن المحكمة استعانت بعدد كبير من كبار رجال الدولة، كان منهم النقراشى باشا رئيس الوزراء والحاكم العسكرى العام ووزير الداخلية، وعلى ماهر باشا، ومكرم عبيد باشا، وحافظ رمضان باشا، الذين أدلوا بأقوالهم فى جلسات سرية مغلقة لم تتم إذاعة ونشر مضمونها إلا بعد إصدار حكم المحكمة فى ١٩٤٥/٧/٢٨، بإعدام محمود العيسوى عوض الله شنقاً لثبوت القصد الجنائى فى جريمته. ولقد تم نشر حيثيات ذلك الحكم فى ١٩٤٥/٩/١٣ وبعد ذلك بستة أيام «وفى الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم ١٩٤٥/٩/١٨ أوقظ المتهم محمود العيسوى فأحس بأن التنفيذ سيجرى فى ذلك اليوم وطلب الوضوء والصلاة وقراءة سورة يس، واقتيد بعد ذلك إلى سجن الاستئناف الساعة السابعة صباحاً حيث التقى به واعظ المحافظة وقال له: جئت لأقف معك ساعة لأقربك فيها إلى الله تعالى ولكى أقول لك إن الموت حق على كل إنسان وأن القصاص حق، فتوجه إلى الله تعالى بالغفران والتوبة.

وكان يصلى ويتلو سورة يس، حتى مثل أمام هيئة التنفيذ حيث تلى عليه الحكم، وسئل عما إذا كان يريد أن يقول شيئاً فقال: أنا لا يهمنى إلا حكم التاريخ، وأرجو الصحفيين ألا يشوهوا سمعتى كما شوهوا القضية، وكلمتى لهم هى ألا تفتروا على ميت. ثم طلب السماح له أخيراً بتلاوة سورة يس والصلاة فأجيب إلى طلبه حتى إذا ما انتهى ألبس الطاقية السوداء وسيق إلى المشنقة»[(١)].

إعدام قاتل النقراشى باشا رئيس الوزراء:

أصبح النقراشى باشا رئيساً للوزراء بعد مصرع رفيقه أحمد ماهر باشا، وكلاهما من حزب الهيئة السعدية التى انشقت عن الوفد ولقد كانت وزارة النقراشى باشا وزارة أتت لتلقى المزيد من الغضب والاضطراب، فبالرغم من أنها شهدت دخول مصر الجامعة العربية فى مارس ١٩٤٥، والأمم المتحدة فى يونيو ١٩٤٥، إلا أن مظاهرات الطلبة فى

(١) الجرائم السياسية ـ بقلم أنور العمروسى المحامى ـ الجزء الأول ـ مطبعة البرلمان بميدان محمد على الكبير بمصر.

أكبر مدن مصر بسبب ذكرى وعد بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩٤٥، وعيد ميلاد الملك فاروق فى فبراير ١٩٤٦ وما نتج عن ذلك من تصادمات شديدة بين المصريين واليهود فى أحياء القاهرة والإسكندرية، وبين المتظاهرين ورجال الشرطة مما أدى إلى مصرع وجرح المئات، ثم تطورت المظاهرات لتطول الملك الفاسد اللاهى، وقوات الاحتلال البريطانى نفسها، فلم يجد النقراشى باشا مفراً من ذلك إلا تقديم استقالة وزارته، فعين الملك إسماعيل صدقى خلفاً له. ولم تكن تلك الوزارة بأحسن من سابقتها، إذ اندلعت المظاهرات الثائرة ضد الانجليز واقتحم الشباب المصرى ثكنة الجيش الإنجليزى الكبرى فى قصر النيل، فتصدى لهم الجند البريطانيون وقتلوا من المصريين حوالى ٦٤ وجرحوا أكثر من ٣٠٠، وقد رفضت بريطانيا الجلاء عن مصر رغم وعودها المتكررة أثناء الحرب بذلك، فقدم إسماعيل صدقى استقالته للملك لفشله، وخلفه النقراشى باشا الذى تقدم بشكوى لمجلس الأمن لإعلان استقلال مصر وإجلاء القوات العسكرية البريطانية عن أرض مصر، ولكن المجلس رفض ذلك لسيطرة الدول الاستعمارية الكبرى على مجلس الأمن. ولقد هاجم حزب الوفد بقيادة النحاس باشا جهود النقراشى باشا لإجلاء بريطانيا عن مصر ووصفها بأنها فاشلة، وبأن وزارة النقراشى لا تمثل مصر.

واستمرت الأوضاع فى مصر تزداد سوءاً حتى تمكنت القوى الصهيونية والاستعمارية أن تستصدر قراراً من مجلس الأمن فى نوفمبر عام ١٩٤٧ يقسم دولة فلسطين العربية إلى دولتين: دولة يهودية ودولة عربية. فثار المصريون تظلماً من هذا القرار واندلعت المظاهرات فى أرجاء البلاد منددة بالولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتى، ومزق المتظاهرون صور الملك فاروق. وفى ١٥ مايو ١٩٤٨ خرج الإنجليز من فلسطين بعد أن نفذوا وعد بلفور.. وهكذا أصبح اليهود والعرب وجهاً لوجه، فدعت الشعوب العربية حكوماتها لتشكيل الجيوش وإعادة فلسطين الموحدة إلى أهلها، وسارع الملك فاروق بإرسال الجيش المصرى إلى فلسطين - دون مشاورة البرلمان والحكومة المصرية - ودخلت الجيوش فى حرب كان فى بدايتها الانتصار وفى نهايتها الفشل والخسائر والفوضى بسبب سوء التخطيط والفساد وعدم الخبرة السياسية فى فهم العقلية اليهودية التى استفادت من وقف إطلاق النار والهدنة التى أعقبته.

ولا شك أن النقراشى باشا قد شعر بالحزن والألم من نتائج تلك الحرب.. ولا شك أن

تلك الحرب كانت سبباً من الأسباب التى دفعت بالشاب عبد المجيد حسن فى صباح ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ إلى اغتيال النقراشى باشا.

وفى الحقيقة فإن نتائج الحرب كانت كارثة على العرب أجمعين، ولكنها كانت فى مصر أشد.. فقد كانت جماعة الإخوان المسلمين من أكثر الذين غضبوا على الحكومة المصرية بسبب تلك النتائج بالرغم من تشجيعهم وتأييدهم واشتراكهم فى دخول تلك الحرب.. ولكن اتهام الحكومة لجماعة الإخوان المسلمين بأنهم مسئولون عن اغتيال النقراشى كان لأن النقراشى باشا قام بإصدار قرار بحل الجماعة فى الثامن من ديسمبر عام ١٩٤٨، بسبب هجومهم على الملك والإنجليز والحكومة المصرية، مما رأت فيه الحكومة وقتئذ أنه سيؤذى الحياة السياسية بالغ الأذى وخاصة بعد النكسة العسكرية التى راح ضحيتها الآلاف من الشهداء والجرحى.

وتولى إبراهيم عبد الهادى باشا الوزارة المصرية وأخذ يتتبع جماعة الإخوان المسلمين ويزج بهم فى السجون بدون تمييز.

أما عبد المجيد حسن قاتل النقراشى فقد قدم إلى محاكمة أدانته بقتل النقراشى رئيس الوزراء، وأصدرت حكمها عليه بالإعدام شنقاً.

وهكذا دخلت جماعة الإخوان المسلمين فى صراع مباشر مع الحكومة المصرية، ذلك الصراع الذى استمر سنوات وسنوات حتى بعد قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢م.

الفصـــل التــاســع

الإعــدام السـياسـى منـذ قيام ثـورة يوليو وحـتى عـام ١٩٩٤م

أعلنت حالة الطوارىء فى كل من تنظيم الإخوان المسلمين من ناحية وحكومة إبراهيم باشا عبد الهادى من ناحية أخرى بعد مصرع النقراشى باشا.. ولم تمض عدة أسابيع حتى تم اغتيال الشيخ حسن البنا فى ١٢ فبراير عام ١٩٤٩، ولم يعثر على مرتكب الجريمة، وسارعت جماعة الإخوان باتهام أجهزة الحكومة بتدبير الجريمة، وإن كانت التحقيقات التى أجريت فيما بعد قيام ثورة يوليو قد أشارت إلى أن جهازا أمنيا يتبع الملك فاروق هو الذى دبر اغتيال الشيخ البنا.

ومهما كان الأمر، فقد أخذت أحوال البلاد تزداد سوءاً حتى تم انتخاب النحاس باشا رئيس الوفد فى يناير عام ١٩٥٠ «وزار النحاس فاروق، بعد إعلان النتائج، وكانت أولى زياراته له منذ إقالته يوم ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ فعهد إليه بتأليف الوزارة، فقبل المهمة شاكراً وداعياً وقال للصحفيين وهو يغادر القصر: إن لسانى يلهج بالثناء على جلالته لما أفاضه علىَّ من عطف وفضل غزير، وأسأل الله أن يمد فى عمره وأن يوفقنا لخدمة البلاد فى ظل عرشه المجيد»(١).

وسارع النحاس بترضية الشعب فألغى الرقابة على الصحف وألغى حالة الطوارىء وتفرغ للمفاوضة مع الإنجليز بشأن الجلاء عن مصر، ولكن بريطانيا ماطلت فى وضع خطة للجلاء وعرضت اشتراك مصر فى حلف الشرق الأوسط بحجة منع التوسع السوفيتى الشيوعى، فرفضت مصر الاشتراك فى ذلك الحلف، فتصاعد الغضب الشعبى، واندلعت بسبب ذلك أعمال عنف واسعة النطاق فى منطقة قناة السويس بين الفدائيين المصريين وبين جنود الاحتلال البريطانى الذين بلغ عددهم حوالى ثمانين ألف جندى مسلحين تسليحاً كثيفاً وحديثاً. وكلما كان عدد الشهداء المصريين يتزايد كانت الأعمال الفدائية تزداد بسالة وتأثيراً على الروح المعنوية لجنود الاحتلال..ولا يمكن فى الحقيقة

(١) تاريخ مصر السياسى من الحملة الفرنسية إلى انهيار الملكية ـ أمين سعيد ـ (مرجع سابق).

تجاهل احتمال قيام بعض عناصر المخابرات البريطانية بتدبير حريق مدينة القاهرة المروع الذى وقع فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢، والذى نتجت عنه خسائر مادية هائلة واضطرت الحكومة بعده أن تعلن الأحكام العرفية وتعيين النحاس باشا حاكماً عسكرياً ووقف الدراسة بالمدارس والجامعات.

وما يثير الشك فى النوايا الغربية فى ذلك الوقت هو قيام الحكومة الأمريكية بمهاجمة حكومة النحاس باشا واعتبارها مسئولة عن حريق القاهرة، وأنها - أى الحكومة الأمريكية - تسعى مع الملك فاروق لإقصاء النحاس من الحكم.. وبالفعل أصدر الملك فاروق قراراً ملكياً بعد منتصف ليل يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ بإقصاء النحاس عن الحكومة وتعيين على ماهر باشا رئيساً للوزراء الذى سرعان ما استبدل بوزارة نجيب الهلالى ثم تغير هذا بالمهندس حسين سرى باشا الذى لم تكمل وزارته ثلاثة أسابيع ليقوم نجيب الهلالى مرة ثانية بتشكيل وزارته فى ٢٢ يوليو عام ١٩٥٢ والذى لم يكن يعلم أنه لن يذهب لمكتبه أبداً لحكم مصر.

الأوضاع السياسية قبل قيام ثورة يوليو:

كانت أحوال مصر قبل قيام ثورة يوليو قد وصلت إلى نقطة اللا عودة، فكأن مياها هائلة قد تجمعت خلف سد سرعان ما انهار ولا يمكن معرفة أين سيتجه التيار الأغلب من المياه.

وفى مثل ظروف دولة عربية كبرى واقعة تحت الاحتلال ممزقة الأشلاء متصارعة بين يمين ويسار فإن كل شيء يصبح محتملاً.

لقد ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية كزعيمة العالم الرأسمالى بعد انهيار الإمبراطورية البريطانية سياسياً واقتصادياً بعد الحرب العظمى، وظهرت أخطار دولة عملاقة أخرى فى الاتحاد السوفيتى، فكان ذلك كافيا للولايات المتحدة لتملأ الفراغ البريطانى وتسارع بالهيمنة على مصر أقوى وأكبر دولة عربية، ومفتاح الحل والربط فى منطقة الشرق الأوسط.

ولا يجوز منطقياً استبعاد قيام الحكومة الأمريكية بالاتصال بكل القوى السياسية ذات

النفوذ فى مصر. فقد رفض النحاس باشا دخول مصر فى أحلاف دولية حتى وإن كانت ضد الاتحاد السوفيتى، ليس حباً فى الدولة الشيوعية الكبرى، ولكن لكى ينجى مصر من أخطار التحالف ولكى لا يعطى بريطانيا فرصة البقاء فى مصر.. وكان هذا دافعاً آخر لكى يقوم الغرب (الولايات المتحدة) بمعرفة كيف تستغل الفرصة لكى تحقق المصالح الخاصة بها.

وكانت القوى السياسية فى تلك الأثناء هى: القصر، الأحزاب، جماعة الإخوان المسلمين وتنظيم الضباط الأحرار الذى أخذت الأخبار تتواتر عن ظهوره فى القوات المسلحة فى ذلك الوقت.

ولا يمكن معرفة المدى الحقيقى الذى يمكن أن تكون قد وصلته تلك الاتصالات، ومع من تمت بصفة محددة وشخصية، أو إذا ما كانت هناك وعود قد منحت، وما مدى المساعدة المعنوية أو المادية التى يمكن أن تكون قد أعطيت.

ومهما كان الأمر.. فقد رأى الغرب ضعف الملك فاروق وفساده وأن مستقبله ليس معروفاً لكراهية الشعب له. أما الأحزاب فإن الصراع فيما بينها قد أضعفها جميعاً بما فى ذلك حزب الوفد - مع عدم تجاهل أو نسيان أنه الحزب الذى رفض مساعدة الغرب فى مشروع الشرق الأوسط، مما أحبط المساعى الغربية - أما الإخوان المسلمين فربما شعر الغرب أنهم تنظيم دينى له جانب من الشعبية فى الداخل وأن دولاً عربية وإسلامية تشجعه وأنه معاد للاتحاد السوفيتى عدو الغرب الأول.. ولكن الإخوان قد يشكلون خطراً دينياً على الغرب وإسرائيل خاصة بعد انهيار تركيا، والخوف من تجدد الدولة الإسلامية التى يمكن أن تكون متطرفة. ويبقى تنظيم الضباط الأحرار المجهولة قياداته وأفرعه ونواياه.. فلو أن جانباً من هذا التنظيم وافق على الاتصال بالغرب، والأمريكيين بصفة خاصة، فإنه بلا شك سيكون قد عرض نفسه للخطر والابتزاز.. وبماذا تفيد الولايات المتحدة تنظيما قادراً على تغيير نظام الحكم بدون مساعدة خارجية. ألم تكن الولايات المتحدة تعلم أن الجيش المصرى يكره قوات الاحتلال خاصة بعد قيام دولة إسرائيل وحرب عام ١٩٤٨، ويكره بقاء الجيش البريطانى (حليف أمريكا الأول) فى منطقة قناة السويس وهى أرض مصرية عزيزة؟ ولكن إذا كان هذا متصوراً بصورة أو بأخرى، فإن المرء لا يستطيع أن يلغى احتمال قيام الولايات المتحدة بإرسال تطمينات إلى بعض

أعضاء التنظيم تفيد بأن الحكومة الأمريكية لن تعادى حركة يقودها الجيش لفرض الاستقرار فى مصر والقضاء على الفساد الملكى وإسكات الشعب الغاضب الفقير ببعض المشروعات والمساعدات.. ولكن هل يمكن أن يكون ذلك بلا مطالب أمريكية تكون فى صالح الولايات المتحدة؟

إن طبيعة السياسة الأمريكية، ومنذ انتهاء الحرب العظمى، توضح أن الولايات المتحدة تحاول أن تتعامل بصورة مستترة أو علنية مع قادة التيارات السياسية سواء التى فى الحكم أو فى الظل فى كافة دول العالم الثالث (وحتى يومنا هذا!) فهى تعلم أن أغلب تلك الدول تعيش فى حالة عدم استقرار، ومن الفطنة - هكذا ترى - أن تتعامل مع من يمكن أن يصل إلى حكم تلك الدول حتى لا تفاجأ بسياسة معادية لها.. وقد رأينا ذلك يحدث مراراً وتكراراً.. فالمصالح الأمريكية دائماً هى الهدف الأول والأخير لتعاملات الولايات المتحدة مع دول العالم، فليس هناك صداقات عاطفية مع أحد طالما أن المصالح لا تقتضى ذلك.

قيام الثورة وهدم النظام الملكى بمصر:

تأسس تنظيم الضباط الأحرار فى بداية الأربعينيات من القرن العشرين ولقد كان جمال عبد الناصر هو الذى أسس ذلك التنظيم وأداره وأشرف عليه على مدى عشرة أعوام متصلة. وإذا كان هذا هو ما حدث، فلنا أن نعرف أن من أهم الأسباب التى ساعدت على بقاء هذا التنظيم سليماً حتى قيام الثورة، هو ابتعاده عن أى عمليات عنف ضد النظام والقانون اللذين كانا سائدين فى ذلك الوقت. فلم يحدث أن قام التنظيم بأية عمليات ضد الملك أو الاحتلال أو الأحزاب، ولا شك أن التاريخ لعب دوراً فى هذا الكمون، فالثورة العرابية الفاشلة كانت واضحة كل الوضوح فى الجانب الخلفى من عقول الضباط الأحرار، كما أن سيطرة بريطانيا على الجيش المصرى قبل الحرب العالمية الثانية وربما أثناءها بصورة أو بأخرى كانت عائقاً. كما أن أعمال العنف السياسى الموجهة إلى الإنجليز فى داخل مصر وفى منطقة قناة السويس والتى كان يقوم بها عناصر من الإخوان المسلمين وأعضاء مصر الفتاة، كانت كافية فيما يبدو لإضعاف الانجليز والملك.. ولهذا فعندما أخذت إنجلترا تنهار أثناء وبعد الحرب العظمى، وبفشل الجيوش العربية فى تحرير فلسطين من اليهود عام ١٩٤٨، وباندلاع الحرائق فى القاهرة فى يناير عام ١٩٥٢ أصبح تنظيم

الضباط الأحرار فى وضع معنوى يمكنه من وضع خطة ناجحة تتيح له السيطرة على البلاد سيطرة محكمة والإطاحة بالنظام الملكى.

وكأى تنظيم عسكرى سرى فى دولة نامية، لم يكن لتنظيم الضباط الأحرار أيديولوجية سياسية، ومع ذلك فقد كان على عداء مع النظام الملكى والإنجليز والأحزاب السياسية التى عاشت عشرات السنين فى صراع مع بعضها البعض.. إلا أننا لا يجب أن ننسى أن هؤلاء الضباط كانوا مصريين يشعرون بآلام وطن ملكه فاسد يسمح لدولة استعمارية أن تطيل احتلالها وبقاءها حتى يظل هو وأتباعه متمتعين بحكم البلاد. كذلك لم يكن تنظيم الضباط الأحرار ممثلاً للصفوة الإقطاعية التى ظهرت منذ دولة محمد على فى بداية القرن التاسع عشر، ولم يكن ممثلاً كذلك للطبقة البرجوازية الرأسمالية التى أخذت فى الظهور فى بداية القرن العشرين والتى كان أغلبها منحدرين من أصل غير مصرى. لقد كانت الأصول الاجتماعية لأغلب من قام بالثورة هى أصول ريفية تنتمى للطبقة الدنيا أو الطبقة المتوسطة على أحسن الافتراضات وفى أحوال قليلة، وكان هذا كافيا فيما يبدو لأن يتجه أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى ترحيل الملك فاروق وهدم النظام الملكى التقليدى، ثم إصدار قرارات بحل كافة الأحزاب السياسية المصرية وتصفية ممتلكاتها ومصادرتها.. ولم يحدث ذلك بسهولة ويسر كما ظن الضباط الأحرار، ولكنهم - لا شك - شعروا أن خبرتهم السياسية غير كافية لتسيير دفة البلاد، فكانت بعض ردود أفعالهم تتسم بالتخبط أو القسوة أو العداء حتى مع بعضهم البعض.

***

أول إعدام سياسى: اثنان من العمال:

جاءت أولى المنازعات السياسية بين الضباط وبين الأحزاب السياسية عندما طلب الضباط تطهير الأحزاب من المفسدين وتفهم الأوضاع الخطرة التى تمر بها البلاد، فلم يبدُ أن رجال الأحزاب قد تفهموا ذلك بما فيه الكفاية، وصادف أثناء ذلك أن ثار العمال بمصانع الغزل والنسيج بمدينة كفر الدوار، وأخذوا يخربون فى ورش المصانع وملحقاتها وسياراتها، وتدخلت قوات من الجيش بعد أن عجزت قوات الشرطة المحدودة عن محاصرة العمال، ونتج عن ذلك قتل ستة أشخاص (ثلاثة جنود وثلاثة عمال)، وقد

اعتقل العشرات من قادة المخربين وقدموا إلى محاكمة عسكرية سريعة حكمت على اثنين منهم بالإعدام شنقاً، وهما محمد مصطفى خميس وعلى محمد حسن البقرى.. وعلى آخرين بالسجن. وتعتبر تلك الأحكام أول أحكام بالإعدام تحدث بعد قيام ثورة يوليو مباشرة، ولا شك أن احتمال إثارة العمال من قبل أعداء الثورة وهى فى مرحلتها الأولى الحساسة وارد، خاصة من قبل رجال السراى الملكى والإقطاعيين والرأسماليين الذين شعروا أن الضباط الأحرار يشكلون أعداء خطرين لمصالحهم.. بالرغم من أن الضباط الأحرار لم يكونوا ـ حتى الآن ـ قد تعرضوا بعد لمصالح الإقطاعيين أو الرأسماليين الطغاة.

لقد بدا أن الضباط ورجال الأحزاب لم يعثروا على نقطة حوار فيما بينهم فقد استمر بعض رجال الأحزاب ينتقدون الضباط وتصرفاتهم، ولم يعطوهم الفرصة لتثبيت الأوضاع بالبلاد بعد هدم النظام الملكى.. فما كان من الضباط إلا أن سارعوا باعتقال ما يزيد على سبعين شخصية حزبية ـ اتضح فيما بعد أنها حركة بلا معنى ولا فائدة ـ فزاد الخلاف واتسع الشك فيما بين الجانبين. وأقيل على ماهر من رئاسة الوزراء بالرغم من أنه كان أول من أيد الثورة، وقام محمد نجيب بتأليف الوزارة الجديدة التى كان أول وأهم أعمالها وضع قانون الإصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر عام ١٩٥٢ وكان الغرض منه الارتقاء بحال الفقراء من الفلاحين، والقضاء على نفوذ كبار الإقطاعيين.

فلم يكن القانون يعكس فى حقيقة الأمر أى اتجاه شيوعى ماركسى، فلقد كانت الفكرة موجودة قبل الثورة ولقد طبقت ولا تزال تطبق فى الكثير من البلدان حتى الرأسمالية منها طالما هناك بشر يعيشون تحت خط الفقر، وطالما استغل رجال الإقطاع الجشعون هؤلاء البؤساء بلا رحمة ولا رأفة.

ويبدو أن الضباط الأحرار الذين لم يكن لهم أيديولوجية سياسية يؤمنون بها قد عرفوا ـ ربما بالفطرة ـ أن استمرار نجاحهم سيعتمد على مساعدة القاعدة العريضة من الشعب.. فسارعوا بتخفيض إيجارات المساكن وألغوا الوقف على غير الخيرات.. وقد استفادت من تلك القرارات أعداد غفيرة من المواطنين. وأعقب ذلك إصدار عدة أحكام بالعفو العام عن الكثيرين من المعتقلين السياسيين سوى من كان يسارياً، وكأن اليسار كان معادياً للقرارات الأخيرة التى أفادت الفقراء والمعدمين!

وعندما وصل رجال الأحزاب والضباط الأحرار إلى طريق التصادم صدر قرار من

محمد نجيب بحل الأحزاب السياسية وكان ذلك فى ١٧ يناير ١٩٥٣ . ولقد كانت خطوة ناجحة تكتيكياً، فاشلة استراتيجيا.. دفع ثمنها المصريون فيما بعد، ولم ينج من خطرها الضباط الأحرار أنفسهم. ولم يمس ذلك القرار جماعة الإخوان المسلمين، ليس فقط لأنهم كانوا قد أيدوا الضباط الأحرار فى ثورتهم، بل لأنهم كذلك كانوا على عداء شديد مع كافة الأحزاب السياسية المصرية قبل الثورة وخاصة حزب الوفد، وحزب الهيئة السعدية وكان قادتهم - أى قادة الإخوان - وخاصة سيد قطب يكتب مقالات بالغة العنف ضد مازعم أنه ديكتاتورية وطغيان الأحزاب فى صحف مصرية مشهورة.

ويبدو أن إلغاء الأحزاب قد شجع الضباط الأحرار فى أن يسارعوا بإعلان النظام الجمهورى (يونيو ١٩٥٣) ليطووا إلى الأبد النظام الملكى المصرى.. فها هم قد طردوا الملك، وأسعدوا فقراء الفلاحين، وتخلصوا من أعدائهم فى الأحزاب.. ولكن هل خطر ببالهم أن إلغاء الديمقراطية (وإن كان بطريقة سلمية) سيمكنهم من تطوير الحياة السياسية لشعب مصر، أم كانوا يؤمنون أن الفقراء والأميين - وهم غالبية شعب مصر فى ذلك الوقت - فى حاجة إلى من يطعمهم ويقودهم؟

هل كان إلغاء الأحزاب وإعلان مرحلة انتقالية لمدة ثلاثة أعوام تنتهى فى يناير ١٩٥٦ سيؤدى حتماً لإعادتها لو سارت الأمور سيراً صحيحاً بلا متاعب ولا أخطار؟ وهل يمكن أن يتوقع قادة حركة عسكرية ثورية ألا تحدث لهم المتاعب.. وألا تقابلهم الأخطار سواء من خارج تنظيمهم أو من داخله؟

هل كان هناك قدر من السذاجة غذتها الجهالة السياسية؟ هل كان الحماس العاطفى أكبر وأقوى من المنطق؟ أم هل كانت الأوهام أكبر من الآمال فى نجاح بلا أذى؟؟

وإذا ما كانت الأحوال السياسية تسير هذا السير السريع، فقد أخذت إسرائيل - عدو مصر الأول فى الشرق الأوسط - بدون أى مبرر فى انتهاك الحدود الشرقية لمصر.. فقد احتلت منطقة العوجة فى شهر سبتمبر عام ١٩٥٣، وأثناء ذلك كانت محكمة الثورة قد شكلت، وأعلن عن ذلك محمد نجيب، وكانت أغلب القضايا التى نظرتها تعود وقائعها إلى ما قبل قيام الثورة. وكانت أهم الشخصيات التى أدانتها تلك المحكمة إبراهيم باشا عبدالهادى رئيس الوزراء الأسبق الذى اتهمته المحكمة بالاتصال بجهات أجنبية، ولكن لابد أن القارىء يذكر أن إبراهيم عبدالهادى كان العدو الأول للإخوان المسلمين الذى ذكر

أنه زج بهم فى المعتقلات بعد مقتل النقراشى باشا وكأن محاكمته من قبل مجلس قيادة الثورة فى سبتمبر عام ١٩٥٣ قد جاءت لكى تعبر عن وجود واستمرار العلاقة الحسنة بين مجلس قيادة الثورة والجماعة!

ولقد حكمت عليه المحكمة بالإعدام ولكن الحكم خفف للسجن المؤبد. كذلك حاكمت محكمة الثورة عددا من العسكريين السابقين مثل البكباشى محمد حسنى الدمنهورى وأخيه اليوزباشى محمد رفعت الدمنهورى واتهمتهما المحكمة بالتآمر على إحداث تمرد وفتنة بالقوات المسلحة المصرية، وحكمت على الأول بالإعدام وخفف الحكم إلى الأشغال المؤبدة، وطرد الثانى من الخدمة.

إعدام أربعة للاتصال بجهات أجنبية:

كذلك أصدرت محكمة الثورة قراراً بإعدام كل من الفريد عوض ميخائيل وبولس مكسيموس ومحمود صبرى على (وله اسم شهرة هو كنج صبرى) ومحمد عزت محمد... وتم تنفيذ الحكم فعلاً بعد أن أدانتهم المحكمة بالاتصال بجهات أجنبية للإضرار بمصلحة البلاد، والإضرار بالمجهود الحربى الذى كان يبذله الفدائيون ضد الانجليز فى منطقة قناة السويس وتعذيب الفدائيين المصريين الذين كان يتم أسرهم.

ومن هذه المحاكمات التى طالت كل الجهات التى كانت موجودة قبل الثورة تقريباً، شعر مجلس قيادة الثورة بقوته، فسارع محمد نجيب، كرئيس للجمهورية، فى ١٤ يناير عام ١٩٥٤ بإصدار قرار يقضى بحل جماعة الإخوان.

ولا شك أن عام ١٩٥٤ يعتبر أخطر الأعوام فى تاريخ ثورة يوليو.. ولم يكن هذا راجعاً إلى أخطار خارجية شديدة بقدر ما كان راجعاً إلى تضارب الآراء فى مجلس قيادة الثورة ذاته وقلة الخبرة السياسية وظهور الأطماع. فقد قام اللواء محمد نجيب بتقديم استقالته من منصبه كرئيس لمجلس قيادة الثورة فى فبراير عام ١٩٥٤ ثم عاد إلى منصبه فى نفس الشهر، ولم يكن هذا بلا معنى.. فقد اتهمه أعضاء المجلس برغبته فى الاستحواذ على سلطات أوسع من سلطات أى عضو بالمجلس، ثم عادوا وقبلوه رئيساً لهم حفاظاً على وحدة الأمة. وبالرغم من عودته إلا أن ذلك التردد العلنى انعكس على مجمل الحياة السياسية فى مصر. ففى نهاية فبراير ١٩٥٤ خرجت مظاهرات كثيفة من جامعة القاهرة

وتصادم المتظاهرون مع رجال الشرطة. وفى أول مارس من نفس العام تعرض رئيس الجمهورية محمد نجيب لمحاولة اغتيال فى السودان بعد وصوله إلى الخرطوم للاحتفال مع الإخوة السودانيين بافتتاح البرلمان. وفى ٥ مارس أعلن عن اتخاذ الإجراءات لانتخاب جمعية تأسيسية فى شهر يوليو، ثم أعلن أن جمال عبد الناصر (وكان رئيساً للوزراء) قد تخلى عن منصبه ليعود نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة، وبعد عشرين يوماً من ذلك صدر قرار بإعادة تشكيل الأحزاب السياسية وحل مجلس قيادة الثورة.

وكل هذا يظهر إلى أى مدى كان التضارب فى القرارات الصادرة من ضباط بلا خبرة سياسية كافية، فتلك القرارات تعنى أن ما كانوا قد أصدروه من قرارات قد ألغيت بما فيها قرار العمل لفترة انتقالية لمدة ثلاث سنوات.. وتعنى - علناً - أنهم قد عجزوا عن إدارة الدولة، وأن على الأحزاب التى حلوها وحاكموا قادتها أن تعود للعمل، وتعنى كذلك أن الجهاز العصبى للدولة (مجلس قيادة الثورة) ليس موحداً، وأن أعضاءه ليسوا على وفاق أو تفاهم.

ولكن سرعان ما جاء قرار جماعى من كافة ضباط وحدات الجيش ليوقف ذلك التردى، وذلك باعتصامهم بوحداتهم حتى يقوم مجلس قيادة الثورة بإلغاء قرارات ٥ و٢٥ مارس ١٩٥٤، لأنها إذا ما نفذت فإن ذلك يعنى أن ثورة يوليو تكون قد انتهت.

ويبدو أن ذلك الموقف قد جاء، ليس فقط لينقذ أعضاء مجلس قيادة الثورة من فشل أكيد، ولكن جاء كذلك ليزيدهم قوة.

ولكن لم تكن قوتهم تتسم بالتروى الكافى، إذ قاموا بعدة إجراءات سريعة كان أهمها حرمان عدد كبير من الوزراء الحزبيين الكبار من الحقوق السياسية، وحل نقابة الصحفيين وعزل محمد نجيب من رئاسة الوزراء (بالرغم من إبقائه رئيساً للدولة)، وتقديم عدد كبير من الضباط للمحاكمة بتهمة إحداث فتنة فى القوات المسلحة حيث صدرت أحكام على ١٣ منهم بالسجن من سنة إلى ١٥ سنة.

صدور حكم بإعدام ستة من الإخوان المسلمين:

ولم ينته عام ١٩٥٤ نهاية سعيدة، كما كان يأمل الناس، بل حدث فى ٢٦ أكتوبر أن تعرض جمال عبدالناصر لمحاولة اغتيال فى مدينة الإسكندرية بينما كان يلقى خطاباً

شعبياً بمناسبة توقيع اتفاقية الجلاء البريطانى عن قناة السويس. فقد أطلقت ثمانى رصاصات باتجاهه وهو يخطب ولكنها أخطأته جميعاً! وسرعان ما اعتقل شخص يدعى محمود عبد اللطيف (مهنته سمكرى)، وذكرت السلطات وقتئذ أنه عضو بجماعة الإخوان، التى كانت قد حلت منذ بضعة أشهر.. وقد أدى ذلك إلى اعتقال عدد كبير من أعضاء الجماعة، وتشكلت محكمة الشعب فى نوفمبر عام ١٩٥٤، وكان يرأسها جمال سالم، حيث أصدرت أحكامها بإعدام ستة من الأعضاء هم:

١ ـ محمود عبد اللطيف.
٢ ـ يوسف طلعت.
٣ ـ هنداوى دوير.
٤ ـ إبراهيم الطيب.
٥ ـ عبد القادر عودة.
٦ ـ محمد فرغلى.

ولقد تم تنفيذ حكم الإعدام فعلاً، وحكم بأحكام مختلفة بالسجن المؤبد إلى السجن ١٥ عاماً على أعداد كبيرة أخرى.

ولقد أدت تلك الأزمة إلى عزل اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية من منصبه وذلك من قبل مجلس قيادة الثورة، حيث اتهمه المجلس بالتحالف مع الإخوان لإحداث انقلاب عسكرى، وكان ذلك فى ١٤ نوفمبر عام ١٩٥٤، فطوى التاريخ صفحته بعد أن حكم مصر لمدة عامين تقريباً.

إعدام اثنين من الجواسيس:

وجاء شهر ديسمبر عام ١٩٥٤ ليشهد حدثين هامين آخرين، الأول وهو صدور الحكم بإعدام اثنين من الجواسيس لصالح إسرائيل وهما صمويل عازر، وموسى ليتو مرزوق.. بعد أن اعتقلتهما أجهزة الأمن المصرية مع شبكة تجسس لصالح إسرائيل كان هدفها إحداث تمردات تضر بأمن البلاد ومحاربة الثورة وإنجازاتها الاجتماعية. أما الحدث الثانى فهو حل نقابة المحامين فى ٢٢ ديسمبر وتعيين أعضاء لمجلس النقابة من قبل الدولة.

وبانتهاء عام ١٩٥٤، بدا أن مجلس قيادة الثورة قد تخلص من كل من اعتبرهم خصومه فى الداخل، أما أعداء مصر فى الخارج فقد أخذوا يكيلون الضربات تباعاً. ففى ٢٨ فبراير عام ١٩٥٥ هاجمت إسرائيل غزة ونتج عن ذلك استشهاد ٣٩ وجرح ٣٣ مصرياً. ولقد جاء ذلك الهجوم الغادر (بينما هناك هدنة رسمية بين مصر وإسرائيل منذ عام ١٩٤٩) بعد أن رفضت مصر مشروع حلف بغداد الذى انضمت إليه للأسف كل من العراق وتركيا وباكستان وإيران.

ولقد شعرت مصر، التى كان يقود سياستها الخارجية نخبة من الدبلوماسيين الأكفاء، أن حلف بغداد سيزيد من عدوانية إسرائيل، فسارعت بالاتفاق مع حكومات دول العالم الثالث الناهضة إلى عقد مؤتمر باندونج فى أبريل عام ١٩٥٥ الذى جاء فى قراراته ضرورة الامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لأية دولة من الدول الكبرى.. وهذا يعنى فى أبسط تحليل أن مصر لن تحالف بريطانيا أو الولايات المتحدة.

وفى ٣٠ مايو اعتدت قوات إسرائيلية على قطاع غزة مرة أخرى فقتلت جندياً مصرياً وجرحت اثنين آخرين. وفى ٢٢ أغسطس هاجمت قوات إسرائيلية قطاع غزة مرة أخرى ونتج عن ذلك استشهاد ثلاثة عسكريين مصريين وجرح أربعة آخرين.

وفى ٢٨ أكتوبر هاجمت وحدات عسكرية إسرائيلية منطقة الكونتلا بجنوب شرق سيناء ونتج عن ذلك استشهاد ١٢ عسكرياً وجرح مثلهم.

ولا شك أن القيادة المصرية فى ذلك الوقت (مجلس قيادة الثورة) قد شعرت بمدى ضعف وحدات الجيش أمام أسلحة القوات الإسرائيلية المتفوقة التى يغدقها الغرب على الدولة العبرية، فسارعت الحكومة المصرية بعقد صفقة أسلحة ثقيلة مع دولة أوربية شرقية (تشيكوسلوفاكيا) التى كانت عضواً فى حلف وارسو الذى سيطر عليه الاتحاد السوفيتى. ولقد نظر الغرب إلى تلك الصفقة بخوف وحذر، فالجيش المصرى ومنذ أن أسسه محمد على فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كان يعتمد على التسليح الغربى، ولكن ها هو ذا الآن يتجه لشراء السلاح من دولة شيوعية.. هل تلك الصفقة كانت ستكون الأولى والأخيرة أم كانت بداية لعلاقات أعمق مع الشرق وبالتالى ابتعاداً بنفس القدر عن الغرب؟

ومهما كان الأمر فقد وُقعت الصفقة فى سبتمبر عام ١٩٥٥، ولم تتحمل إسرائيل ذلك فقامت بقوة ثلاثة آلاف جندى مدعمين بأسلحة ثقيلة وبطائرات حربية هجومية وذلك فى الثانى من نوفمبر بالهجوم على منطقة الصبحة بداخل الحدود المصرية (منتصف شرق سيناء)، وعندما انقضى اليوم بعد معارك طاحنة كان المصريون قد فقدوا ثمانين شهيداً. ولم يكن لهذا العدوان ما يبرره سوى التعطش لسفك الدماء وخيانة المواثيق الإقليمية والدولية.

وفى ١٣ يونيو ١٩٥٦ غادرت آخر وحدات الجيش البريطانى منطقة القناة بعد احتلال دائم استمر عقوداً ممتدة، وذلك بعد اتفاقية الجلاء الناجحة التى صممتها الدبلوماسية المصرية لتعود أرض مصر نظيفة من أية قوة احتلالية منذ عام ١٨٨٢م.

وبدا أن مصر تدخل عهداً شاملاً من الاستقرار الذى كان الشعب يتوق إليه.. ولكن تلك بدت كأحلام رقيقة.. ليتها دامت.

كانت مصر، ولم تزل حتى ذاك الوقت دولة زراعية يعمل أغلب سكانها بالزراعة.. وكانت مشروعات الرى القائمة لا تفى باحتياجات الزراعة، وخاصة فى الوجه القبلى، كما أن المشروعات الصناعية وانتشار العمران كان فى حاجة إلى الكهرباء. ولقد تفاوض المسئولون المصريون مع ممثلى البنك الدولى لتمويل مشروع بناء سد عملاق إلى الجنوب من مدينة أسوان[1]، وأحرزت المفاوضات قدراً كبيراً من التقدم، وتم عرض مائتى مليون دولار للتمويل، ولكن بريطانيا والولايات المتحدة المسيطرتين على ذلك البنك أوقفتا التنفيذ لأن مصر ليست عضواً فى حلف بغداد، وبالتالى ليست حليفة لهما، وكانت تلك صدمة لمصر.. وعلى مدى شهور أخذ قادة مصر يفكرون فى طريقة أخرى لتنفيذ المشروع. وفى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ أصدر جمال عبد الناصر - رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت - قراراً جمهورياً يقضى بتأميم شركة قناة السويس.. ويعتبر هذا القرار من أخطر القرارات التى اتخذها الرئيس عبد الناصر فى مجمل سنوات حكمه إن لم يكن أخطرها على الإطلاق. فالتأميم اتجاه مارسته دول عديدة للحفاظ على سيادتها وحريتها وللارتقاء بمستوى حياة شعوبها.. ولكن بريطانيا التى رأت أن أهم مصالحها الاستعمارية قد ضاعت

(١) قام جمال عبدالناصر بالاتفاق مع شركات سوفيتية بإتمام مشروع السد العالى الذى يعد أكبر إنجاز مدنى مصرى حتى اليوم.

منها سارعت بالتحالف مع فرنسا لكى تُفشلا قرار مصر. وتم استدعاء قوات الاحتياط فى الجيش والبحرية لكلتا الدولتين وتحركت الأساطيل، وأخذ كل مسئول بريطانى وفرنسى يهدد مصر علناً وفى كل مناسبة، ولكن عبد الناصر وقف موقفا بطوليا فذاً، تمناه له بالفعل كل مصرى وهو عدم الخضوع للتهديد والإنذار.

وفى ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ قامت وحدات الجيش الإسرائيلى بالهجوم على شبه جزيرة سيناء الخالية من الجيش المصرى تقريباً. وفى ٢ نوفمبر صدر قرار عسكرى لكافة وحدات الجيش المصرى بالانسحاب من سيناء.. وفى تلك الأثناء واعتباراً من ٣١ أكتوبر كانت طائرات سلاحى الجو البريطانى والفرنسى تقوم بغارات مكثفة على منطقة بورسعيد متخذة من قواعدها فى جزيرة قبرص وإسرائيل وليبيا نقاطا للهجوم ثم امتدت تلك الغارات لتشمل القاهرة والإسكندرية. وفى الأول من نوفمبر تم احتلال بور سعيد من قبل جنود البحرية، واضطر ما لا يقل عن ستين ألف مصرى من سكان بورسعيد إلى ترك المدينة والهجرة إلى أقرب مكان بعيدا عن الخطر.. ولقد استشهد فى تلك المعارك ما لا يقل عن ستة آلاف مصرى مدنى وعسكرى وخاصة فى مدينة بورسعيد.

ولقد أحدثت أزمة العدوان الثلاثى على مصر ردود فعل واسعة النطاق فى العالم العربى، ووقفت كل الشعوب والحكومات العربية بلا استثناء موقفاً عظيماً لم يحدث فى تاريخ العرب الحديث.

ولا شك أن هذا الموقف البطولى الذى وقفه شعب مصر وسكان مدينة بور سعيد التى دمرتها الغارات، وموقف شعوب وحكومات العالم العربى كان سبباً أساسياً فى هزيمة وإذلال حكومتى بريطانيا وفرنسا فقامتا بسحب قواتهما فى ديسمبر عام ١٩٥٦، أما القوات الإسرائيلية فقد أتمت انسحابها الكلى من سيناء فى مارس من عام ١٩٥٧.

ولم يكن جمال عبدالناصر يتمنى نجاحاً أكثر من هذا، فقد ارتبطت تلك الأزمة باسمه طوال التاريخ الذى سجل فيه أنه كان رئيس مصر حينما اعتدت عليها ثلاث دول، وحينما هزمت تلك الدول وانسحبت وسقطت حكوماتها وأدانها العالم أجمع بالعدوانية والطغيان.

إعدام جاسوس تخابر مع بريطانيا:

وبالرغم من تفرغ الحكومة المصرية لعمليات واسعة للتطوير الاجتماعى والصناعى لم تتوقف المؤامرات التى تهدف إلى زعزعة الاستقرار الداخلى فى مصر. ففى ٢٢ يونيو عام ١٩٥٧ صدر حكم من محكمة الجنايات بالقاهرة بإعدام السيد أمين محمود شنقاً، وبالسجن المؤبد والمؤقت على آخرين وذلك بتهمة التخابر مع بريطانيا، وسميت تلك القضية بقضية الجواسيس البريطانيين والتى سعت فيها المخابرات البريطانية إلى تجميع أسرار عسكرية عن الجيش المصرى.

وفى شهر أكتوبر عام ١٩٥٧ أرسلت مصر بموجب اتفاقية دفاع مشتركة مع سوريا (وقعت فى ٢٠ أكتوبر عام ١٩٥٥) حوالى خمسة آلاف جندى مصرى مع أسلحتهم المختلفة إلى ميناء اللاذقية السورى لدعم سوريا ضد احتمال هجوم تركى على حدودها الشمالية. ولقد كانت تلك هى المرة الأولى - كما نرى - التى يذهب فيها جيش مصرى إلى سوريا منذ حروب محمد على ضد الدولة العثمانية. ولا شك أن تلك القوات منعت الهجوم التركى الذى كان مفترضاً حدوثه، وهى بالإضافة إلى ذلك كانت خطوة ساعدت على توقيع اتفاقية الوحدة المشتركة بين مصر وسوريا والتى تمت فى أول فبراير عام ١٩٥٨م.

ولم تكن الوحدة بالرغم من أنها حلم عربى قديم إلا وهما سرعان ما انهار، فلم يكن هناك من أسباب النجاح سوى الجانب العاطفى، والعواطف - بلا عقل كاف - لا ينتج عنها علاقة دائمة ناجحة سواء بين الأمم أو بين الأفراد.

انتهت إذن الوحدة بين مصر وسوريا فى ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦١ إثر تذمر العسكريين فى دمشق فى ذلك الوقت، وكان قد سبق ذلك قيام جمال عبد الناصر بإصدار قوانين يوليو الاشتراكية (فى ٢٣ يوليو عام ١٩٦١) التى لم تكن ستطبق فى مصر وحسب ولكن فى سوريا كذلك.

وبينما كانت قوانين يوليو الاشتراكية تطبق فى مصر كانت الأحوال السياسية فى البلاد تخضع لنظام صارم سيطرت عليه مجموعة من العسكريين القساة تمكنوا بوسائل شتى ليس فقط من كبت الحريات العامة ومنع المصريين من السفر خارج البلاد إلا بإذن، ولكن كذلك إخراج أى شخص يتمتع بالكفاءة من خارج الصفوف الأولى مادام لا يرضى بسيطرة أهوائهم عليه.

وفى ٢٧ سبتمبر ١٩٦٢ قامت ثورة اليمن وسارع العسكر بإرسال قوات مصرية ضخمة إلى هناك استنزفت طاقات مصر ومواردها وأرواح العديد من أبناء قواتها المسلحة. وسرعان ما سيطرت مراكز القوى على البلاد وعلى كبار المسئولين بالدولة وتوقفت تقريباً خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية التى كانت قد بدأت تنجح بعد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦.

إعدام ثلاثة من قيادات الإخوان:

وفى أغسطس من عام ١٩٦٥ أوضح جمال عبد الناصر أن الحكومة قد كشفت عن تنظيم كبير مسلح يتبع جماعة الإخوان المسلمين كان يهدف ـ كما ذكر ـ إلى قلب نظام الحكم. ولقد أوضح الرئيس عبد الناصر ذلك فى السابع من أغسطس بينما كان فى زيارة للاتحاد السوفيتى. ولم يكن النظام ضعيفاً حتى يطاح به من الداخل ولم يكن التنظيم الإخوانى قوياً ليصل للحكم.. وسرعان ماجرى تجميع أعضاء التنظيم من شتى المحافظات، وقدموا إلى المحكمة، فقضت بإعدام سبعة منهم، وبالسجن على آخرين. وقد تم تنفيذ حكم الإعدام على ثلاثة من السبعة فعلاً، بينما خففت العقوبة عن الأربعة الآخرين... والثلاثة الذين تم إعدامهم هم:

١ ـ سيد قطب.
٢ ـ محمد عبد الفتاح إسماعيل.
٣ ـ محمد يوسف هواش.

ولقد كان الغرب يراقب ما يحدث فى الشرق الأوسط عن كثب عام ١٩٦٦، فها هى أزمة اليمن قد استنزفت طاقات العرب، وها هو عدم الاستقرار يعم العراق وسوريا والجزائر (بعد سلسلة الانقلابات العسكرية والتصفيات الجسدية للخصوم)، وها هى مصر تتصارع فيها القوى السياسية بينما ثلث جيشها موجود خارج حدودها.. وكأن كل تلك الأحداث كانت تدل على أن حلم الناصرية الأكبر فى إحياء القومية العربية من المحيط إلى الخليج كان على وشك التحطم فلماذا لا يسدد له الضربة القاضية؟

إن الدول الغربية بها مؤسسات رصد يقوم بالعمل فيها خبراء فى الاجتماع وعلم النفس والسياسة والأمن، وهم يدرسون كل صغيرة وكبيرة تحدث فى الدول غير المتحالفة

معهم.. ويضعون مقاييس ومعايير توضح حدة ونوع ردود الفعل وزمن حدوثها لدى زعماء تلك الدول فى المواقف المختلفة، وبالتعاون مع الصحف الكبرى فى العالم والتى تقوم ببث أخبار معينة (بالونات اختبار) يقوم هؤلاء الخبراء بقياس ردود الأفعال، وبتكرار تلك العملية يمكن للخبراء فهم طبيعة الشخصيات الحاكمة فى الدول المختلفة وما هى حدود قوتها وحدود ضعفها ومتى يمكن اختيار الوقت المناسب لإحراج تلك الشخصيات ومتى وكيف يمكن هزيمتها والقضاء عليها. فالدول الغربية تعمل كوحدة واحدة لا تنفصم، وتتوزع الأدوار وفق أولويات استراتيجية يكون لكل دولة نصيبها من العمل فى الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة التى تتكامل مع أنصبة عمل بقية الدول فى تنفيذ المخطط الواحد. ويقوم الخبراء برصد كل المعلومات وهى معلومات ليست بالضرورة أمنية أو عسكرية، ولكنها معلومات تخص طبيعة نظام الحكم ومدى قوته ومدى شعبيته، وماذا سيكون رد فعل الحاكم فى دول العالم الثالث إذا ما ظهرت أنباء (عن طريق الصحف الغربية التى تتعامل مع الحكومات الغربية بطريقة توزيع الأدوار) عن تهديد مصالحه أو زعامته أو تحالفاته مع دول أخرى؟ هل سيكون رد فعله مجرد كلمات بدون معنى... أم سيتحول سلوكه إلى فعل حتى وإن كان غير قادر على تحقيق ذلك الفعل من أجل الحفاظ على ماء وجهه أو كرامته أو زعامته أو إنجازاته السابقة؟

إن كل ذلك يحدث من الغرب حتى يومنا هذا، والمتابع لأية أزمة من أزمات الشرق الأوسط يلاحظ مثل هذه التحركات التى تبدأ عادة بخبر فى صحيفة أو إذاعة أو محطة تليفزيون.. ثم تتكاثف الأخبار وتتصاعد فى مجمل البلدان الغربية ويكون الهدف من ذلك هو إصابة الزعماء المعادين بالبلبلة والتوتر والعصبية حتى يسهل جر الواحد منهم إلى موقف غير منطقى أو غير مدروس، فيسهل إصابته وهزيمته، ثم تجميع الرأى العام الغربى ليقف موقفاً موحداً خلف حكام الدول الغربية لتنفيذ المخطط المراد تنفيذه بسرعة وقوة وحسم.

إن ذلك ما حدث بالفعل لهزيمة جمال عبد الناصر ونظامه فى يونيوعام ١٩٦٧. فمنذ بداية العام أخذت الأخبار تتوالى عن الممر البحرى بشرم الشيخ وكأنه بؤرة ومركز الشرق الأوسط، ثم هجمات الفدائيين الفلسطينيين من جنوب سوريا، وغرب الأردن على إسرائيل، وخرجت الأخبار تتوالى عن أن إسرائيل لن تقف عاجزة عن تأديب من يهاجمونها وأنها قوية، ثم أخبار أخرى عن أن إسرائيل ضعيفة وعن أن العرب قادرون

على تدميرها (وذلك بغرض إشاعة البلبلة لدى القادة العرب وإعطائهم غروراً كاذباً بأنهم الأقوى) . ثم قامت إسرائيل بتهديد سوريا، وأرسلت وحدات مدربة إلى حدودها معها، فرد جمال عبد الناصر مذكراً العالم أن الاعتداء على سوريا يعنى الاعتداء على مصر، فلم يهتم الغرب بذلك، ولم يصرح أحد هناك بفرحته وبهجته لغضب عبد الناصر. ثم صدر قرار بإعلان الطوارىء فى مصر وإغلاق المضايق البحرية أمام مدينة شرم الشيخ المصرية لمنع السفن من الدخول فى ميناء إيلات الإسرائيلى، وكان هذا يمثل طعنة كبرى للاقتصاد الإسرائيلى، وإهانة لها كذلك. وسرعان ما توتر الشرق الأوسط برمته إلى أن جاءت الساعات الأولى من صباح الخامس من يونيو لتدمر القوات الإسرائيلية أسلحة الجو العربية، وتخوض حرب تدمير سريعة للجيوش العربية. ولقد كتب الكثير عن نكسة يونيو، وعن الذين تسببوا فى حدوثها.. ولكن بإيجاز شديد فإن المحصلة النهائية لتلك النكسة كانت القضاء على أحلام جمال عبد الناصر العربية ونهاية مأساوية لحكم العسكريين من حوله لم تحدث فى تاريخ مصر الحديث ومنذ هزيمة أحمد عرابى فى يوليو عام ١٨٨٢م.

ولا شك أن السعادة التى كان عبد الناصر قد عاشها بعد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ تعادل الألم والغصة والانكسار الذى عاشه فى يونيو عام ١٩٦٧ .. ولا شك أنه أحس أن كبار قادته الذين أقنعوه بأن الأمن يسبق الحرية، قد خذلوه.

وبالرغم من أن تلك الهزيمة كانت موتة عبد الناصر الأولى إلا أن المصريين تمسكوا به عن حب عاطفى واسع، ولكنهم ثاروا عندما صدرت أحكام قضائية مخففة على من تسببوا فى الهزيمة، وسرعان ما أخذ عبد الناصر يعيد بناء القوات المسلحة ويمد يد الصداقة مع دول عربية شقيقة كانت علاقاته معها فيما مضى علاقات تتسم بالتوتر والنزاع وأحياناً العداء. وفى الثامن والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٧٠ مات جمال عبدالناصر بدون أن يعيش أية انتصارات جديدة.

وسرعان ما جاء نائبه محمد أنور السادات ليخلفه فى حكم مصر، وكان سياسياً متمرساً على العمل السياسى الثورى حتى من قبل قيام ثورة يوليو، بالإضافة إلى أنه كان أحد أهم الضباط الأحرار الذين شاركوا فى تخطيط وتنفيذ تلك الثورة.

ولم تمض عدة أشهر على توليه الحكم إلا وحدث نزاع سياسى بين السادات وبين مراكز القوى من الذين شوهوا طبيعة الحياة فى مصر، وانتصر عليهم السادات وقدمهم

لمحاكمات شاملة زجت بأغلبهم فى السجون ليذوقوا بعضاً مما أذاقوه لشعب مصر. وسارع السادات بوضع دستور أكثر ليبرالية وأفرج عن المعتقلين وخاصة من جماعة الإخوان وإن لم يتحالف معهم أو يعترف بجماعتهم رسمياً.. وسرعان ما أخذت البلاد تتنسم رياح الحرية التى كانت أحد أهم الأسباب فى الانتصار العسكرى والسياسى المصرى والعربى على إسرائيل فى أكتوبر عام ١٩٧٣، ذلك الانتصار الذى غسل به الجندى المصرى عار الهزيمة والانكسار، وكتبت دماؤه الطاهرة بأحرف لا تزال منيرة فى عقل وقلب كل عربى كيف أن الدفاع عن الشرف الوطنى ولو بالاستشهاد هو حياة سرمدية منعمة لا نهاية لها.

وسرعان ما أصبح السادات من أقوى زعماء العالم، وغدت مصر محط الأنظار واللقاءات والمؤتمرات.

الحكم بإعدام صالح سرية وأحد رفاقه:

تبع انتهاء حالة الحرب انسحاب إسرائيلى من غرب سيناء، وأخذت الخطط توضع والمشاريع ترسم للارتقاء بالبناء الذى توقف منذ نكسة يونيو.

وإذا كانت تلك هى حالة مصر عام ١٩٧٤، فإن الاستقرار السياسى خارجها وخاصة لدى الفلسطينيين لم يكن قائماً. فقد هاجمت فصائل فلسطينية عديدة أنور السادات عندما وقع اتفاقية قضت بانسحاب إسرائيل من قناة السويس وعودة قواتها إلى الوراء بما يسمح بتعمير مدن القناة والتمهيد لفتح قناة السويس. وقد ظنت منظمات فلسطينية عديدة أن اتجاه السادات مع إسرائيل قد بدأ يتغير فهاجموه بشدة وطالب كثير من المتطرفين لديهم بقتله علناً. ولقد تأثر صالح سرية بتلك الأقوال والأفكار، فقام مع أعضاء من حزب التحرير الإسلامى ببعض الاتصالات مع بعض الشباب المصرى بوضع خطة إرهابية تقضى على مراحل - كما تصور - إلى اغتيال السادات والاستيلاء على الحكومة.

وبالفعل هاجم التنظيم مبنى الكلية الفنية العسكرية بشرق القاهرة يوم ١٤ أبريل عام ١٩٧٤، ودارت بين المهاجمين وحرس الكلية معارك شديدة قتل وجرح فيها حوالى خمسين فرداً من الطرفين.. ولكن سرعان ما علمت قيادات أجهزة الأمن بالحادث فسارعت بمحاصرة مبنى الكلية من الخارج ثم اقتحامه واعتقال من تبقى حياً من أعضاء

التنظيم الإرهابى بمن فيهم صالح سرية نفسه، وتقديمهم للمحاكمة، حيث قضت بإعدام ثلاثة هم:

١ ـ صالح سرية.
٢ ـ كارم عزت الأناضولى.
٣ ـ طلاس عبد المنعم الأنصارى.

وصدق الرئيس السادات على الحكم فى ١٢/١٠/١٩٧٥، ولكنه خفف الحكم على المتهم الثالث ليكون الأشغال المؤبدة.

لقد كان تنظيم صالح سرية تنظيماً إسلامياً متطرفاً غير مصرى فى الأساس، ولكنه تمكن أن يجند بعضاً من المتطرفين المصريين إلى صفوفه ويقنعهم بأن نظام السادات يعمل للتصالح مع دولة إسرائيل على حساب القضايا العربية والإسلامية والفلسطينية. ولقد نسى سرية ورفاقه أن اتفاقية فصل القوات الأولى (يناير ١٩٧٤) بين الجيش المصرى والجيش الإسرائيلى كانت تخص أرضاً مصرية محتلة، ولم تتعرض من قريب أو بعيد إلى أى شيء يضر بالقضية الفلسطينية. كذلك نسى صالح سرية أن السادات نفسه كان هو الذى دعا إلى عقد مؤتمر سلام عربى إسرائيلى تحضره الدول الأربع الكبرى فى مجلس الأمن الدولى لحل قضية الشرق الأوسط بمجملها، وأنه استمر يدعو كل الدول العربية المعنية (دول المواجهة) إلى حضور ذلك المؤتمر الذى افتتح فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٧٣ بمدينة جنيف ولم تحضره للأسف سوى مصر والأردن مع إسرائيل. وكانت هذه الدعوة قد أرسلت بعد حرب أكتوبر مباشرة، وقبل أن يقوم السادات بتوقيع اتفاقية فض الاشتباك الأولى فى بداية عام ١٩٧٤م.

ومهما كان الأمر، فإن ظهور التطرف الدينى المسلح فى مصر لأول مرة بعد عام ١٩٦٥، ومعارضته لأى تصرف سياسى مصرى داخلى أو خارجى، كان نذير خطر لم يتمكن أحد فيما يبدو من تقدير مداه. فقد كان السادات نفسه يعلم أن الإخوان المسلمين لم يلجأوا للعنف، ولم يحاولوا تشكيل أنظمة داخلية مسلحة، ولكنه لم يكن متحمساً للاعتقاد أن تنظيمات مسلحة جديدة يمكن أن تظهر. حيث كان يعتقد ـ طوال فترة حكمه ـ أن اليسار هو أشد خصومه تنظيماً وخبرة، وخاصة بعد أن أخذ يهاجم الاتحاد السوفيتى علناً وبصورة متزايدة يوماً بعد يوم.

ومرت عدة أشهر وتمكنت مصر من تطهير قناة السويس حيث افتتحها السادات فى ٥ يونيو عام ١٩٧٥، وأخذ المهاجرون يعودون إلى مدن القناة الثلاث التى دمرت بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ وخلال حرب الاستنزاف عامى ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩، وسرعان ما ازدادت حدة الهجوم من فصائل فلسطينية وعربية عديدة على السادات وسياساته وأنه ينوى غض النظر عن القضايا العربية.. ونسيت تلك المنظمات أن مصر وإسرائيل كانتا حتى ذلك الوقت فى حالة حرب، وأن السادات نفسه حذر إسرائيل من مهاجمتها لمدن القناة، وقال: حذرت إسرائيل من أنها لو ضربت أى مدينة من مدن القناة أو القناة ذاتها بعد فتحها بمدافعها الأمريكية طويلة المدى فسوف أرد بالضرب فى عمق إسرائيل»[1].

وفى الأول من سبتمبر عام ١٩٧٥ وقعت مصر وإسرائيل اتفاقية تقضى بأن تنسحب إسرائيل من حوالى نصف شبه جزيرة سيناء الغربى. ثم أخذ السادات مرة أخرى يجدد دعوته لعقد مؤتمر دولى للسلام تحضره الدول العربية المعنية ويكون تحت رعاية الأمم المتحدة والدول الكبرى فى مجلس الأمن.

أما فى داخل مصر، فقد أخذت الحكومة تقتنع بسياسات الانفتاح التى نصح بها البنك الدولى، ولكن بدلاً من أن تطبق سياسات الانفتاح الإنتاجى وبناء المصانع سارعت بنهج سياسة الاستيراد الاستهلاكى، فأخذت الهوة الاقتصادية بين الأغنياء الجدد وعامة المصريين تتسع، ثم صحب ذلك ظهور أنواع عديدة من الخلل الاجتماعى والفساد وتفشى الجرائم المالية فتصدع النظام الأسرى وزادت الانحرافات الأخلاقية، وانتشرت المخدرات فى كافة أنحاء البلاد وأخذت الديون تتصاعد متخطية بذلك الحدود.. ولم يكن المصريون قد عاشوا أبداً تلك التغيرات السريعة فى مصر من قبل على مدى عقود ممتدة.

وبالرغم من المعونات الاقتصادية الكبيرة التى كانت الحكومة تحصل عليها من الولايات المتحدة وأوربا والدول العربية النفطية الشقيقة فإن العجز فى الميزانية كان قد وصل إلى معدلات لم تحدث فى تاريخ مصر منذ قرن من الزمن، وظهر كثير من المسئولين عن الاقتصاد الذين جهلوا السياسة والاجتماع والإعلام ليعلنوا عن ضرورة اتخاذ إجراءات حاسمة لإصلاح العجز وأن هذا الإصلاح لن يحدث إلا عن طريق زيادات

---

(١) البحث عن الذات ـ محمد أنور السادات (مرجع سابق).

فى أسعار الكثير من السلع والخدمات والضرائب المباشرة وغير المباشرة، وقد أعلن عن أن تلك الإجراءات ستنفذ كلها فى وقت واحد ابتداء من ١٨ يناير ١٩٧٧ . وبالرغم من أن الكثير من تلك الزيادات كانت تخص القادرين إلا أن كثيرا منها كذلك كان يخص الطبقات الفقيرة، وهى التى تشكل أغلب طبقات المجتمع. وكان رد الفعل هو حدوث أكبر تظاهرات عنف فى أكبر مدن مصر، وخاصة القاهرة والجيزة والإسكندرية .. ولقد تصدت قوات الأمن التابعة للداخلية للمتظاهرين المنددين بالغلاء وارتفاع الأسعار وقلة الرواتب.. ولما عجزت قوات الأمن عن احتوائها، صدرت قرارات بحظر التجول فى البلاد وخاصة بعد ارتفاع عدد القتلى والجرحى إلى المئات، ونزلت وحدات من الجيش لتأمين المدن وما بها من مؤسسات ومبان حكومية.

ولقد اتهم اليسار بتدبير تلك الأحداث، ولقد قامت المحكمة بعد دراستها لأقوال من تم اعتقالهم بإعلان براءة كل من لم يتسبب فى إحداث خسائر بالمنشآت العامة والخاصة، ومعاقبة عدد قليل من المتهمين بالسجن لمدد تتراوح بين سنة وثلاث سنوات.. وقد صدر هذا الحكم فى يوم السبت ١٩ يناير عام ١٩٨٠ .

ولا شك أن أعمال العنف التى جرت فى بداية عام ١٩٧٧ قد أثرت على استراتيجية السادات للتعامل مع أزمات بلاده. فقد كان يعلم مدى ما تتكلفه مصر من أعباء نتيجة استمرار حالة الحرب بين مصر وإسرائيل، ومدى زيادة أعداد الفقراء فى قرى الدلتا والصعيد وأحياء الفقراء فى المدن الكبرى. ولهذا سارع بدعوة العالم العربى والدولى بعقد مؤتمر دولى يكون هدفه حل مشكلة الشرق الأوسط برمتها. ولقد خذله الإسرائيليون والعرب على حد سواء.. فماذا كان يفعل وهو يرى الحكومات العربية المعنية بالأساس بمشكلة احتلال أراضيها، مع المنظمات الفلسطينية التى كانت تتوعده بأسوأ مصير، سوى أن يسير ببلاده إلى حل يجلب الاستقرار ويبعده عن الأخطار.

وذهب السادات فى أبريل عام ١٩٧٧ إلى الولايات المتحدة لمقابلة الرئيس الأمريكى كارتر ليحثه على رسم خطط لإقرار السلام فى الشرق الأوسط. واستمر تفكير السادات عندما عاد إلى القاهرة.. فأحداث أول العام لا زالت تؤلمه وتدفعه دفعاً شديداً لكى يفعل شيئاً.

الحكم بإعدام شكرى مصطفى وأربعة من رفاقه:

لم تمض عدة أسابيع بعد عودة السادات من الولايات المتحدة، وفى نهاية يونيو عام ١٩٧٧، حتى أعلنت الحكومة أن الدكتور محمد الذهبى وهو يشغل إحدى أهم الوزارات فى الحكومة وهى وزارة الأوقاف، قد اختطف من منزله بجنوب القاهرة (حى حلوان الهادىء)، وأعلنت أسرته أن أفراداً قد أتوا إليه ليلاً واصطحبوه بالعنف معهم ولاذوا به إلى مكان مجهول.

ويعتبر خطف وزير مصرى حدثاً خطيراً، فهو كما نرى الأول من نوعه فى تاريخ البلاد، فلم يحدث من قبل أبداً أن تم اختطاف مسئول كبير وعضو فى مجلس الوزراء. وسرعان ما أخذت سلطات الأمن فى التحرى والبحث، وهى فى أثناء ذلك تلقت بياناً من جماعة لم تكن معروفة من قبل تسمى التكفير والهجرة، تطالب فيه بالظهور فى التليفزيون المصرى لإذاعة بيان يندد بسياسات الدولة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويطالب بحل الحكومة القائمة فى ذلك الوقت وتشكيل حكومة إسلامية. وطالبت تلك الجماعة المتطرفة الدولة بأن تعلم أن الدكتور الذهبى سيتم قتله إذا لم تستجب السلطات لمطالب الجماعة.

ولما لم تستجب الحكومة لمطالب جماعة التكفير والهجرة سارع المتطرفون بتعذيب ثم قتل الدكتور الذهبى، وكان ذلك فى الثالث من يوليو عام ١٩٧٧. وسرعان ما تمكنت أجهزة الأمن من التوصل إلى المكان الذى اختطف فيه الإرهابيون الوزير السابق، وتم اعتقال العديد من أعضاء التنظيم بما فى ذلك رئيسه ومؤسسه المهندس شكرى مصطفى الذى تمكن من تجنيد أعضاء يشكلون تنظيماً إرهابياً هدفه اغتيال المسئولين بالدولة والسيطرة على مؤسساتها.

ولم يكن ظهور مثل ذلك التنظيم المتطرف ليحدث لولا وجود العقول المتطرفة التى لا تؤمن بمصداقية أى فكر آخر غير الفكر الذى تؤمن به.. فالفكرة العقلية دائماً تسبق أى فعل.. أما متى يتحول الفكر إلى جريمة، فهو عندما يكون لذلك الفكر خصوم وتكون لدى المجرم صاحب الفكرة المتطرفة الإرادة لتنفيذ فكرته، ويكون لديه السلاح للقتل. وهذا ما حدث للشيخ الذهبى الذى كان كثيراً ما يهاجم التطرف ويدعو للاعتدال، ويؤكد أن الإسلام هو دين الوسطية وليس الانحراف والتكفير والعنف.

ولا شك أن تنظيم التكفير والهجرة اعتمد فى بعض أفكاره على أفكار تنظيم صالح سرية المتطرف الذى ظهر عام ١٩٧٤ . والذى يعد أول تنظيم متطرف يظهر فى عصر الرئيس السابق أنور السادات فكلاهما استخدم العنف المسلح للتخلص من خصومه، وكلاهما تمكن بطريقة أو بأخرى من تجنيد شباب ليس له ثقافة سياسية كافية وتحويلهم إلى مجرمين بعد أن كانوا معتدلين. وكلاهما تسبب فى قتل ضحايا من الأبرياء (جنود حراسة بكلية الفنية العسكرية، والشيخ الذهبى وزير الأوقاف)، وكلاهما حوكم أمام محكمة لأمن الدولة حكمت على المدنيين بالإعدام أو بالأشغال الشاقة.

وفى الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٧٧ صدر حكم المحكمة بإعدام خمسة من أعضاء تنظيم التكفير والهجرة وهم:

١ ـ شكرى أحمد مصطفى.
٢ ـ ماهر عبد العزيز بكرى.
٣ ـ أنور مأمون صقر.
٤ ـ أحمد طارق عبد العليم.
٥ ـ مصطفى عبد المقصود غازى.

استمر السادات فى اتصالاته العربية والدولية لكى ينعقد مؤتمر السلام فى الشرق الأوسط، ولقد أحس أن حكومات عربية لا تود مسايرته فى تنفيذ خططه. فقام بالموافقة على عقد سلسلة من الاتصالات التى لم يعلن عنها بين شخصيات مصرية وإسرائيلية تهدف لسبر أغوار ما يمكن أن يتمخض عنه سلام عربى إسرائيلى. وفى التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٧، ألقى الرئيس السادات خطاباً أمام مجلس الشعب أثنى فيه على الرئيس الأمريكى كارتر لاهتمامه بالشعب الفلسطينى وتحدث عن ضرورة عقد مؤتمر جنيف ولكنه فاجأ الحضور ـ ومن ورائهم المصريين والعرب ـ قائلاً: «أنا جاهز للذهاب إلى جنيف، بل لا أخفيكم، وأنتم ممثلو الشعب وعلى مسمع من شعبنا وعلى مسمع من أمتنا العربية، سمعتمونى أقول أننى مستعد أن أسافر إلى آخر هذا العالم، إذا كان فى هذا ما يحمى أن يجرح ـ مش أن يقتل ـ أن يجرح عسكرى أو ضابط من أولادى، أنا أقول فعلاً مستعد أن أذهب إلى آخر هذا العالم. وستدهش إسرائيل عندما تسمعنى أقول الآن أمامكم أننى مستعد أن أذهب إلى بيتهم إلى الكنيست ذاته ومناقشتهم..».

وبعد ذلك بعشرة أيام، وفى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٧، كان السادات فى مدينة القدس المحتلة. وفى اليوم التالى مباشرة قام بإلقاء خطاب تاريخى أمام أعضاء البرلمان الإسرائيلى أوضح فيه سبب زيارته وقال: «إننى لم أجىء إليكم لكى أعقد اتفاقاً منفرداً بين مصر وإسرائيل، وأى سلام منفرد بين مصر وإسرائيل أو بين أية دولة من دول المواجهة وإسرائيل، فإنه لن يقيم السلام الدائم العادل فى المنطقة كلها. بل أكثر من ذلك فإنه حتى لو تحقق السلام بين دول المواجهة كلها وإسرائيل بغير حل عادل للمشكلة الفلسطينية، فإن ذلك لن يحقق أبداً السلام الدائم الذى يلح العالم كله اليوم عليه».

ولقد هاجمت أغلب الحكومات العربية خطوة السادات، وجاء أعنف الهجوم من صحف ما سمى فى ذلك الوقت بحكومات دول الرفض، ولكن السادات كان مصمما على الاستمرار برغم الصعوبات التى وضعتها إسرائيل فى طريقه إلى أن توصل الطرفان إلى عقد معاهدة السلام فيما بينهما وتوقيعها فى مدينة واشنطن العاصمة الأمريكية فى ٢٦ مارس عام ١٩٧٩ والتى نصت مادتها الأولى على إنهاء حالة الحرب بين الدولتين وانسحاب إسرائيل الشامل من شبه جزيرة سيناء.

وكانت اتفاقية كامب ديفيد التى وقعت فى ١٧ سبتمبر عام ١٩٧٨، والتى تعتبر ملزمة لكل من مصر وإسرائيل قد أشارت بالتفصيل إلى ضرورة قيام حكم ذاتى فلسطينى فى فترة لا تتجاوز خمس سنوات، وأنه ينبغى أن تشترك مصر وإسرائيل والأردن وممثلو الشعب الفلسطينى فى المفاوضات الخاصة بحل المشكلة الفلسطينية بكل جوانبها. ولكن تمكنت الولايات المتحدة وإسرائيل فيما بعد من إحراج السادات وخذلانه بأن تهربتا من تنفيذ الشق الثانى لمعاهدة السلام. ولابد أن ذلك كان من أكثر المرارات التى شعر بها السادات تجاه كلتا الدولتين.

وبدأت المعارضة لاتفاقيات السلام تظهر ليس فقط لدى المعارضين للسادات فى مصر، ولكن كذلك من جانب جماعات العنف المتطرفة.

وأدى ذلك إلى عزل مصر عربياً، فقطعت أغلب الدول العربية العلاقات الدبلوماسية معها، وتكونت مجموعات متطرفة من الفلسطينيين التى كان هدفها رصد تحركات المسئولين المصريين واغتيالهم. ولقد كان السادات نفسه أول هدف لتلك الجماعات سواء من الخارج أو من الداخل.

ويبدو أنه عندما عجزت الجماعات المتطرفة عن الوصول إلى أهدافها، فإنها سارعت بزيادة التوتر فى حى الزاوية الحمراء، وهو أحد أفقر أحياء القاهرة، ويقطنه حوالى مليون نسمة. وسرعان ما اندلعت أعمال العنف بين المتطرفين من المسلمين والأقباط فوقع قتلى وجرحى من الأبرياء، وتمكنت قوات الأمن بصعوبة من محاصرة المنطقة خشية من تكرار أحداث يناير عام ١٩٧٧ . ولقد كان وقع تلك الأحداث شديداً على أنور السادات، حيث شعر أن الأحزاب والنقابات والكثير من السياسيين يهاجمون سياساته.. ولا شك أنه شعور مؤلم أن يجد الإنسان نفسه وقد هاجمه خصومه من خارج وطنه، وخصومه من داخله فى آن واحد وعلى فترات زمنية مستمرة.. بينما هو يشعر (بتجربته السياسية الطويلة) والكثير من أفراد الشعب أنه مخلص ووطنى.

وفى الأيام الأولى من سبتمبر عام ١٩٨١ صدرت أوامر من أنور السادات باعتقال ما يزيد على ألف وخمسمائة مصرى من الجماعات المتطرفة، ومن الساسة ورجال الأحزاب. وفى السادس من سبتمبر ألقى خطاباً شرح فيه أسباب إقدامه على الاعتقالات، والتى هاجمته على القيام بها صحف وأجهزة إعلام غربية عديدة، ولكنه كان متيقنا من أنه إذا لم يفعل ذلك فستنهار الدولة ويعمها الفوضى وسفك الدماء، فقد كانت الحرب الأهلية اللبنانية قريبة من عقله.. فإما أن تكون الحكومة قوية وتوقف الانهيار وإما أن تحدث الكارثة ويبدأ التصدع.

ولكن كانت الأقدار تخبىء لأنور السادات نهايته التى لم يكن يعلمها - ومَن مِن البشر يعلم بنهايته - فقد هاجمه بعض المتطرفين الذين ارتدوا الملابس العسكرية بينما يحضر عرضاً عسكرياً بمناسبة انتصار مصر فى يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، كان العرض احتفالاً بذلك الانتصار للمرة الثامنة على التوالى ولم يكن أحد يعتقد أن منظمة الجهاد الإسلامية قد تمكنت من تدبير خطة للتسلل والانقضاض لوضع نهاية لحياة أنور السادات.

ولقد قتل مع السادات خمسة من الحضور، وأصيب العشرات بجراح ولقد تم اعتقال من قتل السادات، واتضح أن الأعمال التى جرت فى محافظة أسيوط لها علاقة بما حدث فى القاهرة، حيث هاجمت أعداد كبيرة من المتطرفين مبنى مديرية الأمن هناك واغتالت حوله وبداخله حوالى مائة جندى وضابط.

ولقد جاءت تلك الأحداث لتظهر الجماعات المتطرفة فى العراء، فتساقطت أوكارهم واحداً بعد الآخر.. وتم اعتقال المئات منهم ليظهر على الرأى العام أن تنظيماً متطرفاً مسلحاً كان موجوداً ومستعداً لفرصة الانقضاض على نظام الحكم.

إعدام الإسلامبولى وأربعة من رفاقه:

وأمام المحكمة، تكشفت أبعاد التنظيم المسلح وعقيدته وخططه ورؤساؤه وطرق تمويله، واتضح أن عسكريين قد شاركوا فى وضع الخطط وتنفيذها.. ولكن قائد التنظيم كان رجلاً مدنيا يدعى عبد السلام فرج تمكن من تشكيل التنظيم من شباب لا تزيد أعمار أغلب أعضائه على ثلاثين عاماً، ووضع عقيدته فى كتاب يسمى: الفريضة الغائبة.

ولقد حكمت المحكمة على خمسة من المتهمين بالإعدام شنقاً وهم:

١ ـ خالد محمد الاسلامبولى.
٢ ـ محمد عبد السلام فرج.
٣ ـ عطا طايل حميده.
٤ ـ حسين عباس محمد.
٥ ـ عبد الحميد عبد السلام.

كما حكمت بالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة على عشرات غير هؤلاء، كان أبرزهم عبود عبد اللطيف الزمر.

أما أحكام الإعدام فقد نفذت بالفعل فى أبريل عام ١٩٨٢.

وبذلك طوى التاريخ صفحة دموية من تاريخ مصر، شهدت مصرع أنور السادات، وشهدت كذلك إعدام قتلته.

وفى أوقات الألم، والتحولات الرئاسية فى دولة عربية كبرى كمصر، يأتى رئيس الجمهورية الجديد لكى يزيل من النفوس ما كان قد علق بها.

فالرئيس حسنى مبارك كان معروفاً لدى الرأى العام المصرى والعربى والدولى منذ كان قائداً لسلاح الجو المصرى، ثم دخوله معركة حرب أكتوبر ضد العدو الإسرائيلى، ثم

ترقيته وتعيينه نائباً لرئيس الجمهورية عام ١٩٧٥ ليدخل المعترك السياسى لواحدة من أهم دول العالم.

وباختفاء أنور السادات المأساوى، كان الرئيس مبارك موفقاً فى تسيير سفينة البلاد بكل مشاغلها ومشاكلها وآمالها وتطلعاتها، وتمكن من الصعود بمصر إلى مصاف الدول الهامة فى العالم، بالصورة المشرفة التى نراها عليها اليوم.

ولقد دعا حسنى مبارك شعبه من أول خطاب رئاسى له أمام البرلمان المصرى يوم الرابع عشر من أكتوبر للتوحد ومواجهة التحديات وقال: «إن أمضى الأسلحة فى مواجهة التحديات التى عقدنا العزم على مواجهتها هو إيماننا بأن الحرية هى الالتزام بحرية الآخرين، وبأن الديمقراطية هى الاحترام للشرائع والقوانين وإذا حادت الحرية عن هذا الالتزام، وإذا انحرفت الديمقراطية عن هذا الاحترام، فهذا هو التسيب الذى يطالبنا أمر الشعب بأن نقاومه بالإجراء الحاسم وأن نقومه بالقرار الصادق».

ولقد أفرج الرئيس مبارك عن كل السياسيين والكتاب تباعاً والذين كانوا قد اعتقلوا فى سبتمبر عام ١٩٨١ دون أن يقدموا لمحاكمات، وذلك لتنتشر المصالحة بين كل فئات الشعب، ولم يبق معتقلاً إلا أولئك الذين أدينوا باستخدام العنف المسلح.

ثم طالب الرئيس بأن يتحول الانفتاح الاقتصادى إلى الإنتاج لتوفير فرص العمل للشباب. وفى خلال الخمس سنوات الأولى من حكمه نعمت البلاد بالاستقرار الأمنى الذى افتقدته من قبل، نفذت فيها بالفعل العديد من المشروعات الإنتاجية والخدمية والسكنية كان المصريون فى حاجة ماسة إليها منذ عقود من السنين.. وتعتبر تلك السنوات بحق من أكثر السنوات التى ارتفعت فيها مصر على المستويين الداخلى والخارجى، بالرغم من أحداث الشغب التى قام بها جنود الأمن المركزى فى فبراير عام ١٩٨٦ وبعض الاغتيالات التى وجهت ضد ساسة ودبلوماسيين إسرائيليين وأمريكيين.

ولكن منذ عام ١٩٨٧ أخذت عمليات العنف السياسى المنظم والموجه لكبار المسئولين المصريين، وخاصة وزراء الداخلية، تظهر بشكل منهجى. فقد تعرض اللواء حسن أبو باشا فى ٥ مايو عام ١٩٨٧ لمحاولة اغتيال، وتعرض الكاتب السياسى المعروف مكرم محمد أحمد رئيس تحرير مؤسسة دار الهلال للاغتيال فى الثالث من يونيو عام ١٩٨٧،

وفى الثالث عشر من أغسطس تعرض اللواء النبوى إسماعيل آخر وزير داخلية فى عصر السادات للاغتيال.

وبالرغم من أن أجهزة الأمن قامت بالكشف عن تنظيم (ثورة مصر) الذى اتهم ثم أدين بتنظيم الاغتيالات السياسية التى وجهت ضد بعض أعضاء السفارتين الأمريكية والإسرائيلية، وبالرغم من أن أعضاء كثيرين من الجماعات المتطرفة قد تم اعتقالهم إلا أن ذلك لم يكن كافياً لوضع نهاية لأعمال العنف التى تخطط لها التنظيمات الإرهابية.. بل إن تحدى تلك التنظيمات بلغ ذروته بمحاولة اغتيال اللواء زكى بدر وزير الداخلية المصرى فى ١٦ ديسمبر عام ١٩٨٩. وتعتبر تلك المحاولة التى استخدم فيها الإرهابيون سيارة مصفحة فى صباح ذلك اليوم، أول محاولة لاغتيال وزير داخلية مصرى وهو لايزال فى منصبه فى تاريخ مصر منذ قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢.

وبالرغم من فشل تلك المحاولة إلا أنها لم تكن المحاولة الأخيرة لاغتيال وزراء الداخلية الذين أتوا فيما بعد.

بعد ذلك، وفى الثانى عشر من أكتوبر عام ١٩٩٠ قامت جماعة إرهابية باغتيال الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب المصرى، وذكر بعد عدة أيام أن الإرهابيين كانوا يقصدون اغتيال وزير الداخلية الجديد اللواء عبد الحليم موسى. ولقد قتل مع الدكتور المحجوب سائقه واثنان من حرسه وضابطان برتبة رائد وعميد.

إن كل تلك الأحداث ارتبطت بعدة عناصر مباشرة وغير مباشرة، فلم يكن هناك - فيما يبدو - معرفة مسبقة بخطط الجماعات الإرهابية وإفشال عملياتها قبل وقوعها، وهذا يعنى أنه لم تكن هناك استراتيجية أمنية واضحة يكون هدفها تحطيم «نواة» التنظيمات الإرهابية عن طريق اختراق قياداتها عندما يكتمل النمو، بل كانت المجهودات توجه إلى الأطراف التى لا تعلم شيئاً يذكر عن القيادات الإرهابية.

وسرعان ما شعر الإرهابيون بقدرتهم، فسددوا ضرباتهم الدموية المتتالية لقطاع السياحة المصرى البالغ الازدهار غير شاعرين بأنهم يحطمون آلاف البيوت والعائلات المصرية التى تسترزق من هذا العمل، ثم أخذوا يضعون العبوات المتفجرة فى الميادين والأحياء السكنية المكدسة بالأهالى الأبرياء، فانكشف وجههم القبيح علناً لكل ذى بصيرة،

وسرعان ما أخذ عامة الناس يندوون بتلك الأفعال الإرهابية بعد أن أدركوا أغراضها وأهدافها المدمرة.. ولقد كان ذلك أهم المكاسب الاستراتيجية للحكومة المصرية والتى ساعدتها على إعادة وضع أسلوب منهجى جديد للتصدى الشامل للإرهاب.

ولقد شهد عام ١٩٩٢ بداية منظمة جديدة للعمليات الإرهابية التى شملت اغتيال ضباط وجنود الشرطة وخاصة فى محافظة أسيوط التى تعد أكثر محافظات مصر سوءاً للحظ، نظراً لكثافة عمليات الإرهاب التى تجرى فى مدنها وقراها. ثم تلى تلك العمليات عمليات أخطر فى مدينة القاهرة حيث اتبع الإرهابيون أسلوباً إرهابياً جديداً وهو وضع عبوات ناسفة فى مناطق شديدة الازدحام أخذ ضحاياها يتساقطون تباعاً.. وفيما يلى أهم عمليات الإعدام التى حكمت بها المحاكم:-

الحكم بإعدام ثمانية إرهابيين أضروا بالمجتمع:

إزاء تصاعد السخط الشعبى وكثرة جرائم الإرهاب أخذت المحاكم العسكرية تنظر فى قضايا الإرهاب السياسى. ولقد كفلت المحكمة حق الدفاع عن المتهمين بواسطة المحامين الموكلين من قبل المتهمين أو المنتدبين من قبل المحكمة وعلى نفقة الدولة.

ولقد أصدرت المحكمة العسكرية العليا بمدينة الإسكندرية حكمها على أعضاء تنظيم إرهابى خطير بإعدام ثمانية (تمكن سبعة منهم من الفرار بعد ارتكاب الجرائم سواء خارج البلاد أو داخلها) وحكمت بالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة على ٢٢ آخرين. وكان المتهمون قد حكم عليهم بتلك الأحكام نظراً لقيامهم بتشكيل تنظيم إرهابى مسلح يبغى تكفير المجتمع وتعطيل الدستور وضرب شرعية الحكم. وأسماء الذين حكم عليهم بالإعدام هى:

١ - شريف حسن أحمد محمد حسن (حضورياً).
٢ - محمد شوقى الإسلامبولى (غيابياً).
٣ - مصطفى حسن أحمد حمزة (غيابياً).
٤ - رفاعى أحمد طه موسى (غيابياً).
٥ - عثمان خالد إبراهيم السمان (غيابيا).
٦ - أحمد مصطفى نواره (غيابيا).

٧ ـ طلعت فؤاد قاسم (غيابيا).
٨ ـ طلعت محمد ياسين همام (غيابيا).

ولقد صدر ذلك الحكم فى الثالث من ديسمبر عام ١٩٩٢.

الحكم بإعدام جاسوس وإرهابى:

صدر الحكم على هذا الجاسوس المصرى فى ٣ مايو عام ١٩٩٢ ويدعى محمد عبد السلام الشاهد، وذلك بواسطة المحكمة العسكرية العليا التى أوضحت أنه فى غضون عامى ١٩٩٠ و ١٩٩١ بالنمسا سعى وتخابر لدى دولة أجنبية للإضرار بمركز مصر الحربى، وسلم لدولة أجنبية سراً من أسرار الدفاع، وحرض الغير على جريمتى السعى والتخابر وقبل وأخذ من دولة أجنبية جعلاً مادياً لارتكاب عمل ضار بمصلحة قومية واشترك مع موظف فى ارتكاب جريمة تزوير معنوى واستعمل الأوراق المزورة فى الغرض المعد له،[1].

وقد تم التصديق على ذلك الحكم فى ٧ ديسمبر عام ١٩٩٢، وتم تنفيذ الحكم شنقاً فى صباح الأحد الموافق ١٣ يونيو عام ١٩٩٣ فى سجن استئناف القاهرة.

أما الإرهابى الذى حكم عليه كذلك بالإعدام، ويدعى شريف حسن أحمد حسن، فقد أدين بانضمامه لجماعة متطرفة كان غرضها تعطيل أحكام الدستور والإضرار بالسلام الاجتماعى والسعى لاغتيال مسئولين بالدولة وحيازة أسلحة ومتفجرات. وقد قدم المتهم لمحكمة عسكرية بالإسكندرية فى الثالث من ديسمبر عام ١٩٩٢ حكمت عليه بالإعدام شنقاً، وتم التصديق على الحكم فى السابع من نفس الشهر. وفى صباح يوم الأحد الثالث عشر من يونيو عام ١٩٩٣ تم تنفيذ الإعدام بسجن الاستئناف بالقاهرة.

الحكم بإعدام إرهابى اغتال ضابط أمن دولة:

حكمت المحكمة العسكرية العليا فى الثالث والعشرين من فبراير عام ١٩٩٣ بإعدام المتهم حسن شحاتة بدران، الذى اغتال نقيب الشرطة على خاطر بمدينة الإسكندرية.

---

(١) جريدة الأهرام ١٩٩٣/٦/١٤.

وكان النقيب خاطر يحاول القبض على شحاتة بعد ثبوت أدلة على قيامه بأعمال إرهابية، ولكن شحاتة استعان بأطفاله لعمل ساتر يحميه من الشرطة فأعطاه النقيب خاطر الفرصة لتسليم نفسه سلمياً، ولكن شحاتة بادر بإطلاق النار على ضابط الشرطة فقتله. وقد قدم المتهم حسن شحاتة إلى محكمة عسكرية فحكمت بإعدامه شنقاً، وتم تنفيذ الإعدام فى صباح الأربعاء ٢٣ يونيو عام ١٩٩٣.

الحكم بإعدام سبعة إرهابيين أضروا بالسياحة:

تعرض الإرهابيون لضرب السياحة المصرية معتقدين أنهم إذا ما فعلوا هذا، فإن ميزانية الدولة ستنهار مما يقربهم إلى تحقيق أهدافهم.

ولقد نسى الإرهابيون أن الدولة ليست نظاماً مادياً فحسب بل معنوى كذلك. فالدولة فى حاجة إلى ميزانية لتنفيذ خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية، وهى كذلك تعتمد على النواحى المعنوية التى تعنى أن الشعب يقف ضد أية عمليات إرهابية دموية لا تستهدف غير الأبرياء.. فإذا ما حدثت عملية إرهابية فإن الشعب المصرى المعروف أنه من أكثر الشعوب نبذاً للعنف الدموى، سرعان ما يقف ضد المجرمين وسفاكى الدماء، وهذا يعتبر نصراً معنوياً للدولة ونكسة بنفس القدر للتنظيمات الإرهابية. وهذا ما نعنيه هنا بأن للدولة كيانا معنويا ربما يكون أقوى من الكيان المادى.

إن قيام التنظيمات الإرهابية بتوجيه ضرباتها لقطاع السياحة وقتل سياح أبرياء ليس لهم أية جريرة ضد مصر أو شعبها، إنما يعد جريمة من جرائم أشخاص جردوا من صفات الرحمة والضمير.. ولا شك أن جرح أو قتل شخص برىء من قبل تنظيمات تتشدق بأنها تمثل العقيدة الإسلامية، إنما هو كذب واستهانة بعقول أكثر الناس سذاجة فى البلاد.. ولما كان ذلك هو ما حدث، فلنا أن نرى كيف يفكر قادة تلك التنظيمات، وإلى أى مدى انحدرت قواهم العقلية، وبأى قدر اختلطت أهواؤهم ورغائب نفوسهم فيشعرون بالسعادة بينما دماء الأبرياء تنزف، وسمعة بلادهم ـ التى ينتمون إليها للأسف ـ تلاك على ألسنة أشتات الأمم شرقاً وغرباً.

لقد قام الإرهابيون إذن بتسديد ضربات متتالية لقطاع السياحة المصرى، بلغت العشرات من الاعتداءات مما أسفر عن مصرع خمسة سائحين وإصابة حوالى ثلاثين

آخرين.. وقد شملت تلك الاعتداءات وضع متفجرات تحت أتوبيسات سياحية ومراكب نيلية تحمل سياحا بالإضافة إلى ضرب أتوبيسات سياحية تنقل سائحين أجانب من مناطق إقامتهم إلى المزارات السياحية.

ولقد سارعت أجهزة الأمن بتتبع أثر الجناة إلى أن تم اعتقال العشرات منهم حيث قدموا لمحاكمة عسكرية قضت فى الثانى والعشرين من أبريل عام ١٩٩٣ بإعدام سبعة إرهابيين، وبالأشغال الشاقة المؤبدة لثلاثة، وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة لثمانية، وبأحكام بالسجن على آخرين.

وأسماء من تم الحكم بإعدامهم شنقاً هى:

١ ـ بسطاوى عبد الجواد أبو المجد.
٢ ـ سعد أمين أبو المجد.
٣ ـ أشرف سعيد عبد ربه.
٤ ـ دراوى محمد إبراهيم عبد المطلب.
٥ ـ أحمد عبد الرحيم رضوان.
٦ ـ عبد الهادى الصغير عبد العظيم.
٧ ـ عبد الحميد الزقمان على.

وقد أوضحت المحكمة فى حيثيات الحكم أن تلك الجماعة الإرهابية استهدفت الإخلال بالنظام والأمن وتعريض المجتمع وسلامته للأخطار باستخدام وسائل إرهابية، وأنها نشأت على خلاف أحكام القوانين للتأثير على الاقتصاد القومى عن طريق استهداف قطاع السياحة بأعمال العنف وتعدى على السياح.

هذا وقد تم تنفيذ حكم الإعدام بالفعل فى صباح يوم الخميس الثامن من يوليو عام ١٩٩٣، وذلك بسجن الاستئناف بالقاهرة. وقد استغرقت عملية الإعدام ثلاث ساعات ونصف، وكانت قد بدأت فى الساعة السادسة صباحاً.

الحكم بإعدام إرهابى قتل ضابط شرطة:

تعرض المقدم أحمد علاء الدين (وهو من ضباط أمن الدولة) للاغتيال عصر يوم ٣

مارس ١٩٩٢، وذلك بمدينة الفيوم، وهى المدينة التى تعد موقعاً جغرافياً لبعض الإرهابيين.

ولقد استمرت تحريات الشرطة حتى تمكنت من اعتقال بعض الإرهابيين المنضمين لجماعة إرهابية تدعى جماعة الشوقيين، وإحالتهم لمحكمة أمن الدولة بالفيوم التى قضت بإعدام المتهم مرسى رمضان محمد، وقضت كذلك بأحكام الأشغال الشاقة المؤبدة على ثلاثة إرهابيين آخرين. وقد صدر ذلك الحكم فى ٢٥ مايو عام ١٩٩٣. وجاء فى حيثيات الحكم أن المحكمة أدانت الإرهابيين الأربعة، لأنهم اغتالوا مع سبق الإصرار والترصد الضابط المذكور عمداً، وقد ثبتت الأدلة عليهم.

الحكم بإعدام خمسة إرهابيين حاولوا اغتيال وزير الإعلام:

هذه كانت أول محاولة لاغتيال وزير إعلام مصرى فى مجمل تاريخ مصر الحديث.. فقد تعرض الأستاذ صفوت الشريف وزير الإعلام لمحاولة إرهابية لاغتياله قبل ظهر يوم الثلاثاء ٢٠ أبريل عام ١٩٩٣. فبالرغم من اختراق الرصاص لجسم سيارته إلا أن العناية الإلهية أنقذته.

ولقد وقع الحادث فى شارع الخليفة المأمون حيث مسكن الوزير الذى كان متوجهاً إلى مجلس الشعب.

ويذكر أن وزير الإعلام قد تبنى استراتيجية واضحة فى أجهزة الإعلام لكشف المخططات الإرهابية كان لها أكبر الأثر فى الإسراع بإقناع الرأى العام بمدى خطر التطرف وحتمية التصدى الجماعى له.

هذا، وقد أعلنت الصحف صباح اليوم التالى أن ما يسمى (الجماعة الإسلامية) قد أعلنت مسئوليتها عن الحادث الفاشل.

وقد وعد وزير الداخلية اللواء حسن الألفى بالوصول إلى الجناة، وتقديمهم للمحاكمة. وبالفعل تم القبض على عدد كبير من الإرهابيين المنضمين لجماعة الجهاد (وليس الجماعة الإسلامية التى سارعت من قبل بنسبة الحادث لأعضائها)، وكان الاعتقال بمدينة المنصورة (شمال شرق الدلتا) وقدم المتهمون إلى المحكمة العسكرية العليا التى

قضت يوم الخميس ٢٧/ ٥/ ١٩٩٣ بإعدام ستة متهمين أدانتهم بمحاولة اغتيال وزير الإعلام صفوت الشريف وإحداث تفجيرات فى القاهرة (بميدان التحرير ـ العتبة ـ أمام المتحف المصرى ـ وأمام هرم خفرع ـ وضرب أتوبيس سياحى بشارع الهرم). كذلك قضت المحكمة بالحكم المؤبد على اثنين والأشغال لمدة عشرة أعوام لمتهم واحد. وفى صباح السبت الموافق ١٧ يوليو عام ١٩٩٣ تم تنفيذ حكم الإعدام على خمسة من المتهمين (تمكن السادس من الفرار بعد تنفيذ الجرائم وحكم عليه بالإعدام غيابياً)... والمعدمون هم:

١ ـ حسن إبراهيم شلقانى.
٢ ـ إبراهيم سيد العلى.
٣ ـ أحمد حسين الحسينى.
٤ ـ طارق عبد الرازق حسن.
٥ ـ أشرف السيد إبراهيم.

وقد بدأت عمليات الإعدام فى السادسة صباحاً، وذلك بسجن الاستئناف بالقاهرة، واستمرت حتى الثامنة والنصف صباحاً.

الحكم بإعدام أربعة إرهابيين بتنظيم الشوقيين:

وقد صدر هذا الحكم من المحكمة العسكرية العليا فى ٢١ أغسطس عام ١٩٩٣، وكان من بين الأربعة المحكوم عليهم بالإعدام متهم هارب. كذلك صدرت أحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة على عشرة آخرين.

والمحكوم عليهم بالإعدام هم:

١ ـ رمضان مصطفى محمد حسن.
٢ ـ على فايد ميهوب عبد العال.
٣ ـ سيد عبد الرازق بدرى.
٤ ـ هشام محمد مسعود (هارب).

ولقد وجهت المحكمة للمتهمين تهم السطو المسلح على محلات ذهب واتهامهم بقتل

أربعة أشخاص عمداً، وكذلك الشروع فى قتل ضابط شرطة (مأمور قسم طرة) وسرقة سيارتين ودراجة بخارية وإحراز بعض الأسلحة النارية والذخائر واستخدامها بالإضافة إلى حيازتهم لمنشورات سرية تهدف إلى الترويج لفكر التنظيم غير المشروع الذى يبغى تعطيل أحكام الدستور والقانون والإضرار بسلامة المجتمع.

وقد تم فى صباح الثالث من نوفمبر عام ١٩٩٣ تنفيذ حكم الإعدام فى ثلاثة متهمين (حيث إن الرابع هارب).

الحكم بإعدام اثنين من الإرهابيين فى أحداث زينهم:

فى الثامن عشر من يوليو عام ١٩٩٣ قام بعض الإرهابيين بنصب كمين بالقرب من كوبرى زينهم نتج عنه مصرع نقيب شرطة يدعى أحمد يعقوب البلتاجى، ومواطن آخر يدعى محمد سلامة السيد، وإصابة ثمانية آخرين من المواطنين. ولقد كان الإرهابيون يقصدون «مهاجمة سيارة قائد عسكرى»[1] كما ذكر.

ولقد طارد المواطنون العاديون المجرمين حتى اعتقلتهم قوات الأمن وقدمتهم لمحاكمة عسكرية قضت فى الخامس عشر من سبتمبر عام ١٩٩٣ بإعدام اثنين من المتهمين هما محمود صلاح فهمى جاد ومصطفى عونى زكى.. والحكم بالمؤبد على أربعة آخرين.

وقد شكرت المحكمة جهود الأهالى بمنطقة زينهم لقيامهم بمتابعة الجناة حتى القبض عليهم وتسليمهم للشرطة.

الحكم بإعدام ثلاثة إرهابيين انضموا لتنظيمين إرهابيين:

قضت المحكمة العسكرية العليا صباح الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩٩٣ بإعدام ٣ إرهابيين انضموا لتنظيمين إرهابيين (تنظيم طلائع الفتح رقم ٣ وتنظيم الـ ١٩) وهؤلاء هم:

١ - يحيى مصطفى شحرور (تنظيم طلائع الفتح).

---

(١) صحيفة الأهرام المسائى ١٩/٨/١٩٩٣.

٢ ـ أحمد محمد حموده (تنظيم الـ ١٩).
٣ ـ هشام طه أحمد سليم (تنظيم الـ ١٩).

حيث كان هدفهم تعطيل الدستور والقانون وإشاعة عدم الاستقرار فى البلاد.

الحكم بإعدام ثمانية إرهابيين فى تنظيم طلائع الفتح:

أصدرت المحكمة العسكرية العليا حكماً فى الثلاثين من أكتوبر عام ١٩٩٣ بإعدام ثمانية متهمين (اثنان منهم هاربان) وذلك بعد أن انضموا لتنظيم يدعى طلائع الفتح (١) الذى اتهم بإشاعة عدم الاستقرار بالبلاد وارتكاب جرائم القتل التى أودت بحياة صبحى على السيد، وقاسم محمد عبد المنعم، وذلك عمداً مع سبق الإصرار والترصد، وهما من المواطنين الأبرياء.. بالإضافة إلى الشروع فى قتل اثنين من جنود الشرطة (بخيت محمد همام ـ وعبد الرحمن عبد الله رضوان) بعد أن أطلقوا النار عليهما بحى المعادى جنوب القاهرة.

ولقد أوضحت المحكمة أن الأدلة عديدة وهى تدين المتهمين، وأنها قد حكمت بتلك الأحكام (الإعدام لثمانية والأشغال الشاقة لمدد متفاوتة على ٢٥ آخرين) بقلب راضٍ وضمير مستريح.

هذا، والمحكوم عليهم بالإعدام هم:

١ ـ عبد الحميد محمد عبد الحميد حب الله (زعيم التنظيم).

٢ ـ فتحى إمام عبد المجيد حزين.

٣ ـ خويلد محمد بركات.

٤ ـ محمد عبد اللاه محمد.

٥ ـ ياسر كامل على (هارب).

٦ ـ رأفت محمود محمد عثمان.

٧ ـ محمد حسام أحمد الشريف.

٨ ـ محمد زين (هارب).

الحكم بإعدام إرهابى قتل الكاتب فرج فودة:

صدر حكم من محكمة أمن الدولة العليا طوارىء فى صباح الخميس ٣٠ ديسمبر عام ١٩٩٣، يقضى بإعدام المتهم الأول فى قضية اغتيال الكاتب فرج فودة، ويدعى عبد الشافى أحمد إبراهيم، كما حكمت المحكمة بالأشغال الشاقة والسجن على ٣ آخرين.

هذا وكان الكاتب فرج فودة قد اغتيل مساء يوم ٨ يونيو عام ١٩٩٢ بينما هو خارج من مكتبه بحى مدينة نصر شرق القاهرة.

الحكم بإعدام تسعة إرهابيين فى محاولة لاغتيال الدكتور عاطف صدقى رئيس الوزراء:

تمت هذه المحاولة الإرهابية الفاشلة فى صباح يوم الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٩٩٢، بعد أن وضع عدة إرهابيين عبوة متفجرة تزن عشرة كيلو جرامات من المواد شديدة الانفجار فى سيارة بها جهاز استقبال للتفجير، وقد انفجرت العبوة بالفعل بعد مرور سيارة الدكتور عاطف صدقى بأحد شوارع حى منشية البكرى بعد خروجه من منزله متوجها إلى مقر عمله.

ولم تمض عدة أيام حتى تم اعتقال الجناة، حيث قدموا لمحكمة عسكرية، حكمت فى الثالث من شهر أبريل عام ١٩٩٤ بإعدام تسعة متهمين (اتضح أن أربعة منهم هاربون). ولقد اتهمتهم المحكمة العسكرية العليا التى نظرت قضيتهم فى مدينة القاهرة بأنهم اشتركوا معاً فى ارتكاب جنايات قتل، وأنهم كانوا قد عقدوا العزم على اغتيال الدكتور عاطف صدقى رئيس الوزراء، وأنهم قد راقبوا خط سيره مراراً حتى علموا بموعد خروجه فى الصباح للذهاب إلى عمله، وقد تسبب فعلهم هذا فى قتل طفلة بريئة (شيماء محمد عبد الحليم جوده) بالإضافة إلى إصابة العديد من المواطنين. كذلك اتهمتهم المحكمة بحيازة متفجرات وأسلحة وذخائر بهدف استخدامها فى عملياتهم الإرهابية، وهى أفعال عقوبتها الإعدام شنقاً.

وهذه هى أسماء من صدرت عليهم أحكام الإعدام:

١ ـ السيد صلاح السيد سليمان محمد (حضوريا).

٢ ـ عصام محمد عبد الرحمن تونى (حضورياً).
٣ ـ نور الدين سليمان محمد على (« «).
٤ ـ أمين اسماعيل المصيلحى (« «).
٥ ـ طارق عبد النبى حسن الفحل (« «).
٦ ـ عادل السيد عبد القدوس (غيابيا).
٧ ـ ثروت صلاح شحاتة (« «).
٨ ـ ياسر توفيق على السرى (« «).
٩ ـ أحمد إسماعيل عثمان (« «).

وتعتبر محاولة اغتيال الدكتور عاطف صدقى هى المحاولة الأولى بعد آخر محاولة لاغتيال رئيس وزراء مصرى، ومنذ اغتيال النقراشى باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٨، فلم يسبق فى كل تاريخ ثورة يوليو ومنذ قيامها عام ١٩٥٢ أن تمت محاولة ولو فاشلة لاغتيال رئيس وزراء مصرى.

هذا، وقد تم تنفيذ حكم الإعدام فى المتهمين الخمسة فى صباح يوم ١٩٩٤/٥/٣، حيث استمر تنفيذ الإعدام على مدى ساعة ونصف وذلك بداخل سجن الاستئناف بالقاهرة.

الحكم بإعدام خمسة إرهابيين حاولوا اغتيال اللواء حسن الألفى وزير الداخلية:

تعرض اللواء حسن الألفى وزير الداخلية لمحاولة اغتيال إرهابية على مقربة من مقر وزارته فى صباح يوم الأربعاء الموافق ١٩ أغسطس عام ١٩٩٣، بعد أن تم تفجير عبوة ناسفة استهدفت سيارته مما أدى لقتل ثلاثة أشخاص منهم اثنان من الحراس، وإصابة حوالى خمسة عشر شخصاً آخرين. ولم يصب الألفى فى الحادث إلا إصابات طفيفة، وبعد الحادث بقليل صرح بأنه لن يغير أبداً من سياسة الحكومة ضد التطرف.. ووصف المتطرفين بأنهم قتلة سفاحون لا دين لهم.

وتعتبر محاولة اغتيال اللواء حسن الألفى المحاولة الثانية لاغتيال وزير داخلية وهو لا يزال فى منصبه بعد المحاولة الأولى الفاشلة لاغتيال اللواء زكى بدر فى ١٦ ديسمبر

عام ١٩٨٩، وقد قدم العديد من المتهمين فى تلك القضية إلى القضاء العسكرى، ولكنها أدانت ١٥ متهماً فقط حكمت على خمسة منهم بالإعدام شنقاً وبالأشغال الشاقة على ثلاثة، والسجن من ٣ ـ ٥ سنوات على سبعة آخرين. وتلك هى أسماء من قضت المحكمة بإعدامهم:

١ ـ محمد رشاد عبد الحميد حجازى.
٢ ـ محمد عبد العليم محمود خليفة.
٣ ـ مسعود العارف إبراهيم.
٤ ـ طارق أحمد عبد الصمد.
٥ ـ أسامة محمد رشاد.

وقد صدر هذا الحكم يوم السبت الموافق ١٦ يوليو عام ١٩٩٤ بواسطة المحكمة العسكرية العليا بالقاهرة.

المراجع

المراجع العربية

١ ـ قصص الأنبياء ـ للحافظ ابن كثير ـ تحقيق محمد أحمد عبد العزيز ـ دار الحديث للنشر ـ القاهرة.

٢ ـ القانون الجنائى عند الفراعنة ـ الدكتور عبد الرحيم صدقى محمد حسنى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٦.

٣ ـ مصر القديمة ـ سليم حسن (وكما جاء فى كتاب دروس فى تاريخ القانون المصرى ـ الدكتور محمد عبد الهادى الشقنقيرى ـ الجزء الأول ١٩٩٣).

٤ ـ على هامش التاريخ المصرى القديم ـ عبد القادر حمزة ـ كتاب الشعب القاهرة ١٩٥٧.

٥ ـ انتصار الحضارة ـ تاريخ الشرق القديم ـ جيمس هنرى برستيد ترجمة الدكتور أحمد فخرى ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة.

٦ ـ حكماء وادى النيل ـ محمد العزب موسى ـ كتاب اليوم ـ يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم ـ نوفمبر ١٩٩٠.

٧ ـ مصر الفرعونية ـ الدكتور أحمد فخرى ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٠ ـ القاهرة.

٨ ـ مصر فى العصور القديمة ـ تأليف إبراهيم نمر سيف الدين ـ زكى على ـ أحمد نجيب هاشم ـ طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة.

٩ ـ مجتمعات تحت حصار الطغيان ـ عبد الحكيم العفيفى ـ الزهراء للإعلام العربى ١٩٩٢ ـ القاهرة.

١٠ ـ الموسوعة الأثرية العالمية ـ إشراف ليوناردو كوتريل ـ تأليف ٤٨ عالماً أثرياً ـ ترجمة الدكتور محمد عبد القادر محمد، والدكتور زكى اسكندر ـ مراجعة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧.

١١ ـ تاريخ مصر الفرعونية والشرق الأدنى القديم ـ الدكتور محمد بيومى مهران ـ ١٩٨٥ ـ القاهرة.

١٢ ـ المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ ابن إياس ـ كتاب الشعب ـ ١٩٦١.

١٣ ـ تاريخ الحضارة المصرية ـ العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي ـ المجلد الثاني ـ تأليف نخبة من العلماء ـ مكتبة مصر ـ القاهرة .

١٤ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها ـ ابن دقماق ـ منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ـ بيروت .

١٥ ـ مقدمة ابن خلدون ـ كتاب الشعب ـ دار الشعب ـ القاهرة .

١٦ ـ سيرة أحمد بن طولون ـ أبي محمد البلوي ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة .

١٧ ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ـ الدكتور حسن إبراهيم حسن ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٨٧ .

١٨ ـ المقريزي ـ إغاثة الأمة بكشف الغمة (كما ورد بكتاب تاريخ الحضارة المصرية ـ المجلد الثاني ـ مكتبة مصر بالفجالة) .

١٩ ـ المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار ـ تقي الدين المقريزي ـ جزءان مكتبة الثقافة الدينية .

٢٠ ـ تاريخ الخلفاء ـ للإمام الحافظ السيوطي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ١٩٦٩ .

٢١ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ابن تغري بردي .

٢٢ ـ الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ـ محمد عبد الله عنان ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٣ ـ الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ ودار الرفاعي بالرياض .

٢٣ ـ الحشاشون ـ فرقة ثورية في تاريخ الإسلام ـ تأليف برنارد لويس ـ ترجمة محمد العزب موسى ـ منشورات دار المشرق العربي الكبير ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى عام ١٩٨٠ .

٢٤ ـ الصراع بين العرب وأوروبا ـ الدكتور عبدالعظيم رمضان ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ .

٢٥ ـ صليبية إلى الأبد ـ عبدالفتاح عبدالمقصود ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٥ .

٢٦ ـ تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ـ نقولا يوسف ـ مطبعة التحرير ـ القاهرة ١٩٥٩ .

٢٧ ـ التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي ـ الدكتور نظير حسان سعداوي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٥٧ .

٢٨ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ ابن خلدون ـ المجلد الخامس ـ القسم الأول ـ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ١٩٨١ .

٢٩ ـ كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ـ تأليف الشيخ الإمام شهاب الدين المقدسى الشافعى ـ الجزء الأول ـ مطبعة وادى النيل بمصر ـ القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٣٠ ـ نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ـ تأليف عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطى ـ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين على ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة ١٩٨٧ .

٣١ ـ ابن الأثير ـ الكامل فى التاريخ ـ الجزء التاسع ـ حوادث سنة ٦٢٦ هـ .

٣٢ ـ مصر والشام والصليبيين ـ الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ـ الطبعة الثانية ١٩٨٢م .

٣٣ ـ الظاهر بيبرس ـ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ـ أعلام العرب المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة .

٣٤ ـ مختار الأخبار ـ تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٢٠ هـ ـ تأليف بيبرس المنصورى نائب السلطنة فى مصر ـ حققه الدكتور عبدالحميد صالح حمدان ـ الناشر الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ .

٣٥ ـ قيام دولة المماليك الثانية ـ الدكتور حكيم أمين عبد الستار ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٦ .

٣٦ ـ المختار من تاريخ الجبرتى ـ اختيار محمد قنديل البقلى ـ كتاب الشعب ـ ١١ جزءاً ـ القاهرة .

٣٧ ـ مصر العثمانية ـ جرجى زيدان ـ تحقيق الدكتور محمد حربى ـ دار الهلال ـ القاهرة ١٩٥٤ .

٣٨ ـ الوجود العثمانى المملوكى فى مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ـ الدكتور عراقى يوسف محمد ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٥ .

٣٩ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ تأليف الأستاذ محمد فريد بك المحامى ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٧٧ .

٤٠ ـ تاريخ مصر السياسى من الحملة الفرنسية إلى انهيار الملكية ـ تأليف أمين سعيد .

٤١ ـ مصر: الثورة العرابية ـ عبد الرحمن الرافعى ـ دراسات قومية ـ مركز النيل للإعلام ـ القاهرة.
٤٢ ـ تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة ـ تأليف محمد رفعت ـ وزارة المعارف العمومية ـ المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٤٧.
٤٣ ـ دنشواى ـ الدكتور محمد جمال الدين المسدى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤.
٤٤ ـ الجرائم السياسية ـ أنور العمروسى المحامى ـ الجزء الأول ـ مطبعة البرلمان بميدان محمد على الكبير بمصر.
٤٥ ـ البحث عن الذات ـ محمد أنور السادات ـ المكتب المصرى الحديث ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ أكتوبر عام ١٩٧٩.
٤٦ ـ صحيفة الأهرام ١٩٩٣/٦/١٤ ـ مؤسسة الأهرام ـ القاهرة.
٤٧ ـ صحيفة الأهرام المسائى ـ ١٩٩٣/٨/١٩ ـ مؤسسة الأهرام ـ القاهرة.

***

المراجع الأجنبية

1 - The Encyclopedia Americana - International Edition - Grolier Incorporated 1982 Volume 10, 12 - printed In The U. S. A.
2 - The Execution Protocol - Stephen Trombley Arrow Edition 1993 - Printed In Great Britain.

الفهـــــــرس

موسوعة
تاريخ الإعدام السياسى
فى مصر



إن تلك العداوة التي تصيب بعضا من بني البشر كل يوم، لا يجب أن تدفعنا لليأس أو للدهشة (وإن اعترفنا بشعورنا بالحزن والألم) عندما نراها تحدث بداخل البنيان السياسي للدولة وتتجسد في ظاهرة خطرة هي ظاهرة العنف السياسي.

فالعنف السياسي ليس إلا خللا في «فكر» معتنقيه وخاصة إذا كان عنفا فرديا يرفضه التيار العام من الناس .. ولهذا فعلينا دائما أن نتحلى بالثقة التامة بأن ذلك العنف الفردي مقضى عليه بالفشل .. فلم نقرأ على مدى تاريخ البشر أن مجتمعا من المجتمعات قد تغير بالعنف الفردي، لأنه طالما بقيت الكتلة الكبرى من المجتمع سليمة فإن العمل الفردي لن ينالها بأذى.

إن دراسة تاريخ ظاهرة الإعدام السياسي في مصر - كأقدم مجتمع بشري - يمدنا ليس فقط بعدد هائل من حالات الإعدام وطرق تنفيذها وسرعة تتابعها .. ولكن كذلك يظهر لنا تاريخ العنف السياسي في مجمل تاريخ مصر، حقبة في أعقاب حقبة، وعصرا وراء عصر وعلى امتداد ما يزيد على خمسين قرنا من الزمن.



الناشر

عبد الحكيم العفيفى

موسوعة الاعدام السياسى

مدبولى الصغير

DES. KAMEL GRAPHICS